

T
130A
pt.1

الحضارة العربية في المشرق في عهد السلاجقة
(٤٤٧هـ - ٥٦٢هـ / ١٠٥٥م - ١١٧١م)
بالاستناد الى سير الرجال في ذلك العهد بصفة خاصة

عبدالله محمد أبوعـزة

أطروحة مقدمة الى دائرة التاريخ في الجامعة الاميركية في بيروت
لاتمام المطلوب للحصول على درجة استاذ في الاداب
بيروت - لبنان
أيار ١٩٦٩

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

Thesis Title:

Arab Culture in the East Under the Saljuks
(447A.H./1055A.D. - 567A.H./1171A.D.)
with Special Reference to the Personalities
of the Period

By

Abdallah Abu Izzah

(Name of Student)

Approved:

C.K. Zurayk

Advisor

K.S. Salibi

Member of Committee

M. Zayid

Member of Committee

N.A. Ziadeh

Member of Committee

Date of Thesis Presentation: 26.5.1969.

T
130A
pt.1

الحضارة العربية في المشرق في عهد السلاجقة
(٤٤٧هـ - ٥٦٧هـ / ١٠٥٥م - ١١٧١م)
بالاستناد الى سير الرجال في ذلك العهد بصفة خاصة

عبدالله محمد أبوعزة

أطروحة مقدمة الى دائرة التاريخ في الجامعة الاميركية في بيروت
لاتمام المطلوب للحصول على درجة استاذ في الاداب
بيروت - لبنان
أيار ١٩٦٩

November 4, 1968

NOTICE TO GRADUATE STUDENTS

The Board of Graduate Studies in its meeting on November 1, 1968, decided that all graduate students must include the following "Thesis Release Form" to appear on a separate page of each thesis:

"THESIS RELEASE FORM"
American University of Beirut

I, Abdallah Mohammad Abu Izzah:

☒

authorize the American University of Beirut to supply copies of my thesis to libraries or individuals upon request.

☐

do not authorize the American University of Beirut to supply copies of my thesis to libraries or individuals.

A. Abu Izzah
Signature

26.5.1969.
Date

Emile Rubeiz
Assistant Registrar

خلاصة

غرضنا في هذه الدراسة هو محاولة استجلاء أوضاع الحضارة العربية في العهد السلجوقي . ومن أهم مظاهر الحضارة ، في رأينا ،

- ١- أساليب تنظيم المجتمع لشئونه الادارية .
- ٢- الافكار الاساسية التي تعتنقها جمهرة الناس ، وجهود المعاصرين في ميدان اكتساب العلم ونشره ، ومقدار المنجزات الفكرية والادبية ومستواها النوعي .
- ٣- العلاقات الاجتماعية ، ومدى تماسك وتعاون الافراد والجماعات في سبيل الخير العام .
- ٤- الاحوال الاقتصادية ، خاصة في حقول الزراعة والتجارة والصناعة .
- ٥- مقدار ومستوى المنجزات الفنية التي انتجتها الحضارة المعنية ، وما تنطوى عليه هذه المنجزات من قيم جمالية .

ولقد حاولت ان استجلي الواقع الحضاري لهذه الفترة من سير رجالها ، بيد ان نقص المعلومات التي عثرت عليها ، بالنسبة للحياة الاقتصادية والحياة الفنية خاصة ، جعل من الضروري ان استعين بمصادر أخرى .

وصلت جموع السلاجقة الى بغداد قبيل منتصف القرن الخامس الهجري باسم انقاذ الخلافة السنية . وما لبث سلاطينهم ان فرضوا سيطرتهم على العراق والجزيرة وبلاد الشام . ومنذئذ أصبحت أوضاع الحكم والادارة على النحو التالي :

١- الخليفة العباسي في بغداد هو رأس الخلافة والسلطنة والامة جميعا ، وذلك من الناحية النظرية .

٢- السلطان السلجوقي رأس السلطنة ، والمسيطر الفعلي على الدولة

والخلافة جميعا ، بالرغم من ان حكمه وممارسته لسلطاته كان يعتبر

— من الناحية النظرية — تولية وتفويضاً من الخليفة .

وظلت أوضاع السلطنة مستقرة ، كما ظلت الخلافة خاضعة للسلاجقة حتى وفاة

السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ ، واذ ذاك انفجر الصراع بين أبناء الاسرة السلجوقية وأتباعهم ، للاستئثار بمنصب السلطنة ، وبدأت الخلافة تعمل على استرداد شيء من نفوذها وهيبتها ، وبذلك صارت تدخل طرفا في النزاعات ، من حين لآخر . وظل الصراع شبه مستمر بين المعسكرات السلجوقية المتعاركة الى ما بعد نهاية الفترة التي ندرسها . وقد استطاعت الخلافة ان تتحرر من نفوذ السلاجقة نهائيا بعيد وفاة السلطان مسعود سنة ٥٤٧ هـ ، وصارت لها السلطة والتفوق في العراق .

وقد تمثلت المؤسسات الادارية في العهد السلجوقي - فضلا عن منصبى الخلافة والسلطنة - في ولاية الاقاليم والوزارة والقضاء ، وفي الادارة المالية ، ونظام البريد ، ووظائف الشحنة ، والعميد ، والطغرائي ، والمحتسب ، ووظائف أخرى أقل أهمية .

وفي أثناء فترة الاضطراب الذى خيم على السلطنة السلجوقية استطاع كثيرون من ولاة الاقاليم الاستقلال عن السلطنة ، وظهرت عدة قوى اقليمية ، كان أهمها الدويلات الاتاكية الزنكية .

وقد استطاع الزنكيون ان يساهموا بدور كبير في مكافحة الصليبيين الغزاة ، الذين سهل عليهم ضعف السلطنة السلجوقية اجتياح أجزاء من البلاد الشامية ، وتأسيس بضع دويلات صليبية على أراضيها .

وقد غلب الطابع الديني على الحياة العقلية ، وانشغل المفكرون بأمور نظرية شكلية دار حولها صراع عنيف ، وانقسم الناس حيا لها مذاهب وفرق ، بينما لم تلق المشاكل التي حطمت الكيان العام عناية تذكر . ومع ذلك فقد شهد هذا العصر نشاطا علميا واسعا ، وحركة تعليمية كان أبرز مظاهرها انتشار المدارس في معظم مدن المنطقة العربية السلجوقية .

أما في ميدان الحياة الاجتماعية فكان الحكام ، ومن يدورون
في فلكهم ، هم الطبقة ذات الجاه والشراف والنفوذ ، يليهم كبار
رجال الدين . بينما عاش عامة الناس في بؤس ، في أكثر الاوقات ،
وعانوا من الظلم والحرمان . وبرزت في الحياة الاجتماعية ظاهرة
تفكك المجتمع ، وضاق نطاق الشعور بوحدة الامة ، فكان في غاية
الضعف .

ولقيت الحياة الاقتصادية قدرا من العناية من جانب الحكام ،
فشهدت انتعاشا جديرا بالتنويه . هذا بالرغم مما تعرضت له
الزراعة والتجارة من معوقات وتخريب في بعض الاحيان .
كذلك شهد العصر السلجوقي نهضة في كثير من نواحي الفنون ،
كفن العمارة ، والنحت على الحجر والجص ، والحفر على الخشب
وزخرفته ، وزخرفة الخزف والفخار ، وصناعة التحف المعدنية ،
وزخرفة المنسوجات ، والتأنيق في زخرفة الخط العربي .
ورغم منجزات هذه الحضارة ، المتمثلة في انتشار المدارس ،
وضخامة عدد المؤلفات التي خلفتها لنساء وتقدير المعاصرين
للعلم ، وما بذل من جهد في سبيل اصلاح الري ، واقامة
خزانات المياه على طرق القوافل ، وما بذله الاتابكة في سبيل
رد الغزو الخارجي ، فان الحضارة العربية في العهد السلجوقي
كانت في حالة تقهقر .

المحتويات

١	أولاً : مقدمة
	الفصل الاول
١٥	ثانياً : الحضارة العربية قبل عصر السلاجقة
	الفصل الثاني
	ثالثاً : نظم الحكم والادارة
٣٠	١- الخلافة
٣٩	٢- السلطنة
٤٦	٣- العلاقة بين الخليفة والسلطان
٦٢	٤- الحكم في الاقاليم
٦٣	أ - العراق
٦٥	ب - الموصل
٦٧	ج - حلب
٧٠	د - دمشق
٧١	هـ - ولاية الاقاليم
٧٥	٥- الوزارة
٨٣	٦- المؤسسات القضائية
٨٣	أ - القضاء
٨٩	ب - النظر في المظالم
٩١	ج - الشهود
٩٢	د - الوكلاء أو المحامون
٩٤	٧- الادارة المالية
٩٥	أ - دخل الدوائر الحاكمة
١٠٨	ب - المصروفات

١١٤	٨- الحسبة
١١٦	٩- البريد
١٢٠	١٠- الشحنة
١٢٤	١١- صاحب الشرطة
١٢٥	١٢- وظائف أخرى

الفصل الثالث

الحياة العقلية

ثالثاً

١٣٣	١- ملامحها العامة
١٣٨	٢- اهتمامات المفكرين
١٤٧	٣- الحركة العلمية
١٤٩	أ - انتعاش الحركة العلمية
١٥٩	ب - التعليم وانتشار المدارس

الفصل الرابع

الحياة الاجتماعية

رابعاً

١٧١	١- فئات المجتمع
١٧٣	أ - الطبقة الحاكمة
١٧٩	ب - رجال الدين
١٩٢	ج - المرأة
١٩٤	د - أهل الذمة
٢٠٠	هـ - الاشراف
٢٠٣	و - القبائل البدوية
٢٠٤	ز - الارقاء
٢٠٨	ح - العامة

٢١٠	٢- بعض مظاهر الحياة الاجتماعية
٢١١	١ - العيارون والاحداث
٢١٩	ب - تكتل أهل الاحياء
٢٢٢	ج - بعض مظاهر اللهو

الفصل الخامس

خامساً: الحياة الاقتصادية

٢٢٨	١- الزراعة
٢٣٦	٢- التجارة
٢٤٩	٣- الصناعة

الفصل السادس

سادساً: الحياة الفنية

٢٥٧	١- فن العمارة
٢٦٠	٢- النحت على الحجر والجص
٢٦٤	٣- الحفر على الخشب وزخرفته
٢٦٥	٤- زخرفة الخزف والفخار
٢٦٨	٥- التحف المعدنية
٢٧٠	٦- زخرفة المنسوجات
٢٧٣	٧- الخط العربي وزخرفته

الفصل السابع

٢٨٠	سابعاً: محاولة لتكوين الحضارة العربية في العصر السلجوقي
-----	---

— — —

ثامناً: قائمة المصادر والمراجع •

١٠٠

مقدمة

تناولت في هذه الدراسة الحضارة العربية في المشرق في عهد السلاجقة ، فحددت اطارها المكاني بالبلاد العربية التي خضعت للحكم السلجوقي ، وهي العراق وبلاد الجزيرة وبلاد الشام . اما الحدود الزمنية فقد جعلت بدأها من دخول السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م ، حيث غدوا اعظم قوة سياسية وعسكرية في حياة الخلافة العباسية وحياة المنطقة العربية المشرقية ، وجعلت نهايتها عند ظهور صلاح الدين الايوبي ، واعادته مصر الى احضان الخلافة العباسية ، سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م ، وتأسيسه الدولة الايوبية التي اصبحت في عهده اهم قوة عسكرية وسياسية في المنطقة العربية المشرقية .

والواقع ان الذي يروم دراسة التاريخ الحضارى ينبغي ان يضع في حسابه ان طريقة بالغ الصعوبة ، عظيم الوعورة ، ذلك ان المؤرخين من اسلافنا وجهوا عنايتهم - في الغالب - لتدوين اخبار الحكام ، والاحداث السياسية التي يعنمها هؤلاء الحكام او يشاركون في صنعها . اما النواحي الحضارية فلا تاتي في كتاباتهم الا بطريقة عرضية غفوية . واذنا ما سجل احد مؤرخينا القدامي احكاما عامة على بعض جوانب الحياة الحضارية ، فان احكامه غالبا ما تتسم بالتعميم المفرط الذي يضل الباحث ان سارع الى تبنيه . لذلك فان دراسة حضارية كهذه لا بد ان تعتمد على عمله استقراء واسعة ، تستخلص منها صورة الحضارة كما كانت في عالم الواقع .

ولقد عولت في المرحلة الاولى من قيامي بهذه الدراسة على محاولة جمع المعلومات اللازمة من سير الرجال ، باعتبار ان نشاط الرجال مظهر عام من مظاهر الحضارة ، وفي سيرهم تتلخص الافكار والقيم التي تمثلها . وعلى ذلك وجهت همتي نحو رحلة طويلة خلال كتب التراجم ، وما دخل في معناها . وحرصا على استجلاء الواقع اردت ان اعتمد على سير الرجال الذين عاشوا في هذه الفترة بالذات ، فاهملت الذين توفوا في اوائلها ولم اعتبر منهم سوى من عاش فيها عشر سنوات على الاقل . ومن ناحية اخرى تركت سير اولئك الذين توفوا بعد نهاية فترتنا باكثر من عشرين سنة . على هذا الاساس بدأت بحثي في سير رجال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري والثلاثين ارباع الاول من القرن السادس .

وكانت اول الصعوبات التي جوهت بها عدم معرفة تواريخ وفاة الكثيرين من الاعيان

المرجمين ، اذ ان مصنفى كتب الرجال ، مع اهتمام اكثرهم بذكر تاريخ الوفاة ، كثيرا ما يغفلون هذه الناحية ، لجهلهم بسنة وفاة المترجم ، كما ان بعضهم لا يهتم بذكر سنة الوفاة اصلا . والذي نتج عن هذا الوضع انني لم استطع الاستفادة من سير عدد كبير من الرجال ، لانني لا استطيع نسبتهم الى العصر السلجوقي دون سند .

وقد حاولت التغلب على هذه العقبة بالاعتماد على الشواهد الباطنية ، اى ورود ذكر شخص معروف ، او حادث مشهور كان المترجم له على صلة به ، كأن يذكر ، مثلا ، انه اتصل باحد الخلفاء او الامراء ، او اخذ العلم عن احد المشاهير ، الى غير ذلك . بيد ان هذا وان اسعفني فى تعيين الازمنة التى عاش فيها بعض المترجمين فانه لم يمكني معرفة ذلك بالنسبة للاكثرين . وحين كنت اعرف ان للمترجم مصنفات كنت الجأ الى فهرس المصنفين ، كما لجأت كتاب الاعلام للزركلي . ورغم كل هذا فلم استطع التحقق الا من زمن حياة عدد قليل من الكثرة التى لم تذكرتواريخ وفياتها .

وبدا لي ان اجعل لكل واحد من الايمان المترجمين بطاقة خاصة ابين فيها اختصاصاته والكتب التى ألفها ، ان كان من اهل العلم والبلاد التى عاش فيها او رحل اليها ، ظنا مني باننى ساتمكن ، عن طريق هذه البطاقات ، من عمل جدول احصائي للعلماء ومصنفاتهم ، احدد فيه نسب المختصين ونسب المؤلفات فى كل فرع من فروع المعرفة . وقد توقعت الا يزيد عدد البطاقات عن اربعمائة بطاقة ، مثلا ، غير انني كففت عن المحاولة بعد ان تبين لي انها لن تصل بي الى نتيجة صحيحة ، ولو يشكل تقريسي ، وذلك لسببين : اولهما ان عدد المجاهيل ، اى الذين لم اعرف العصر الذى عاشوا فيه ، كان كبيرا ، وهذا يعني ان كثيرا من ايمان العصر السلجوقي سيظلون خارج احصائنا . وثانيهما يتعلق بالمؤلفات ، ففى بعض الاحيان يذكر المترجمون عدد مصنفات المترجم له واسماءها ومواضيعها ، واحيانا يقولون ان له مصنفات كثيرة ، ويذكرون واحدا منها او اثنين ويغفلون البقية ، وحينما آخر يقولون ان للمترجم مئات المصنفات ، فى فنون شتى ، دون ان يذكروا عدد ما او مواضيعها او اسم اى منها .

كل ذلك جعل الحديث عن عمل احصائيات دقيقة ضربا من الخيال . ولقد حذرت من ان اذكر ارقاما تعتمد على احصاء مشوب بهذا النقص الفادح ، لانها تعطي انطباعا بعيدا عن الواقع رغم ان عدد البطاقات التى هياتها بلغ الفا ومئة بطاقة . وقد توقفت عن عمل مزيد من البطاقات عندما وصلت الى هذه القناعة .

اما عن المادة التي عثرت عليها في كتب التراجم فقد كانت وفسيرة من حيث كميتها ، غير انها كانت محدودة التنوع ، ذلك انني لم اجد معلومات كافية فيما يتعلق ببعض مواضيع هذا البحث وكانت المعلومات عن مواضيع التجارة والزراعة والصناعة والفنون من القلة لدرجة لا تمكن من كتابة صفحة واحدة عن الموضوع . والسبب في ذلك ان معظم مصنفى كتب الرجال ركزوا اهتمامهم على نواحي تخصص الاشخاص الذين يترجمون لهم ، وكان اهتمامهم بالسياسة وعلوم الدين والادب يستغرق القسم الاكبر مما كتبوا . فالذى يترجم للمحدثين يهتم بذكر ان المترجم له روى عن فلان وفلان . . . الخ ، وروى عنه فلان وفلان . . . الخ . والذي يترجم للشعراء نادرا ما يهتم بغير الشعر . وهذا القول ، ينطبق ، بنسبة اواخرى ، على معظم كتب التراجم .

ولقد ترددت في العدول عن فكرة الاعتماد على كتب التراجم دون غيرها ، بيد ان تيقني من تعذر الحصول على المعلومات الكافية من هذه المصادر قطع ذلك التردد ، فحزمت امرى على اللجوء الى كتب التاريخ العامة ، وغيرها مما يتعلق بموضوع هذا البحث .

ورغم حرصى الشديد على الاستناد الى الوقائع التي جرت ضمن حدود العهد السلجوقي فقد اضطررت ، فيما يتعلق بالزراعة والصناعة ، الى الرجوع الى بعض مصنفات القرن الرابع الهجرى بيد انني فعلت ذلك فى حدود الضرورة ، ولم ابن على تلك المعلومات المتقدمة زمنيا احكاما قطعية اما ما يتعلق بموضوع الفنون فلم اجد فى المصادر سوى مادة ضئيلة ، فلم اجد غضاضة فى الاستناد الى بعض المراجع الحديثة المتخصصة ، وذلك لسببين :

١- ان هذه المراجع تصف وتستند الى مخلفات اثرية محفوظة فى المتاحف ، لا يستطيع الوصول اليها . وهذه المخلفات من انتاج العصر السلجوقي نفسه ، وهي ، بهذا الاعتبار ، وثائق مادية بالغة الاهمية .

٢- ان كاتب هذه السطور يفتقر الى قدرة ذوى الاختصاص فى نقد الاعمال الفنية .

وساتحدث الان بشئ من التفصيل عن اهم المصادر التي اعتمدت عليها . وساتناول المؤلف ، باعتبار انه هو المصدر ، فابيض الفرص التي توفرت له حتى اعطى صفة كونه مصدرا . ومن هذه

القرص مشاهدته المباشرة للاحداث ومعاصرتة لها ، او قرينه ممن شاهدوها ، وسعه علمه ، واتصالاته واسفاره ، ومدى حياده او تحيزه ، ومقدار دقته او غويته ، ومدى اهميته بالنسبة لبحثنا .

والواقع ان تحديد مدى استفادة الباحث من بعض كتب التراجم ربما يفصح عنه بعبارة عامة ، ذلك لان بعض هذه الكتب استفدت منها فائدة قليلة من حيث كميتها ، لكنها موزعة في اكثر الفصول . فقد اكون استندت الى احد المصادر في عشر نقاط فقط ، وفي هذا البحث كله ، لكن هذه النقاط العشرة لاتجتمع منها اثنتان في موضوع واحد . ففي مثل هذه الحالة ساكون مضطرا للتعبير عن مقدار الاستفادة بعبارة : وقد استفدت من هذا المصدر استفادة محدودة ، مثلا . غير انني ساحرص على بيان مقدار الاعتماد على المصادر وبيان الفصول التي كان للمصدر اهمية في صياغتها كلما كان ذلك ممكنا .

وتنقسم المصادر التي اعتمدنا عليها الى بضعه انواع ، اهمها كتب التراجم ، ثم كتب التاريخ العامة ، وكتب تاريخ بعض المدن ، وبعض كتب الرحلات ، وعددا من الكتب التي تبحث في العقائد .

اولا : كتب التراجم :

ابن خلكان ، شمس الدين ابو العباس احمد (٦٠٨ هـ / ١٢١١ م — ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) كان والد ابن خلكان مدرسا في اربيل ، وقد تلقى احمد العلم عن والده . ثم انتقل شمس الدين الى حلب ، وتوجه بعد اربع سنوات الى القاهرة والاسكندرية . وبعد عودته الى دمشق شغل منصب قاضي القضاة . وحين عزل من منصبه عاد الى القاهرة ، واشتغل بالتدريس في المدرسة الفخرية . وخلال سبع سنوات من عمله هذا استطاع ان يؤلف كتابه الشهير . وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ولا تعود اهمية هذا المؤلف الى دقة مصنفه ونقده للروايات وسعة اطلاعه فحسب ، بل ولانه لم يحصر نفسه في تراجم صنف معين من اهل الاختصاص ، بل تناول ملوكا وامراء وقضاة وفقهاء ، وشعراء واطباء وفلاسفة ومتصوفة وخطاطين وغير ذلك ، وقد استفدت من هذا المصدر في اكثر فصول هذا البحث خاصة الفصل المتعلق بنظم الحكم والادارة ، وموضوع الحياة الاجتماعية ، والحياة العقلية .

ابن عساكر ، ابو القاسم علي بن الحسن (٤٩٩ هـ / ١١٠٦ م — ٥٧١ هـ / ١١٧٥ م) كان ابن عساكر محدث الشام في عصره ، ومن اعيان فقهاء المذهب الشافعي . وقد طوف البلاد في

طلب الحديث ، وكان على صلة ببعض أكابر أهل العلم ، كالسمعاني ، الذي رافقه في أسفاره . وقد نسب إلى ابن عساكر عدد من المصنفات يهمنها منها كتابه التاريخ الكبير ، الذي ألفه على نسق كتاب تاريخ بغداد ، للخطيب البغدادي . وبمصاب ابن عساكر كتاب تراجم بالدرجة الأولى ، باستثناء الجزء الأول منه . ففي الجزء الأول يصف مساجد دمشق ومدارسها ومشاهدها ودروبها وأقتنياتها وغير ذلك . وقد استفدنا منه في هذه الناحية ، في الفصل المتعلق بالحياة العقلية . أما بقية الأجزاء فتورد تراجم أعيان الدمشقيين ، أو الذين دخلوا دمشق . ورغم اهتمام ابن عساكر بالمحدثين بالدرجة الأولى ، إلا أنه يترجم لغير المحدثين من رجال الحكم والعام والادب . وأهمية ابن عساكر لموضوعنا ، فوق علمه بطرائق نقد الحديث التي ساعدته على نقد الروايات التاريخية ، أنه عاش كل حياته تقريباً ، في العصر السلجوقي . ورغم أن تراجمه قصيرة ، ففي الغالب ، إلا أننا استفدنا منه في كثير من فصول هذا البحث .

ياقوت الحموي الرومي (٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م — ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م) . كان ياقوت أغريقي المولد ، وقع في رق تاجر حموي الأصل من سكان بغداد وهو صغير . وقد علمه سيده ، ثم صار يرسله في تجارته إلى مختلف الاقطار . وقد سافر ياقوت إلى كثير من البلاد الشرقية قبل وبعد تحرره من الرق . وابتدحت له فرصة الإقامة مدة سنتين في مدينة مرو ، عاكفاً على نهل العلم من مكباتها الغنية ، ثم فرأى أمام أخبار الزحف المغولي فاستقر في الموصل ، ثم انتقل إلى حلب . وقد استفاد ياقوت من أسفاره الواسعة ، واتصل بكثير من علماء عصره . وصنف عدداً من الكتب يهمنها منها هنا كتاب معجم الأدباء . وقد أفدت منه في موضوع الحياة الاجتماعية ، والحياة العقلية ، وفي عدد آخر من المواضيع .

ابن العديم ، كمال الدين عمر بن أحمد (٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م — ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م) .
عاش ابن العديم في عصر عاصر بالمؤرخين والعلماء والمدرسين . ومن التقى بهم وصاحبهم وأفاد منهم وأفادهم ياقوت الحموي ، والقفطي ، وابن خلكان . وابن العديم ينتمي إلى أسرة كثر منها العلماء والقضاة والأدباء وكتاب الخط . وقد أخذ كمال الدين من كل علم من علوم عصره بطرف ، وكانت له مكانة مرموقة في بلده ، خاصة عند الملك الظاهر غازي ، صاحب حلب . وقد سافر ابن العديم وهو صغير بصحبة والده إلى دمشق وبيت المقدس ، ولما كبر سافر إلى مصر والعراق واجتمع بالعلماء والأدباء فيهما . وسافر كمال الدين بين الحكام ، إذ أرسله الملك الناصر يوسف ، صاحب دمشق ، في مهمة إلى بلاط الخليفة المستعصم ، كما وفد على مصر رسولاً من صاحب دمشق ، يطلب النجدة على التتار . كل هذا يبين لنا سعة اتصالات ابن العديم وسعة

افق معلوماته • ويهنا من مصنفات ابن العديم كتابان ، سنذكر احدهما هنا ، وهو كتاب بغية
الطلب في تاريخ حلب ، الذي مازال مخطوطا في احدى مكتبات استنبول. ويضم هذا الكتاب
تراجم الحلبيين ، او الذين زاروا حلب ، ومن بينهم عدد ليس بالقليل ممن عاشوا في العصر
السلجوقي • وكما فعل ابن خلكان وابن عساكر ، لم يحصر ابن العديم تراجمه في نوع واحد من
انواع التخصص ، بل ذكر طوائف من رجال الحكم والعلم والادب وغيرهم • وقد افدنا من كتاب ابن
العديم في عدة مواضع ، نظرا لتنوع اعيانه الذين يترجم لهم •

السبكي ، تاج الدين عبد الوهاب بن علي (٧٢٢ هـ / ١٣٢٧ م - ٧٧١ هـ / ١٢٧٠ م)
مصرى المولد ، تلقى العلم بمصر اولا ، ثم رحل الى الشام وتلقى عن علمائها وخالط الكثيرين منهم
وامعن في طلب الحديث وواظب على الاشتغال بالفقه واصول الدين واللغة العربية واجاد في الخط
والنثر والنظم واصبح مفتيا وتولى التدريس في معظم مدارس دمشق ، وتولى الاشراف على دار الحديث ثم
اصبح رئيسا للقضاة بالشام • وللسبكي عدد من المصنفات يهنا منها كتاب طبقات الشافعية
الكبرى • ويهنا من هذا الكتاب المجلد الرابع ، الذي ترجم فيه لرجال القرنين الخامس والسادس
من اعيان الشافعية • ورغم ان السبكي متأخر عن العصر الذي ندرسه ، الا ان سعة اطلاعه ومقدرته
النقدية تجعل تراجمه مصدرا هاما من مصادر العصر السلجوقي • وتراجم السبكي موسعة ، وفي اغلب
الاحيان ، تضم معلومات متنوعة • وقد افدنا منه في عدة مواضع ، خاصة في الحياة العقلية ، وفي نظم
الحكم والادارة •

القنطي ، جمال الدين ابو الحسن علي بن يوسف (٥٦٨ هـ / ١١٧٣ م - ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م)
ولد القنطي في بلدة ققط ، بصعيد مصر • وقد بلغ والده مرتبة الوزارة عندما استوزره الملك الاشرف
موسى ، صاحب حران ، وسافر علي بصحبة والده ، وانتهى به الامر الى ان استقر بحلب ، وسها
توفي ودفن • وقد اجتمع القنطي بعدد من علماء حلب ، واستفاد منهم وافادهم • ثم انه شغل
بالكتب ، واقتنى منها الكثير ، حتى ان قيمة كتبه عند وفاته قدرت بخمسين الف دينار • وقد
استوزره الامير ميمون القصرى ، صاحب حلب ، على كره منه • وعند وفاة ميمون اعتزل ، ولكنه ألزم
بالعودة الى الديوان من جديد • وكان علي متبحرا في علوم النجوم والهندسة والتاريخ والجرح والتعديل • وقد صنف
عددا كبيرا من المصنفات يهنا منها اثنان :

١- انباء الرواة على انباء النجاة ، وهو يضم تراجم لمشاهير النحويين ، ومن ضمنهم عدد كبير من نحوي العصر السلجوقي . ونظرا لتعدد تخصصات العلماء فقد كان بين مترجميه من اعيان العصر السلجوقي اناس اختصوا بالحديث والكلام والشعر والتاريخ والتنجيم . وقد استفدت من هذا الكتاب خاصة في موضوع الحياة العقلية ، والحياة الاجتماعية .

٢- اخبار العلماء بأخبار الحكماء : وقد ترجم فيه للاطباء والفلاسفة الذين عرفت اخبارهم في ايامه . ولكن المنتخبين منهم الى العصر السلجوقي قليلون ، لا يزيدون عن بضعة عشر . وقد استفدت من هذا الكتاب في موضوع الحياة العقلية .

السمعاني ، عبد الكريم بن محمد بن منصور (٥٠٦ هـ / ١١١٢ م / ١١٦٢ هـ / ١١٦٧ م) كان السمعاني من اشهر رجال عصره ، بل والعصور التي تلته ، وقد لاحظت ان كثيرا من المؤرخين ومصنفي كتب التراجم ينقلون عنه . وكان رحالا في طلب الحديث ، دار العراق والحجاز والموصل والجزيرة والشام وخراسان والجبالي وما وراء النهر ، وغيرها من البلاد ، ويقال ان عدة شيوخه بلغست اربعة الاف . وقد صنف كثيرا من الكتب ، يهنا منها كتاب الانساب . وقد ذكر ابن خلكان ان ما كان بايدي الناس من هذا الكتاب في ايامه مختصر من الاصل . ولعله هو الذي وصل الى ايدينا . وهو ليس بكتاب تراجم ، غير انه يحتوى على عدد كبير من التراجم ، ومن ضمنها عدد كبير من تراجم اعيان العصر السلجوقي الذي كان المؤلف واحدا من علمائه . ورغم قصر تراجمه فقد استفدت منها واستندت اليها في نقاط متناثرة خلال مواضع هذا البحث .

ابن ابي يعلى الفراء ، محمد بن محمد (٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م — ٥٢٦ هـ / ١١٣٢ م) وهو ابن القاضي ابي يعلى الفراء ، صاحب الاحكام السلطانية ، وكبير الحنابلة في عصره سمع ابن ابي يعلى الحديث ومرع في الفقه وافق وناظر ، وكان عارفا بالمذهب الحنبلي ، وصنف عددا من الكتب ، يهنا منها كتابه طبقات الحنابلة ، خاصة الجزء الثاني منه ، لان المترجمين في الجزء الاول ينتمون الى عصور سابقة . واهمية هذا المصدر بالنسبة لموضوعنا انه عاش كل حياته ضمن العصر السلجوقي ، فضلا عن انه كان من اهل العلم ، وقد ترجم لرجال عاصروه ، وعرفهم عن كثب في اغلب الاحوال . وابن ابي يعلى ، الحنبلي المتعصب ، يغالي في تشويه صورة خصوم مذهبه كما يبالغ في رفع شان الحنابلة ، ورغم ذلك فان الباحث يستطيع ان يتجنب مزالقة ، وان يستخلص منه صورة حية لتفكير الحنابلة الذين كانوا اقوى الجماعات المذهبية السنية ، من حيث عدد هم وقوتهم

وقد افادنا هذا الكتاب في معرفة صراع مذاهب السنة ، وفي موضوع الحياة العقلية بشكل عام .

ابن رجب ، ابو الفرج عبد الرحمن بن احمد (ت ٧٩٥ هـ / ١٣٩٣ م)

بغدادى الاصل والمولد ، سافر الى دمشق صبيًا ، وسمع بها ، كما سافر الى مصر والحجاز وسمع بهما . وقد اخذ عن المشاهير في عصره امثال الشيخ زين الدين العراقي وابن قيم الجوزية . وقد برع ابن رجب في الفقه وفي فروع علم الحديث . وترك لنا عبد الرحمن مؤلفات كثيرة يهمننا منها كتاب الذيل على طبقات الحنابلة ، الذى ذيل فيه على كتاب ابن ابي يعلى ، المذكور قبله . ويضم المجلد الاول من هذا الكتاب سبعة وتسعين ترجمة لايان الحنابلة الذين توفوا كلهم بين سنتي ٤٦٠ هـ - ٥٤٠ هـ باستثناء الترجمات الاربعة الاخيرة التى لم تذكر تواريخ وفاة اصحابها . وهو ينحونحو ابن ابي يعلى في تشديده النكير على خصوم الحنابلة ، ومدحه للاصحاب ، وقد استفدنا منه في معرفة صراع اتباع المذاهب السنية ، وفي دراسة الحياة العقلية ودرجة اقل في مواضيع اخرى .

الكاتب الاصفهاني ، محمد بن محمد ، الملقب بالعماد (٥١٩ هـ / ١١٢٥ م - ٥٩٧ هـ /

١٢٠١ م) . تفقه العماد في المدرسة النظامية ببغداد ، وكان يلقي غاية من الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة ، الذى ولاه النظر في البصرة ، ثم في واسط . وبعد وفاة ابن هبيرة تعرض الكاتب الاصفهاني للاذى ، ثم انتقل الى بلاد الشام ودخل خدمة نور الدين محمود . وعندما سطع نجم صلاح الدين الايوبي امسى العماد لصيقا به . وقد ترك الاصفهاني عددا من التصانيف يهمننا منها اثنان ، سنذكر احدهما ضمن كتب التراجم ، وهو كتاب غريدة القصر وجريدة العصر ، الذى ترجم فيه للشعراء الذين عاشوا في القرن السادس ، حتى سنة ٥٧٢ هـ / ١٢٧٧ م .

لقد عاش العماد في العصر السلجوقي ، وانخرط في الاعمال الحكومية ، وتولى الوظائف واتصل بالحكام والايان ومدحهم ، وكان عمه العزيز من كبار الاداريين في الدولة السلجوقية ، وقد نقل العماد عن عمه الكثير من اخبار الحياة السياسية . والعماد ، في كتابه هذا ، معنى بالشعر والشعراء ، وهو يركز على حشد نماذج من اشعار المترجم لهم . اما الترجمة فلا تعدو بضعة سطور مرصعة بالسجع الذى لا يفيد المؤرخ شيئا . لذلك فقد كانت استفادتنا من هذا الكتاب محدودة المقدار ، وفي نقاط قليلة جدا ، لكنها متناثرة في مواضيع هذا البحث .

ابن أبي الوفاء ، عبد القادر بن محمد بن محمد (٦٢٦ هـ / ١٢٢٧ م - ٧٢٥ هـ / ١٣٢٣ م)

ولد في القاهرة ، وسها توفي ، وتلقى العلم عن أئمة عصره وسمع بمكة . وكان ابن أبي الوفاء جامعاً للعلوم ، كما يقول اللكنوي ، وقد بلغ درجة الافتاء ، وتولى التدريس ، وصنف عدداً من الكتب في تأييد المذهب الحنفي والدفاع عنه . وسهنا كتابه الجواهر المضية في طبقات الحنفية ورغم أنه يتضمن عدداً كبيراً من تراجم الأحناف الذين عاشوا في العصر السلجوقي إلا أنه تراجمه يغلب عليها الاختصار الشديد . وقد استفدت من هذا الكتاب في موضوع القضاء ، كما أنني استندت إليه في عدة نقاط من هذا البحث ، لكنها قليلة ومتناثرة .

ابن أبي أصيبعة ، موفق الدين أبو العباس أحمد (٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م - ٦٦٨ هـ /

١٢٢٠ م) . ولد في دمشق ، وكان والده كحالا ، أي طبيب عيون . بدأ دراسته الطبية في دمشق ثم سافر إلى مصر لاستكمالها ، والتحق بالمدرستان الناصرية ، الذي أنشأه صلاح الدين الأيوبي . وهناك اتصل بالطبيب المشهور ابن البيطار . وقد ترك لنا موفق الدين مؤلفه الفريد في نوعه وأهميته ، وهو كتاب عيون الأنبياء في طبقات الأطباء . وقد استطعت أن أميز عدداً قليلاً من الأطباء الذين عاشوا في العصر السلجوقي من بين تراجمه التي تزيد على أربعماية . بيد أن تراجم ابن أبي أصيبعة مطولة وأقية ، وقد استفدت منها في موضوع الحياة العقلية . واستندت إليها في نقاط قليلة أخرى متفرقة .

كتب التاريخ العام :

ابن الأثير ، عز الدين علي بن محمد (٥٩٠ هـ / ١١٦٠ م - ٦٣٠ هـ / ١٢٣٤ م) . ولد

ابن الأثير في جزيرة ابن عمر في منطقة الموصل ، وأبها ينسب أحياناً . وقد تلقى تعليمه في الموصل وعاش فيها معظم حياته ، بيد أنه سافر في طلب الحديث والتاريخ معاً ، فورد بغداد عدة مرات وذهب إلى القدس وحج إلى مكة . وقد احتل الحياة السياسية وعكف على العلم ، وأصبح بيته مجمع العلماء وقبلة القاصدين منهم . وقد قابله ابن خلكان في حلب وأثنى على تواضعه . عاش ابن الأثير طفولته في أواخر العهد السلجوقي ، ولكنه نقل الكثير من المعلومات عن والده وأقاربه ومعارفه الذين عاشوا الأحداث وعاصروها وكانوا من الأعيان البارزين . هذا فضلاً عن أسفاره الكثيرة ، واستفادته من علماء عصره . ومن سبقوه . وسهنا من مصنفات ابن الأثير العديدة كتابان : أولهما كتابه الضخم : الكامل في التاريخ ، وقد استفدنا من أربع من مجلداته ، إذ

افادنا المجلد الثامن بمعلومات عن المعهد البويهى ، وكذلك القسم الاكبر من المجلد التاسع
اما بقية المجلد التاسع والمجلدان العاشر والحادى عشر فقد اعتمدنا عليها فى معظم فصول
هذا البحث ، واكثر مواضعه .

ابن الجوزى ، ابو الفرج عبد الرحمن (٥١٠هـ / ١١١٦م - ٥٩٧هـ / ١٢٠١م) .
الامام ابن الجوزى بغدادى ، عاش حياته فى بغداد ، واصبح من المع شخصياتها العلمية والدينية ،
وكان اكبر فقهاء الحنابلة فى عصره . وكان الخلفاء والوزراء يحضرون مجالس وعظه ، وقد حظى عند
بعض الخلفاء والوزراء كما اخبر هو نفسه . وترك ابن الجوزى عددا ضخما من المصنفات ، فى
مواضيع شتى ، وقد استفدنا من بعضها فى بحثنا ، بيد ان اهمها بالنسبة الينا هو كتاب المنظوم
فى تاريخ الملوك والامم . ويقع هذا الكتاب فى عشر مجلدات ، الا ان ما تعلق منه بهذا البحث
هى المجلدات الثلاثة الاخيرة فقط . وتاريخ ابن الجوزى ، رغم عنوانه الذى يوحي بالشمول ، يركز
بصفة خاصة على البلاد العراقية ، خاصة بغداد ، بيد انه يخرج من هذه الدائرة احيانا ، والواقع
ان بامكاننا ان نعتبر كتاب ابن الجوزى كتاب تراجم ايضا ، اذ انه يخصص ، بعد احداث كل سنة
حيزا لتراجم الاعيان المتوفين فيها يفوق ما يخصصه للاحداث الجارية . وقد بلغ عدد الاعيان الذين
ترجم لهم ممن توفوا بين سنتي ٤٥٧هـ / ٥٧٤هـ تسعمائة وثلاثة وثلاثين شخصا ، معظمهم من
العراقيين ، لكن فيهم نسبة قليلة من خارج العراق . وكانت المجلدات الثلاثة التى اشرنا اليها من
كتابه من اهم المصادر التى اعتمدنا عليها فى جميع فصول هذا البحث .

من كتب الرحلات :

ابن جبير ، ابو الحسن محمد بن احمد (٥٣٩هـ / ١١٤٥م - ٦١٤هـ / ١٢١٧م)
قام ابن جبير ، الاندلسي ، برحلة قصد فيها الحج الى مكة ، وابتدأ رحلته اواخر سنة ٥٧٨هـ /
١١٨٣م ، حيث ركب البحر الى الاسكندرية ، ثم توجه الى صعيد مصر ، وركب البحر ثانية من ميناء
عذاب على البحر الاحمر الى جدة ، على الشاطئ الحجازى . وبعد الحج رافق قافلة الحج
العراقية ، فمر بالعراق من جنوبه الى شماله ، ومنطقة الموصل وحلب ودمشق ، ثم اجتاز الحدود
مع الصليبيين برفقة قافلة تجارية ووصل الى ميناء عكا ، وزار مدينة صور التى كانت تحت حكم
الصليبيين ، ثم ركب البحر عائدا الى بلاده ، وختم رحلته فى المحرم من عام ٥٨١هـ / ١١٨٥م .
وبهنا من رحلته وصفه لمشاهداته فى بلاد العراق والجزيرة والشام ، بما فى ذلك المناطق

الصليبية التي زارها • وابن جبير مصنف دقيق الحص ، محقق لا يقبل بالروايات على علانها • وقد ذكر انه كان يسمع بان عيين زمزم تزيد مياها في ايام محددة من موسم الحج رغم كثرة ما يؤخذ منها فقاها هو واصحابه قبل ان تحل تلك الايام • ثم قاسها ثانية في اثنائها • فوجد انها تنقص ولا تزيد • ورحلة ابن جبير من اهم المصادر التي اعتمدت عليها في جميع فصول هذا البحث تقريباً ، خاصة في مواضيع الزراعة والتجارة والصناعة والفنون ، التي ضنت علينا كتب التراجم بالمعلومات الكافية عنها • ورغم بلاغة ابن جبير فانه كثيرا ما يحاول الاستدراك على تعميماته ويحدها •

مصادر اخرى متنوعة

ابن القلانسي • حمزه بن علي بن محمد (ت ٥٥٥هـ / ١١٦٠م) • كان حمزه احدى الشخصيات الهامة بمدينة دمشق ورئيس الديوان فيها • وقد ذيل على تاريخ دمشق الذي ألفه هلال الصابي ، وسمى كتابه : ذيل تاريخ دمشق • ويبدأ الجزء الذي وصل الينا من هذا الكتاب بالتاريخ لاحداث سنة ٣٦٣ هـ ، وينتهي قبيل وفاة المؤلف • وقد افدت من هذا الكتاب بالنسبة لاحداث البلاد الشامية عامة ودمشق بصفة خاصة • ومع ذلك فانه قد يخرج احيانا من هذه الدائرة ، فيذكر احداثا وقعت خارج بلاد الشام • واهمية هذا المؤرخ انه عاش حياته كلها في العصر السلجوقي ، وشهد الاحداث بنفسه ، واعصرها ونقلها عن قرب • وهو دقيق ومعتدل فسي احكامه •

ابن العديم • كمال الدين عمر (٥٨٨هـ / ١١٩٢م - ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م) وقد تحدثنا عن ابن العديم قبل قليل • لابن العديم كتاب آخر ، هو كتاب زبدة الحلب من تاريخ حلب • وهو كتاب يعني بتاريخ مدينة حلب من اقدم الازمنة حتى نهاية العهد الذي ندرسه • ولكنه يتعرض لاحداث بلاد الشام بصفة عامة وبعض الاحداث الخارجية • ويسير المؤلف في كتابه على النظام السنوي • وقد افدنا من القسم الاخير من المجلد الاول ، ومن المجلد الثاني بكامله • وقد اعتمدنا عليه في معرفة اوضاع مدينة حلب من عهد المرداسيين وفي العهد التي تلتها ، وافدنا منه في فهم الصراعات السياسية بين الامراء العرب والحكام المسلمين ، وبين هؤلاء من ناحية والصليبيين من ناحية اخرى • كما افدنا منه فيما يتعلق باخبار جماعات الاحداث ، وغير ذلك ما يرى القارى اشارة اليه في حواشي صفحات هذا البحث •

ابن الاثير ، عز الدين علي بن محمد (٥٥٥هـ / ١١٦٠ - ٦٣٠هـ / ١٢٣٢ م) .

وقد تحدثنا عن شخصيته . والكتاب الثاني الذى يهمنى من كتبه هو كتاب التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية . وهو مخصص ، كما هو واضح من عنوانه ، لتاريخ الاتابكة فى الموصل وحلب ودمشق . بيد ان المؤرخ الكبير يسقط هنا ضحية الاسراف فى مدح رعاته ملوك الموصل واسلافهم ، وذلك بشكسل ظاهر لا يخطئه الناقد . ورغم ذلك فقد استفدت من هذا الكتاب فى اكثر فصول هذا البحث متجنباً اتباعه فى مدائحه واحكامه ، الا اذا صدقت تلك الاحكام مصادر اخرى لم تنقل عنه .

الغزالي ، حجة الاسلام ابو حامد محمد بن محمد (٤٥٠هـ / ١٠٥٨ م - ٥٠٥هـ / ١١١٢ م)

تلقى الغزالي العلم بطوس ، مسقط راسه ، ثم انتقل الى نيسابور ، حيث اخذ عن امام الحرمين الجويني ، وتخرج عليه ، وصرع فى مذهب الشافعي ، وفى الخلاف والجدل واصل الفقه والدين ، وفى المنطق والفلسفة . وقد ارسله الوزير نظام الملك مدرسا فى المدرسة النظامية ببغداد ، فظل سنوات ، ثم مال الى الزهد والتصوف . والغزالي اشهر من ان يحتاج الى تعريف . وقد خلف عددا كبيرا من المؤلفات ، استفدنا بطائفة منها :

١- المنقذ من الضلال روى الغزالي فى هذا الكتاب قصة انتقاله من الايمان بطريقة الفقهاء الى الايمان بالتصوف . وقد استفدنا منه فى موضوع الحياة العقلية .

٢- فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة : وفى هذا الكتاب خطأ الغزالي غلو معاصريه فى تكفير بعضهم بعضا ، وبين الحدود التى يمكن أن يعد المسلم كافرا اذا تخطاها ، وذلك من وجهة نظره ، بطبيعة الحال ، وقد استفدنا من هذا الكتاب فى موضوع الصراع بين اهل الفرق والمذاهب ، والحياة العقلية بصفة عامة .

٣- فضائح الباطنية : وقد خصصه لكشف سوءات اتباع المذهب الاسماعيلي ، ودحض حجج الخلافة الفاطمية وانصارها . وقد استفدنا منه فى حدود معرفة شيء عن الاسماعيليين .

٤- وقد استفدنا من الجزء الاول من كتابه احياء علوم الدين ، خاصة فى موضوع الحياة العقلية .

الشهرستاني ، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م) •
تلقى الشهرستاني العلم بطوس ، ونبغ منذ كان يافعاً ، وطوف بالبلاد الإسلامية ، ثم حج عندما
بلغ الثلاثين ، ومعهها سافر إلى بغداد وتولى التدريس في المدرسة النظامية لمدة سنوات
ثلاث • وكان الشهرستاني متضلعا في الفلسفة إلى جانب سعة معلوماته الفقهية ، ومعرفته
بالمعائد والأديان • وبهنا من مؤلفاته الكثيرة كتابه الملل والنحل • وقد استفدنا من
هذا الكتاب في موضوع الفرق الإسلامية ، خاصة ما يتعلق بفرقة الاسماعيلية •

وهناك عدد كبير من المصادر الأخرى التي استفدت منها في بعض جوانب هذا
البحث لا أجد ضرورة إلى إطالة هذه المقدمة بالحديث عنها ، سيجدها القارئ ضمن قائمة
المصادر والمراجع ، وسلاحظ ذكرها في حواشي هذا البحث •

ومهما قلنا عن دقة المؤرخين الذين اعتمدنا على مصنفاتهم فإنهم جميعا ، تقريباً
يشترون في قبول الروايات المتعلقة بالخوارق والمعجزات المنسوبة إلى المتصوفة والعباد والزهاد
أما فيما عدا ذلك فالغالب هو تحري الدقة والنقد •

الفصل الاول

الحضارة العربية
قبل عصر السلاجقة

الحضارة العربية قبل عصر السلاجقة

اتسمت حياة الدولة العربية الاسلامية الاولى التي أسسها نبي صلى الله عليه وسلم سنة ست مئة وثلثين وعشرين للميلاد بالبساطة ، سواء من الناحية السياسية او الادارية او الاجتماعية . لقد شمل سلطان تلك الدولة - في بداية عهده - بلدة يثرب فقط ، ولكنه أخذ يتسع ، فيفرض ظله على القبائل الضاربة في البوادي المحيطة بالمدينة الى ان تيسر للمسلمين فتح مكه والطائف ، ثم الامتداد الى معظم مناطق شبه الجزيرة العربية . وكان هذا السلطان معنويا اكثر منه فعليا ، اذ لم يكن للدولة الجديدة جهاز اداري متغلغل في تلك النواحي ، كما لم يكن للنبي ممثلون يمارسون السلطة نيابة عنه في المناطق القبلية خارج الحجاز ، وان كان قد اشتهر عنه انه ارسل بعض العمال ليمثلوا سلطة الدولة الجديدة في بعض المناطق . وقد تمثل خضوع القبائل في مجي وفود من شيوخها الى الرسول صلوات الله عليه ، تعلن ولاها وطاعتها . وليس اذل على ضعف ذلك الولاء من الانتفاض السريع في ما عرف بالردة ، التي تطلب اخمادها معارك وضحايا تفوق ما سبقها في حياة الرسول . وكانت غالبية سكان شبه الجزيرة من البدو والرعاة الرحل الذين كان الرعي والغزو محور حياتهم . أما القسم الاخر منهم فقد عاشوا في الحواضر الصغيرة ، كمكة والمدينة والطائف ، وبعض الواحات ، يمارسون الزراعة البسيطة التي تسمح بها التربة والاحوا الشحيحة ، كما احترف بعضهم - خاصة أهل مكة - التجارة . على ان المزارعين والتجار لم يتخلصوا من أثر البداوة المحيطة بهم ، والتي تحدت منها أصولهم ، فكانوا يشاركونها في كثير من العادات والتصورات ، والنظرة العامة للحياة . وبعد وفاة المصطفى (ص) بدأت حركة الفتوح والتوسع التي امتدت طوال فترة تقارب مئة سنة ، تخللتها بعض اوقات من التراخي ، او التوقف الكامل ، نتيجة لما نشب من صراع داخلي . ثم ان زخم حركة الفتوح ما لبث ان خمد ، بسبب كثير من العوامل الذاتية والخارجية .

وقبل وفاة النبي (ص) كان هو الحاكم وهو المشرع ، باعتبار انه يتلقى كلمة الله مباشرة ويبلغها للناس ، ويحدد لهم طرائق حياتهم ومواقفهم . وبغيابه عن مسرح الحياة اصبح من

واجب خلفائه ، وقادة المجتمع الجديد ان يعتمدوا على أنفسهم في قضايا التشريع والادارة .
وتحقيقا لذلك جعلوا مصدر أحكامهم ونبراس تصرفاتهم كتاب الله ، وسنة رسوله ، أى ما وعته
الذاكرة من أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله .

وعندما بلغت حركة الفتوح مداها كان العرب قد سيطروا على بلاد الشام والشمال
الافريقي والاندلس ، كما فرضوا سلطانهم على بلاد فارس ، وأواسط آسيا ، وأطراف الهند . لقد
خرجوا من بيئتهم الصحراوية المحدودة الافق وخضعت لهم بلاد اصطيفت قرونا طويلة بطابع
الحضارة الهلنستية ، فضلا عن استيلائهم على مواطن الحضارة الساسانية . وهكذا حلوا
في بيئات تفوقهم في العلم والثقافة والفنون ، ولديها من النظم الادارية وأجهزة الحكم ما لم
يعرفوه . وحيث ان العرب لم تكن لديهم نظم ادارية بديلة ، ولا جهاز من الموظفين يخلف
موظفي العهد البائدة ، فقد أبقوا الاوضاع على ما كانت عليه في معظم جوانب الحياة .

كذلك وجد العرب المسلمون في مواطنهم الجديدة ثقافات وفلسفات ، وعلوم ومهارات ،
لم تكن معروفة لديهم ، فنتج عن ذلك بدء عملية الاقتباس والترجمة ، فضلا عن التأثر الثقافي .
وقد ظل العرب طوال عهد الخلفاء الراشدين والعهد الاموى من بعده ، في عزلة نسبية
عن الشعوب التي حكموها ، اذ انهم بقوا جنودا وحكاما . ولكن هذا الانغلاق ظل ينفرج
ببطء الى ان زال بزوال الحكم الاموى ، الذى كان قد استند الى العنصر العربي بالدرجة
الاولى . ومعجي العباسيين انفتحت الشعوب بعضها على بعض ، سيما وأن جو الصدمة
قد زال ، وأن الاجيال التي شهدت معارك الفتوح قد انطوت ، فأخذت هذه الشعوب
تتبادل ما لديها من تراث ومعارف وخبرات وثقافات .

واستلزمت الظروف الجديدة مواجهة كثير من المشاكل الادارية والدينية التي لم
تكن موجودة في العهد النبوى ، وتطلبت مواجهة هذه المشاكل قدرا من التفكير والاجتهاد .
وأدى اختلاط العرب بغيرهم من الشعوب ودخول الكثيرين من العرب وغيرهم في الاسلام الى
اختلافات في فهم النصوص القرآنية وتفسيرها . زد على ذلك ان القرآن لم يجي بنظام مفصل شامل للنظم الحياتية

البشرية ، من سياسية واجتماعية ، اذ تضمن — في كثير من الحالات — مجرد مبادئ عامة ،
تحتل وجوها من التفسير وتتسع لأكبر من صورة من صور التطبيق . ومن هنا استشعر قادة
المجتمع الجديد ضرورة العثور على الاجابات المنقعة لكل التساؤلات حول المسالك التي تتفق
مع المثل العليا للامة ، النابعة من المبادئ القرآنية .

وتحقيقا لهذه الغاية ظهرت حركة علمية ما لبثت ان نمت واتسعت ، فقد اعتنى العلماء
بالسيرة النبوية لفهم القرآن الكريم والسنة معاً ، واهتموا بتاريخ الامم والاديان السابقة التي
تعرف لها القرآن ، كما اهتموا بتاريخ العرب السابق على النحوات . ثم ان دخول الكثيرين
من الاعاجم في الاسلام واختلال المعرفة باللغة من جراء ذلك وجه العلماء الى دراسة الشعر
الجاهلي ، باعتباره النموذج العربي المبرر من عدوى العجمة ، وهو الذي تحدد على صوته
معاني الفاظ القرآن الكريم . ونظرا لان الصحابة رضوان الله عليهم هم الذين شاهدوا
الرسول ورافقوه ، وشاركوه جهاده ، فقد أصبحت أخبارهم وسيرهم موضع اهتمام الباحثين ،
الامر الذي أدى الى ظهور كتب الطبقات .

سارت النهضة الحضارية — اذن — في ثلاثة اتجاهات :

- ١- توسع سياسي هائل ، وتوحيد سياسي لعدد كبير من الشعوب
- ٢- اقتباس واستفادة من تراث الحضارات السالفة واكتساب علومها وفنونها
- ٣- حركة علمية ذاتية ، نابعة من الاصل الاسلامي ، تصوغ الاوضاع الجديدة في
قالب يرضاء الاسلام .

بيد ان النهضة الحضارية العربية لم تسر في هذه الاتجاهات الثلاثة بسرعة
متساوية ، كما ان ثمار هذه الجهود لم تنضج كلها في وقت واحد . وبالمثل فان ذيولها
وانهيارها حدث في اوقات مختلفة .

فالتوسع السياسي ، وعملية التوحيد ، وقيام الدولة النيرة المستقرة الشريفة كان هو السابق
من حيث النضج ومن حيث الذبول والانحيار . أما العلوم العربية ، الدينية واللغوية ، وأما الفلسفة
والثقافة والفنون والصناعات ، فقد تأخر نضجها ، نظرا لان نموها وتطورها يستغرق وقتا أطول مما

يحتاجه التطور السياسي ، ونظرا لانها بدأت بعد انتهاء فتح معظم ما فتح من أقطار . لقد كان القرنان الاول والثاني هما عصر القوة والازدهار من الناحية السياسية . ثم تهدمت الوحدة السياسية ، وخارت قوى الدولة منذ النصف الاول من القرن الثالث الهجرى . ومن ناحية اخرى كان القرنان الثالث والرابع للهجرة هما اللذان بلغ فيها رقي الفكر والعلوم والفنون والصناعات ذروة الازدهار .

لقد بدأت عوامل الهدم على شكل صراع سياسي على الحكم اندلع منذ اغتيال الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، واستمر الصراع فأدى الى سقوط الامويين وقيام دولة بني العباس سنة ١٣٢هـ / ٧٥٠م . وكان قيام الدولة الاموية في الاندلس (١٣٨هـ / ٧٥٦م) هو أول انقسام واع وعلمي للوحدة السياسية للامة . وبعد ذلك بسنوات نشأت في المغرب الأقصى دولة الادارسة العلويين (١٧٢هـ / ٧٨٨م) ، وكانت كل من هاتين الدولتين مستقلة تماما عن الخلافة العباسية .

ومن ناحية أخرى كان أمراء الولايات المعينون من قبل الخلفاء العباسيين يحرمون على تأسيس اسرات حاكمة شبه مستقلة ، لا تربطها بالسلطة المركزية في بغداد سوى بعد الشكليات ، كالخطبة والسكة . ومن هذه الامارات شبه المستقلة امارة الاغالبة التي قامت في شمال أفريقيا سنة ١٨٤هـ / ٨٠٠م ، وامارة الطولونيين في مصر (٢٥٤هـ / ٨٦٨م) ، ومن بعدهم امارة الاخشيديين (٣٢٣هـ / ٩٣٥م) . وفي القسم الشرقي من أراضي الخلافة نشأت الامارة الطاهرية سنة ٢٠٥هـ / ٨٢٠م ، وخلفتها الامارة الصفارية (٢٥٤هـ / ٨٦٨م) ، ثم الامارة السامانية عام ٢٦٦هـ / ٨٧٤م ، وتفرعت عن هذه الاخيرة الدولة الغزنوية (٣٥١هـ / ٩٦٢م) .

وقد استطاع دعاة الشيعة ان يؤسسوا الدولة الفاطمية في المغرب ، وأن يقضوا على الامارة الاغلبية الموالية للعباسيين سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٩م ، ثم تمكنوا من انتزاع مصر نفسها من سلطان الخليفة العباسي سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م . ولم تكن هذه الدولة الجديدة مستقلة عن الخلافة العباسية فحسب ، بل كانت مناوئة لها ومزاحمة في ما ادعته كل من هاتين الاسرتين أحقيتها بالاستئثار بمنصب الخلافة . وما لبث الخليفة الفاطمي ، المعز لدين الله ، ان نقل مركز حكمه الى مصر ، وجعل القاهرة ، التي بناها قائده جوهر الصقلي ، عاصمة للخلافة الفاطمية ، التي تحدث العباسيين وانتزعت منهم بلاد الشام .

ولوان الامراقتصر على الانحلال السياسي لكيان الدولة الواحد اذن لبيان الخطب ، ولأمكن

التغلب على العلل التي اصابته الخلافة العباسية ، بيد ان هذا الانحلال السياسي لم يكن الا مظهرا لانحلال روح الامة وتفرق المجتمع بحيث لم يعد قادرا على اصلاح نظامه السياسي .

فقبل ان يتم العرب انجازهم الكبير ^(١) تأسيس الحضارة العربية الاسلامية استطاع حدائهم ان يقودوهم صفا واحدا ، يجمعهم الولاء للامة والعقيدة والقيادة السياسية . ولكن الاطماع ما لبثت ان سيطرت على النفوس ، وغدا شعور كثيرين من الافراد برغباتهم وتطلعاتهم الشخصية اكبر من شعورهم بمصلحة الجماعة ومستقبلها وتطلعاتها ، وهكذا بدأ التفرق في داخل النفوس ، وتلاه التفرق السياسي ، ثم اخذ هذان النوعان من الانحلال يتفاعلان فيزيد كل منهما في حدة الاخر .

وكما تفتقت بلاد الخلافة الى دول وامارات تقطعت الامة فرقا ومذاهب وشيعا واحزابا زاد عنف الصراع في تباعدها وتناكرها وتجاهدها . فالصراع الذي اندلع بين علي ومعاوية خلف فرقة الخوارج ، وفرقة الشيعة ، ثم ظهرت فرقة المرجئة في العهد الاموي . كذلك ظهرت فرق الجبرية ، والقدرية ، والمعتزلة ، والاشاعرة والماتريدية . وقد تشعبت بعض هذه الفرق الى عدد من الشعب . وكانت الاختلافات في الرأي تدور حول مسائل سياسية واعتقادية ، كمسألة الخلافة ومسألة مرثكب الكبيرة ومسألة القدر وغير ذلك . ولقد رعى الكثيرون من اتباع الفرق مخالفتهم بالكفر وابعاحوا دماءهم ، الامر الذي زاد من حدة الصراع وعمق الانقسام .

وهكذا تقطعت واصر الوحدة الشعورية في الامة ، وتفرقت اوصال الكيان السياسي لدولة الخلافة ، وعم الصراع ميداني الفكر والحكم . وقد بدأ هذا الانقسام منذ ايام الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، كما ذكرنا ، وظلت دائرته تتسع حتى شملت كل اقاليم الدولة تقريبا .

ورغم ما تسببه اخبار التفرق السياسي والاجتماعي والفكري من الم للباحث والقارى على السواء ، فان هذا الشعور بالالم ينبغي الا يصرفنا عن ادراك ان ذلك التفرق لم يعدم بعض اثر ايجابي ، ذلك ان تعدد الحكام وصراعهم المستمر دفعهم الى التسابق في رعاية العلماء والادباء والشعراء ،

سعيًا وراء الذكر الحسن ، وما يمكن أن يجنى من ورائه من نفوذ سياسي . هذا فضلا عن أن تعدد الفرق والمذاهب يساعد على تحريك العقول وشحن الأفكار في سبيل الدفاع عن الآراء المعتمدة ونشرها ، ودحض الآراء المخالفة والقضاء عليها .

وبجانب هذه الفرق تأسست مذاهب فرقة أهل السنة الأربعة ، الحنفي نسبة إلى أبي حنيفة النعمان بن ثابت (ت ١٥٠ هـ) ، والمالكي نسبة إلى مالك بن أنس (ت ١٧٩ هـ) ، والشافعي ، نسبة لمحمد بن إدريس الشافعي (ت ٢٠٤ هـ) ، والحنبلي ، نسبة لأحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ) . فضلا عن مذاهب سنية أخرى لم تعمر طويلا ، كذهب الأوزاعي ، نسبة للإمام عبدالرحمن الأوزاعي (ت ١٥٢ هـ) والمذهب الجبري ، نسبة للإمام محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ) .

ورغم أن التنافس بين هذه المذاهب لم يبلغ حدة الصراع بين بعض الفرق التي ذكرنا ، فإنها ، أي المذاهب ، ولدت روح التقليد والجمود ، حتى غدت قيودا لا انعتاق منها . وقد تشدد الكثيرون من اتباع هذه المذاهب في اعتقاداتهم حتى قادهم التزمّت إلى محاولة الحجر على آراء مخالفيهم من المذاهب السنية الأخرى .

وعندما تولى المتوكل الخلافة سنة ٢٢٢ هـ القى بكل ثقله ضد المعتزلة ، انصار حرية الفكر والامارة ، ومن يومها اشتد التضييق عليهم إلى أن اختفوا من الميدان نهائيا .

ولكن فترات الاستقرار السياسي النسبي التي شهدتها الدولة في المدة الواقعة بين وفاة النبي وارتقاء المتوكل كل عرش الخلافة العباسية هيأت الفرصة المناسبة لإنجازات في ميادين العلوم والفنون والصناعات ، والفكر والأدب ، وقد ظهرت هذه الإنجازات في أقوى صورها خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة ، أي بعد أن أصبح التمزق الاجتماعي والسياسي ظاهرا للعيان . ويبدو لي أن السبب في اقتران التدهور السياسي والاجتماعي بالانتاج العجلي في الجوانب التي ذكرنا يعود إلى أن حدوث النماء السياسي والاقتصادي أسرع من حدوث النماء الفني والصناعي والعلمي ، ولكن النماء والاستقرار السياسي والاقتصادي من الشروط الضرورية لحدوث الصنف الآخر من جوانب التقدم ،

لذلك فان انجازات القرنين الثالث والرابع مدينة الى حد كبير للاستقرار الذي كان في القرنين الاول والثاني ، وحيث ان هذا الاستقرار قد انتهى قبل منتصف القرن الثالث ، فان الفرصة لم تعد مهيئة لشوط او دورة اخرى من دورات النماء الفكري والعلمي والفني ، وظل خط السير بالنسبة لهذه الميادين منحدرًا حتى استقر في حضيض الجمود والتخلف في العصر العثماني .

اضطراب الاوضاع في حاضرة الخلافة

عندما شرع دعاة العباسيين في تاسيس دولتهم اعتمدوا على الفرس اعتمادا كبيرا ، وعندما نجحوا في الاجهاز على الدولة الاموية كان للعنصر الفارسي من اتباعهم الدور الاول في احراز هذا النصر . وقد تبع ذلك انخفاض مكانة العرب كاداريين ومقاتلين ، ورجحان كفة العنصر الفارسي عليهم . وعندما انتصر الخليفة المأمون على اخيه الامين كانت القوات الحراسانية هي عماد انتصاره ، وبذلك زاد نفوذ الفرس في الدولة الى حد شعر معه المعتصم بخطورة الموقف ، فلجأ بمعالجته بالاعتماد على عنصر آخر ، واستقدم المرموزة الاثراك من الممالك ، واستكثر منهم حتى اصبحوا يشكلون القوة الرئيسية في الجيش العباسي .

ولكن هذه القوات الاجنبية التي ظن الخلفاء انها ستكون اداة طيعة لتنفيذ اغراضهم ، وسلاحا فتاكا لقهر اعدائهم ومن تحدثه نفسه بالتمرد على حكمهم ، ما لبثت ان اصبحت هي نفسها المصدر الاول للخطر ليس على علاحيات الخليفة فحسب ، بل وعلى حياته كذلك . لقد شعروا بانهم هم القوة الحقيقية الوحيدة في الدولة ، فتسلطوا على دار الخلافة ، ولم يترددوا في الاقدام على قتل الخليفة المتوكل حين لسوا منه ما اثار مخاوفهم حين اهلهم وخط مراتبهم ، وضم الى وزيره عبيد الله بن يحيى بن خاقان نحو من اثني عشر الفا من العرب والصعاليك (١) . وجعل يبحث عن طريقة للتخلص منهم . وقد تم لهم القضاء عليه حين تأمر معهم ابنه محمد ، في شوال ٢٤٧ هـ / كانون اول ٨٦١ م (٢)

(١) ابو الحسن على بن الحسين المسعودي ، التنبيه والاشراف (بيروت : دار التراث ، ١٩٦٨) ،

ص ٣١٣ .

(٢) المصدر والصفحة ذاتهما .

ومنذ قتل المتوكل حتى احتلال بغداد على أيدي البويهيين سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٥م تولى الخلافة اثنا عشر من بني العباس، كان أكثرهم العوبة بأيدي المتصارعين من قادة الجنود المرتزقة، والمتنازعين على الوزارة والمناصب الهامة^(١). ويبدو أن هيئة الخلافة قد سقطت بعد حادثة الفتك بالمتوكل، فقد كثر تمرد العمال وعصيانهم السلطة المركزية^(٢). ولما كثر الاضطراب تأخرت أموال البلدان ونفذ ما في بيوت الاموال، فوثب الاتراك بكرخ سر من رأى، فخرج اليهم وصيف (أحد القائدين المسيطرين على دار الخلافة) ليسكنهم، فرموه فقتلوه ٥٠٠٠هـ، سنة ٢٥٣هـ، وتفرد بغا بالتدبير^(٣) وزادت الاضطرابات في عاصمة الخلافة^(٤)، وكان من أسوأ مظاهر الانحلال سيطرة النساء والخدم على بعض الخلفاء، وتبديدهم لاموال الدولة، حتى ان جارية تدعى ثمل القهرمانة كانت تجلس للنظر في مظالم الخاصة والعامة، ويحضرها الوزير والكاتب والقضاة وأهل العلم^(٥). وليس أدل على مقدار الفوضى التي تردت اليها أوضاع الدولة العباسية من أن الخلفاء الاثني عشر الذين تولوا في الفترة بين قتل المتوكل ومجيء البويهيين مات أولهم مسعوماً بعد ستة أشهر من خلافته، وخلع الثاني ولم تضر عليه أربع سنين، وقتل الثالث والرابع بأيدي القادة والمتآمرين في عاصمة الخلافة^(٦)، وخلع خليفة آخر، وهو المقتدر، مرتين ثم قتل. وقد قتل عبد الله ابن المعتز الذي استخلف كمنافس للمقتدر عند خلعه أول مرة^(٧). وبعد المقتدر خلع القاهر، وسملت عيناه، ثم خلع المتقي وسملت عيناه^(٨). ودخل البويهيون بغداد في عهد الخليفة المستكفي، فكان نصيبه الخلع والسمل على أيديهم، بعد أيام من مجيئهم^(٩).

(١) أحمد بن أبي يعقوب المعروف باليعقوبي، تاريخ اليعقوبي (بيروت: دار بيروت ودار صادر، ١٣٧٩هـ / ١٩٦٠م)، مجلد ٢، ص ٤٩٣ و ٤٩٩ و ٥٠٢، المسعودي، ص ٣١٥ و ٣١٦ — ٣١٧ و ٣٢٨.

(٢) اليعقوبي، مجلد ٢، ص ٤٩٤ — ٤٩٩ و ٥٠٠ — ٥٠٦، المسعودي، ٣١٩ — ٣٢٤ و ٣٣٥ — ٣٣٠.

(٣) اليعقوبي، مجلد ٢، ص ٥٠٤.

(٤) المصدر نفسه، ص ٥٠٢ و ٥٠٦، المسعودي، ص ٣١٧ — ٣١٨ و ٣٢٧.

(٥) المسعودي، ص ٣٢٨ — ٣٢٩.

(٦) المصدر نفسه، ص ٣١٤ — ٣١٦ و ٣١٨.

(٧) المصدر نفسه، ص ٣٢٦ — ٣٢٧.

(٨) المصدر نفسه، ص ٣٣٦ و ٣٤٤.

(٩) المصدر نفسه، ص ٣٤٥.

البويهيون :

في المحرم من سنة ٣٢٤ هـ / ٩٤٥ م توفي الامير توزون التركي ببغداد فشر منصب اماره الامراء ، فاتفق الجند على تولية ابي جعفر بن شيرزاد ، وحلفوا له وهنأه الناس . ثم ان ابن شيرزاد طلب من الخليفة " المستكفي " ان يحلف له يمينا بحضرة القضاة والعدول تسكن نفسه اليها ، ففعل المستكفي ذلك ، ثم ساله اعاده اليمين بحضرة وجوه الاتراك والديلم ، فاشتد ذلك عليه ثم فعله . . . ولكي يرضي ابن شيرزاد الجند من الاتراك والديلم زاد في ارزاقهم ، وحتى يفي بهذه المطالبات المالية " اخذ في المصادرات ، وقسّط على الكتاب والعمال والتجار وسائر طبقات الناس ببغداد ما لا لازاق الجند . . . (٢) وكان له عيون ينقلون له اخبار من " عنده قوت من حنطة او عدة لعياله . . . " (٣) فتكيس داره ، ويؤخذ منها ما اذخره ، " فلحق الناس . . . امرعيم ، وكذلك من الضرائب فانها كرت ، حتى تهاب التجار من بغداد وعاد هذا الفعل بالخراب . . . " (٤)

وبينما ببغداد تعاني من هذه الفوضى وذلك العسف ، اذا باحمد بن بويه يصل الى مدينة السلام على راس جيوشه ، فيستقبله الخليفة المستكفي مظهر السرور بمقدمه ، ثم خلع عليه ولقبه بمعز الدولة ولقب اخاه ابا الحسن علي بن بويه بعماد الدولة واخاه ابا علي الحسن بن بويه بركن الدولة ، وامران تضرب القابهم وكناهم على الدينار والدرهم . . . ونزل الديلم والجيل والاتراك دور الناس ، فلحق الناس من ذلك شدة عظيمة ، وصار رسما عليهم " (٥) وبعد احد عشر يوما من وصول احمد بن بويه الى بغداد ، على النحو الذي ذكرنا ، دخل على الخليفة في مجلسه وحوله اعيان الدولة ، فقبل الارض ثم قبل يد الخليفة وجلس ، وبعد هنيئة تقدم اثنان من الديلم نحو الخليفة فمد ايديهما اليه ، فصن انهما يريدان تقبيل يده فمدها اليهما فجذبا " وطرحاه على الارض

(١) احمد بن محمد المعروف بمسكويه ، كتاب تجارب الامم ، بعناية هـ . ف . آمدروز (القاهرة مطبعة شركة التمدن الصناعية بصر ، ١٣٣٢ هـ / ١٩١٤ م) ، ج ٦ ، ص ٨٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٨٣ .

(٣) المصدر والصفحة ذاتهما .

(٤) المصدر والصفحة ذاتهما .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٨٤ — ٨٥ .

ووضعاً عامته في عنقه وجراه ، فنهض حينئذ معز الدولة ، واضطرب الناس . . . وساق الديلميان المستكفي بالله ما شيا الى دار معز الدولة ، واعتقل فيها ونهبت داره ، وولى معز الدولة أبا القاسم الفضل بن المقتدر الخلافة في اليوم ذاته ، الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٣٣٤ / ١٤٦ م .^(١)

ولم يعثر شهران على دخول معز الدولة أحمد بن بويه للعاصمة العباسية حتى تحولت المدينة الى ساحة قتال بين جنود ناصر الدولة بن حمدان ، صاحب الموصل ، وجنود معز الدولة .^(٢) وقد لحق الناصر في السواد من الجانبين ضرر عظيم بتسلط الجند على غلاتهم ، فانهم كانوا يحصدونها ويدرسونها ويحملونها الى معسكرهم .^(٣) وقد نهب الديلم من جنود معز الدولة الجانب الشرقي من بغداد ، وأحرقوا كثيرا من نواحيه ، وقتلوا من العامة كثيرين ، وهرب الناصر حفاة في الحر الشديد خارجين نحو عكبرا ، فإعداد كبير من الرجال والنساء والصبيان في الطرقات .^(٤) وقد أفرط الغلاء حتى عدم الناصر الخبز البتة ، وأكل الناصر الموتى والحشيش والميتة والجيف ، وكانت الدابة اذا رايت اجتمع على الووث جماعة ففتشوه ، ولقطوا ما يجدون فيه من شعير واكلوه . . . وكان الرجل والمرأة والصبي يقف على ظهر الطريق وهو تالف ضرا فيصبح : الجوع ، الجوع ، الى ان يسقط ويموت . . . وكثرة الموتى ، وأنه لم يلحق دفنهم كانت الكلاب تأكل لعومهم .^(٥) ولم تنته المعارك في بغداد الا بعد أربعة أشهر ، في المحرم من سنة ٣٣٥ / آب ١٤٦ م .

هكذا افتتح العهد البويهي ، وتلك كانت بعض صور من أحداث أشهره الأولى . وقد تولى الخلافة في العهد البويهي ، بعد خلع المستكفي ، أربعة هم : المطيع ، والطائع ، والقادر ، ثم القائم . وقد خلع أولهم نفسه اثر مرض اصابه ، وخلع الثاني على نحو مزر ، اذ جذبه اصحاب بها الدولة بن بويه عن سرير في مجلس الخلافة ، وطرحوه أرضا ، ولفوه في كساء وأخذوه الى دار الملك البويهي .^(٦) وظل القادر في سدة الخلافة الى ان توفي عام ٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م . وكان منصرفا الى التعبد والقراءة والامور الفقهية ، ولم يكن له من الخلافة الا اسمها .^(٧) أما القائم ، الذي بويع بعد وفاة أبيه القادر ، فقد ظل في الخلافة الى ان توفي في العهد السلجوقي ، سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥ م .

(١) المصدر نفسه ، ص ٨٦ — ٨٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٨٩ — ٩٤ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٩١ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٩٣ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٩٥ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ٢٠١ — ٢٠٢ .

(٧) ابوبكر احمد بن علي الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد او مدينة السلام (القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٣٤٩ هـ / ١٩٣١ م) ، مجلد ٤ ، ص ٣٧ — ٣٨ .

وقد عزا ابن الاثير تطاول الملوك البويهيين على مقام الخلافة الى انهم كانوا شيعة مغالين في التشيع^(١). ويذكر الهمداني ان معز الدولة بن بويه عزم "على ان يبايع ابا الحسن محمد بن يحيى الزيدى العلوى" (٢) ولكن أحد خواصه صرفه عن الفكرة محذرا اياه بقوله : "اذا بايعته استنفر عليك اهل خراسان وعوام البلد ، وأطاعه الديلم ورفضوك ، وقبلوا أمره فيك" (٣) وقد أورد ابن الاثير رواية قريبة من رواية الهمداني ، ونقل من قول ذلك المشير على معز الدولة : "انك اليوم مع خليفة تعتقد انت وأصحابك انه ليس من اهل الخلافة ، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه . ومتى اجلس بعض العلويين خليفة كان معك من يعتقد انت وأصحابك صحة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لفعلوه" (٤).

ويصف المسعودى حالة الدولة العباسية في أواخر النصف الأول من القرن الرابع الهجرى بقوله ان الخلفاء "كالملوى عليهم ، لا أمر لهم ينفذ . أما ما نأى عنهم من البلدان فتغلب على أكثرها المتغلبون واقتصروا على مكاتبتهم بامرة المؤمنين والدعاء لهم على وأما بالحضرة ، فتفرد بالامور غيرهم . فصاروا مقهورين خائفين قد قنعوا باسم الخلافة ، ورضوا بالسلامة" (٥) كل ذلك "قلة" العمارة ، وانقطاع السبل ، وخراب كثير من البلاد ، وذهاب الاطراف ، وغلبة الروم وغيرهم من الممالك على كثير من شعور الاسلام ومدنه" (٦).

وكان العهد البويهي طافحا بالصراع والفتن والحروب ، نزاعا على الحكم بين الامراء البويهيين انفسهم ، (٧) وبين عناصر الجيوش البويهية من الاتراك والديلم . (٨)

- (١) ابو يعلى حمزة بن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق (بيروت : مطبعة الاباء اليسوعيين ، ١٩٠٨م) ص ١٠٧ .
- (٢) عز الدين ابوالحسن علي بن الاثير ، الكامل في التاريخ (بيروت : دار صادر ودار بيروت ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م) ، مجلد ٨ ، ص ٤٥٢ — ٤٥٣ .
- (٣) محمد بن عبد الملك الهمداني ، تكملة تاريخ الطبري ، تحقيق البرت يوسف كنعان (بيروت ١٩٥٩م) ، مجلد ١ ، ص ١٨٢ .
- (٤) المصدر نفسه والصفحة ذاتها .
- (٥) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ٨ ، ص ٤٥٢ .
- (٦) المسعودى ، ص ٣٤٦ .
- (٧) المصدر نفسه ، ص ٣٤٧ .
- (٨) مسكويه ، ج ٦ ، ص ٣٤٢ — ٣٤٨ ، ٣٧٠ و ٣٨١ ، ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ٩ ، ص ٤٨ و ٤٥٥ .
- (٩) مسكويه ، ج ٦ ، ص ٩٦ ، ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ٩ ، ص ٤٩ و ٦٣ و ٣٣٦ و ٣٦٦ و ٤٧١ .

ومع ذلك فانه لم يخل من صفحات مشرقة ، كان ابرزها اصلاحات عضد الدولة بن بويه حين عمر ما خرب من بغداد ، واعاد حفر ما اندثر من القنوات ، ورعى العلوم والاداب والفلسفة (١) .

وحين مضى على البويهيين ما يقرب من قرن من الزمان وهت قوتهم ، وقد بلغ من ضعفهم ان اكرادا لقوا بعض جنود جلال الدولة بن بويه فاخذوا دوابهم فلم يستطيعوا عن انفسهم دفعا (٢) وعندما اشرفت ايام الدولة البويهية على الانقضاء كانت بغداد قد وقعت تحت سيطرة قائد تركي من قادتهم يدعى ارسلان البساسيري ، الذي اصبح له السيطرة على العراق (٣) . وفي سنة ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م طالب الجند الاتراك وزير الملك الرحيم ابي كاليجار بمبالغ كبيرة من المال ، والحواف في الطلب ، فاختفى الوزير بدار الخلافة ، فثار الجند ، وقاموا بالكثير من اعمال السلب والنهب ، ونشروا الفوضى والذعر في بغداد ، وعجز الخليفة ، كما عجز البساسيري عن تسكينهم . ولم تهدأ لاثارتهم الا بعد ان تسلموا ما ارادوا من اموال (٤) وانحدر البدو العقيليون ، من اتباع قريش ابن بدران ، صاحب الموصل ، فنهبوا بعض المواضع ، كما نهبوا دوابا وجمالا تخص البساسيري . وقد اشتد الذعر ببغداد " وعظم انحلال امر السلطنة بالكلية " (٥) .

ظهور السلاجقة :

وكانت قد ظهرت في الشرق قوة جديدة استطاعت تثبيت اقدامها في منطقة خراسان ، تلك هي قوة السلاجقة . وينسب السلاجقة الى جدهم سلجوق بن تغلق . ويروي ان تغلق والد سلجوق كان شجاعا ، وقد اهلته شخصيته القوية لان يصبح مقدم الاتراك الغزنيا وراء النهر . وكان تغلق في خدمة ملك الترك ، فاراد ذلك الملك ان يغزو ديار الاسلام ، ويقال ان تغلق نهأ عن ذلك

(١) مسكويه ، ج ٦ ، ص ٤٠٤ — ٤٠٨ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ٩ ، ص ٤٤٠ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٥٥٥ و ٥٥٦ و ٥٦٦ و ٦٠١ — ٦٠٢ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٥٩٧ — ٥٩٨ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٥٩٨ .

وتجادلا ، فاعلظ الملك لتفاق القول ، فغضب هذا ولطم الملك وشج رأسه ، واشتبك في عراك مع الخدم والحرس واغاثه أصحابه فنعوه . والارجح ان رواية اصطدام تفاق بالملك للسبب المذكور اختلقت فيما بعد ، عندما صار للسلاجقة سلطنة ، ذلك لان تفاق لم يكن قد اعتنق الاسلام في ذلك الحين ومهما تكن اسباب خلاف هذا الزعيم مع ملك الترك ، فانهما تصالحا ، واقام تفاق في خدمة الملك ، وانجب ابنه سلجوق (١) .

ولما كبر سلجوق ظهرت قوته وشجاعته ، فقربه ملك الترك واعطاه لقب سباشي ، اي قائد الجيش . بيد ان سلجوق ما لبث ان تخوف من غدر الملك به ، وفارقه ، ودخل ديار الاسلام واعتنق ديانة المسلمين . ولما توفي سلجوق ترك من الاولاد ارسلان وميكائيل وموسى . وقد قتل ميكائيل نسي احدى غزواته لاراضي الترك غير المسلمين ، وخلف من الاولاد بيغو وطغرليك وجفري بك . وقد اطاعت العشائر التركية اولاد ميكائيل (٢)

وبعد احداث يطول شرحها رأى محمود بن سبكتكين ، صاحب غزنة ، قوة السلاجقة ، واحس بخطرهما ، فكتب ارسلان بن سلجوق واستماله واغراه بالمجيء الى خدمته ، ولكنه سرعان ما قبض عليه عند وصوله ، واعتقله . وقد اشير على محمود بقطع ابهامات السلاجقة حتى يعجزوا عن استعمال النشاب ، او ان يفرقهم في جيحون ، فاستفزع ذلك ، وفرقهم في نواحي خراسان وفرض عليهم الضرائب . وقد ظلوا ساكنين الى ان امتدت اليهم ايدي العمال بالاجور والاساءات ، فهاجرت جماعات منهم الى كرمان حيث دخلوا في خدمة اميرها البويهى الذى لم يلبث ان توفي (٣)

وبعد وفاة الامير البويهى انتقل السلاجقة الى اصفهان ، وكان صاحبها تابعاً للسلطان محمود بن سبكتكين ، فامرهم سيده بالايقاع بهم . ولكن الاشتباك لم يقض عليهم ، فاتجهوا

(١) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ٩ ، ص ٤٢٣ — ٤٢٥ .

(٢) المصدر نفسه ، والصفحات ذاتها .

(٣) المصدر نفسه ، والصفحات ذاتها ، ابو العباس شمس الدين احمد بن خلكان ، وفيات الاعيان وانباء

ابناء الزمان ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، د . ت)
مجلد ٤ ص ١٥٥ — ١٥٧ .

الى اذربيجان . (١) وظلت جيوش محمود الغزنوي تطاردهم الى ان توفي . وبعد وفاته احتاجه ابنه ووريثه مسعود الى استخدامهم ، فعفا عنهم ، (٢) ثم انه اضطر للتوجه الى الهند لمواجهة بعض الاضرابات في أملاكه هناك ، فخلا الجو للسلاجقة . (٣)

وبعد نضال طويل وشاق استطاع السلاجقة ان يستولوا على مسرو ، حوالي سنة ٤٢٨هـ / ١٠٣٧م ، فخطب فيها لداود بن سلجوق ، ولقب بملك الملوك . (٤) وفي سنة ٤٣١هـ / ١٠٤٠م أنزل السلاجقة بمسعود بن محمود الغزنوي هزيمة ساحقة ، وففر في مائة من أصحابه عائدا الى غزنة . (٥)

وبعد هذا الانتصار واصل السلاجقة توسعهم غربا وجنوبا . وفي سنة ٤٣٢هـ / ١٠٤١م تمكنوا من السيطرة على جميع انحاء خراسان ، وأشاعوا القتل في أرجائها . (٦) وفي سنة ٤٣٥هـ / ١٠٤٤م وجه الخليفة القائم القاضي أبا الحسن الماوردي الى طغرل بك زعيم السلاجقة في رسالة تتضمن استنكارا ما سببه من تخريب في خراسان ، وأمر " بالاحسان في الرعية " . فمضى الماوردي ، وخرج طغرل بك فتلقاء على أربعة فراسخ ، اجلالا لرسالة الخليفة . (٧)

وفي سنة ٤٤٣هـ / ١٠٥١م وصل الى بغداد وفد مرسل من قبل السلطان طغرل بك ، يحمل الى الخليفة العباسي ووزيره وحاشيته مبالغ من المال والهدايا ، وينقل شكر السلطان السلجوقي على الخلع واللقاب التي كان القائم قد منحها له . (٨)

وهكذا أصبح السبيل ممهدا لقدم هذه القوة الفتية لتحرر الخلافة السنية مما لحق بها من اهانات على أيدي البويهيين الشيعة ، ولتحميمها من الاضرار التي كانت محدقة بها . ولم يواف شهر رمضان من عام ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م حتى كان طغرل بك قد حل ببغداد ، كما سنرى بعد قليل .

(١) ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ١٥٥-١٥٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٥٦ .

(٣) المصدر نفسه والصفحة ذاتها .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ٩ ، ص ٤٨٠ . (٥) المصدر نفسه ، ص ٤٨٢-٤٨٣ .

(٦) ابو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والامم (حيدرآباد : مطبعة دائرة المعارف

العثمانية ١٣٥٩ / ١٩٤٠م) ، مجلد ٨ ، ص ١٠٧ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ١١٦ .

(٨) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ٩ ، ص ٥٨٠ .

الفصل الثاني

نظم الحكم والادارة

الخلافة

تولى منصب الخلافة في الفترة التي ندرسها ثمانية من أبناء الاسرة العباسية . وقد كان المنصب — كما هو معروف — يتداول بالتوارث ، اذ تلك كانت حاله طوال عهد الاسرتين الاموية والعباسية . وعند بداية العهد السلجوقي كان ابو جعفر ، عبد الله ، الملقب بالقائم بأمر الله هو المتولي لمنصب الخلافة منذ سنة ٤٢٢هـ / ١٠٣١م . وقد عين القائم ابنه محمد ، الملقب بـ ذخيرة الدين ، وليا للعهد ، ولكن هذا الابن توفي في حياة أبيه ،^(١) سنة ٤٤٨هـ / ١٠٥٥م . وعندما بلغ ابو القاسم عبد الله بن محمد الذخيرة سن الرشد اصبح وليا لعهد حده القائم ، وعند وفاة القائم ورث الخلافة ولقب بالمقتدى ، سنة ٤٦٧هـ / ١٠٧٥م^(٢) وعند وفاة المقتدى سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م ورث منصبه ابنه ابو العباس احمد المستظهر . ولما توفي المستظهر هذا ، سنة ٥١٢هـ / ١١١٨م شغل المنصب من بعده ولده ابو منصور ، الفضل ، الملقب بالمسترشد . وبعد قتل المسترشد ، عام ٥٢٩هـ / ١١٣٥م بويغ ابنه الراشد منصور ، ابو جعفر . وحين خلع الراشد عام ٥٣٠هـ / ١١٣٦م اختير عمه ابو عبد الله الحسين بن المستظهر الذي لقب بالمقتفي . وقد حل المستجد يوسف محل ابيه المقتفي عند وفاته سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م ، وكذلك كان حال المستضي ، ابي محمد ، الحسن ، الذي نصبه قتلة ابيه المستجد ، سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م .^(٣)

وهكذا نرى ان الخلافة كانت عباسية وراثية ، تداولها الابناء عن الاء ، وأن المبدأ الوراثي كان مسلما به لبني العباس . حتى عندما أعدم السلطان السلجوقي مسعود على خلع الخليفة الراشد ، اذ نراه اختار عم الخليفة المخلوع لشغل المنصب .^(٤)

وقد جرت العادة بأن يعين الخليفة ولي عهد في حياته ، وأن يخطب لولي العهد على المنابر . فالخليفة القائم بأمر الله خطب له بولاية العهد في حياة ابيه القادر ، ثم جد دلت له البيعة بعد موت والده .^(٥) وغير القائم ابنه محمد وليا للعهد ، ولما توفي محمد وبلغ ابنه سن الرحلة جعل القائم حفيده هذا وليا لعهد ، وهو الذي لقب بالمقتدى .^(٦) وكان

(١) ابن القلانسي ، ص ١٠٧ .

(٢) المصدر والصفحة ذاتهما ، ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٩٦ — ٩٧ .

(٣) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ١٩٧ و ٢٠٠ ، مجلد ١٠ ، ص ٤٩ — ٤٠ و ٦٠ — ٦١ ، ١٩٢ و ٢٣٢ .

(٤) المصدر نفسه ، مجلد ١٠ ، ص ٦٠ .

(٥) عبد الرزاق بن الفوطي ، تلخيص مجمع الاداب في معجم الالقاب ، تحقيق مصطفى جواد (دمشق :

وزارة الثقافة والارشاد القومي ، ط ٠) ، المجلد الرابع ، قسم ٣ ، ص ٥٦٦ — ٥٦٧ .

(٦) ابن القلانسي ، ص ١٠٧ ، ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٩٦ — ٩٧ .

المستظهر وليا للعهد في حياة أبيه المقتدى^(١) وقد خطب للمسترشد بن المستظهر بولاية العهد ثلاثا وعشرين سنة ، ثم جددت له البيعة بعد وفاة أبيه^(٢).

والواقع ان هذا التقليد ظل مرعيا ، ما لم تتدخل لتعجيله ظروف غير اعتيادية ، مثلما حدث عند خلع الراشد بعد حوالى سنة من خلافته ، وتولية عمه المقتنى بدلا منه سنة ٥٣٠هـ / ١٢٦١م^(٣). ورغم ان الخلافة كانت وراثية ، وان كل خليفة كان يعين ولي عهد ، فقد احتفظ بمظهر من مظاهر الشورى بدون جوهرها ، أعني بذلك عملية المبايعة . فبمجرد وفاة الخليفة كان الوزير وكبار الموظفين يتشاورون في كيفية اعلان النبأ وتدير امر انتقال الخلافة الى ولي العهد ، ثم يبايعونه ، وبعدئذ يجلس الخليفة الجديد للبيعة العامة التي يحضرها الوزير ونقباء الاشراف والقضاة وكبار الفقهاء ومشايخ الصوفية وغيرهم^(٤). وكان الخليفة الجديد يحرص على أخذ البيعة من السلطان السلجوقي المعاصر له عن طريق رسول يبعث به اليه لهذا الغرض^(٥).

أما سلطات الخليفة فقد كان المفروض — من الناحية النظرية — انه رأس الدولة ، وصاحب السلطة الفعلية ، يتود المسلمين في أمور الدين والدنيا معا ، يؤمهم في الصلاة ويقودهم في الحرب ، ويقيم العدالة ويعين العمال والقضاة لينوبوا عنه في حكم الاقاليم . ذلك كان حال الخلافة أيام قوتها . أما في الفترة التي ندرسها ، او في القسم الاكبر منها ، فتعبير أدق ، فاننا لا نجد أثرا لهذه السلطة الخليفة الا من الناحية النظرية ، وفي ما أودعه بعض الفقهاء بطون ما صنفوه من كتب^(٦) ظلت تلقى الاحترام بين اهل العلم طوال الفترة التي نعننى بها ، وقرون —

(١) علي بن محمد بن الاثير ، التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ، تحقيق عبد القادر طليمات (القاهرة : دار الكتب الحديثة ، ١٣٨٢هـ / ١٩٦٣م) ، ص ١٣ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٥٣٦ .

(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ١٠ ، ص ٦٠ .

(٤) المصدر نفسه ، مجلد ٩ ، ص ٨٠ — ٨١ و ١٩٧ ، مجلد ١٠ ، ص ١٩٢ — ١٩٣ .

(٥) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٩٧ و ٢٣١ .

(٦) ابو الحسن علي بن محمد الماوردى ، الاحكام السلطانية والولايات الدينية (القاهرة :

١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م) ، ص ١٥ — ١٦ .

ابو يعلى محمد بن الحسين الفراء الحنبلي ، الاحكام السلطانية ، بعناية محمد حامد الفقي

(القاهرة : ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م) ، ص ٢٧ — ٢٨ .

أخرى بعدها ، كما تمثلت هذه السلطة النظرية فيما كان يصدره الخليفة من مراسيم بتقليد السلاطين والأمر باقامة الخطبة لهم على منابر بغداد ، وحرص أولئك السلاطين على الحصول على ذلك التقليد وتلك الخطبة^(١) . فضلا عن ذلك فقد كان الخليفة هو الذى يعين قاضي القضاة ببغداد ، وهو الذى كان يعزله^(٢) .

لقد تعرض منصب الخلافة في العهد السلجوقي الى هزات وتبدلات كثيرة ، بيد ان بإمكان الباحث ان يميز بين ثلاث فترات ، ضمن هذا العهد ، اختلف وضع الخلافة في كل فترة منها عن وضعها في الفترتين الاخرين :

الفترة الاولى : من سنة ٤٤٧هـ الى سنة ٤٨٥هـ (١٠٥٥-١٠٩٢م) ، أى منذ دخول

السلاجقة بغداد حتى وفاة السلطان ملكشاه بن ألب ارسلان .

الفترة الثانية : من سنة ٤٨٥هـ الى سنة ٥٤٧هـ (١٠٩٢-١١٥٢م) ، أى منذ وفاة

السلطان ملكشاه حتى وفاة السلطان مسعود .

الفترة الثالثة : من سنة ٥٤٧هـ الى سنة ٥٩٧هـ (١١٥٢-١١٧١م) ، أى منذ

وفاة السلطان مسعود حتى ظهور صلاح الدين الايوبي .

ففي الفترة الاولى كانت الخلافة خاضعة مستسلمة ، وكان السلاطين الثلاثة ، طغرل بك وألب ارسلان وملكشاه ، أعظم سلاطين السلاجقة . وقد حكموا العراق نفسه حكما مباشرا ، بما في ذلك بغداد ذاتها ، عن طريق نوابهم^(٣) . بل لقد تدخل بعض السلاطين ووزرائهم في شئون الخلافة الخاصة ، مثل ارغام

(١) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٣٥ - ٣٦ و ٦٢ - ٦٣ . ابن خلكان ، مجلد ٤ ،

ص ١٦٢ . ابن الفوطي ، مجلد ٤ ، قسم ٢ ، ص ١٢١٦ و ١٢١٨ .

(٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ١٥ . ياقوت الحموي الرومي ، معجم الادباء ،

راجعه وزارة المعارف العمومية (القاهرة : د . ت .) ، مجلد ١٦ ، ص ٢١ - ٢٢ .

تاج الدين ابو نصر عبد الوهاب السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق عبد الفتاح الحلو

ومحمود الطناحي (القاهرة : ١٣٨٥هـ / ١٩٦٦م) ، مجلد ٤ ، ص ٢٠٣ . ابو محمد

عبد القادر بن ابي الوفاء ، الجواهر المضية في طبقات الحنفية (حيدرآباد : ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م) ،

ج ١ ، ص ٣٥٠ - ٣٥١ . ابو الفرج عبد الرحمن بن رجب ، الذيل على طبقات الحنابلة ،

بعناية هنري لاووست وسامي الدهان (دمشق : ١٩٥١م) ، ج ١ ، ص ٢٠٠ .

(٣) انظر الفصل الخاص بوظيفة الشحنة ، ص ١٢٠ - ١٢٥ فيما يلي .

ال خليفة القائم على تزويج ابنته الى السلطان طغرل بك ، ومثل جمل المقتدى على عزل وزيره ابي شجاع (١) وحمله على عزل ابنه الاكبر من ولاية عهده ليصبح ابنه الاصغر وليا للعهد ، لمجرد كون الطفل ابن الخليفة من زوجته بنت السلطان ملكشاه (٢)

ورغم هذه الاستطالات يمكن القول بان مركز الخلافة في فترة الخضوع هذه اصبح افضل مما كان عليه في العهد البويهي ، فهناك زالت هبة الخلافة تماما^(٣) ، فضلا عن كون بني بويه من اتباع المذهب الشيعي (٤) وقد جاء السلاجقة باسم انفاذ الخلافة السنية من سيطرة البويهيين ، وبالتالي فقد عملوا على ان يستعيدوا لها بعض الاحترام . وكان الوزير نظام الملك (٤٥٥ — ٤٨٥ هـ) يحرص على حماية الخلافة من عسف السلطان ، وعلى رفع مكانتها (٥) ، ولكن في حدود لا تتعارض مع حرصه على المحافظة على حقوق السلطة في السيطرة الكاملة على شؤون الحكم والادارة في العراق بل وفي بغداد نفسها . اسوة باقاليم السلطنة الاخرى . ومعنى ذلك ان الخلافة اكتسبت قدرا من الاحترام المعنوي ، دون ان يسمح لها بممارسة سلطات تعتبر من حقوق السلطنة .

اما في الفترة الثانية فقد تقلب مركز الخلافة بين حالتي الضعف والقوة ، ذلك ان وفاة السلطان ملكشاه ، آذنت بانقضاء عهد الاستقرار والقوة بالنسبة للسلطنة السلجوقية ، واصبح صراع ابناء البيت السلجوقي على المنصب يستنفد كل جهودهم تقريبا ، واذ ذاك بدأ مركز الخلافة يتحسن .

وحينما تسنم كرسي الخلافة رجل من اقوى الشخصيات العباسية ، هو الفضل بن احمد ، المسترشد ، حاول ان يجعل من الخلافة قوة حقيقية ، فجعل لها جيشا خاصا بها وتحكم في العراق كلما خلا له الجو (٦) وباشر الحرب بنفسه فقاد الجيوش ضد منائيه ، ووقف من السلاطين مواقف حازمة ، حتى قال عنه بعض المؤرخين انه استبد بالعراق ، ولم يكن للسلطان معه سلطة تذكر (٧)

(١) ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ١٥٨ و ٣٧٥ ، المبكي مجلد ٤ ، ص ١٣٩ .

(٢) ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ٣٧٥ .

(٣) ابن الاثير ، الباهر ص ٥١ ، وانظر ص ٢٣ — ح اعلاه .

(٤) الهمداني ، مجلد ١ ، ص ١٨٢ ، ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ٨ ، ص ٤٥٢ — ٤٥٣ .

(٥) ابن الجوزي المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٥٦ .

(٦) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٤٧ — ٥١ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ٥٠ — ٥١ .

بيد ان هذا الخليفة ما لبث ان لقي مصرعه بعد هزيمته في معركة حربية ضد السلطان مسعود ، وعادت الخلافة الى حالة الاستسلام السابقة ، واصبح الخليفة يعتمد على اقطاعه واملاكه الخاصة من جديد (١)

اما في الفترة الثالثة فقد زال تسلط السلاجقة على العراق ، واستقلت الخلافة بإدارته (٢) رغم ان السلطان سنجر ، صاحب خراسان ، ظل يخطب له بالسلطنة على منابر بغداد حتى وفاته سنة ٥٥٢ هـ / ١١٥٢ م (٣) ، بيد ان هذه الخطبة لم تمن اكثر من سلطة معنوية .

ولكن اذا كانت الخلافة قد استطاعت التخلص من نير السلاجقة فان خلاصها لم يكن بفضل قوتها الذاتية بقدر ما كان ناتجا عن انهيار معسكر اعدائها وتمزق قوتهم . والحقيقة ان مرض الخلافة المزمن كان وصل الى اعماق العظام منه عهد الخليفة المتوكل (٢٢٢ — ٢٤٢ هـ / ٨٤٦ — ٨٦١ م) ولم تكن صحة الخلافة في الفترة الاخيرة من العصر السلجوقي الا صحو الموت ، ولم يكن مظهر القوة الذي اتخذ به المعاصرون الاغشاء شافا اخفى تحشيه كل عوامل الضعف والانهيار .

لقد حرمت الخلافة من ولاء الشعب الذي كان المفروض فيه ان يحميها في الملأ ، وتخلف — بدلا من الولاء القوي — نوع من العطف الاتكالي الواهن الذي يريد ان ياخذ من الخلافة ولا يعطيها . والسبب في ذلك هو ما جرت به الخلافة على نفسها ، او ما جرى على هذا المنصب المتصارعون في الحلبة للاستئثار به ، فلم تعد الخلافة مجاهدة للكفار اعداء الامة وراء الحدود ، ولم تعد في الداخل كافلة الهدوء والاستقرار والامن والنظام ، ولم تظل كما كان يرجى منها ، ديدبان العدالة وحامية الحق حتى يضحى الناس بارواحهم دفاعا عنها ، وانما صارت غنيمة ومرتعاً للكسالى الراغبين في حياة الترف واللذة والمجون ، خلال فترة مديدة ، تبخرت اثناءها حماسة عامة الناس للخلافة شيئا فشيئا ، حتى درجة العدم . ولعل اعتماد الخلافة على الجنود المرتزقة الاجانب كان السبب الرئيسي الذي اضعف الروح العسكرية ، حتى

(١) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ١٠ ، ص ٥٤ .

(٢) محمد بن محمد العماد الكاتب الاصفهاني ، تواريخ ال سلجوق ، وهو مشتمل على كتاب زبدة النصر و نخبة العصرة ، اختصر الفتح بن علي البنداري ، وقام على نشره (ليون : مطبعة بريل ١٨٨٩ م) ، ص ٢٣٤ — ٢٣٥ .

(٣) ابن الجوزي ، المنتظم مجلد ١٠ ص ١٦٤ و ١٧٨ .

إذا صحت الخلافة صحوة الموت التي وصفنا وجدت نفسها مضطرة للاعتماد على أولئك الجنود المرتزقة الأجانب، ولم تجد مجالاً للتفكير في تجنيد العامة .

ومصادق ما ذهبنا إليه في حكمنا على الخلافة بالضعف رغم مظاهر القوة هو ما كانت عليه الأوضاع في بلاط الخليفة المستنجد (ت ٥٦٦ هـ / ١١٢٠ م) . فقد كان مقدم امراء دولة الخليفة هو قطب الدين قايماز ، وكان ملوكاً أرمينيا ، وقد عظم شأنه وعلا مكانه واستولى على البلاد وتحكم في الدولة وعهد إلى أكابر امراء الدولة فنزجهم ببنياته ، وكان بينه وبين الوزير مارة (١) . فتآمر الاثنان على الخليفة وهو مريض ، وتآمر معهم طبيب الخليفة ، فاجبروا المستنجد على دخول الحمام واغلقوا عليه بابه وتركوه حتى مات (٢) . فالخلافة اذن ما زالت اسيرة في يد المرتزقة الغرباء والمغامرين من الوزراء .

هذا ، وقد كان الخليفة يحظى باحترام وعطف من جانب العلماء والفقهاء السنة ، ومن رجال السنة البارزين وعامة اهل بغداد السنة ؛ فعندما كان الخليفة المستنجد في حرب — السلطان محمود كان بعض كبار فقهاء الحنابلة يرون منامات واحلاماً مفادها انهم رأوا — في احلامهم — احمد بن حنبل وصاحبه ذاهبين لمعاونة الخليفة المستنجد في حربه ، والدعاء له بالنصر ، وتضيف الرواية ان الخليفة انتصر (٣) . وإذا ضربنا صفحاً عن العنصر الغيبي الخرائفي في القصة فان دلالتها العامة تبين مدى العطف على الخليفة . ومثل هذا المعنى نجده في وصف ابي الوفاء بين عقيل (ت ٥١٣ هـ) ، كبير الحنابلة في ايامه ، لاجتماعه بالخليفة المستنجد ومبايعته له (٤) . وعندما بايع القاضي كمال الدين محمد بن عبدالله الشهرزوري الخليفة المقتفي سنة ٥٣٠ هـ / ١١٣٦ م ، نيابة عن عماد الدين زنكي ، صاحب الموصل ، قال ، اى الشهرزوري : " هذا امير المؤمنين

(١) مؤلف الدين ابو العباس احمد بن ابي اصيبعة ، عيون الانباء في طبقات الاطباء

(بيروت : دار مكتبة الحياة ، ١٩٦٥ م) ، ص ٣٤٧ — ٣٤٨ .

(٢) المصدر نفسه والصفحات ذاتها ، ابن الغوطي ، مجلد ٤ ، قسم ٢ ، ص ١٠٠٩ — ١٠١٠ .

(٣) ابن رجب ، مجلد ١ ، ص ١٣٥ — ١٣٦ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٨٣ .

قد صار اليه خلافة الله في ارضه... (١) كذلك وصف الكاتب الاصفهاني الخليفة بأنه خليفة الله في ارضه حين قال عن حصار السلطان محمد لبغداد بأن السلطان وجنده " قاتلوا الله تعالى بقتال خليفة في الارض... " (٢) وعندما اراد السلطان محمود اخضاع الخليفة المسترشد ونزل بعسكره الجانب الشرقي من بغداد كان العامة بالجانب الغربي " يسبون الاتراك ويقولون : يا باطنية ، يا ملاحدة ، عصيتم امير المؤمنين ، نعتودكم باخلة وانكحتكم ناسدة... " (٣)

-
- (١) ابن الاثير، الباهر، ص ٥٤ .
(٢) الكاتب الاصفهاني، تواريخ ال سلجوق، ص ٢٤٧ .
(٣) ابن الجوزي، المنتظم، مجلد ١، ص ٢٥٩ .

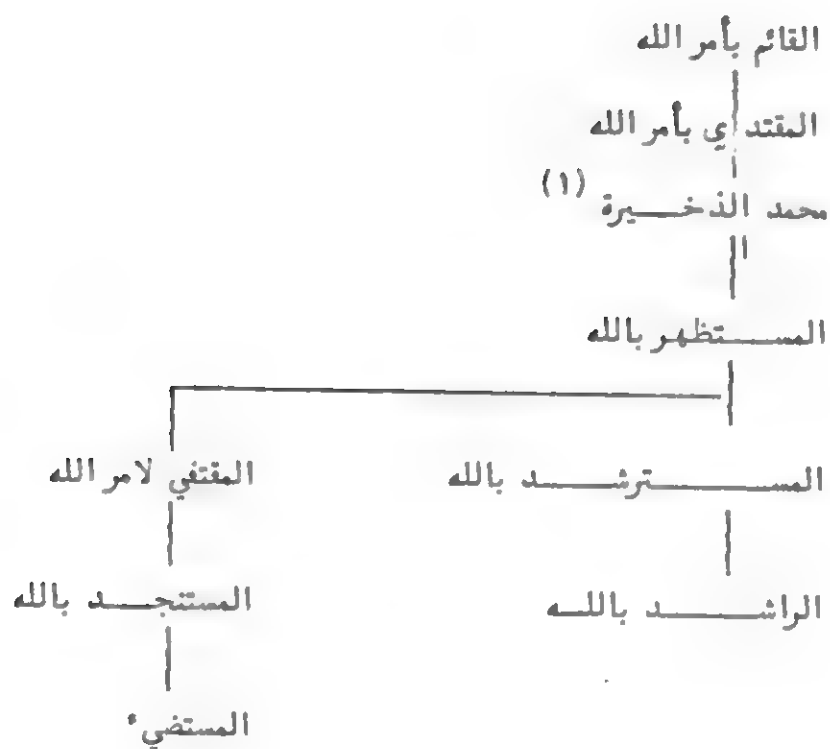
الخلفاء العباسيون
في العهد السلجوقي

- (١) ١- القائم بأمر الله ، عبد الله بن القادر أحمد ٤٢٢-٤٦٧ هـ / ١٠٣١-١٠٧٤ م
- (٢) ٢- المقتدي بأمر الله ، عبد الله بن محمد بن عبد الله ٤٦٧-٤٨٧ هـ / ١٠٧٤-١٠٩٤ م
- (٣) ٣- المستظهر بالله ، أحمد بن عبد الله بن محمد ٤٨٧-٥١٢ هـ / ١٠٩٤-١١١٨ م
- (٤) ٤- المسترشد بالله ، الفضل بن أحمد بن عبد الله ٥١٢-٥٢٩ هـ / ١١١٨-١١٣٤ م
- (٥) ٥- الراشد بالله ، منصور بن الفضل بن أحمد ٥٢٩-٥٣٠ هـ / ١١٣٤-١١٣٦ م
- (٦) ٦- المقتفي لأمر الله ، محمد بن أحمد المستظهر ٥٣٠-٥٥٥ هـ / ١١٣٦-١١٦٠ م
- (٧) ٧- المستجد بالله ، يوسف بن محمد بن أحمد ٥٥٥-٥٥٦ هـ / ١١٦٠-١١٧٠ م
- (٨) ٨- المستضيء بالله ، الحسن بن يوسف بن محمد ٥٦٦-٥٧٥ هـ / ١١٧٠-١١٧٩ م

-
- (١) ابن القلانسي ، ص ١٠٧ .
 - (٢) المصدر نفسه ، ص ١٠٧ و ١٢٥-١٢٦ .
 - (٣) المصدر نفسه ، ص ١٢٦ و ٢٠٠ .
 - (٤) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ١٠ ، ص ٥٣-٥٤ .
 - (٥) المصدر نفسه ، ص ٥٠ و ٦٠ . وقد توفي الراشد بعد خلعه بستين تقريبا ، أي سنة ٥٣٢ هـ .
 - (٦) المصدر نفسه ، ص ٦٠-٦١ و ١٩٢ .
 - (٧) المصدر نفسه ، ص ١٩٢ و ٢٣٢ .
 - (٨) ابن الأثير ، الكامل ، مجلد ١١ ، ص ٣٦١ و ٤٥٩ .

علاقة النسب بين الخلفاء في العهد

المسلجوقي



(١) كان وليا للعهد ، ولم يل الخلافة ، لانه توفي في حياة أبيه . انظر ابن القلانسي ، ص ١٠٧ .

السلطنة :

دخل السلاجقة بغداد لأول مرة بقيادة السلطان طغرليک ، في شهر رمضان سنة سبع وأربعين وأربعمائة للهجرة ، الموافق كانون الأول خمس وخمسين والفل للميلاد . وكان الخليفة القائم هو الذي أرسل طغرليک واستدعاه ، بعد أن شعر بالخطر من جانب أبي الحارث أرسلان البساسيري ، المتحكم في شئون الخلافة آنذاك (١) وكان طغرليک قد أصبح يلقبنا للسلاجقة منذ أن احتلوا الري سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م ، وأصبح " إليه الأمر والنهي في السلطنة (٢) " . ومنذ تنصيب طغرليک ظل شاغل المنصب يعتبر رئيسا للبيت السلجوقي ، واستمر الأمر كذلك إلى أن أصبح للسلاجقة سلطانا اثر النزاع الذي نشب بين ورثة ملكشاه والطامعين في العرش من بعده ، وكان تتش أخو ملكشاه ، الذي كان ملكا على بلاد الشام بتولية أخيه له ، هو أول من تلقب بلقب سلطان ، مزاحما بن أخيه الذي حمل اللقب بعد وفاة والده ملكشاه (٣) والحقيقة أن منصب السلطنة كان مقلقا منذ بداية دخول السلاجقة إلى بغداد ، وقد جاء الخطر من جهة أفراد البيت السلجوقي نفسه ، الذين تولى كبارهم نواحي السلطنة ، وحمل كل منهم لقب ملك ، وجمع له جيشا من المماليك والمرتزقة وأخذ يتحين الفرص للوثوب إلى منصب السلطنة . ويكاد تاريخ السلاجقة ، من أوله إلى آخره ، أن يكون مجرد قصة صراع أبناء البيت السلجوقي على هذا المنصب ، فالسلطان طغرليک ، مؤسس الدولة نفسه ، ثار عليه أخوه إبراهيم بنال ، ونشبت الحرب بينهما قرب همدان ، واستعان كل منهما بنفر من الزعماء السلاجقة . ولكن طغرل ظفر بأخيه ، وخنقه (٤) وبعد وفاة طغرليک سنة ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م نشب الصراع الدموي من جديد بين ابن أخيه سليمان ، الذي خلفه في السلطنة ، وبين البارسلان ، أخيه

(١) ابن خلکان ، مجلد ٤ ، ص ١٥٧ ، وجمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردی الاتابكي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (القاهرة : دار الكتب المصرية ، ١٣٥٣ هـ / ١٩٣٥ م) ، مجلد ٥ ، ص ٥٦ و ٦٥ .

(٢) ابن خلکان ، مجلد ٤ ، ص ١٥٧ .

(٣) أبو القاسم علي بن الحسن بن عساكر ، التاريخ الكبير ، اعتنى بتهذيبه عبد القادر بدران (دمشق : مطبعة روضة الشام ، ١٣٣١ هـ / ١٩١٣ م) مجلد ٣ ، ص ٣٤٠ .

(٤) ابن الاثير ، الکامل ، مجلد ١ ، ص ٦٣٩ — ٦٤٠ و ٦٤٥ .

سليمان نفسه ، ثم بين البارسلان وبين عمه قتلشر ، الى ان انتهى الامر بانتصار البارسلان .^(١)
وعندما قتل البارسلان سنة ٤٦٥هـ / ١٠٧٣م وانتقلت السلطنة الى ابنه ملكشاه ، طمع فيه عمه
قاورت بك ، واندلعت الحرب بينهما ، الى ان ظفر ملكشاه بعمه فقتله .^(٢) وما ان توفي ملكشاه سنة
٤٨٥هـ / ١٠٩٢م ، وخلفه احد ابناؤه ، حتى هب اخوه تاج الدولة تنشر ، يجمع الجيوش ، ويعلم
نفسه سلطانا ، ثم يلتحم في معارك ضد ابناؤه اخيه حتى لقي مصرعه سنة ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م .^(٣) ثم
عمت الفوضى دولة السلاجقة ، وغدا من النادر ان يستقر احد سلاطينها في كرسية . ويذكر ابن
الجوزي في ترجمته للسلطان بركياروق (ت ٤٩٨هـ / ١١٠٥م) ، ان الخطبة لهذا السلطان قد قطعت
ست مرات في بغداد .^(٤) ويصف ابن الاثير حياة بركياروق ، خلال ترجمته له ، انها تقلبت بين
الرخاء ، والشدّة ، وانه كان يشرف على الهزيمة الماحقة ، ثم يكون له النصر ، وحينما يكون في قمة مجده
فينزل به خصومه مرارة الهزيمة وذل الانكسار .^(٥) كما يذكر ابن الاثير نفسه ، في ترجمته للسلطان
محمد بن ملكشاه (ت ٥١١هـ / ١١١٧م) ان خطبته قطعت عدة مرات أيضا .^(٦)

وقد جرت العادة ان يوصي السلطان السلجوقي بمن يخلفه بعد موته ، فطغرل بك ، أول
سلاطينهم ، أوصى بالمنصب بعده لابن أخيه سليمان ، لان طغرل بك نفسه لم يخلف أولاداً ، ولانه
كان قد تزوج من أرملة أخيه ، أم سليمان هذا . لذلك أوصى له بالسلطنة رغم كونه صبياً ، ورغم
ان أخاه البارسلان كان الأكبر والأكثر لشغل المنصب .^(٧) كذلك فان البارسلان أوصى
بالسلطنة بعده لابنه ملكشاه ، الذي كان اهلاً لها ، وأوصى به وزيره نظام الملك .^(٨)

(١) ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ١٦٠ و ١٦٢ .

(٢) الكاتب الاصفهاني ، تواريخ آل سلجوق ، ص ٤١ ، وابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ٣٧٠ - ٣٧١ .

(٣) ابن عساكر ، مجلد ٣ ، ص ٣٤٠ ، وابن الاثير ، الباهر ، ص ١٢ - ١٣ .

(٤) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ١٤٤ ، وابن الفوطي ، مجلد ٤ ، قسم ٢ ، ص ١٢١٨ .

(٥) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٣٨١ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ٥٢٦ .

(٧) ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ١٥٩ - ١٦٢ .

(٨) المصدر نفسه ، ص ٣٧٠ .

اما ملكشاه فقد عين ولي عهده في حياته ، وطلب من الخليفة ان يخطب لولي عهد السلطنة على المنابر في الجوامع ، بعد ذكر الخليفة والسلطان ، ثم له ذلك (١) ومحمد بن ملكشاه (ت ٥١١ هـ / ١١١٧) حرص على ان يجلس ابنه على العرش قبيل موته ، عندما احس يقرب انقضاء حياته (٢) . ولكن وصية السلطان الراحل لم تكن تلقى الاحترام الا اذا كان الوصي له ذا كفاة تمكنه من تسلم عرش السلطنة (٣) وفي بعض الحالات كانت اراضي الدولة السلجوقية تقسم بين ابنا السلطان المتوفي ، ولكن الصراع كان ينشب ، مع ذلك ، للاستئثار بمنصب السلطنة (٤) وبعد وفاة السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه ابن البارسلان سنة ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م اصبح منصب السلطنة لعبة بيد قادة الجند المرتزقة فاخذوا يولون سلطانا ثم يعزلونه ^{ويولون} غيره ، وصارت حيازة احد ابناء السلاجقة من قبل احد قادة الجند ، حتى ولو كان ذلك السلجوقي طفلا ، تعتبر ورقة رابحة ، اذ ان ذلك القائد يحارب باسم ذلك الامير ليستولي على البلاد ويغنم الاموال ويتصرف بالملك لنفسه (٥) وقد ساعد على نشوء هذا الوضع انه كان من عادة بعض السلاطين ان يسلّموا ابناهم الى بعض كبار رجال الدولة ليتربى في كنفه ، فالسلطان محمد بن ملكشاه تسلّم ابنه مسعود سنة ٥٠٥ هـ / ١١١١ م الى الامير مودود صاحب الموصل ، ليربيه . ولما قتل مودود سنة ٥٠٧ هـ وتولى الامير آق سنقر البرسقي مكانه تسلّم مسعود اليه . وبعد البرسقي سلم السلطان مسعود الى جوش بك ، صاحب الموصل ايضا (٦) وكان عند عماد الدين زنكي اثنان من ابناء السلطان محمود بن محمد

-
- (١) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ص ٣٨ .
 (٢) ابن خلكان ، مجلد ٤ ص ١٦٤ - ١٦٥ .
 (٣) مثال ذلك ان وصية السلطان طغرل بك لابن اخيه الطفل سليمان ، لم تحترم اذ انتزع اخوه الكبير البارسلان السلطنة منه . انظر ابن خلكان مجلد ٤ ص ١٦١ - ١٦٢ . ولم تحترم وصية ملكشاه بعد البارسلان ، اذ سرعان ما اندلع الصراع بين اخيه تتس واولاده ، وبين اولاده انفسهم بعضهم ضد البعض الاخر . انظر ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ص ٦٣ و ٧٦ - ٧٧ - ٨٤ - ٨٥ .
 (٤) ابن خلكان ، مجلد ٤ ص ٣٢٠ .
 (٥) الكاتب الاصفهاني ، تواريخ ال سلجوق ، ص ٢٠٥ - ٢١٠ ، وابن خلكان ، مجلد ٣ ص ١٧١ ، ومجلد ٤ ص ٢٨٨ . وابن المقفطي ٤ قسم ٢ ص ١٢١٦ ، وابن الاثير ، الباهر ، ص ١٠٨ و ١١٤ - ١١٥ .
 (٦) ابن خلكان ، مجلد ٤ ص ٢٨٨ .

ابن ملكشاه بن الب ارسلان ، وكان احدهما معتقلا بسنجار والاخر معتقلا بالموصل . (١)
كانت دولة السلاجقة دولة عسكرية ، وكانت القوة والسيطرة وحدهما تربطان البلاد التي
دانت لهم . فالسلاجقة الاترا ل الذين قدموا من وراء النهر ليستقروا في خراسان ، ثم لينطلقوا منها
فيخضعوا لما يعرف الان بايران والعراق وسوريا واجزاء من تركيا لم تكن تربطهم بشعوب هذه البلاد
سوى رابطة الدين . وصحيح ان تلك الرابطة كانت اقوى الروابط الانسانية في تلك العصور ، بيد
ان اكثر الحكام السلاجقة لم يشتهر عنهم الحرص على المثل الدينية في تعاملهم مع الشعوب التي حكموها ،
بل على العكس من ذلك ، فقد اشتهر عن الكثيرين منهم العسف والظلم ومصادرة الاموال . لذلك
لا يبدو غريبا الا يجد الباحث اثرا للتعاطف بين السلاجقة ورعاياهم ، وكان التنافر هو السمة البارزة . (٢)

وكان السلطان بالضرورة رجلا عسكريا ، وكان بقاءه في منصبه موهونا بقدرته العسكرية
وتحركه المستمر ، وكان فن الحكم بالنسبة اليه هو فن الحصول على الجنود المرتزة ، (٣) وتجميع
المحاربين الاقوياء المغامرين في معسكره . ولعل مما يرتبط بذلك اننا نجد السلاطين في حركة
شبه دائمة ، وهذه ظاهرة تلفت النظر ، فالسلطان الب ارسلان والسلطان ملكشاه ، وهما اقوى
سلاطين السلاجقة ، وهما اللذان تمتعت الدولة في عهدهما بأكبر قدر من الاستقرار هذان
السلطانان لم يشذا عن قاعدة الحركة المستمرة هذه . (٤) ويبدو ان منشأ هذا الميل
نحو التحرك الدائم هو طبيعة السلاجقة البدوية . ولعل أولئك الرجال

-
- (١) الكاتب الاصفهاني ، تواريخ ال سلجوق ، ص ٢٠٥—٢٠٧ .
(٢) سنعود الى بحث هذه الظاهرة اثنا محاولتنا لتقويم الحضارة العربية في العهد السلجوقي .
(٣) الكاتب الاصفهاني ، تواريخ ال سلجوق ، ص ٢٧١—٢٧٤ .
(٤) لا يتسع المجال للتأريخ لتحركات سلاطين السلاجقة ، لان تتبعنا من هذا القبل يخرجنا من نطاق هذه الدراسة الحضارية . ويمكن الرجوع الى المجلدين العاشر والحادي عشر من كتاب الكامل في التاريخ ، لابن الاثير ، لاجراء مثل هذا التتبع .

الذين كانوا يحركون تلك القوات العسكرية حركة شبه مستمرة كانوا يدركون ان الجيوش ان لم تشغل بالغزو او بالحركة اشتغلت بالفساد والافساد . وفي عهد السلطان الب ارسلان وعهد ابنه السلطان ملكشاه (٤٥٥ — ٤٨٥ هـ) نتج عن هذه التحركات فتوح وتوسيع لرقعة الدولة ، وتم انتزاع بلاد الشام من ايدي الفاطميين الذين كانوا يخالفون العباسيين والسلاجقة في المذهب . اما في عهد من خلفها من السلاطين فقد غدت هذه التحركات تطاحنا داخليا هائلا خسرب البلاد وحطم قواها .

والظاهرة التي تثير الدهشة حقا هي ان حكم السلاجقة ، منذ دخولهم العراق ، لم يتركز الى عصبية عائلية او قومية او دينية ، فرجال الاسرة السلجوقية كانوا في عراق شبه مستعربا بينهم ، وكان معظم قادة جيوشهم ، وجنودهم ، ان لم يكونوا كلهم ، من الماليك والمرتزة ، تركا واكرادا وارما واحباشا في بعض الاحيان . اما وزراءهم وكتابهم فناتوا من الفرس . فقد كان قسيم الدولة اقنقر ملوكا للسلطان الب ارسلان . وعندما تولى ولده ملكشاه السلطنة اصبحت اقنقر اكبر امراء السلطان ، حتى انه كان يقف بجانبه ، وكان يهين اخاه تتر امامه احيانا (١) وكان من بار الامراء التابعين لملكشاه ابو نصر ساوتكين سرهنتك بن عبد الله الخادم الجلالى الامير ، وقد سلم اليه السلطان ملكشاه " ممالك خراسان فخطبها احسن ضبط واحبه اهل ولايته " (٢) وساتكين هذا رقيق خصي (٣) وعندما دارت المعركة بين السلطان ملكشاه وعمه قاورد سنة ٤٦٥ كان ضمن المقاتلين في جيش ملكشاه مسلم بن قريش العقيلي ، صاحب الموصل ، ومنصور بن دبيس الاسدى ، صاحب الحلة ، ومن معهما من المقاتلين العرب والاكراد . وعندما حكم ملكشاه على عمه بالموت خنقا قولى التنفيذ ملوك ارمني (٤)

-
- (١) ابن الاثير ، الباهر ، ٤ — ٥ ، وابن العديم ، بغية الطلب ، مجلد ٣ ورقة ٢٦٧ ن — ٢٦٩ و .
(٢) ابن الغوطي ، مجلد ٤ ، قسم ٢ ، ص ٢٣٣ .
(٣) ذكر السمعاني (الانساب ٤ ، ٥ ، ٤ — ٥) ان لقب الخادم يطلق على الماليك الخصيان الذين كانوا يخدمون في القصور .
(٤) الكاتب الاصفهاني ، تواريخ ان سلجوق ، ص ٤٨ .

وكان مجاهد الدين بهروز الذي ولي شحنة العراق اكثر من ثلاثين سنة * خادما روميا أبيض اللون وكان خادما للسلطان محمد (١) وناهيك بأهمية منصب الشحنة الذي يعتبر نائبا للسلطان في العراق . وكانت تكريت اقطاعا بلبهروز هذا ، وقد كان في خدمته نجم الدين أيوب ، الكردي ، وقد جعله دزدارا لقلعة تكريت . (٣) وكان السلطان سنجر يشتري الممالك ، فاذا اعجبه احدهم اشترى له ماليا ، ربما بلغوا الفا ، وجعله أميرا ، وأقطعه اقطاعات . (٤) وكان غلمان عماد الدين زنكي وحرسه الخاص من الترك والارمن والروم . (٥) وقد عمل اسامة بن منقذ فترة في خدمة الامير فخر الدين قرا أرسلان بن سقمان بن ارتق ، السلجوقي ، وكان من قادة جيش قرا أرسلان هذا خادما افرنجي . (٦) وكان في جند اسامة عدد من الاكراد . (٧) وبعد وفاة رضوان بن تشر بن الب أرسلان ، صاحب حلب ، خلفه ابنه الصبي الب أرسلان ، وكان المشرف والمدير لشئون دولته هو خادما ابيه ، الخصى للؤلؤ البابا . (٨) بل اننا نجد خصيا حبشيا من كبار أمراء السلطان ، وهو مسعود البلالي ، يصيح شحنة للعراق ، ونائبا للسلطان في بغداد . (٩) وثمة خصي حبشي آخر اسمه جوهر الخادما ، أحد ممالك السلطان سنجر ، قيل انه كان متوليا على المملكة متحكما فيها ، وقد اغتاله الباطنية سنة ٥٣٤ هـ . (١٠)

أما عن العصبية الدينية فان اغلب حروب السلاجقة كانت ضد مسلمين آخرين ، اوضح بعضهم البعض . وفيما يتعلق باتخاذ وزراء من الفرمريكي ان نذكر من هؤلاء الوزراء عميد الملك الكدرى ، (١١) ونظام الملك ، (١٢) وأن الملاطين استوزروا خمسة من أولاد نظام الملك وعددا من احفاده . (١٣)

- (١) ابن خلكان ، مجلد ٦ ، ص ١٤١ .
- (٢) انظر ما يلي .
- (٣) ابن خلكان ، مجلد ٦ ، ص ١٤١ .
- (٤) الكاتب الاصفهاني ، تواريخ السلجوقي ، ص ٢٠٨ .
- (٥) اسامة بن منقذ ، ص ٨٣ .
- (٦) المصدر نفسه ، ص ٤٨ — ٤٩ .
- (٧) ابن عساكر ، مجلد ٣ ، ص ٩٤ — ٩٥ .
- (٨) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ١٠ ، ص ١٣٠ ، ابن خلكان ، مجلد ٥ ، ص ٢٧٥ .
- (٩) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ١٠ ، ص ٨٢ .
- (١٠) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٣١ .
- (١١) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٦٤ — ٦٨ .
- (١٢) المصدر نفسه ، ص ٦٦ .
- (١٣) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٣٥ ، الكاتب الاصفهاني ، تواريخ السلجوقي ، ص ٥٩ و ٢٤١ .

ويبدو ان اللغة الفارسية كانت لغة البلاط السلجوقي ، فالسلاطين استوزروا رجالا من
الفرس ، وقد وردت بضع اشارات الى استعمال السلاطين لهذه اللغة ، ^(١) ولكنها قليلة ، ولا تنفي
لتأكيد صحة هذا الفرض ، بيد انني لم اعثر على ما ينفيه . وربما كان السلاطين قد ادركوا قصور
اللغة التركية في صورتها الدارجة في ذلك العصر عن الاتساع لاغراض الحكم والادارة .

وحيث اشتغل السلطان السلجوقي بالامور العسكرية ، في حالة كونه سلطانا قويا ، وبانتهاج
اللذات ، كما هي حالة بعض السلاطين المتأخرين ، فقد ترك لوزيره وكبار موظفيه تدبير ادارة ملكته ،
حتى انه قيل عن ملكشاه نفسه ، انه لم يكن له من الامر شي . بجانب وزيره نظام الملك ، وكان منصرفا
الى الصيد ، بينما التدبير كله للوزير . ^(٢) ويصف السبكي مدى اعتماد السلطان ملكشاه على وزيره
فيذكر ان وزارة نظام الملك كانت فوق السلطنة ، وأنه بالرغم من الاتساع العظيم لدولة ملكشاه فانه
” لم يكن له مع نظام الملك غير الاسم والابهة والتنوع في اللذات ، وكان مشغولا بالصيد واللذة ، ونظام
الملك هو الامر المتصرف ، لا يجري جليل ولا حقير الا بأمره ، مستبد بذلك . ^(٣) وربما كان في هذا
الكلام بعض المبالغة من حيث درجة انصراف ملكشاه الى اللذات ، سيما اذا اخذنا بعين الاعتبار ان
السبكي وابن خلكان ونظام الملك ينتمون جميعا الى المذكوب الشافعي ، وان هذين المؤرخين ربما
قصدا رفع شأن الوزير على حساب السلطان . ولكن ، بالرغم من ذلك فان هذا الوصف يؤكد لنا
اعتماد السلطان على وزيره ، في كثير من الاحيان ، الى درجة كبيرة . وكان للسلطان بجانب الوزير
عدد من الموظفين الهامين ، كالحاجب ، والطغرائي ، والمستوفي ، وصاحب المخزن . ^(٤) ولا تنحصر
أهمية هؤلاء الموظفين فيما كانوا يقومون به من واجبات منصبهم الرسمي ، بل تتعدى ذلك الى المشاركة
في النشاط السياسي الظاهر والخفي ، في بلاط السلطان ، حيث التنافر والكيد والدر لا تكاد تتوقف . ^(٥)

(١) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٣٥ ، الكاتب الاصفهاني ، تواريخ السلجوق ، ص ٩٥٩ و ٩٦٠ .

(٢) ابن خلكان ، مجلد ١ ، ص ٣٩٥ — ٣٩٧ .

(٣) السبكي ، مجلد ٤ ، ص ٣١٧ .

(٤) الكاتب الاصفهاني ، تواريخ آل سلجوق ، ص ٥٩٠ .

(٥) ابن خلكان ، مجلد ١ ، ص ٣٩٨ و ٤٤١ ، مجلد ٤ ، ص ٧٧ ، ابن الفوطي ، مجلد ٤ ، قسم ١ ،

ص ٤٠٤ ، السبكي ، مجلد ٤ ، ص ٣٢٦ .

العلاقة بين الخليفة والسلطان

في أواخر العهد البويهي برزت شخصية أبي الحارث ارسلان البساسيري التركي ، أحد مماليك عضد الدولة بن بويه^(١) وقد استفحل امر البساسيري " فاستولى على البلاد ، وطار اسمه وتهيئته امراء العرب والعجم ، ودعي له على كثير من المناير العراقية ٠٠٠ وجبى الاموال ولم يكن القائم بأمر الله يقطع أمرا دونه " (٢) وفي سنة ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م اتهم رئيس الرؤساء ، وهو وزير الخليفة ، البساسيري بأنه كاتب صاحب مصر . وقد شهد جماعة من الاتراك عند الخليفة ان البساسيري أخبرهم بعزمه على نهب دار الخلافة والقبض على الخليفة . وعند ذلك تحقق القائم من سوء نيته ، فكتب " طغرل بك امير الغز ، وهو بنواحي الري ، يستنهضه على المسير الى العراق " (٤) وما ان حل شهر رمضان من تلك السنة حتى اقبل طغرل بك بجحافل السلاجقة على بغداد ، فوصلها في الخامس والعشرين من ذلك الشهر . وأرسل الخليفة وزيره على رأس موكب عظيم لاستقبال طغرل بك ، واستحلفه الوزير على الاخلاص للخليفة ، وللملك الرحيم ، وآخر البويهيين . (٥) ولكن فتنة ما لبثت ان نشبت بين عامة بغداد وجند السلاجقة ، الذين دخلوا البلاد لشراء حاجياتهم ، فقبض طغرل بك على الملك الرحيم ، واتهمه بتدبير مؤامرة على عساكره . وقد عتب طغرل بك على الخليفة ، وعتب الخليفة عليه ، لان الملك الرحيم كان قد استجار بالقائم ، فتعهد له بحماية حياته . وقد هدد الخليفة بترك بغداد ، (٦) فكان هذا اول احتكاك بين الخلافة وبين السلطان السلجوقي .

وفي شهر ذي الحجة من سنة ٤٤٩هـ / ١٠٥٧م استقبل الخليفة سلطان السلاجقة ، وقال له بلسان وزيره : " ان أمير المؤمنين شاكرا لسعيك ، حامدا لفعلك ، مستأنسا بقررك ، وقد ولاك

(١) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٨٢ ، ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ١٥٧ .

(٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ص ١٦٣ .

(٣) المصدر نفسه ، والصفحة ذاتها .

(٤) المصدر نفسه ، والصفحة ذاتها .

(٥) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ٩ ، ص ٦١٠ — ٦١١ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ٦١٣ .

جميع ما ولاه الله من بلاده ، ورد عليك مراعاة عبادته ، فأتى الله فيما ولاك ، وأعرف نعمته عليك
في ذلك ، واجتهد في نشر العدل ، وكف الظلم وأصلح الرعية ٠٠٠ وخاطبه الخليفة بملك المشرق
والمغرب ، وأعطى العهد وخروج ، وأرسل إلى الخليفة خدمة كثيرة ، منها خمسون ألف دينار ، وخمسون
مملوكاً أتراكاً من أجود ما يكون ، ومعهم خيولهم وسلاحهم ، إلى غير ذلك من الغياب وغيرها (١)

وكان طغرل بك بعيد دخوله بغداد ، قد أمر بتعمير دار المملكة (٢) ثم شرع الآن يمارس
سلطانه في بغداد والعراق ، بموجب هذه الولاية الرسمية الشكلية ، فضمن البصرة والاهواز بثلاثمائة
الف وستين ألف دينار (٣) . وفي سنة ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م نجد السلطان طغرل بك يضمن واسط بمائتي
الف دينار ، ثم يضمن البصرة (٤) وفي السنة التالية نراه يولي محمود بن الأخرم الخفاجي على الكوفة ،
ويضمنه خوائس السلطان فيها بأربعة آلاف دينار في السنة بعد صرف واليها السابق (٥) . وفي سنة
٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م يجعل من جملة ما قدمه مهراً لابنة الخليفة بعقوبة ، بالإضافة إلى ما كانت تملكه
زوجة السلطان المتوفاة من أرض العرار (٦) وفي سنة ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م نجد السلطان يعقد
" ضمان بغداد على أبي سعيد القاني بمائة وخمسين ألف دينار (٧) ولكننا نلاحظ أنه اقتصر
في تلقيب طغرل بك على لقب " ملك المشرق والمغرب " وكان أول من لقبه الخليفة بالسلطان رسمياً
هو البارسلان ، الذي خلف طغرل بك في منصب السلطنة (٨) وقد بدأ سلاطين السلاجقة يعينون

- (١) ابن الأثير ، الكامل ، مجلد ٩ ، ص ٦٢٤ .
- (٢) أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد أو مدينة السلام (القاهرة : مكتبة
الخانجي ١٣٤٩ هـ / ١٩٣١ م) ، مجلد ١ ، ص ١٠٦ .
- (٣) ابن الأثير ، الكامل ، مجلد ٩ ، ص ٦١٣ - ٦١٤ .
- (٤) المصدر نفسه ، مجلد ١٠ ، ص ٨ .
- (٥) المصدر نفسه ، ص ١٢ .
- (٦) المصدر نفسه ، ص ٢٢ .
- (٧) المصدر نفسه ، ص ٢٥ - ٢٦ .
- (٨) كمال الدين عمر بن أحمد بن العديم ، بغية الطلب من تاريخ حلب ، مصور عن مخطوطة / في
مكتبة أحمد الثالث باستنبول تحت رقم ٢٧٢٥ ، مجلد ٣ ، ورقة ٢٧ ، ن .

مثلا لهم في بغداد ، يعرف بـ " الشحنة " هو بمثابة حاكم عسكري ونائب للسلطان يحفظ مصالحه (١) وهكذا يصبح بإمكاننا ان نحدد اسر العلاقات بين الخليفة والسلطان بالنقاط التالية :

- أ — كان الخليفة هو صاحب السلطة من الناحية النظرية
- ب — ان حكم السلطان وسلطانه ما هي الا منحة وتفويض من الخليفة ، وذلك من الناحية النظرية ايضا .
- ج — ان مركز الخليفة الديني واستقرار نظرية حق العباسيين في الخلافة ، في نفوس المسلمين من اهل السنة ، وعدم تصور انتقال الخلافة الى السلاجقة ، وحاجة هؤلاء الى اكساب حكمهم وتسلطهم صفة الشرعية الدينية في نظر الشعوب التي انطوت تحت لوائهم كل ذلك هو الذي مكن الخلافة العباسية من الاستمرار في عهد السلاجقة .
- د — اعتبرت بلاد الخلافة التي يصل اليها سلطان السلاجقة ، بما في ذلك مدينة بغداد نفبها ، تحت حكم السلطان المباشر ، يتصرف فيها اداريا وماليا كيف شاء ، ولكن في حدود الشريعة والمصلحة ، ولو من الناحية النظرية .
- هـ — كانت الخلافة في الفترة الاولى من العهد السلجوقي مستضعفة مغلوبة على امرها ، عارية من كل سلطة حقيقية .

هكذا بدأت العلاقات بين الخليفة والسلطان منذ السنة الاولى . بقيت نقطة ربما نحتاج الى ايضاح ، وهي : ما هي الالتزامات المالية التي كانت للخليفة على السلطان ؟ اورد ابن الجوزي في حوادث سنة ٤٨٢ هـ ان السلطان بركيا روق بن ملكشاه قدم بغداد و " تقرر مع الخليفة المقتدى بان يحمل السلطان اليه المال الذي ينسب الى البيعة . وان يخطب لـ " .

(١) هذا الوصف خاص بشحنة بغداد ، اما اختصاصات صاحب المنصب في المدن الاخرى فهي اقرب الى اختصاصات صاحب الشرطة ، التي كانت تدخل ضمن مهام شحنة بغداد ايضا (انظر ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ١٠ ، ص ٢١٥)

بالسلطنة على رسم ابيه ٠ (١) وفي عبارة " المال الذى ينسب الى البيعة " ما يوحي بان ما كان يدفع هو مجرد مبلغ مقطوع وقت تولي السلطان الجديد فقط (٢) ونة اشارات اخرى تقول ان السلاطين كانوا يحددون للخليفة اقطاعا يتفق من دخله (٣) ٠ ومن هنا يمكن ان نستنتج ان السلطان كان يقدم مبلغا من المال عندما يقلده الخليفة ويخلع عليه بالحرقة التقليدية ، وانه ، اى السلطان ، كان يحدد للخليفة اقطاعا يدر دخلا دائما ٠ ولكن الخليفة الجديد كان يدفع للسلطان مالا عند مبايعة الاخير له ، فقد جاء في رد الراسد على السلطان مسعود عندما بعث يطالبه بالمال ٠٠٠ واما مال البيعة فلمعمرى الا انه ينبغي ان تعاد الي املكي واقطاعي حتى يتصور ذلك ٠٠٠ (٤) وعندما قدم السلطان ملكشاه الى بغداد سنة ٤٨٠ هـ بعث الى الخليفة صندوقين فيهما مال ٠٠٠ (٥) وفي سنة ٥١٢ هـ بعث السلطان سجر الى بغداد بكتاب فيه اقطاع للخليفة بخمسين الف دينار ، مع ثياب وهدايا اخرى (٦)

ومن هنا يمكن القول : ان السلطان كان يقدم للخليفة مالا وهدايا عندما يحصل منه على التقليد بالسلطنة ، وان الخليفة كان يدفع للسلطان والقادة المتنفذين ، في حالة ضعف السلطان ، مبالغ من المال عند مبايعته بالخلافة وان السلاطين كانوا يقدمون — احيانا — بعض الهدايا على سبيل المجاملة والتودد ، في اوقات غير محددة ، عندما يكون جو العلاقات بين الطرفين حمئا ٠

-
- (١) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٨٠ .
 - (٢) المصدر نفسه ، مجلد ٨ ، ص ٦٥ .
 - (٣) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٥١ ، ابن الطقطقي ، ص ٢٧٦ .
 - (٤) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ١٠ ، ص ٥٤ ، وانظر مجلد ٨ ، ص ٥٩ فقيه مثل اخر .
 - (٥) المصدر نفسه ، مجلد ٩ ، ص ٣٦ .
 - (٦) المصدر نفسه ، ص ٢٠٦ .

بقي ان نذكر ان هيئة السلطنة السلجوقية لم تدم الا ما يقارب اربعين سنة (٤٤٧ هـ)
١٠٥٥ م - ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م) ، هي التي كان خضوع الخلافة للسلطنة فيها تاما ، وهي المدة
التي شغل منصب السلطنة فيها طغرليك والبارسلان وملكشاه ، وعندما تفجر النزاع داخل الاسرة
السلجوقية ، ذلك النزاع الذي لم ينقطع الا بانقطاع دولتهم ، لم تتمكن الخلافة من التحرر بسهولة ،
الا انها صارت تجد الفرصة لاستعادة بعض النفوذ ، وممارسة بعض الضغوط ، غير انها - من
ناحية اخرى - لم تسلم من عبثهم . وقد سبق ان قسمنا العهد السلجوقي الى ثلاث فترات عند
بحثنا لتطور مركز الخلافة ، والواقع ان هذا التطور كان مرتبطا - بالدرجة الاولى - بنوع العلاقة
بين الخلافة والسلطنة . لذلك فان هذا التقسيم ينبغي ان يظل في الحسبان اثناء بحث العلاقة
بين الخليفة والسلطان .

ومنذ بداية العهد السلجوقي حاول الخلفاء توثيق ارتباطهم بالسلاجقة ، وتأكيد
ولاء السلاطين لهم . وكانت المصاهرة هي التي تدرج بها الخلفاء لتحقيق هذه الغاية . ففي سنة
٤٤٨ هـ / ١٠٥١ م تزوج الخليفة القائم بابنة اخي السلطان طغرليك (١) ثم انه زوج ولي عهده
المقتدى بابنة السلطان البارسلان وذلك سنة ٤٦٤ هـ / ١٠٧٢ م (٢) كذلك خصب الخليفة المقتدى
ابنة السلطان ملكشاه بن البارسلان سنة ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م حيث زفت اليه عام ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م .
غير انه لم يلبس ان اعرض عنها ، فطلبت العودة الى كف ابيها بعد ان كانت قد انجبت طفلا .
ويبدو ان هذا الزواج الفاشل لم يحقق الغرض المرجو منه ، فقد جاء ملكشاه الى بغداد بعد حرد
ابنته عازما على خلع الخليفة ، الا انه مات قبل ان ينفذ وعيده (٣) . وفي سنة ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م

(١) المصدر نفسه ، مجلد ٨ ، ص ١٦٩ - ١٧٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .

(٣) تاج الدين ابوطالب علي بن انجب بن الساعي ، نساء الخلفاء ، المسمى جهات الائمة
الخلفاء من الحرائر والائمة (القاهرة : دار المعارف ، د . ت) ص ١٠٩ - ١١٠ .

ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ٣٧٤ ، السبكي مجلد ٤ ، ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .

نجد الخليفة المنتهي يتزوج بنت الحسن محمد بن ملكشاه ، اخت السلطان مسعود ،^(١) غير انه لا يمكن القول ان رتبة العلاقات بين الخليفة والسلطان خلال الفترة الاولى نتجت بالضرورة عن هذه المصاهرات ، بل ان الاهم من ذلك هو قوة السلطان وثبات مركزه من ناحية ، وضعف الخليفة وخضوعه من ناحية اخرى . ويمكن ان يضاف الى ذلك ان الوزير نظام الملك ، الذي كان صاحب الامر النافذ في دولة السلاجقة طوال ثلاثين سنة ، بذل جهودا كبيرة في تحسين العلاقة بين الطرفين .^(٢) وكان الخلفاء يحفظون له هذه المكرمة .^(٣) على ان هذه العلاقات الهادئة لم تسلم من بعض الزواجر العابرة ، فقد تعرضت للخطر عندما رفض الخليفة القائم تزويج ابنته من طغرل بك ، فاضطر الى الرضوخ والموافقة على الزواج ،^(٤) كما ان السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك تدخلوا في اجبار الخليفة على عزل وزيره ابي شجاع .^(٥) وفي سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م كان السلطان ملكشاه قد قدم الى بغداد بنية خلع الخليفة — كما ذكرنا — الا ان موته حال دون حدوث الصدام .

وبموت ملكشاه وغياب وزيره المصلح القوى ، نظام الملك عن مسرح الاحداث ، نشب الصراع بين أبناء البيت السلجوقي ، وبدأت حقبة جديدة في علاقة الخلفاء بالسلطين . فعند موت ملكشاه حرصت زوجته ترکان خاتون على ان يكون الامر لابنها محمود . وكانت من قوة الشكيمة والجلد بحيث استطاعت ان تضبط الجيوش وتمنع اللطم والعميل ، ثم تفرق الاموال لارضاء الجند ، وترتب الامر مع الخليفة المقتدى ليقلد ابنها محمود ، ذا الخمس سنوات والعشرة أشهر ، منصب السلطنة . وخطب لمحمود الطفل على منابر بغداد ، وأفاض الخليفة عليه الخلع . ويبدو ان المقتدى كان يترقب فرصة ضعف من السلاجقة ليستعيد للخلافة شيئا من هيبتها وسلطتها ، اذ نراه يبذل قصارى جهده ليكون بيده هو تعيين أمير الجيوش ومتولي شئون العمال وجباية الاموال . وحرصت أرملته ملكشاه من جانبها على ان يكون ذلك من اختصاصات ابنها . ويبدو ان المساومة كانت عنيفة ، اذ

(١) ابن خلکان ، مجلد ٤ ، ص ١٦٥ .

(٢) السبكي ، مجلد ٤ ، ص ٣٢٤ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٢٢ .

(٤) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ص ٢١٨ — ٢١٩ .

(٥) السبكي ، مجلد ٤ ، ص ١٣٩ .

لجأ الطرفان الى الفقهاء ، وافق الغزالي بعدم جواز ما تطلبه ترکان خاتون ، وافق بعض الفقهاء بجواز ذلك * فغلب قول الغزالي (١) * وقد عملت ام محمود للقبض على برکيا روق ، الاح الاکبر لابنها ، وهو من ام ثانية تدعى زبيدة خاتون ابنة عم ملکشاء ، فارسلت ترکان احد القادة الى اصبهان معه خاتم زوجها الراحل ، وامرت ذلك القائد باعتقال برکيا روق وضبط المدينة ، خشية مطالبتة بالسلطنة ومنازعتة لابنها . وعندما شاع بجهل نبأ موت السلطان ملکشاء ، ووصل الى حامية اصبهان ثار ممالیک نظام الملک واقتحموا معتقل برکيا روق وحرروه ، وخطبوا لهما اصبهان ، وذلك لان تاج الملك ابا الغنائم الذى ايج وزيرا للسلطان الطفل محمود ، هو الذى اغر صدر ملکشاء على سيدهم نظام الملک واغراه بقتله (٢) وسارت ترکان خاتون بقواتها الى اصبهان ، فخرج منها برکيا روق بجنده ، ثم انتصر على امرأة ابيه بعد ان انضم اكثر قادة جيشها اليه ، فدارد شرانم خصومه الى سور اصبهان ، وضرب عليها الحصار . وفي داخل المدينة تمرد بعض ممالیک نظام الملک ولم يهدأوا الا بعد ان قتلوا الوزير تال الملك ابا الغنائم ومثلوا به ، انتقاما لسيدهم وذلك نفي محرم ٤٨٦ هـ / شباط ١٠٩٣ م (٣) .

وفي بلاد الشام ، حيث كان الملک تاج الدولة تتشربن البارسلان واليا من قبل اخيه الراحل ملکشاء ، خطب تتش لنفسه بالسلطنة ، ثم استولى على الرحبه ، ودخل نسي طاعته آق سنقر قسيم الدولة صاحب حلب ، وبوزان متولي الرها . ثم طلب من الخليفة ان يقلده السلطنة فلم يجبه (٤) وفي اواخر تلك السنة ، اغنى سنة ٤٨٦ هـ / اوائل ١٠٦٤ م ، وصل

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٦٢ — ٣ ، وابن الاثير ، الكامل ، مجلد ٩٠ ، ص ٢١٠ — ٢١٤

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٢١٥ ، وقد ذكر ابن الجوزى في ترجمته لبرکيا روق (المنتظم ٩٦ ، ص ١٤٤) ان ترکان خاتون نفسها دبرت ، واشترکت في التدبير ضد نظام الملك ، لانه حذر السلطان من جعل ولاية العهد لابنها بسبب صغر سنه .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٢١٥ — ٢١٦ .

(٤) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٧٦ — ٧٧ . وابن الاثير ، الكامل ، مجلد ٩٠ ، ص ٢١٩ — ٢٢٠ .

بركيا رود بن ملكشاه الى بغداد مطالباً الخليفة بالخطبة له ، ومتعهدا بدفع مبلغ من المال . وقد تم الاتفاق بينهما بالفعل وامر الخليفة كاتب انشاء ان يعد العهد لبركيا رود ، فاعده ، وجلس المقتدى يقرأ قبل اعلانه ، وهو يتناول طعامه ، وقهرمانته شمس النهار قائمة على راسه ، واذ به يتلاشى فجأة ويسقط ناقد النطق والحركة (١) وقد اتهمت القهرمانه بدس السم للخليفة (٢) وذلك امر محتمل جدا ، سيما في وسط هذه الدوامة من التآمر والدسائس والصراع . والمرجح ان هذه المؤامرة ان كانت صحيحة قد نفذت لصالح ترکان خاتون ، ام محمود ، التي كانت ما تزال باصبهان تواصل مساعيها الخرقاء لاستخلاص عرش السلطنة لابنها الطفل . ففي شعبان من سنة ٤٨٦ هـ / ١٠٩٤ م دعت احد امراء السلاجقة ، وهو اسماعيل بن ياقوتي بن داود ، ابن عم ملكشاه ، وخال بركيا رود ، دعتاه الى اصبهان ، واعدة اياه بان تتزوج منه وان تجعل كل السلطات الفعلية بين يديه . وقد استجاب ذلك الامير الاحق لاغراء تلك النمرة ، واشتبك مع ابن اخته في معركة كان نصيبه منها هزيمة منكرة ، حيث فر للاحتماء باسوار اصبهان ، ومع ذلك فقد تلفته ترکان خاتون بالاكرام وامرت بذكر اسمه في الخطبة بعد اسم ابنها ، كما انها ضربت اسمه على السكة . ولكن قادة جيشها خاصة الاميران ، اكبرهم ، عارضوا مشروع الزواج هذا ، واضطروا اسماعيل لمغادرة اصبهان ، فقتله بعض رجال بركيا رود (٣) ثم توفيت ترکان خاتون سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م . فانحل امر ابنها محمود بموتها ، وعقد الامر لبركيا رود (٤) . الذي كان قد خطب له بالسلطنة في بغداد اوائل السنة ذاتها (٥) ثم اندلعت نيران الحرب بين بركيا رود وعمه تتش بن الب ارسلان ، فحلت الهزيمة ببركيا رود قرب اصبهان ، حتى انه اضطر للجوء الى اسوار المدينة وهي تحت حكم اخيه وعدوه اللدود محمود . وقد ادخله رجال محمود خدعة ليقبضوا عليه ، بعد ان كانوا قد عارضوا في دخوله . ولقد حاولوا سمل عينيه ، ولكن محمود وقع آنذاك فريسة مرض الجدرى ، فنصح الطبيب ابن التلميذ رجال محمود

(١) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٨٠ - ٨١ .

(٢) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٢٨٢ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٢٢٤ .

(٤) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٨٤ .

(٥) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٢٢٩ .

ان يبقوا على بركياروق ، حتى اذا ما اصاب سيدهم مكروه نصبوه مكانه .^(١) وابتسم الحظ لبركياروق
 ان مات اخوه بعلته بعد ايام ، فتسمن هو عرش اصبهان . ثم حاله الحظ ثانية عندما تمكن من هزيمة
 عمه تتش وقتله قرب الري ، وذلك في صفر من سنة ٤٨٨ هـ / شباط ١٠٩٥ م .^(٢) ويورد ابن الجوزي
 عبارة يفهم منها ان خطبة بركياروق كانت مقطوعة في بغداد اوائل عام ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م .^(٣) واسارة
 اخرى مفادها ان علاقة هذا السلطان بالخلافة كانت حسنة في رمضان من تلك السنة .^(٤) وفي
 سنة ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م وصل السلطان محمد بن ملكشاه الى بغداد مصطحبا اخاه سنجر ، وجلس لهما
 الخليفة المستظهر في قبة التاج ، وخلع على محمد " الخلع السبع التي جرت عادة السلاطين بها ،
 والبسر الطوق والتاج والسوارين ، وعقد له الخليفة اللواء بيده ، وقلده سيفين ، واعطاه خمسة افراس
 بمراكبها ، وخلع على اخيه سنجر خلعة امثاله ، وخطب لمحمد بالسلطنة في جامع بغداد . . . وتركوا
 الخطبة لبركياروق . . . ثم قوى امره واستظهر ، وجرى بينه وبين اخيه محمد المصاف على الري ،
 وانكسر محمد . . .^(٥) ثم يأتي بركياروق الى بغداد في صفر ٤٩٣ هـ / ١١٠٠ م فيستقبله وزير
 الخليفة ، ويدخل المدينة ، ويقيم بدار السلطنة .^(٦) ثم قطعت الخطبة للسلطان بركياروق في رجب
 من السنة ذاتها ، واعيدت للسلطان محمد^(٧) وكان ذلك بسبب هزيمة بركياروق . خلاصة القول ان
 خطبة بركياروق قطعت ست مرات^(٨) خلال مدة سلطنته التي دامت اثنتي عشرة سنة وأشهرًا .^(٩)
 وعندما توفي بركياروق عام ٤٩٨ هـ / ١١٠٥ م^(١٠) صفا الجو للسلطان محمد ، ولم يبق له منازع ، حتى
 توفي عام ٥١١ هـ / ١١١٧ م .^(١١)

-
- (١) المصدر نفسه ، ص ٢٣٤ .
 - (٢) المصدر نفسه ، ص ٢٣٤ و ٢٤٤ - ٢٤٥ .
 - (٣) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٨٤ .
 - (٤) المصدر نفسه ، ص ٨٧ .
 - (٥) ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ١٦٣ .
 - (٦) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ١١٢ .
 - (٧) المصدر نفسه ، ص ١١٣ .
 - (٨) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ١٤٤ .
 - (٩) ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ٢٤٣ .
 - (١٠) المصدر نفسه ، الصفحة ذاتها .
 - (١١) المصدر نفسه ، مجلد ٤ ، ص ١٦٤ .

وهكذا نرى ان السنوات الثلاث عشرة التي تلت وفاة السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك كانت طافحة بالفوضى والحروب والدمار، وأن الخلافة عانت مر المعاناة من تصارع المطالبين بلقب السلطنة والخطبة بأسمائهم على المنابر. وفي مثل هذا الجو كان من المحتم ان تفكر الخلافة في محاولة استرداد شي من هيبتها وسلطانها، حتى بالرغم من استكانتها واستنامتها في الفترة الاولى من حكم السلاجقة. وربما كان مما شجع الخلفاء على هذا النحو من التفكير ان قاعدة الحكم السلجوقي الرئيسية كانت خارج العراق. هذا بالإضافة الى الصراع الدامي الذي دار بين الجيوش السلجوقية باسم الملوك والسلاطين الاطفال الذين كانت تحركهم النساء والوزراء والقادة المغامرون الداعمون في مغامرات الحكم^(١). ويبدو لي ان الخلافة تلمست طريقها نحو التحرر بحذر شديد، سيما بعد سقوط السلطان محمود الطفل، الذي تمكن الخليفة ان يحرز على حسابه بعض السلطات. ومن نشاط الخليفة في هذا الميدان محاولاته اغراء السلاجقة بعضهم ببعض، فنراه ينهض لمناصرة السلطان محمد في حربه مع بركياروق سنة ٤٩٥هـ / ١٠٢٠م بل ويجمع السفن للقتال، ويتخذ الاستعدادات للدفاع^(٢). وفي سنة ٤٩٦هـ / ١٠٣٠م نجد الخليفة المقتدى يتجراً فيأمر بقطع الخطبة للسلاطين المنازعين جميعاً، وبعدم ذكر احد غير الخليفة، وذلك بعد ان كانت الخطبة قد اعيدت لبركياروق في المحرم من السنة ذاتها^(٣). ولم يكد السلطان محمد بن ملكشاه يقضي نحبه سنة ٥١١هـ / ١١١٧م حتى بدأت حلقة جديدة من حلقات الصراع على منصب السلطنة، بين سنجر بن ملكشاه، الذي كان والياً على خراسان من قبل أخيه بركياروق ثم محمد، ويحمل لقب ملك، وبين ابن أخيه محمود بن محمد، الذي تولى السلطنة بعد وفاة أبيه. لقد استنكف سنجر ان يكون تابعاً لابن أخيه، فقامت بينهما حروب كان النصر النهائي فيها حليف سنجر، الذي كان قد اعلن نفسه سلطاناً واقيمت له الخطبة ببغداد اثر اول انتصار احرزه ضد ابن أخيه^(٤). ثم انه رقى لابن أخيه، وصالحه

(١) كان عمر محمود بن ملكشاه خمس سنوات وأشهر، ويذكر ابن الجوزي (المنتظم ٩٦ ص ١٤٤) ان عمر بركياروق عند وفاته بلغ أربعاً وعشرين سنة وشهرين. وقد ذكر ابن خلكان (مجلد ١، ص ٢٤٣) ان بركياروق مكث في السلطنة اثنتي عشرة سنة وأشهر. ومعنى ذلك انه تسلطن وعمره اثنتا عشرة سنة، أو أقل من ذلك بقليل.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، مجلد ٨، ص ١٣٠ — ١٣١.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٣٤.

(٤) ابن الاثير، الكامل، مجلد ١٠، ص ٥٤٨ — ٥٥٣.

وجعله ولي عهده ، أعاد عليه ما كان انتزعه من من بلاد ، باستثناء الرى ، ثم ان سنجر أمر بأن يخطب للسلطان محمود على المنابر بعده ، وطلب من الخليفة تنفيذ ذلك .^(١) وهكذا ، ولاول مرة بدأ يخطب لسلطانين سلجوقيين معا ، في آن واحد وموضع واحد .^(٢)

ولكن اذا كان النزاع بين سنجر وابن أخيه قد انتهى بالصلح على النحو الذى ذكرنا فانه احتدم من جديد بين السلطان محمود بن محمد وأخيه مسعود .^(٣) وبعد موت السلطان محمود بن محمد سنة ٥٢٥هـ / ١١٣١م نشبت الحرب بين مسعود وعمه سنجر .^(٤) ثم بين طغرل بن محمود وأخيه داود ، ثم بين مسعود وطغرل ، مما لا يتسع المجال لتفصيله في مثل هذه الدراسة .

أما في جانب الخلافة فان شخصية قوية تسنمت العرش ، أعني الفضل بن المستظهر ، الذى لقب بالمسترشد ، وتولى سنة ٥١٢هـ / ١١١٨م ،^(٥) والصراع على أشده بين المتنازعين على كرسي السلطنة ، وهو صراع عجزت معه الخلافة عن ارضا ، اى من الاطراف المتعاركة في حلبته ، لان تلك الاطراف تبادلت النصر والهزيمة مرارا ، ولانه كان على الخلافة ان تدعن للمنتصر على الدوام . ويبدو ان المسترشد عقد العزم على استرجاع سلطة الخلافة وهيبتها والتخلص من نير السلاطين . ويصف ابن الاثير المسترشد بقوله : " تمكن في خلافته تمكنا عظيما . . . فانه استبد بالعراق بعد السلطان محمود ، ولم يكن للسلطان معه في كثير من الاوقات سوى الخطبة . واجتمعت عليه العساكر ، وقاد الجيوش وياشر الحروب . . . " .^(٦) ولكن المسترشد كان

(١) المصدر نفسه والصفحة ذاتها .

(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٢١٦ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٥٦٢ ، وابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ٢٨٨ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٨٩ .

(٥) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ١٩٧ .

(٦) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٥٠ - ٥١ .

— على ما يبدو — بعد العدة للتخلّص من السلاجقة منذ وقت مبكر ، فيرس الرس الى مختلف الجهات التي تتبع الخلافة العباسية ، ويتصل بالقوى التي ينتظر منها العون والتأييد ، ففي سنة ٥١٦ هـ / ١١٢٢ م تصادف رسولا من قبل المسترشد عند بني منقذ بشيزر ، قرب حماه . وبالرغم من اننا لا نعرف طبيعة المهمة التي جاء من اجلها ابو طالب الواعظ ، سوى انه " وصل الى حلب رسولا من الخليفة المسترشد سنة ست عشرة وخميس مائة ، واجتمع بني منقذ (١) " فان معرفتنا بـ موج هذا الخليفة تشجع على ترجيح ما استنتجناه . وفي سنة ٥٢٦ هـ / ١١٣٢ م تعرضت بغداد للحصار على يد السلطان مسعود ومعه عماد الدين زنكي ، صاحب الموصل ، ودافع المسترشد عن بغداد ، كما انه قام بالاتصال بصاحب فارس ، قراجا الساقى ، الذى خف لنجدة الخليفة ، فانهزم المهاجمون (٢) . وفي السنة التالية نجد الخليفة المسترشد يحاصر الموصل التي جاء صاحبها معاونا للسلطان مسعود على حصار بغداد ، ولكن زنكي كان قد حصن الموصل وترك فيها نائبه يدافع عنها ، فارتد المسترشد الى بغداد دون ان يتمكن من فتح المدينة (٣) . وفي سنة ٥٢٨ هـ / ١١٣٤ م نجد السلطان مسعود في بغداد وقد ساء مركزه ، حيث ان اخاه طغرل تغور عليه . ويشعر مسعود بالضعف فيطلب من الخليفة المسترشد ان يمدّه ، فيزوده المسترشد بالمال والرجال ، ومع ذلك بدا منه التخاذل . وهنا نلاحظ مدى شعور المسترشد بقوته ، ان نراه يوجه شحنة بغداد ، جاولي القسيمي ، الى السلطان مسعود ليخصه على الخروج الى محاربة اخيه ، كما اوصى الخليفة الشحنة ان يهدم خيمة مسعود ان رأى منه عدم امتثال . فارتاع مسعود وعجل بالرحيل سوب همدان . بيد ان خبر وفاة اخيه طغرل اراحه من عناء القتال فاغذ السير صوب همدان راستولى عليها . ثم ان بعض رجال مسعود تمردوا عليه وجاءوا الى المسترشد وشجعوه على مهاجمة مسعود (٤) ، بيد انهم تخلوا عن الخليفة في لحظة الشدة وانهزموا . ويبدو ان مسعود استمالهم او اعراهم ، فهزم جيش الخليفة واسر هو نفسه ، ثم اغتيل ، واتهم السلطان بتدبير اغتياله ، وذلك سنة ٥٢١ هـ / ١١٣٥ م (٥) ولكن قتل المسترشد على الصورة التي وصفنا لم يوقف الصدام بين الخليفة والسلطان ، فقد قامت الحرب

(١) ابن العديم ، بغية الطلب ، مجلد ٨ ، ورقة ١١٣ / ق ، و ١١٤ / و .

(٢) ابن خلكان ، مجلد ٦ ، ص ١٤٢ .

(٣) ابن خلكان ، مجلد ١٥ ، ص ٣١٥ .

(٤) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٤٨ — ٥٠ .

(٥) محمد بن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد (القاهرة : مكتبة

النهضة المصرية ١٩٥١) ، مجلد ٢ ، ص ٢٤٨ — ٢٥٠ .

بين مسعود وبين الخليفة الراشد الذي خلف ابيه المسترشد ، وانهم الخليفة ، ودخل مسعود بغداد ، وغادرها الراشد ، واقدم السلطان على خلع الخليفة وتولية آخر مكانه ، هو عمه المقتفي بن المستظهر ، وذلك في ذي القعدة ٥٢٠ هـ / آب ١١٣٦ م . ومضى الراشد الى الموصل ، ثم اخرج منها وكان مصيره الاشغال ، كمسير ابيه ، سنة ٥٢٢ هـ / ١١٣٨ م (١) وقد كان اسير المسترشد ثم قتله ، وخلع الراشد بعده ، في سنتين متتاليتين ضربة ساحقة نزلت بالخلافة وحطمت قوتها ، فقد استولى السلطان مسعود على كل اموال المسترشد ثم فعل الشيء نفسه بالنسبة للراشد ، بل ونهب اثاث دار الخلافة وتصرف في دار الضرب واخذ التركات ثم صلب الخليفة الجديد ، المقتفي بمائة الف دينار ، فرد المقتفي بأنه لم يبر للخلافة شيء سوى الدار . وما بقي الا ان نخرج من الدار ونسلمها (٢) . . . وعندما بويج المقتفي اشترط عليه مسعود ان لا يكون عنده خيل ولا آلة سفر (٣) . كذلك فقد استخلف على انه لا يشتري ملوكا تركيا . وكان يقتني مدة خلافته اما ارمينيا او روميا ، ولم يكن له من الاتراك الا ترشك ، ملكه قبل الامامة (٤) . . .

ورغم هذه الدسيسة التي اصابته مكانة الخلافة وقوتها ، فقد وجدت بغداد نفسها الخليفة المقتفي خبير من يقلبها من عنارها . وقد اسعفه الحظ برجل صلب سديد الرأي كان كاتباً في الديوان ، فظهر من الحكمة ونفاذ البصيرة ما اهله لتولي الوزارة وهكذا أصبح ابو المظفر عون الدين يحيى بن هبيرة يد المقتفي اليمنى فيما نذر نفسه له من انقاذ الخلافة (٥) وكان المقتفي " شجاعاً يباشر الحروب بنفسه ، ويبذل الاموال العظيمة لاصحاب اخبار في جميع البلاد ، لا يفوته منها شيء " (٦) ويبذلون عدم استقرار اوضاع السلطان مسعود ساعد المقتفي ووزيره فيما كانوا يصددون . فقد جاء رجال السلطان مسعود المتردون عليه وهددوا بغداد وحاولوا ابتزاز

-
- (١) ابن القلانسي ، ص ٢٥٦ و ٢٥١ و ٢٦٢
 (٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ١٠ ، ص ٦٠-٦١ .
 (٣) المصدر نفسه والصفحتان ذاتهما .
 (٤) الكاتب الاصفهاني ، تواريخ ال سلجوق ، ص ٢٣٥ .
 (٥) ابن خلكان ، مجلد ٥ ، ص ٢٧٥ - ٢٧٧ .
 (٦) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١١ ، ص ٢٥٦ .

اتاه من الخليفة حتى ينصرفوا ، ولكن الخليفة جمع بالمبلغ جنودا وتمكن من طرد اولئك الامراء الذين كان من ضمنهم ابن اخي السلطان نفسه (١) وكانت وفاة السلطان مسعود سنة ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م هي الحد الذي انتهى عنده تسلط السلاجقة على الخلافة ، اذ بمجرد وفاة ذلك السلطان صم الخليفة المقتفي ووزيره ابن هبيرة على التحرر نهائيا من كابوسهم ، فكونت الخلافة لها جيشا ، واصلحت اسوار العاصمة وتحصيناتها ، واعيد حفر الخندق المحيط بها ، وعين الخليفة عمالا للولايات وبعث بعيونه الى كل صق وناحية ، ثم انه طرد شحنة بغداد ، ومثل السلطان المعين من قبله ، والذي يمكن اعتباره ، حسب المصطلحات الحديثة ، حاكما عسكريا ومندوبا ساميا في العراق . عندها سار الشحنة الى ناحية الحلة وجمع جيشا لتحطيم قوة الخلافة النامية . ولكن قوات بغداد استطاعت ، بقيادة الوزير ابن هبيرة ، ان تمزق ذلك الجيش وتقتضي عليه (٢)

وهكذا انتهت الفترة الثانية من فترات النضال بين الخلافة والسلطنة بانتصار الاولى ، بعد ان عانت من الخضوع والاستكانة والاهانة والاذلال والتكليل طوان مائة عام . ولكن القصة لم تنته عند هذا الحد ، فقد كان ما زال على الخلافة ان تستقبل بضخ حملات سلجوقية سنرى انها تنجح في دفع خطرها .

كان مسعود قد اوصى بولاية عمده لابن اخيه ملكشاه بن محمود (٣) وقد نصب هذا في السلطنة ، ولكن قادة الجيش ما لبثوا ان عزلوه وسينوا بدلا منه اخاه محمد شاه . وبعد ان قتل محمد شاه الامير خاصبك بن بلنكري ، اكبر قادة الجيش ، وهو الذي كان السبب في تعيينه ، ارسل الى الخليفة المقتفي يطلب اقامة الخصة له ببغداد . ولما اهمل الخليفة طلبه عول على الزحف على بغداد . وسن الخليفة على راس قواته ، ونشبت المعركة في بجزا ، وتمكن جيش الخليفة من الحاق الهزيمة بالقوة الغازية (٤) وفر محمد عائدا الى همدان ، ورجع الخليفة الى بغداد

(١) الكاتب الاصفهاني تواريخ الى سلجوق ص ٢٢٢ - ٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

(٣) ابن الاثير الكامل / مجلد ١١ ص ١٦١ .

(٤) ابن الغوطي ، مجلد ٤ ، قسم ٢ ص ١٢١٦ ، جعل ابن الغوصي هذه المعركة في اواخر سنة ٥٤٧ هـ /

١١٥٢ م ، ولكن ابن الجوزي (المنتظم) ص ١٠٠ - ١٥٣ (٤) ذكرها ضمن حوادث سنة ٥٤٨ هـ /

١١٥٣ م وابن الجوزي عاصر هذه الاحداث بنفسه وكان ببغداد وفي سن الرجولة ويؤيد ذلك ما

اورده ابن الاثير الكامل ١١٥ - ١٦٢) من ان محمد تولى السلطنة سنة ٥٤٨ هـ

تسببه بشائر النصر المؤزر^(١). ومع ذلك فقد ظلت الخلافة ، رغم انتصارها ، معنية بما جرى في معسكر العدو ، عاملة على اضعافه بكل وسيلة . ففي سنة ٥٥٠هـ / ١١٥٥م وصل الى بغداد احد المتسلطين ، وهو سليمان بن محمد بن ملكشاه ، يطالب بالسلطنة ، الا انه ليرثوب الخضوع والتذلل للخليفة حتى سمح له بدخول بغداد^(٢) . وقد استقبل سليمان بوفد رسمي من قبل الخليفة ، وانزل في دار السلطنة ، وخطب باسمه على المنابر ، بيد ان استقباله كان دون ما جرت به العادة للملاطين ، كما انه لم يحظ من الخليفة بلقب السلطنة ، اذ لم يمنح سوى لقب المعظم . ثم ان المقتفي عين لسليمان وزيرا ، وجهز له جيشا ووجهه الى اذربيجان لحرب السلطان محمد بن محمود . ولكن سليمان انهزم أمام خصمه ، وعاد قاصدا بغداد ، فاعترض طريقه زين الدين على كوجك ، نائب صاحب الموصل ، وقبض عليه واعتقل في قلعتها في شعبان ٥٥١هـ / ١١٥٦م^(٣) .

ولكن اذا كان الخليفة قد رفض منح سليمان لقب سلطان ، فقد ظلت الخلافة تعترف للسلطان سنجر بن ملكشاه ، صاحب خراسان ، بلقب السلطنة ، وظل اسم سنجر يذكر على منابر بغداد ، مقرونا بلقب سلطان حتى وفاته سنة ٥٥٢هـ / ١١٥٧م^(٤) .

وفي تلك السنة تعرضت بغداد لحصار شديد حين غزاها السلطان محمد ، يظا هره على كوجك نائب صاحب الموصل ، وانقطعت الطرق وتعرض الكثيرون من الحجاج للنهب والقتل^(٥) . وقد أشرف الخليفة ووزيره على القتال الذي دارة أيام ، صنعت خلالها ثمانية عشر الف قارورة للنفط ، استعملها جيش الخليفة والبغداديون في قذف عساكر محمد شاه^(٦) . ثم اضطر الجيش المهاجم الى الانسحاب بسبب صمود المدافعين عن المدينة ، وبسبب ما وصل من أخبار من ان ملكشاه ، أخا محمد ، قد احتل

(١) ابن الفوطي ، مجلد ٤ ، قسم ٢ ، ص ١٢١٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١١٩١ — ١١٩٢ .

(٣) الكاتب الاصفهاني ، تواريخ ال سلجوق ، ص ٢٤٠ — ٢٤٢ .

(٤) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ١٠ ، ص ١٦٤ و ١٧٨ .

(٥) محيي الدين ابو محمد عبد القادر بن ابي الوفاء ، الجواهر المضية في طبقات الحنفية (حيدرآباد ،

مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية ، د ٥٠٠) ، ج ١ ، ص ٨٧ .

(٦) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ١٠ ، ص ١٦٨ — ١٧٥ .

همدان ، ونهب اموال محمد واسرنا ، واطفال قاداته وجنوده (١) . وكان الخليفة المقتني قد حرس اصحاب الاطراف على مهاجمة بلاد الملك محمد واتصعهم اياها سلفا (٢) وهكذا نجحت الخلافة سياسة بحريا . وما يجدر ذكره ان السلطان محمد حاول ، عندما احمر بعجزه عن احراز نصر عسكري على الخلافة ، ان يلجأ الى الدسائس . وكان الطبيب النصراني المشهور ابن التلميذ يداوى الخليفة من مرض الم به ، وفي الوقت نفسه مرض السلطان محمد فاستدعى له ابن التلميذ . فعرض وزير السلطان على الطبيب عشرة الاف دينار لكي يسم الخليفة ولكنه ابن رادابان ذلك يخرج عن حدود مهنته كطبيب (٣)

وفي سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م توفي المقتني وورث الخلافة ابنه المستجد الذي وصف بانه كان " ضارما متيقظا فتاكا (٤) وقد اقر وزير ابنيه يحيى بن هبيرة على الوزارة (٥) وكان الصراع بين الخليفة والسلطان قد خفت حدته ، بسبب التضامن المستمر بين السلاجقة على منصب السلطنة وقد حاول ملكشاه بن السلطان محمود ، الذي حالف الخليفة ضد السلطان محمد وكان لاقتحامه عاصمته همدان حين كان محمد يحاصر بغداد اثر كبير في اجباره على تركها ، حاول ان يعيد نفوذ السدجقة الى بغداد ذلك انه عندما تويت شوكته وكثرت جموعه وجه رسولا الى بغداد وطلب ان يقطعوا خطبة عمه سليمان شاه ويخطبوا له ، ويعيدوا القواعد بالعران الى ما كانت اولا ، والا قصد هم (٦) ويبدو ان الوزير ابن هبيرة لم يشأ ان يجازب بحملة عسكرية لتاديب هذا السلجوقي المتجرب ، فعمد الى الاسلوب الذي كان شائعا في ذلك العصر ، وهيا لملكشاه من قضى عليه بالشم (٧) وفي اواخر سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م قتل سليمان شاه على يد رجاله (٨) وعلى اثر ذلك قطعت خطبته في بغداد فمسي

(١) المصدر نفسه والصفحة ذاتها .

(٢) ابن الاثير الباهر ص ١١٣ - ١١٤ .

(٣) ابن ابي اصيعة ص ٣٤٨ .

(٤) المصدر نفسه ص ٣٤٧ .

(٥) ابن الجوزي المنتظم مجلد ١٠ ص ١٩٣ .

(٦) ابن الاثير الكامل مجلد ١١ ص ٢٦٣ .

(٧) المصدر نفسه الصفحة ذاتها .

(٨) المصدر نفسه ص ٢٦٧ .

المحرم من العام التالي (١) وهو آخر سلجوقي خطب له في العاصمة العباسية وإن كان قد حرم من لقب سلطان كما ذكرنا (٢) ثم كانت خاتمة جهود السلاجقة لاسترداد نفوذهم مجيء قائد تركماني اسمه شملة ، على رأس قوة سلجوقية . وطلب شملة من الخليفة أن يسلمه بعض المناطق السراقية (٣) باعتبارها اقطاعا لسيد الملك السلجوقي ، منحه إياه سلطان السلاجقة آنذاك ، أرسلان شاه . وقد رفض المستنجد ، بطبيعة الحال ، هذا الطلب الصفي ، ولم يجد صعوبة في طرد القوة الغازية (٤)

رابعاً ، الحكم في الأقاليم ،

بلغت دولة السلاجقة ذروة اتساعها في عهد السلطان ملكشاه بن أرسلان (ت ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م) ، إذ امتدت من كاشغر . إلى بيت المقدس طولاً ، ومن القسطنطينية إلى بلاد الخزر عرضاً . (٥) وسنقتصر في حديثنا عن حكم الأقاليم على الجزء العربي من هذه الامبراطورية ، وهو الذي يشمل العراق والجزيرة وبلاد الشام .

والذي يلاحظه الدارس لهذه الحقبة من تاريخ هذه المنطقة هو أن البلاد لم تكن مقسمة إلى أقاليم إدارية محددة وثابتة ، وإنما كانت المدن الكبيرة وما يتبعها من بلدان وقرى هي المعالم البارزة للتقسيمات الإدارية . وكانت الوحدات الإدارية تكبر وتضجر حسب رأى السلطان وظروف حكمه أو حسب ما يحرزها أمراء الأقاليم في محاولاتهم الدائمة للتوسع بعضهم على حساب بعض .

فإذا ما جعلنا أمر التغيير المستمر في وضع الأقاليم الإدارية وحجمها في حسابنا فإننا نستطيع القول أن الأقسام الإدارية الرئيسية في المنطقة العربية من سلطنة السلاجقة هي ،

-
- (١) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ١٠ ، ص ٩٨ ، ابن الأثير ، الكامل ، مجلد ١١ ، ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .
 - (٢) انظر ما سبق ص ٦٠ .
 - (٣) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ١٠ ، ص ٢٢٠ .
 - (٤) ابن الأثير ، الكامل ، مجلد ١١ ، ص ٣٢٨ - ٣٢٩ .
 - (٥) ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ٣٧٠ .

١ - العراق

ب - الموصل

ج - حلب

د - دمشق

ولعل من المفيد أن نوجز في سطور قليلة تطور الوضع السياسي لكل ولاية من هذه الولايات، وعلاقاتها، الواحدة منها بالآخرى، وعلاقة كل منها بالسلطنة. ويتعذر علينا التوسع في دراسة كل إقليم على حدة، لأن مثل هذا العمل يستلزم دراسة خاصة مستقلة، لكل منها.

ولاية العراق؛^(١)

لم تكن حدود العراق في القرنين الخامس والسادس الهجريين تنطبق على حدود العراق الحالية، بل كانت تطابق تلك التي عرفها الجغرافيون العرب في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي). فقد ظل التعريف معولا عليه، إذ نجد أبا الحسن الماوردي (ت ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م) وأبا يعلى الفراء (ت ٤٥٨هـ / ١٠٦٦م) وياقوت الرومي (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م) يلتزمون تقريباً، مع اختلاف بسيط. وحسب هذا التعريف يكون حد العراق من حدثة الموصل، أو من العليث، أو تكريت،

(١) اعتبر السلاجقة العراق إحدى ولايات سلطنتهم، وقد ورد في المصادر ما يسند هذا القول، انظر: ابن الاثير، الباهر، ص ٣١، وسيط بن الجوزي، مجلد ٨، ص ٣٧ و ١٦٣ و ١٨٦، وأبوشامة، مجلد ١، قسم ٢، ص ٣٢٩، وانظر الفصل الخامس بوظيفة الشحنة، ص ١٢٠ - ١٢٥ فيما يلي.

في الشمال الى عبادان في الجنوب طولا ، ومن عذيب القادسية الى حلوان عرضا (١)

ومنذ ان دخل السلاجقة بغداد وخلق الخليفة على زعيمهم طغرل بك وقتله على ما جرت به العادة ، كان معنى ذلك التقليد ان الخليفة نوضه ممارسة الحكم والادارة في اراضي الخلافة العباسية ، وفي كل ما يمكن ان تمتد اليه سلطة السلاجقة من اراض . ومنذئذ تصرف طغرل بك على ضوء هذا المفهوم ، فاقطع المناظر العراقية وضمن اموال جباياتها الى ضامين ، بما في ذلك بغداد نفسها (٢) و امر بتعمير دار المملكة التي كانت للبويهيين (٣) كما عين مثالا له نسي بغداد يحمل لقب الشحنة (٤) ويمارس سلطات مدير الشرطة والمحافظ والحاكم العسكري نسي المصطلح الحديث (٥) كما سبق أن ذكرنا .

وكان وضع اقليم العراق في العهد السلجوقي ، باستثناء عهد البارسلان وملكشاه في غاية الاضطراب . ففي الجنوب كانت القبائل العربية عسيرة القيادة على معظم الحكام ، وكثيرا ما عات البدو ونساق ونهبيا وتخريبا في تلك النواحي (٦) وكان بنو اسد هم اقوى تلك القبائل ، فتحالف شيوخهم مع السلاطين السلاجقة وخدموهم في بداية عهدهم (٧) ثم ابحوا يتقلبون عندما ولي النظام والانضباط من دولة السلاجقة وانسحا الطريق للفوضى والعبث (٨) وقد استطاع

- (١) ابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري ، الممالك والعمالك ، تحقيق محمد جابر الحيني (القاهرة : وزارة الثقافة والارشاد القومي ، ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م) ، ٥٦ ، ابو القاسم بن حوقل النصيب ، كتاب صورة الارض (بيروت : منشورات دار مكتبة الحياة ، ذ . ت) ، ص ٢٠٨ ، الماورودي ص ١٧٣ الفراء ، ٤٠٢ - ٢٠٤ ، ياقوت الحموي الرومي ، معجم البلدان (بيروت : دار صادر ودار بيروت ، ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٧ م) ، مجلد ٣ ، ص ٢٧٢ .
- (٢) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ٩ ص ٦١٣ - ٦١٤ ، مجلد ١٠ ص ٨ ، ١٢ ، ٢٥ - ٢٦ .
- (٣) الخطيب البغدادي مجلد ١ ص ١٠٦ .
- (٤) اول شحنة عين في بغداد هو الامير برسق ، عينه طغرل بك سنة ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م انظر ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ص ٨ - ٩ .
- (٥) تنطبق هذه الصفات على شحنة بغداد ، اما لقب الشحنة بصفة عامة ، فهو (صاحب الشرطة او من يقوم مقام المحافظ انظر ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ١٠ ص ٢١٥ .
- (٦) انظر ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ص ١٨٣ و ٢١٧ و ٣٥٦ و ٤٠٠ - ٤٠٢ مثلا .
- (٧) المصدر نفسه ، ص ٨٢ .
- (٨) المصدر نفسه ، مجلد ١٠ ص ٢٧٢ و ٤٠٢ ، مجلد ١١ ص ٣٠ و ٣٦ ، والباهر ، ص ٢٣ .

بنو اسد في بعض الاوقات ، السيطرة على جنوب العراق بكامله ، وهددوا بغداد ، وضرروا عليها الحصار (١) وكثيرا ما تحدوا السلاطين فجرد هؤلاء عليهم الحملات العسكرية (٢) اما في الشمال فقد كان الامراء العقيليون يحكمون الموصل ومنطقتها ، معترفين بالتبعية للسلطان ، بيد انهم مدوا حدودهم في فترة من الفترات الى تخوم بغداد (٣)

ومنذ ان بدأ النزاع على نطاق واسع بين الصامعين في منصب السلطنة من ملوك السلاجقة دأب الخلفاء العباسيون على بذل المساعي بمختلف الاساليب ، لاستعادة غوذهم المقتصب ، وفرض سيطرتهم الفعلية على ما يستطيعون من اراض كما ذكرنا في موضع سابق (٤) وقد استمرت هذه الجهود التي بدأت بداية ضعيفة وحذرة ثم اخذت تقوى وتعنف ، منذ وفاة السلطان ملكشاه (٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م) الى وفاة السلطان مسعود (٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م) . وما ان انتضت هذه الفترة حتى اصبح العراق كله يخضع لسيطرة الخليفة وظل كذلك حتى نهاية الفترة التي ندرسها (٥)

ولاية الموصل :

كان الامير ابو الزواد محمد بن المسيب امير بني عقيل ، قد استولى على الموصل وحكمها منذ سنة ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م (٦) ومنذ ذلك الحين ظل الامراء العرب العقيليون يحكمون تلك المدينة وتوابعها الى ان انتزعت منهم حوالي نهاية القرن الخامس الهجر (٧) وفي سنة ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م ، اى قبيل دخول السلاجقة الى بغداد ، فتح الامير ابو المعالي قريش بن بدران العقيلي مدينة الانبار وضماها الى املاكه . ويبدو انه شعر انذاك بقوة السلاجقة الذين كانوا يقتربون من العراق فخطب

(١) ابن الجوزي ، المنتظم ، جلد ٥ ، ص ٢٢٢ - ٢ و ٢٣٥ و ٢٤٢ ، وابن الاثير ، الباهر ، ص ٢٥ .

(٢) ابن خلكان ، جلد ٢ ، ص ١٨٢ - ١٨٣ .

(٣) ابن الاثير ، الباهر ، ص ١٥ - ١٦ .

(٤) انظر ص ٥١ - ٥٣ .

(٥) انظر الفصل الخامس ، العلاقة بين الخليفة والسلطان - ص ٥١ - ٦٠ فيما سبق .

(٦) ابن الاثير ، الكامل ، جلد ١ ، ص ٧٥ .

(٧) انظر ما يلي ص ٦٦ .

لظفر بك في جميع البلاد التابعة له (١) ثم توسعت املك صاحب الموصل في عهد شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي (ت ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م) فصارت تمتد من السندية ، وهي قرية من قرى بغداد على نهر عيسى حتى منبج ، وغدت تشمل على ديار ربيعة والجزيرة بأسرها ومدينة حلب ومنطقتها . وقد ظلت الموصل تحت حكم الامراء العقيليين حتى سنة ٤٨٦ هـ / ١٠٩٦ م حين انتزعها كربوقا ، احد الامراء الذين اترك المواليين للسلطان بركيا روق ، وازال عنها علي بن شرف الدولة العقيلي (٢) وظل كربوقا يحكم ولاية الموصل حتى وفاته سنة ٤٩٤ هـ / ١١٠١ م وتولاها بعده امير اخرا سمه موسى التركماني لم يلبث ان قتل فخلفه شمس الدولة جكمش . وبعد جكمش ولي عليها جاولي سقاوا . وقد نبذ جاولي هذا طاعة السلطان محمد بن ملكشاه فارس السلطان اميرا اقطعه الموصل هو مودد بن التوتكين وذلك سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٩ م . وقد اشترك مودود هذا ، اثنا حكمه في الموصل اشترك مع اتابك (٣) طفتكين ، امير دمشق في الحرب ضد الصليبيين ثم انه اغتيل بدمشق سنة ٥٠٢ هـ / ١١١٢ م (٤) وعندئذ ولي السلطان محمد على الموصل الامير جيوش بك ، ولكنه نقله بعد مدة اميرا على اذربيجان ، واقل الموصل الى آق سنقر البرسقي سنة ٥١٥ هـ / ١١٢١ م . وقد قتل البرسقي غيلة في جامع الموصل على يد الباطنية سنة ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م فخلفه ابنه عز الدين مسعود الذي لم يلبث ان توفي سنة ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م فخلفه ابنه الطفل تحت رعاية جاولي ، الذي كان ملوكا تركيا من ماليك البرسقي ، ثم تمكن عماد الدين زنكي بعد آق سنقر ان يقنع السلطان بتوليته الموصل بعد ان بذل قدرا مناسباً من الرشا والوعود . وعندما حصلت له الولاية دخل جاولي في خدمته (٥) وقد ظل عماد الدين

(١) ابن الاثير ، الكامل مجلد ٦١ ، ص ٦٠٠ .

(٢) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٦ - ٧ و ١٥ - ١٦ ، وابن الغوطي ، مجلد ٤ ، قسم ١ ، ص ٦١٢ - ٦١٣ .

(٣) ان لقب " اتابك " لقب شرفي عظيم معناه : الامير الوالد . ولعل اصل التسمية ان سلاطين السلاجقة اعتادوا ان يعهدوا بابنائهم الشباب الى كبار قادة جيوشهم فكان السلطان يبعث ابنه ليعيش في كنف امير كبير من امراء الاقاليم (انظر ص ٤١ فيما سبق) وقد فسر ابن خلكان (مجلد ١ ، ص ٣١٦ ، مجلد ٢ ، ص ٨٠) لقب " اتابك " بانه الذي يربي اولاد الملوك بيد ابن الجوزي (المنتظم ، مجلد ٨ ، ص ٢٧٨) وابن الاثير (الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٨٠)

فسرها بـ " الامير الوالد " وقد فسر ابن خلكان في موضع اخر من كتابه (مجلد ١ ، ص ١٤٢) اللقب بـ " الامير الوالد " و اضاف عبارة : " وهو الاصح . " وهذا ما نؤيده .

(٤) ابن القلانسي ، ص ١٨٤ - ١٨٧ .

(٥) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٣٥ .

زنكي يوسع امارته ويوظف نفوذه على حساب جيرانه وعلى حساب الصليبيين ، فاستولى على جزيرة ابن عمر ونصيبين وحلب وحماة وحاصر دمشق وعلبك واستولى على الاخيرة وفتح حصن بارين وفتح اعماله بانزال ضربة صاعقة بالصليبيين يوم فتح مدينة الرها (١) ثم كانت نهاية عماد الدين زنكي عندما اغتاله ممالিকে وهو نائم ، حين كان يحاصر قلعة جعبر (٢) سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م ، واذ ذاك انقسمت دولته بين ولديه : نورالدين محمود ، الذي امتلك حلب ، وسيف الدين غازي الذي امتلك الموصل (٣) . وقد ظلت ولاية الموصل تحت حكم ورثة سيف الدين غازي بن زنكي الى ان جاء نورالدين محمود وحاصرها واستولى عليها سنة ٥٦٦ هـ / ١١٧١ م ثم ابقى اولاد اخيه على حكمها بعد ان اقروا له بالتبعية (٤)

ولاية حلب

كانت ولاية حلب ومنطقتها تخضع لبني مرداس الكلابيين منذ ان استطاع اميرهم صالح بن مرداس الاستيلاء على المدينة عام ٤١٥ هـ / ١٠٢٤ م (٥) وقد توارت الامراء العرب المرداسيون حكم اقليم حلب حتى سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م حين اقبلت جحافل السلطان السلجوقي العظيم البارسلان ، نحو المدينة ، وامام هذا الجيش السلجوقي اللجب لم يجد محمود بن نصير بن صالح بن مرداس الكلابي مناصا من القدام على السلطان ، هو ووالدته ، وتقبل الارض بين يديه ، ووطئ بساطه رمزا للطاعة والخضوع والتبعية ، وقد رضي السلطان عن محمود واقربه على ولاية حلب (٦) وفي سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٦ م قتل نصير بن محمود ، امير حلب ، واختلف قومه على من يخلفه من اولاده ، واستظاف ساجن بن محمود ان يستولي على البلد وقلعتها .

(١) ابن العديم ، بغية الطلب ، مجلد ٧ ، ورقة ٢٠٦ ق ٢١٣ ق .

(٢) المصدر نفسه ، ورقة ٢١٣ و .

(٣) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٨٤ — ٨٥ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٥٣ — ١٥٤ .

(٥) ابن العديم ، زبدة الحلب ، مجلد ١ ، ص ٢٢٧ — ٢٢٩ .

(٦) ابن العديم ، بغية الطلب ، مجلد ٣ ، ورقة ٢٨٢ ق — ٢٨٣ و .

ولكن بني كلاب اجتمعت على أخيه وثاب ، وصمموا على تنصيبه وانتزاع المدينة من سابق . غير ان سابقا استطاع ان يوقع بمناوئيه ، مستخدما فرقة من المحاربين الاتراك ، الذين فاجأوا بني كلاب وغنموا اموالهم ومواشيهم ، وسبوا نساءهم وساقوها الى حلب . فسار اخوة سابق المنهزمون وأقاربه الى السلطان ملكشاه بن الب أرسلان وشكوا اليه ، وطلبوا معونته . فأكد ملكشاه حقهم باقطاعهم في الشام ، ثم أقطع الخنم كلها لأخيه تاج الدولة تنتش^(١) . وقد أمر السلطان ان يسير مع تاج الدولة ، بالإضافة الى أمراء بني مرداس ، عدد من كبار الأمراء الاتراك ، وكذلك الأمير شرف الدولة أبو المكارم مسلم بن قريش العقيلي ، صاحب الموصل^(٢) . ألقي الحصار على حلب مدة تقرب من أربعة أشهر ، ولكن مسلم بن قريش لم يكن مخلصا في معاونته لتنتش . فأخذ يمهّد السبيل للاستئثار بحلب لنفسه ، وقد استطاع ان يخذل الكثيرين ممن اشتركوا في الحصار بما في ذلك الأمراء المرديسين ، كما راسل الأمير سابق المحاصر بحلب ، وأمدّه سرا بالاقوات . ثم انسحب مسلم بن قريش وتبعه كثيرون ، فاضطر تاج الدولة تنتش الى الرحيل عن حلب^(٣) . وأخيرا نجح مسلم بن قريش ، فيما كان يمهّد له ، واستطاع الاستيلاء على حلب لنفسه ، بعد ان حاصرها وجوع سكانها والمدافعين عنها ، وكانت تلك نهاية دولة بني مرداس بحلب . واتصل مسلم بن قريش بالسلطان ملكشاه ليحصل منه على اقرار لهذا التغيير ، وتعهد بحمل ما يطلبه السلطان من مال ، فأقره ملكشاه على حلب^(٤) . وكان الأمير العقيلي واسع الاطماع ، فجاست جيوشه في انحاء بلاد الشام ، وحاصر دمشق الا انه لم يستطع فتحها وارتد عنها . وكانت نهايته عند ما اصطدم بسليمان بن قتلмыш السلجوقي ووقعت الحرب بينهما عام ٥٤٧٨هـ / ١٠٨٥م ولقي مسلم بن قريش فيها مصرعه^(٥) . وحاول سليمان بن قتلмыш

(١) كان اقطاعهم منطقة حلب ، وعند اقطاع الشام لتنتش أصبح اقطاع بني مرداس جزءا صغيرا خاصا

بهم ضمن الكل الذي يخص تنتش .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، مجلد ٢ ، ص ٥٣-٥٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٥٧-٥٨ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٧٠ و ٧٥ .

(٥) ابن الأثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ١٣٩-١٤٠ .

الاستيلاء على حلب باعتبارها من أسلاب خصمه ، لكن أهلها حاولوا دفعه ، فاستثاروا تاج الدولة تتش بن الب ارسلان ، صاحب دمشق ، فأطعموه في حلب ، فجاء ، وهزم جيش سليمان وقتله .^(١) ولكنه لم يستطع الاستيلاء على المدينة الا بعد حصار و قتال ، حيث ان أهلها نقضوا ما وعدوه اياه ، ووجهوا الرسل الى السلطان ملكشاه لیسلموا اليه المدينة ، فوصلها في شعبان من سنة ٤٧٩هـ / كانون أول ١٠٨٦م ، وكان أخوه تتش قد غادرها الى دمشق حين شعر باقتراب جيوش أخيه السلطان مغذة السير الى حلب . وقبل ان يغادر السلطان حلب ولى عليها واحدا من أكبر قادته ، وهو تسيم الدولة آق سنقر .^(٢)

وعندما توفي السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م أعلن آق سنقر ولاه لتاج الدولة تتش الذي خطب لنفسه بالسلطنة ، بيد انه لم يلبث ان غير هذا الولا حين فارق تتش وانضم الى بركياروق بن ملكشاه في الصراع الذي حدث بين العم وابن أخيه . ولقي تسيم الدولة آق سنقر حتفه اثر معركة دارت بينه وبين تتش قرب حلب ، وذلك سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م .^(٣) وتبع ذلك استيلاء تتش على حلب .^(٤)

وبعد ان تم لتتش ما أراد به بالنسبة لحلب سارع لها لتحقيق أمله في تسلم عرش السلطنة السلجوقية . وكان منافسه الرئيسي عليها ابن أخيه بركياروق . والتقى جيش تتش بجيش ابن أخيه قرب الرى ، فدارت الدائرة على تاج الدولة وجيشه .^(٥) وقد قطع رأسه وحمل الى بغداد وطيف به في شوارعها ، وذلك سنة ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م . وتملك حلب بعده ابنه رضوان ، بينما استولى

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، مجلد ٢ ، ص ٩٦-٩٧ .

(٢) ابن العديم ، بغية الطلب ، مجلد ٣ ، ورقة ٢٦٧ ق .

(٣) ابن الاثير ، الباهر ، ص ١٥ ، وابن العديم ، بغية الطلب ، مجلد ٣ ، ورقة ٢٧٠ .

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ، مجلد ٢ ، ص ١١٧-١١٨ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ١١٨-١١٩ .

ابنه الآخر ، دقاق ، على دمشق^(١) يعاونه ويدبر امره أتابك طغتكين^(٢) وتوارث أبناء رضوان حكم حلب الى ان وهنت قوتهم ، وتعرضت البلد لضغط عسكري شديد من جانب الصليبيين . وكان ملك حلب من أبناء رضوان آنذاك هو سلطان شاه بن رضوان بن تشر (٥٠٨ هـ / ١١٤٤ م — ٥١١ هـ / ١١١٧ م) وكان عمره آنذاك تسع سنوات . فتطلع اهل حلب الى ايلغازي بن أرتق ، فكاتبوه ، فجاء ، ولم يلبث ان امتلك المدينة^(٣) وتوارثها أولاده من بعده حتى سنة ٥٢٢ هـ / ١٢٨ م حين استولى عليها عماد الدين زنكي بن آق سنقر ، صاحب الموصل . وعندما اغتيل عماد الدين زنكي سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م وانقسمت مملكته كانت حلب من نصيب نور الدين محمود بن زنكي ، وظلت في حكمه الى حين وفاته سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م^(٤)

ولاية دمشق :

ظلت بلاد الشام تتبع الخلافة الفاطمية حتى سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م . وفي تلك السنة ظهرت الجيوش السلجوقية في هذه البلاد ، فخضعت حلب للسلاجقة وخطبت للخليفة العباسي . وفي السنة التالية تقدم أتسز بن أوق ، وهو قائد احدى الفرق السلجوقية بالشام ، نحو فلسطين فاستولى على الرملة والقدس ، ثم انشئ الى دمشق يضيق عليها الخناق الى ان استسلمت له في شهر رذى القعدة من عام ٤٦٨ هـ / تموز ١٠٧٦ م . ثم حاولت القاهرة استرداد بلاد الشام ، فوجهت حملة كبيرة بقيادة نصر الدولة الجيوشي ، استولت على أعمال فلسطين ، وأعمال دمشق وحاصرت دمشق نفسها سنة ٤٧١ هـ / ١٠٧٩ م وضيق عليها الخناق لدرجة اضطر معها أتسز ان يستجد بالملك تاج الدولة تشر بن ألب أرسلان الذى كان أخوه السلطان ملكشاه قد أقطعه الشام ، وتعهد أتسز ان يكون في طاعة تشر . فانسحبت الحملة الفاطمية ، بيد ان تشر لم يكذب يدخل دمشق حتى بادر بقتل أتسز ، وامتلك دمشق وأعمال فلسطين^(٥) .

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، مجلد ٢ ، ص ١٧٢ — ١٨٦ .

(٢) ابن خلكان ، مجلد ١ ، ص ١١٨ .

(٣) ابن القلانسي ، ص ١٣١ .

(٤) ابن العديم ، بغية الطلب ، مجلد ٣ ، ورقة ١٨٨ و ، ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ٢٧١ .

(٥) ابن عساكر ، ج ٢ ، ص ٣٣١ ، ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٦٨ و ٩٩ — ١٠٠ .

ولما قتل تنش سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م واقتسم ولداه منته ، كما ذكرنا ، كانت دمشق وتوابعها من نصيب ابنه دقان ، وقد تولى تدبير امورها له اتابكة طغتكين . وعند وفاة دقان (٤٩٧ هـ / ١١٠٤ م) خصب بالملك لابنه الطفل تنش الذي كان عمره سنة واحدة ، وبذلك اصبح مركز طغتكين اقوى من ذي قبل . ثم ما لبث تنش بن دقان ان توفي سنة ٤٩٨ هـ / ١١٠٥ م فصار طغتكين هو الحاكم الاصيل لولاية دمشق من الناحيتين النظرية والعملية . وقد توارث ابناءؤه الولاية من بعده الى ان اصاب حكمهم الوهن حتى دفعوا الجزية للصليبيين ، واذ ذاك تمكن نور الدين محمود بن زنكي الذي كان قد اتخذ حلب قاعدة لملكه من الاستيلاء على دمشق (١) سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م وبذلك تمكن من توحيد ولايتي حلب ودمشق كما سبر ان اشرنا فظلتا مرتبطتين بهذه الوحدة حتى ما بعد نهاية الفترة التي ندرسها .

ولاية الاقاليم ،

كان تعيين ولاية الاقاليم من اختصاص السلطان السلجوقي . وعندما دخل السلاجقة المنطقة العربية كانت هذه المنطقة خاضعة لحكم عدد من القوى ، منها بنو مرداس في حلب وبنو عقيل في الموصل والبيهيون في بغداد ، كما كان من هذه القوى بنو اسد واميرهم دبيس بن مزيد . وقد قضى السلاجقة على حكم البويهيين وكان هذا امرا طبيعيا ولكن طغرل بك ابقى على بني عقيل في الموصل واقربهم على حكم ما كان بيدهم سيما وان فريش بن بدران العقيلي كان قد خطب لطرغربك (٢) منذ عام ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م . وكذلك تسامح طغرل بك مع دبيس بن مزيد الاسدي واقربهم على ما بيده (٣) ولما توسع السلاجقة في بلاد الشام في الستينات من القرن الخامس الهجري اقر السلطان البارسلان بنو مرداس الكلابيين على حلب واعمالها .

(١) ابن خلكان مجلد ١ ص ٢٦٤ — ٢٦٥ ومجلد ٤ ص ٢٧١

(٢) ابن الاثير الكامل مجلد ٩ ص ٦٠٠ وانظر ص ٦٥ — ٦٦ فيما سبق

(٣) المصدر نفسه مجلد ١٠ ص ٨

على اننا نجد امثلة كثيرة على قيام السلاطين بتعيين بعض كبار رجالهم او بعض أفراد البيت السلجوقي ولاية على بعض الاقاليم . فالسلطان ملكشاه اقطع بلاد الشام لاختيه تاج الدولة تنش ، وذلك سنة ٥٤٧٠هـ / ١٠٧٨م ^(١) وبعدها ولّى آتسنقر تسيم الدولة على حلب وأعمالها سنة ٥٤٧٩هـ / ١٠٨٦م ^(٢) وقبلي سنة ٥٥٠٢هـ / ١١٠٩م نجد السلطان محمد بن ملكشاه يقطع الموصل للامير مودود بن التونتكين بعد ان تمرد عليه أميرها جاولي سقاواوا ^(٣) .

وثمة أمثلة أخرى على قيام بعض الولاة بالاستيلاء على بلاد لم يولوها ، ثم يحفظون على اعتراف من السلطان بما استولوا عليه ، ويتولية تثبت حقهم فيما وضعوا عليه أيديهم . ويمكن ان نعد من هذا القبيل ما فعله مسلم بن قريش العقيلي حين استولى على حلب سنة ٥٤٧٣هـ / ١٠٨٠م وأزال ملك بني مرداس ثم اتصل بالسلطان ملكشاه وحصل منه على اقرار لما احتجن ، وذلك بعد ان تعهد بحمل ما يطلبه السلطان من مال ^(٤) . ومثل ذلك ما فعله الامير كربوقا حين انتزع الموصل من علي بن شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي ، سنة ٥٤٨٩هـ / ١٠٩٦م وأزال بذلك ملك بني عقيل ^(٥) .

كان ولاية الاقاليم من أفراد البيت السلجوقي يحمل كل منهم لقب ملك ، أما الولاة من غير السلاجقة فلم يحصلوا على هذا الشرف في فترة قوة السلطنة ، وانما كان الواحد منهم يحمل لقب أمير ^(٦) . وكان الوالي يعد واحدا من أتباع السلطان ورجاله ، كما كان المفروض انـه يدين له بالطاعة والولاء . ولكن الولاة كحانوا مستقلين

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، مجلد ٥٢ ، ص ٥٦ .

(٢) ابن العديم ، بغية الطلب ، مجلد ٣ ، ورقة ٢٦٢ق .

(٣) ابن الاثير ، الباهر ، ص ١٦ - ١٧ .

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ، مجلد ٢ ، ص ٧٥٧ .

(٥) ابن الاثير ، الباهر ، ص ١٥ - ١٦ .

(٦) أما عندما اضطرت أوضاع السلطنة فقد أصبح بعض ولاية الاقاليم يحملون لقب ملك ، ولعل ابرز

الامثلة على ذلك أولاد عماد الدين زنكي ، أعني سيف الدين غازي ومور الدين محمود .

على أننا نجد امثلة كثيرة على قيام السلاطين بتعيين بعض كبار رجالهم او بعض أفراد البيت السلجوقي ولاية على بعض الاقاليم . فالسلطان ملكشاه اقطع بلاد الشام لاختيه تاج الدولة تنشر ، وذلك سنة ٤٧٠هـ / ١٠٧٨م ^(١) وبعدها ولّى آقسنقر قسيم الدولة على حلب وأعمالها سنة ٤٧١هـ / ١٠٨٦م . ^(٢) وقسي سنة ٥٠٢هـ / ١٠٩١م نجد السلطان محمد بن ملكشاه يقطع الموصل للامير مودود بن التونتكين بعد ان تمرد عليه أميرها جاولي سقاووا . ^(٣)

وثمة امثلة اخرى على قيام بعض الولاة بالاستيلاء على بلاد لم يولوها ، ثم يحفظون على اعتراف من السلطان بما استولوا عليه ، ويتولية تثبت حقهم فيما وضعوا عليه أيديهم . ويمكن ان نعد من هذا القبيل ما فعله مسلم بن قريش العقيلي حين استولى على حلب سنة ٤٧٣هـ / ١٠٨٠م وأزال ملك بني مرداس ثم اتصل بالسلطان ملكشاه وحصل منه على اقرار لما احتجن ، وذلك بعد ان تعهد بحمل ما يطلبه السلطان من مال . ^(٤) ومثل ذلك ما فعله الامير كربوقا حين انتزع الموصل من علي بن شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي ، سنة ٤٨٩هـ / ١٠٩٦م وأزال بذلك ملك بني عقيل . ^(٥)

كان ولاية الاقاليم من أفراد البيت السلجوقي يحمل كل منهم لقب ملك ، أما الولاة من غير السلاجقة فلم يحصلوا على هذا الشرف في فترة قوة السلطنة ، وانما كان الواحد منهم يحمل لقب أمير . ^(٦) وكان الوالي يعد واحدا من أتباع السلطان ورجاله ، كما كان المفروض أنه يدين له بالطاعة والولاء . ولكن الولاة كخاندو مستقلين

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، مجلد ٢ ، ص ٥٦ .

(٢) ابن العديم ، بغية الطلب ، مجلد ٣ ، ورقة ٢٦٧ق .

(٣) ابن الاثير ، الباهر ، ص ١٦ — ١٧ .

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ، مجلد ٢ ، ص ٧٠ و ٧٥ .

(٥) ابن الاثير ، الباهر ، ص ١٥ — ١٦ .

(٦) أما عندما اضطربت أوضاع السلطنة فقد اصبح بعض ولاية الاقاليم يحملون لقب ملك ، ولعل ابرز

الامثلة على ذلك أولاد عماد الدين زنكي ، أعني سيف الدين غازي ونور الدين محمود .

تماما في كيفية ادارة ولاياتهم ولا يتدخلون لاى تدخل من جانب السلطان . اما عدمه هذا الولاة
فهو في اعلانه والتظاهر به ، وفيما كان الولاة يرسلونه من اموال محددة (١) وما يبعثون به من هدايا
هذا بالاضافة الى معاونة السلطان في حروبه حين يحتاج الى مزيد من القوات عند مواجهة عدو قوى
او عندما يكلف احد ولايات الاقاليم القيام بعمل عسكري معين لاختلال بعض المقربين او الاعداء (٢)

غير ان هذا الرصد لوضع الولاة ان انطبق على الواقع في فترة قوة السلاجقة (٤٤٧هـ / ١٠٥٥م -
٤٨٥هـ / ١٠٩٢م) فانه لا ينطبق تماما على ما سارت عليه الاحوال في الفترة اللاحقة . ففي فترة
الفوضى فيما بين وفاة السلطان ملكشاه ووفاة السلطان مسعود لم تعد هيئة السلطان السلجوقي كما
كانت في السابق ولم يعد ولايات الاقاليم يحرصون على الاخلاص للسلطان بل نراهم يغيرون ولاهم
من سلطان الى آخر (٣) كما ان اطاعهم في تزايد وان حرصهم على زيادة قوتهم وتوسيع ممتلكاتهم
والتهرب من طاعة السلطان ومن تنفيذ ما يكلفهم به من مهمات او يسدده اليهم من اوامر هي السمة
الغالبة في امراء الاقاليم (٤) وصار كل واحد من كبار امراء الاقاليم يحرص على ان يحتفظ بواحد او
اكثر من اولاد السلاجقة ليحكم باسمه ، وليوسع املكه تحت هذا الاسم ، وربما تواتيه الفرصة يوما
فيطالب للصبي الذي في حوزته بالسلطنة ويتوصل - من خلال ذلك - الى التحكم

(١) ابن الاثير، الكامل ، ١٠٤٥ ص ١٣٦ ، والباهر ، ص ٦٥ .

(٢) ابن الاثير، الباهر ، ص ١٢ و ٢٥ - ٢٧ و ٤٥ .

(٣) ابن الجوزي، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ١٠٩ ، وابن الاثير، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٢٨١ و ٢٨٨ .

(٤) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٦٣ و ٦٥ .

وشهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي المعروف بابن شامة ، كتاب الروضتين في اخبار

الدولتين النورية والصالحية ، نشره وحققه محمد علي محمد احمد (القاهرة : لجنة التاليف

والترجمة والنشر ، ١٩٥٦) ، الجزء الاول ، القسم الاول ، ص ٩٢ - ٩٣ .

في اقاليم السلطنة كلها (١) ومن هنا اصبح الصراع الدائر على كرسي السلطنة السلجوقية في اواخر ايامها مجرد صراع بين الامراء الاقوياء من ولاية الاقاليم وقادة الجيوش وكان ولاية الاقاليم الطموحون يحرصون على تقصي اخبار بلاط السلطان وينفقون الاموال على جواسيسهم فيه (٢)

وعندما تخلصت الخلافة العباسية من تسلط السلاجقة ووهن شان المتصارعين على منصب السلطنة لم يكن غريبا ان لا يعبر حكام الاقاليم الاقوياء اى اهتمام للسلاطين ، بل ان بعضهم اقام صلات مباشرة مع الخلافة وتلقى منها الخلع واللقاب مباشرة (٣)

اما الاساليب الادارية في داخل الاقليم الواحد فكانت صورة مصغرة للاساليب الادارية في السلطنة فكان لامير الاقليم وزير له وكان له حجاب ومستوفون كما كان يقطع اتباعه اجزا من ولايته الكبيرة التي كانت تعد بدورها اطاعا من السلطان . وهذا ما حملنا عليه دراسة المؤسسات الادارية كالوزارة والقضاء وغيرها دفعة واحدة دون تخصيص دراسة مستقلة لتلك المؤسسات على نطاق السلطنة ودراسة مستقلة اخرى على نطاق كل ولاية على حدة .

(١) ابن الاثير ، الباهر ، ر ٤٥ و ٧١ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٧٨ .

(٣) ابو شامة ، ج ١ ، ص ٤٧٨ - ٤٧٩ .

الوزارة

كانت لمنصب الوزارة في العصر السلجوقي أهمية بالغة ، وكان السلاطين والملوك والخلفاء يشعرون بهذه الأهمية ، ويعتقدون أن الوزير الحاذق يحقق ما تعجز الجيوش عن تحقيقه (١) ويصدق الواقع التاريخي لذلك العهد هذه النظرة إلى حد كبير . وليس أدل على ذلك من أن السلاجقة كانوا يعطون الوزير عشر دخل السلطنة (٢)

غير أن مما يلاحظه الباحث أن منصب الوزارة لم تكن له صلاحيات ثابتة ومحددة بعرف أو تشريع ينطبق على جميع الأمثلة أو معظمها بل أنت اختصاصات الوزراء تختلف اتساعاً وضيقاً ، وأهمية وضآلة . ويمكن القول باطمئنان أن العامل الحاسم في تحديد اختصاصات الوزير (٣) ينحصر في ثلاث نقاط :

أ — شخصية السلطان أو الخليفة أو الملك ، ونصيبها من القوة والضعف والعلم بشؤون

الإدارة أو الجهل بها .

ب — شخصية الوزير نفسه

ج — وضع الوزير بالنسبة لكبار الموظفين الذين يقاربونه في المنزلة

(١) ابن الأثير الكامل، مجلد ١٠، ص ٥٤٩ .

(٢) ابن القلانسي ص ٢٢٠، ابن الجوزي المنتظم، مجلد ٩، ص ٦ .
ابن خلكان، مجلد ٤، ص ٢٢٩، وانظر ص ٢٢٨ — ٢٣٠ من المجلد نفسه .

(٣) أن حديثنا عن اختصاصات منصب الوزارة هنا منحصر في طبيعة المنصب كما كان في دولة

الخلافة وعند السلاطين الذين سيطروا على المنطقة العربية ، وعند ملوك وإمراء الأقاليم العربية وأورد التنبيه إلى أن لقب " وزير " كان يطلق أحياناً على الشخص الذي يقوم بمهام (مدير الأعمال) في عرنتنا . فقد أورد ابن الغوطي (مجلد ٤، قسم ٥، ص ٩٥٢) ذكر العميد أبو النضائ محمد بن ناصر الأصبهاني الذي " تولى الوزارة للخاتون أربة أمير المؤمنين المقتفي لأمر الله . . . " وقد توفي هذا الوزير الصغير سنة ٥٣٤ هـ / ١١٤٠ م

وقد حاول بعض الفقهاء تنظيم الواقع العملي لاختصاصات شاغل منصب الوزير فصنفوا الوزارة على ضربين : وزارة التفويض ، ووزارة التنفيذ ، والفرق بينهما ان وزير التفويض توكل اليه ادارة الدولة بمجملها وتطلق له فيها حرية التصرف كاملة . أما وزارة التنفيذ فهي تلك التي يكون شاغلها مجرد منفذ لاوامر الخليفة والسلطان او الملك . وقد طالت هذه النظرية معتبرة لدى الفقهاء قبل وبعد العهد السلجوقي .^(١) وقد اولى الفقهاء الذين عالجوا الموضوع الالفاظ التي يتم بها التقليد أهمية مفرطة ،^(٢) بينما الحقيقة انه لا يوجد لدينا دليل على ان الحكام الذين كانوا يعينون الوزراء ، أو الوزراء أنفسهم ، كانوا يلقبون بالا الى النظرية . انما الذى كان يحدد طبيعة الوزارة هو ما ذكرناه آنفا من نقاط واقعية .

فعندما بويغ المستظهر بالخلافة سنة ٥١٢هـ / ١١١٨م استوزر أبا منصور بن جهير ، ويبدو ان صغر سن الخليفة وضعفه حملاه على ان فوض الامور لوزيره ، وأوكل اليه تدبير سياسة الخلافة بحرية كاملة . وما قاله له : ان " الامور مفوضة اليك ، والتعويل فيها عليك ، فدبرها بما تراه . فقال : هذا وقت صعب ، وقد اجتمعت العساكر مع هذا السلطان الذى عندنا [أى بركياروق] ولا بد من بذل الاموال التي تستدعي اخلاصهم وطاعتهم . فقال له : الخزائن بحكمك . فتصرف فيها غير استتجاز ولا مراجعة ولا محاسبة . فقال : ينبغي كتمان هذه الحال الى ان يصلح نشرها^(٣) وأنا استأذن في اطلاع بني الموصلايا على الحال ، فهما كاتبنا الخضر . فقال المستظهر : قد أذن في ذلك وفي جميع ما تراه .^(٤) فهنا وزير مفوض تفويضا كاملا ليس بحكم الالفاظ ، ولكن بحكم ضعف

(١) انظر الماوردى ، ص ٢٢ و ٢٥ - ٢٦ ، الفراء ، ص ٢٩ - ٣٠ .

عبد الرحمن بن عبد الله [عبد الرحمن بن نصر الشيرازي] ، كتاب المنهج المملوك في سياسة الملوك (القاهرة : مطبعة الظاهر ، ١٣٨٦هـ / ١٩٠٨م) ، ص ١٤ - ١٥ .

(٢) الماوردى ، ص ٢٣ - ٢٤ ، الفراء ، ص ٢٩ - ٣٠ .

(٣) أى اعلان نبأ وفاة الخليفة المقتدى .

(٤) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٨٢ .

ال خليفة الذى كانت سنة آنذاك ست عشرة سنة .^(١) بيد ان لدينا امثلة لوزراء فوضوا في ظل
حكام أقوياء ، فهذا نظام الملك الذى وصفت وزارته بأنها كانت فوق السلطنة ، والذى قيل عنه ان
السلطان لم يكن له معه غير الاسم والابهة ، وأنه كان الأمر المتصرف المستبد بإدارة السلطنة
يمارس هذا النوع من السلطة في ظل أقوى سلاطين السلاجقة . وقد استطاع هذا السلطان ان
يتخلص من نظام الملك عندما قرر ذلك ، ولكن بحذر شديد .^(٢) كذلك كان القاضي كمال الدين
ابو الفضل محمد بن الشهرزورى ، وزير نور الدين محمود ، صاحب الشام ، حاكم البلاد ومتولي امورها
والمشرف على ادارتها .^(٣)

وقد سبق ان اشرنا الى ان التمييز بين وزارة التفويض ووزارة التنفيذ لم يوجد في واقع
الحال — في العهد الذى ندرسه على الاقل — نتيجة للالفاظ المستعملة في عهد الولاية ،
كما انه لم يوجد نتيجة لتصور الحاكم لكلا الطريقتين وقدرته على الاختيار والمفاضلة بينهما بحرية .
لذلك لا نجد في مصادرنا أمثلة على تولية وزير من النوع الثانى ، التنفيذى . ولكن الباحث
يستطيع ان يتبين من خلال استقراءه لمجموع اخبار نشاطات كل من الخليفة (او غيره من الحكام ،
كالسلطان والملك) ما اذا كانت الوزارة القائمة من النوع التفويضي او التنفيذى .^(٤) فالذى يدرس عهد

(١) ابن الطقطقي ، الفخرى ، ص ٢٦٨ — ٢٦٩ .

(٢) السبكي ، مجلد ٤ ، ص ٣٢٥ — ٣٢٦ .

(٣) ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ٢٤٣ ، شمس الدين بن طولون ، قضاة دمشق ، الشجر البسام
في من ولي قضاء الشام ، تحقيق صلاح الدين المنجد (دمشق : مطبوعات المجمع العلمي
العربي ١٩٥٦) ، ص ٤٧ — ٤٨ . والذى نقده هنا افراد الشهرزورى بالتصرف
في الادارة المالية والمدنية بشكل عام . أما شئون الحرب والسياسة فقد كانت في يد نور الدين
نفسه الذى يمكن الاحتسابه من أفضل وأقدر حكام ذلك العصر .

(٤) من أمثلة ذلك ما يورده ابن الطقطقي (الفخرى ، ص ٢٧٣) عن استيزار المسترشد لاحمد بن
نظام الملك ، حيث ذكر ان المسترشد لما عزم على عمارة سور بغداد قسط على الناس خمسة
عشر ألف دينار ، فتذمر عامة الناس ، فقام الوزير وأداها عنهم .

ال خليفة المسترشد مثلا (٥١٢هـ / ١١١٨م — ٥٢٩هـ / ١١٣٥م) يستنتج ان وزراءه كانوا وزراء تنفيذ ، نظرا لنشاط هذا الخليفة وكثرة تحركاته وقوة شخصيته ، وطغيان أخبار نشاطه على أخبار وزراءه .^(١) وهذا القول ينطبق كذلك على عماد الدين زنكي ، حاكم ولاية الموصل القوي (٥٢١هـ / ١٢٢٧م — ٥٤١هـ / ١٢٤٦م) .

وفي أواخر عهد المستنجد بالله (٥٥٥هـ / ١١٦٠م — ٥٦٦هـ / ١١٧١م) تضخمت قوة استاذ الدار عضد الدين ابو الفرج بن رئيس الرؤساء ، وقطب الدين قايماز كبير قادة الجند على حساب منصب الوزير احمد بن محمد بن البلدي (ت ٥٦٦هـ) . وقد تمكن ابو الفرج وقايماز من القضاء على الخليفة ، ثم ألحقوا به وزيره ، حيث قتلوه في دار الخلافة وقطعوه اربا اربا ورموه في دجلة .^(٢) وبعد ذلك بسنين نجد استاذ الدار قد عظم أمره حتى صار اسمه يذكر في الخطبة .^(٣) وإذا كان المبدأ الوراثي في الخلافة والسلطنة والملك قد ادى الى وصول أفراد في غاية الضعف والتفاهة الى شغل هذه المناصب السامية فان الامر كان على العكس من ذلك فيما يتعلق بمنصب الوزارة . فنظام الملك ، الحسن بن علي الدوسي ، أعظم الوزراء في عصره على الاطلاق ، كان أبوه يعمل في البساتين^(٤) ، وكان هو منصرفا الى علوم الفقه والحديث ، ثم اتصل بأحد أمراء النواحي ، فخدمه ، ثم ارتقت به الحال الى ان اصبح وزيرا لالرب أرسلان ثم لابنه ملكشاه من بعده .^(٥) أما الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة ، وهو من أعظم الوزراء ، فكان قرويا عاش في مقتبل عمره حياة

(١) ان كثرة مصادرة الحكام لوزرائهم قد تغرى الباحث بالظن بأن ذلك ناتج عن تسلط ذلك السلطان او الحاكم وان الوزارة في عهده كانت تنفيذية ، بيد ان الحقيقة غير ذلك ، اذ ان الدوافع على المصادرة كانت في الغالب اما لجشع الحكام او لخيانة الوزراء . وفي بعض الحالات لاجتماع السببين معا .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١١ ، ص ٣٦١ — ٣٦٢ ، ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ٩٣ — ٩٤ ،

ابن الفوطي ، مجلد ٤ ، قسم ١ ، ص ٤٥٣ — ٤٥٤ .

(٣) محمد بن احمد بن جبير الكثاني ، رجلة ابن جبير ، تذكرة بالآخبار عن اتفاقات الاسفار ،

بيروت : ١٩٦٨م ، ص ١٨٢ .

(٤) السبكي ، مجلد ٤ ، ص ٣١٢ .

(٥) المصدر نفسه والصفحة ذاتها .

متقشفة وعضه التقربنا به ، ولكنه ارتقى بجده واقباله على العلم وتدرجه في المناصب وما اظهره فيها من كفاية حتى استوزره الخليفة المقتفي فكان خير وزير وخير معاون للخلافة على التخل من نير السلاجقة (١) وكان الوزير ابن البلدى ، قبل ان يلي الوزارة موظفا بواسطه ، وهناك ظهرت كفايته وزاد الدخـل بهـمته ، فامر الخليفة بالكتابة اليه واستدائه ليكون وزيرا في دار الخلافة ، رغم معارضة استاذ دار الخلافة القومي (٢) وقد بلغ تقدير الخليفة المستنجد للوزير يحيى بن هبيرة درجة جعلت الخليفة ينظم ابياتا من الشعر يمدح بها وزيره بقوله :

نذكرهما حتى القيامة ينشر	• صفت نعمتان خصتك ومنا
وجودك والمعروف في الناس منكر	وجودك والدنيا اليك فقيرة
ويحيى لكفى عنه يحيى وجعفر	فلورام يا يحيى مكانك جعفر
مظفر الا كت انت المظفر (٣)	ولم ارمن ينوى لك السوء يا ابا ال

ولعل في هذا القدر ما يغني عن الاستطراد في ضرب الامثلة التي لا يتسع المجال لحشدها ويصادف الدارس لتاريخ العهد السلجوقي امثلة لوزراء اصبح ابناؤهم وزرا ايضا مما قد يوحي بان المنصب المت به علة الوراثة ، بيد ان مبدأ الوراثة لم يلق اى اعتبار او اتباع فيما يتعلق بمنصب الوزارة . فاذا كان سلاطين السلاجقة وملوكهم قد تخاطفوا ابناؤهم نظام الملك وجعلوهم وزرا لهم فما ذلك الا لاعتقادهم بان الابناء قد يكونون كابيهم مقدرة نقيمين لهم ما ساعد نظام الملك على اقامته من امجاد لالب ارسلان وملكشاه (٤) واذا كان محمد بن الوزير بن هبيرة قد ولي

(١) ابن الجوزى المنتظم ، مجلد ١٠ ، ٢١٤ - ٢١٦ ، وابن خلكان ، مجلد ٥ ، ص ٢٧٤ - ٢٧٦ .

(٢) ابن الطقطقي ، ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

(٣) ابن الجوزى المنتظم ، مجلد ٩٠ ، ص ٢١٤ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ٥٤٩ ، وابن الغوطي ، مجلد ٤ ، قسم ٣ ، ص ٤٠٨ - ٤٠٩ .

الوزارة بعد ابيه فان ذلك لم يكن من قبيل التوريث ، ولكن لكفاية محمد ، التي شهد بها ابن الطقطقي صاحب الفخرى . ومع ذلك فان محمد بن يحيى بن هبيرة نكب وحسب بعد سنة واحدة فقط من استيزاره .^(١)

وكان معظم الوزراء في العهد السلجوقي اما من رجال الادب والكتابة ، واما من الفقهاء . فعميد الملك الكندري (ت ٥٦٤هـ / ١١٦٤م) وزير طغرل بك كان متضلعا في الادب العربي والفارسي علما باللغة التركية ، شاعرا رقيقا .^(٢) وكان نظام الملك فقيها ومحدثا قبل ان يكون وزيرا ، ولم تمنعه الوزارة والاضطلاع بمهامها الكبيرة عن مجالسة العلماء والمحدثين .^(٣) وعون الدين يحيى بن هبيرة كان فقيها أدبيا محدثا ، وقد ذكر مترجموه انه ترك أربع مصنفات وارجوزتين في النحو والخط والعبادات والاحاديث . وحكى عنه ابن خلكان انه أنفق في جمع مادة أحد كتبه المتعلق بشرح الاحاديث النبوية مئة وثلاثة عشر ألف دينار .^(٤) وأبو شجاع محمد بن الحسين الروذراوري ، وزير الخليفة المقتدى ، كان مؤرخا أدبيا شاعرا فقيها ، وقد عمل ذيلًا لكتاب تجارب الامم ، لمسكويه .^(٥)

واذا كنا قد تحدثنا عن كلف الحكام بالوزراء الاكفاء وحرصهم على استخدامهم ، فلا بد ان نتحدث عن تهافت المتطلعين الى ولاية الوزارة على المنصب . ولا غرابة في ذلك ، فهذا شأن رجال السياسة حتى يومنا هذا ، بيد ان أهمية هذه الحقيقة فيما نحن بصدده هي فيما نتج عنها من صراع ودسائس ومؤامرات ضاعفت من علل الحياة السياسية ونقائصها . وقد كان الوزير ، ان رأى في أحد الرجال المتصلين بالحاكم كفاءة ونبوغا وطموحا عجل بقتله ، دون ان تبدر من الضحية

(١) ابن الطقطقي ، ص ٢٨٢ .

(٢) ابو الحسن علي بن الحسن الباخري ، دمية القصر وعصرة أهل العصر ، بعناية محمد راغب الطباخ (حلب : ١٣٤٨هـ / ١٩٣٠م) ، ص ٤٠ - ٤٧ ، ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٣١ - ٣٤ .

(٣) ابن خلكان ، مجلد ١ ، ص ٣١٥ - ٣١٧ ، السبكي ، مجلد ٤ ، ص ٣٢٢ .

(٤) ابن خلكان ، مجلد ٥ ، ص ٢٧٤ ، ابن الفوطي ، مجلد ٤ ، قسم ٢ ، ص ١٨٨ .

(٥) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ١ ، ص ١١ ، السبكي ، مجلد ٤ ، ص ١٣٦ .

عداوة ، وذلك تخونا من ان يبرز عليه في المستقبل وينتزع منصب الوزارة منه (١) فضلا عن قيام المستوزرين ببذل الاموال الطائلة والرشا السخية للحصول على منصب الوزارة (٢) ، كان واحد هم يحاول اغراء السلطان بالمال الذي سوف يحصله له ان سلم اليه وزير واحده مكانه في الوزارة من ذلك ما فعله ابو المحاسن كمال الدين بن ابي الرضا الذي استطاع التقرب من السلطان ملكشاه ، فعرض عليه يوما ان يسلم اليه وزيره العظيم نظام الملك " وانا اعطيك الـ الف دينار (٣) ولكن النظام استخاع ان يرد كيد خصمه الى نحره " قورت بيناه بالسكين وحملنا الى السلطان فتقدم بطرحهما لكلب الصيد واخذ من ابن ابي الرضا مائتي الف دينار (٤)

وليس من الصعب فهم سر تهافت المستوزرين على المنصب ، وبذلهم الاموال في سبيل ذلك (٥) فقد كان معظم الوزراء ملققي التصرف في النواحي المالية (٦) والادارية ، فاذا اخذنا بعين الاعتبار ان السياسة كانت تقوم على بذل الاموال واسترضا الساخطين واستخدام الطامعين (٧) وان مثل هذه الامور لم يشغل معظم السلاطين والخلفاء انفسهم بها ادركنا مدى امكانات السرقة والنهب من الاموال العامة . وهذا يفسر بشكن جزئي ظاهرة متاعبة الوزراء التي تملأ بطون كتب التاريخ (٨)

على ان تأريخ الوزراء في هذه الحقبة لا تخلو من صورة طيبة

-
- (١) ياقوت الحموي الرومي، معجم الادباء، راجعته وزارة المعارف العمومية (القاهرة : دار المامون د . ت) ، مجلد ١٠ ، ص ٥٨ — ٥٩ ؛ وابن خلكان ، مجلد ١ ، ص ٤٤١ ، ومجلد ٤ ، ص ٧٧ .
(٢) ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ٢١٢ — ٢١٤ .
(٣) السبكي ، مجلد ٤ ، ص ٣٢٥ — ٦ .
(٤) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٦ — ٧ ، وانظر ايضا ابن الفوطي ، مجلد ٤ ، قسم ١ ، ص ٤٠٤ .
(٥) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ١٤ و ٢٣ .
(٦) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٨٢ .
(٧) يذكر ابن الجوزي (المنتظم ، ٩ ، ٦٦) ان الصلات التي يصرفها نظام الملك في بغداد وحدها بلغت مئتي كره وثمانية عشر الف دينار .
(٨) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ١٤١ ، الكاتب الاصفهاني ، تواريخ السلجوق ، ر ١٠٥ .
ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١١ ، ص ١٠٢ ؛ سبط بن الجوزي ، مجلد ٨ ، ر ١٤٠ .

فالوزير ابو شجاع محمد بن الحسين الروذراورى (ت ٤٨٨ هـ / ١٠١٥ م) الذى كان وزير للخليفة
المقتدى اجمع مترجموه على عفته عن الاموال وكثرة صدقاته (١) وقد ذكر ابن الجوزى ان الوزير
المذكور دعي لتولي الوزارة وهو عند ذاك يملك ستمائة الف دينار انفقها كلها في عمل الخيرات ،
كبناء الاوقاف والمساجد والانعاش على الفقراء واليتامى وعلى توزيع الادوية مجانا في فترة حدوث
وباء مرضي حيث وزع الادوية وارسلها " الى جميع اصقاع البلد (٢) ويضيف ابن الجوزى ان ابا
شجاع " كان يبيع الخطوط الحسنة ويتصدق بثمنها ونقل عن احد الذين خدموا الوزير ان ذلك
الشخص كان واحدا من عشرة " يتولون اخراج صدقات الوزير ، فحسبت ما خسر على يدي فكان مائة
الف دينار (٣) ويبدو من تراجم هذا الوزير ان احسانه هذا ان عن ايمان بمبدأ الاحسان ،
وليس بقصد الدعاية ودلوا الجاه .

وقد قام عدد من وزراء السلاجقة ، والخلفاء ، والاتبكة ، باعمال جليلة ، سواء في نشر
العلم ورعايته او في بناء المدارس والمساجد والرباطات ، وخزانات المياه لشرب المسافرين
وغير ذلك ، مما سنحدث عنه في مواضع من هذه الدراسة ، تجنبنا للتكرار .

(١) ابن الجوزى المنتظم ، مجلد ١ ، ص ١٠٠ - ٩٤ ، وابن خلكان ، مجلد ٤ ص ٢٢١ - ٢٢٠
والسبكي ، مجلد ٤ ص ١٣٢ - ٩

(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ١ ، ص ٩٠ - ١

(٣) المصدر نفسه والصفحتان ذاتهما .

القضاء

ظلت أصول الاحكام القضائية كما كانت في العصور الاسلامية السابقة ، وهي القرآن الكريم والسنة فأى كل ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول او فعل أو اقرار — من وجهة نظر الفقهاء وأهل الحديث — والاجماع ، والقياس .^(١) بيد ان المسلمين اختلفوا في فهم هذه الاصول وتحديد معناها ، رغم اعتراف اهل السنة بها من حيث المبدأ . فلا بد — اذن — ان نأخذ مسألة التراث الفقهي للمذاهب المختلفة بعين الاعتبار ، على أساس ان القاضي كان يستمدى بآراء فقهاء مذهب في فهم هذه الاصول الاربعة التي حددنا . وقد أجاز الفقهاء ان يحكم بغير مذهب وحبذوا اجتهادهم للوصول الى الحكم الاقرب الى الحق من وجهة نظره الشخصية دون التقيد بالمذهب الذي يتبعه ، بينما عارض بعضهم الحكم بغير المذهب الذي يتبعه القاضي .^(٢)

وتولية القاضي حق من حقوق الخليفة ، حسب رأى الفقهاء ، ويقدر ما يسمح به مجال نفوذ الخليفة . وقد كان الخليفة يعين قاضي القضاة ببغداد ، ثم يستنوب القاضي نواباً في مناطق المدينة وخارجها .^(٣) ويسمي الفقهاء هذا النوع من الولاية الولاية العامة ، أى التي يكون فيها القاضي مفوضاً النظر في كل ما يخص وظيفة القضاة ، وفي جميع البلاد . وثمة أنواع من ولايات القضاة تسمى الولاية الخاصة ، وهي ان تكون الولاية محدودة بنوع خاص من القضايا او بمكان خاص ، أو بقضية خاصة .^(٤) وتمدنا المصادر بأثلة عن قضاة تسلموا مناصبهم بموجب عهد من والي الاقليم ، ثم جاء العهد بعد ذلك من قاضي قضاة الخليفة . فالقاضي هبة الله بن محمد بن أبى جرادة العقيلي عهد له نور الدين محمود بقضاة حلب ونواحيها سنة ٥٣٤هـ / ١١٤٠م " ثم جاء له العهد من بغداد ، من قاضي القضاة الزينبي ، بأمر المقتفي ."^(٥) وثمة مثل آخر عن قاضٍ ولاه ملك الاقليم هوعلي بن محمد الغزنوي ، قاضي

(١) الماوردي ، ص ٦٦ ؛ ابو يعلى الفراء ، ص ٦١ ؛ ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٢١٠ .

(٢) الماوردي ، ص ٦٧-٦٨ ؛ ابو يعلى الفراء ، ص ٦٣ ، وكلاهما تولى القضاة ببغداد في العصر السلجوقي .

(٣) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ١٥ ؛ ابن ابي الوفاء ، ص ٨٢ و ٩٥ و ١٦ و ١٨٨ و ٢٥٠-١ .

(٤) الماوردي ، ص ٧٠-٧٣ ؛ ابو يعلى الفراء ، ص ٦٥-٦٨ .

(٥) ياقوت ، معجم الادباء ، مجلد ١٦ ، ص ٣٠ .

دمشق الذي ولاه الملك تاج الدولة تتشرين الب ارسلان السلجوقي وياشر الحكم سنوات^(١) . ولسنا ندري ان كان هذا التعيين قد اعتمد من قبل الخليفة وقاضي قضاة ام لا ، وكلا الامرين محتمل ، على اى حال ، لان سلطة الخليفة كانت ضعيفة في تلك الفترة^(٢) ، ثم ان نفوذه في هذه الجهات البعيدة عن بغداد نسبيا كان ضعيفا حتى عندما غدت الخلافة قوية الشوكة . والذي نميل الى ترجيحه بشكل عام ان تعيين قاضي القضاة في بغداد ظل حقا معترقا به للخليفة ، ما رآه طوال عهد السلاجقة^(٣) ، أما القضاة خارج بغداد فكان تعيينهم يخضع للظروف السياسية ، فان جرى التعيين في سنة هدوء وكانت علاقة السلطان ووالي الاقليم المعني مع الخليفة على صورة مرضية اخذت موافقته ، وان كانت الاوضاع مضطربة او كانت العلاقات عدائية اهمل حق الخليفة في اعتماد التعيين .

وكما كان الخليفة يعين القضاة فقد كان هو الذي يعزلهم ايضا ، عندما يرى ذلك ، ولدينا بعض الامثلة على قيام الخليفة بعزل قاضي القضاة وتولية شخص آخر مكانه^(٤) . واذا كان ولاية الاقاليم قد تصرفوا بتعيين القضاة المحليين دون الرجوع الى الخليفة او الى قاضي القضاة ، فانهم كانوا يتصرفون منفردين بعزل القضاة كذلك^(٥) . وقد أنكر بعض القضاة المعزولين حق الخليفة ، وبالتالي حق ارباب الحكم ، في عزل القاضي مالم يثبت عليه الفسق والانحراف^(٦) . ولكن السبكي ، وهو متأخر عن العصر الذي ندرسه نفى ذلك ، وذهب الى ان من حق الخليفة عزل القاضي ولو لم يفسق^(٧) . ورغم ان

(١) ابن طولون ، ص ٤٢ ، وانظر ايضا : ابن خلكان ، مجلد ٣ ، ص ٣٧٥—٣٧٦ .

(٢) استولى تتش على دمشق سنة ٤٧١هـ / ١٠٧٩م (ابن القلانسي ١١٢) وتوفي القاضي الغزنوي

سنة ٤٧٧هـ / ١٠٨٤م (ابن طولون ٤٢) ومعنى ذلك ان تعيينه جرى بين هاتين السنتين

حيث كان على رأس الدولة أعظم سلاطين السلاجقة ، ملكشاه بن ألب أرسلان .

(٣) لم نلاحظ اى خروج على هذه القاعدة اللهم الا عندما تدخل عميد الملك الكندري ، وزير دغريلك

في تعيين قاضي القضاة (انظر ص ٤١ فيما سبق) .

(٤) الريلي ، ص ٢٧٨ ، ابن ابي الوفاء ، ج ١ ، ص ٣٥٠ — ٣٥١ ، ابن رجب ، مجلد ١ ، ص ٢٠٠ .

(٥) انظر مثلا : ياقوت ، معجم الادباء ، مجلد ١٦ ، ص ٣١ .

(٦) السبكي ، مجلد ٤ ، ص ٢٠٣ ، ابن ابي الوفاء ، ج ١ ، ص ٣٥٠ — ٣٥١ .

(٧) السبكي ، مجلد ٤ ، ص ٢٠٣ .

السبكي متأخر زمنيا الا انه يبدو لي انه يمثل وجهة نظر قطاع من الفقهاء في العصر الذي ندرسه ح

وقد اوضح الفقهاء الصفات الواجب توفرها فيمن يلي منصب القضا وحدها ب : الذكورية والبلوغ والعقل والحرية والاسلام والعدالة وسلامة السمع والبصر والعلم بالاحكام الشرعية واصولها والقدرة على الاجتهاد في استنباط الاحكام (١) ولم تضادف فيما روته مصادرنا من اخبار القضاة خروجا على هذا التحديد ، اللهم الا ما تعلق بصفة العدالة ، ان وردت روايات عن بعض قضاة اتهموا في عدالتهم مثل محمد بن موسى البلاساغوني (ت ٥٠٦ هـ) الذي ولي القضا بدمشق ووصف بانه كان مرتش (٢) ومثل يحيى بن سعيد ، الذي قلده الخليفة المقتني القضا سنة ٥٤١ هـ والذي ظلم الناس وسادهم واخذ الرشا ، حتى اضطر احد الشعراء الى عمل منشورات شعرية والصافها في المساجد ، يندد فيها بفساد القاضي المذكور بقوله :

يا حزينه الطمي الطمي	قد ولي ابن المرخم
وى على الشرع والقضا	وعلى كل مسلم
بدواته المنفضة	ووكيله المكس
اترى صاحب الحكم	وقد جن او عمي
وارى المقتني الامام	عن الحق قد عمي (٣)

وربما كان فقدان العدالة عند هذين القاضيين غير ظاهر قبل ان يليا المنصب ، وكذلك الحال بالنسبة لاضرابهما .

وكانت اختصاصات القضا واسعة جدا فقد كانت تشمل * الدماء والفروج والاموال (٤) والفصل في المنازعات سواء بالصلح او بالحكم اى ما يمكن تسميته بالقضايا الجنائية والمدنيـة ،

(١) الماوردي ص ٦٥ - ٦ ؛ وابو يعلى الفراء ص ٦٠ - ٦٤ .

(٢) السمعاني مجلد ٢ ص ٣٨٠ .

(٣) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ١٠ ، ص ١٢٥ .

(٤) ابو الحسين محمد بن ابي يعلى ، طبقات الحنابلة ، بعناية محمد حامد النقي (القاهرة : مطبعة السنة المحمدية ، ١٣٢١ هـ / ١٩٥٢ م) ، ج ٢ ص ١٩٩

ونظارة الاوقاف والحجر على المجانين والسفها ، وحفظ اموال اليتامى وتنفيذ وصايا المتوفين في حدود الشريعة ،^(١) وتقسيم التركات ،^(٢) وتزويج الايامى بأكفائهن ان لم يكن لهن أولياء^(٣) واحقاق حقوق الله وردع مخالفيها ، واحقاق حقوق الناس شريطة ان يتقدم مدعى يطالب بها .^(٤)

وقد كانت لقاضي القضاة ، وللنضاة والفقهاء ، بصفة عامة ، أهمية كبيرة في عصر السلاجقة ، فلدينا أمثلة لقضاة تولوا نيابة الوزارة في حالة غياب او وفاة الوزير الاصيل ، مثل قاضي القضاة جعفر ابن عبد الواحد الثقفي ، الذي تولى نيابة الوزارة سنة ٥٦٠ هـ عند وفاة الوزير ابن هبيرة ، وزير الخليفة المستنجد . وقد ظل نائباً للوزير الى ان استوزر الخليفة أبا جعفر احمد بن البلدى .^(٥) وثمة قضاة ساسوا الدول وانفردوا واستبدوا بالادارة المدنية فيها ، وقاموا باصلاحات كثيرة .^(٦) وكان الخلفاء والسلاطين يتخذون من القضاة سفراء يتراسلون بهم ، فقد ارسل الخليفة القائم السلطان طغرل بك بالقاضي الماوردى ،^(٧) وبعث عماد الدين زنكي القاضي كمال الدين الشهرزورى الى

- (١) الماوردى ، ص ٧٠-٧١ ابن ابي يعلى ، ج ٢ ، ص ٢٠ .
- (٢) ابو محمد يوسف بن قزأغلي ، المعروف بسبط بن الجوزى ، مرآة الزمان فى تاريخ الاعيان (حيدرآباد : مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ١٣٠٠ هـ) ، مجلد ٨ ، ص ١٨٧ .
- ابن رجب ، مجلد ٤١ ص ٢٢٣ .
- (٣) الماوردى ، ص ٧٠ .
- (٤) المصدر نفسه والصفحة ذاتها .
- (٥) الذهبي ، مجلد ٤١ ص ٢٧١ ، وانظر ابن ابي الوفاء ، ج ١ ، ص ١٧٩ - ١٨٠ ، والاريلي ، ص ٢٧١ .
- (٦) كالقاضي ابن عمار الذى امتلك طرابلس (ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ص ٧١) وقاضي جبلة المعروف بابن صليحة (ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ص ٣١٠-٣١٢) ، وانظر ابن خلكان ، مجلد ٣ ص ٣٧٥-٣٧٦ ، ومجلد ٤ ص ٢٣٣ .
- (٧) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٨ ص ١١٦ ، وانظر أمثلة اخرى في المصدر نفسه ، مجلد ٩ ص ٢٠٦ و ٢٢٣ ، وسبط بن الجوزى ، مجلد ٨ ص ٢١٠ ، وابن الفوطي ، مجلد ٤ ، قس ٣ ص ٦٧ ، وابن طولون ، ص ٤٧-٤٩ .

السلطان مسعود (١) وعندما انهكت حروب الوراثة السلطان بركيا روق القاضي ابا المظفر الجرجاني و ابا الفرج احمد بن عبد الغلدر الهمداني ليتوسطا في اصلاحه مع اخيه السلطان محمد ، وذلك سنة ٤٩٧ هـ / ١١٠٤ م فتم الصلح (٢)

وما يحمد لهذا العهد اننا نجد بعض الفقهاء والوزراء يؤكدون ضرورة اعتماد القاضي على وجود ادلة كافية قبل تجريم المتهم ، ويستكرون تعذيب المتهم للحصول على اقراره بارتكاب الجريمة ، فقد حدث ان احد القضاة اعتمد على فراسته فاضع متهما للتعذيب ليحمله على الاقرار بفعل الجرم الذي ظن القاضي انه ارتكبه ، وقد وصل خبر هذه الحادثة الى الوزير ابي شجاع ، محمد بن الحسين الرذراوري (ت ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥) المشهور بتدينه الشديد ونزاهته ، فعاقب القاضي المعني رغم ان المتهم الضحية كان يهوديا . كما ان الكثيرين من الفقهاء اعترضوا على تصرف ذلك القاضي (٣) وبلغ الامر بابي بكر الشاشي احد كبار فقهاء العصر ان الدكتابا سماء الرد على من حكم بالفراصة ، اعترض فيه على تصرف ذلك القاضي (٤) ولنا نعني من وراء هذا المثل ان امور العدالة كانت في وضع سليم في ذلك العصر ، بل كل ما اردنا الاشارة اليه هو مجرد وجود بعض الحسنات وبعض الصور الوضيئة .

ومن اللازم ان نذكر هنا ان المؤسسات القضائية لم تكن منظمة على شكل جهاز حكومي ينتظمه قانون اداري محدد واضح المعالم ، بحيث تقل فرص الانحراف والاستغلال ، بل كان تعيين قاضي القضاة ، او القاضي يتم على اساس فردي شخصي سواه ، بالنسبة للمسئول الذي عينه او للقاضي

(١) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١١ ، ص ١٦٠ - ١٦١ .

(٢) المصدر نفسه ، مجلد ١٠ ، ص ٣٢٠ .

(٣) ومع ذلك فقد ايدى بعض الفقهاء

(٤) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ١٩ ، ص ٩٥ .

المعين نفسه . وكان القاضي يتصرف في ولايته على الاساس نفسه ، سواء في احكامه او في تعيين نوابه ، فمن ناحية الاحكام لم يكن القاضي مقيدا بنصوص قانونية مدونة ، بل كانت له حرية الاجتهاد ، والاختيار من المسوين ، او الاجتهاد في حدود مذهبه (١) وهذا الاجتهاد محددة لا مذمة عند توفر القاضي النزيه . اما ما يتعلق بتعيين النول فقد نتج عن الطابع الشخصي للوظيفة نوع من الاستغلال والاحتكار العائلي فالقاضي علي بن محمد الداعاني (ت ٥١٣ هـ) تولى القضاة والشهادة وعمره ست عشرة سنة ، والذي ولاء هو ابوه قاضي القضاة محمد بن علي الداعاني (٢) ويديهي انه كان في فقهاء بغداد وعلمائها من هو اصلح من هذا الصبي لمنصب القضاة . وعندما ولى نور الدين محمود زنكي الفقيه كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزوري قضاة الشام ونظر الاوقاف واموال الدولة وغير ذلك لم يتردد هذا القاضي في تعيين ابنه نائبا عنه بحلب ، وابن اخ له نائبا في حماة ، وابن اخ اخر في حمص (٣) ورغم ان القواعد الشرعية تقتضي اجراء محاكمة عادلة لا يجرم المتهم فيها الا باقرار او بينة (٤) فقد كان الكثيرون من الحكام يتصرفون في القضايا دون احوالها الى قضاة مختصين وكانوا يوقعون العقوبات لمجرد الظن ودون تثبيت كاف (٥) ثم ان الطابع الفردي والشخصي لنظم الحكم والادارة بصفة عامة في ذلك العصر وعدم وجود قوانين ادارية وتنظيمية جارية على استقلال القضاة وعرضهم للعزل والى تدخل الحكام في مجرى العدالة (٦) ولعل هذا هو ما حمل بعض الفقهاء الاتقيا على التهرب من قبول المناصب القضائية ، بل ورفضها رفضا باتا في بعض الاحيان ،

(١) ان نصوص القرآن والحديث لم تصغ على شكل نصوص قانونية محددة وهناك حالات قليلة وجدت لها نصوص لا تحتل التأويل ، اما الغالب فان النصوص تفسح مجالا واسعا للاجتهاد . وعن حرية القاضي في الاجتهاد المطلق او في حدود المذهب انظر الماوردي ، ص ٦٢ - ٦٨ والفرا ، ص ٦٢ .

(٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ١ ، ص ٢٠٨ - ٢١٢ ، وانظر ابن ابي الوفاء ، ج ١ ، ص ١٨٨ و ٢٠٨ و ٢٨٢ .

(٣) ابن خلكان ، مجلد ٣ ، ص ٣٢٥ - ٦ ، وابن طولون ، ص ٤٨ .

(٤) الماوردي ، ص ٢١٩ - ٢٢١ .

(٥) ابن الاثير ، الباهر ، ص ١٦٢ .

(٦) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٢٠٩ ، وياقوت ، معجم الادباء ، مجلد ١٦ ، ص ٣١ ، والسبكي ، مجلد ٤ ، ص ٢٠٤ - ٥ .

الاحيان^(١) حتى ان بعضهم اعتبر ولاية المناصب القضائية خطيئة دينية تستوجب التوبة والتكفير^(٢). ومع ذلك فان فقهاء آخرين كانوا يتلهفون على مناصب القضاء ويبدلون الاموال للحصول عليها^(٣).

النظر في المظالم:

من الوظائف المرتبطة بمؤسسات القضاء وظيفة المظالم . ورغم قلة المعلومات التي توردها المصادر عن هذه الوظيفة في العصر السلجوقي ، فان هناك امثلة يمكن الاستعانة بها لمعرفة أوضاع منصب صاحب المظالم . ويبدو ان السبب في قلة المعلومات عن هذه الناحية هو ان أهميتها قد تدنت في دار الخلافة ، نظرا لان الجنود المرتزقة من الترك والديلم ، سواء في العهد البويهى او السلجوقي كانوا يميلون الى الفوضى والاعتداء على الناس في كثير من الاوقات^(٤) . ولم يكن السلاطين والملوك ، اذا استثنينا بعضهم ، حريصين على كف جنودهم وقادتهم ، وان حرصوا فقد كان من الصعب عليهم ضبطهم^(٥) . فضلا عن ذلك فقد كان الشحنة يطفى باختصاصاته على صاحب المظالم ، الا انه — مع ذلك — كان يعجز في كف الظلم والعدوان في كثير من الحالات^(٦).

ومن الامثلة القليلة التي نعرف منها وجود ناظر في المظالم ما روى عن الوزير ابي شجاع محمد بن الحسين الروزراوى الذى قيل انه "كان يصلي الظهر ، ويجلس للمظالم الى وقت العصر ، وحجابه تنادى : اين اصحاب الحوائج ؟ فلم يطمع في أيامه طامع^(٧) " . وذكر انه كان شديدا في رد الحقوق من مغتصبها ، مهما صغرت ، ومهما كان شأن المغتصبين وكانت منزلتهم^(٨).

(١) ابن ابي يعلى ٢٠٦ ص ١٩٩ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ص ١٠٠ ، السبكي ، مجلد ٤ ص ٢٠٣ .

(٢) ابن ابي الوفاء ، ج ١ ص ٣٠٤ .

(٣) ابو حامد الغزالي ، احياء علوم الدين (القاهرة : مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده ، د . ت .) ، ج ١ ص ١٩ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ص ١٥ ، ابن ابي الوفاء ، ج ٢ ص ٢٦ .

(٤) أشرنا الى ذلك في مواضع متعددة من هذه الدراسة .

(٥) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٨ ص ١٦٩ .

(٦) المصدر نفسه ، مجلد ٩ ص ١٣٧ .

(٧) السبكي ، مجلد ٤ ص ١٣٧ — ١٣٩ .

(٨) المصدر نفسه ، والصفحات ذاتها .

ونقرأ خبراً عن تكليف الخليفة لابي منصور محمد بن المعين الملقب بزعيم الكفاة ،
النظر في المظالم ، ففي سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٨٦ م خلع عليه وقلده هذا المنصب ، فخرج " ثم دعا
الامراء بالمعروف فكانوا اعوانه ٠٠٠ (١)

ولا نقرأ عن راحب مظالم يعينه السلاجقة كما لا نجد ذكراً لهذا المنصب في اخبار
الدولة الزنكية في الموصل ، وان كان قد ذكر عن عماد الدين زنكي انه كان يردع اصحابه عن ظلم
رعيته وكان يقول لهم ان البلاد لا تتسنى لاثمن من ظالم واحد ، ويعني بذلك انه هو نفسه ظالم
فلا ينبغي ان يسمح لاصحابه بالظلم (٢) .

اما في الدولة الزنكية بدمشق فقد كان الملك العادل نور الدين محمود يجلس للنظر
في المظالم كل يوم ثلاثاً " ليصل اليه كل احد من المسلمين واهل الفقه ، حتى نساءؤهم ٠٠ (٣)
وعندما عجز القاضي عن كبح جماح اسد الدين شيركوه ، وكان من اكابر امراء نور الدين محمود ،
شكاه الى نور الدين ، فامر ببناء دار العدل بدمشق ، وان ذاك خاف اسد الدين والامراء وردوا
المظالم الى اصحابها وارنؤهم . وكان نور الدين يجلس يومي الاربعاء والخميس " عند القاضي
والفقه ، ويامر بازالة الحجاب والبواب ، ويوصل اليه الشيخ والضعيف والعجوزة الكبيرة ، ويسأل الفقهاء
عن ما اشكل عليه من الامور الغامضة ٠٠ (٤)

(١) ابن الجوزي، المنتظم، مجلد ٤٩ ص ٢٦.

(٢) ابن العديم، بغية الطلب، مجلد ٢ ورقة ٢١١ و.

(٣) بدر الدين ابو الفضل محمود بن قاضي شهاب الكواكب الدرية في السيرة النورية ، بمكتبة سوهاج
في الجمهورية العربية المتحدة تحت رقم (٢٦٢ تاريخ) ورقمها في مكتبة الجامعة الاميركية في بيروت

هو Mic. A-146. ورقة ٢٠ ق - ٢١ و.

(٤) المصدر نفسه ورقة ١٧ - ١٩.

ويمكن ان نستنتج من هذه المعلومات القليلة ان صاحب المظالم كان يختص بالظلمات الظاهرة التي يعجز القاضي عن ردها ، أو أنها تخرج عن اختصاصه . وقد أيد وصف الفقهاء المعاصرين لمهمات صاحب المظالم هذا الاستنتاج ، حيث قالوا ان الفرق بين القاضي وبين صاحب المظالم هو ان القاضي يبين حقا مجهولا متنازعا عليه ، أما صاحب المظالم ، فإنه يختص بحق ظاهر فرض ظالم قوى أدائه او الاعتراف به . فها هنا يلزم تعضيد حكم القضاة بهيبة السلطان . لذلك اشترط في صاحب المظالم ان يكون ذا هيبة وسادة .^(١) وقد اعتبرت مهمة النظر في المظالم ضرورة لا غنى عنها لانتظام أمر الدولة ونجاح الحكم .^(٢)

الشهود :

الشهود ، او العدول ، مرتبطون بالقضاة . وقد كانوا من الفقهاء . أما عملهم فهو الشهادة في المحاكم . وكان القاضي هو الذي يقرر قبول شهادة فقيه معين . ومعنى قبول شهادته انه أصبح شاهدا أو عدلا ، يحضر مجالس الحكم وشهد على ما يتخذ فيها من قرارات وما يصدر فيها من أحكام .^(٣) وكان الشهود في بعض الاحيان يزكون من قبل شخصيات دينية هامة حتى تقبل شهاداتهم .^(٤) ومن ناحية اخرى فقد كان بعض القضاة يتوقون لان يحضر بعض الفقهاء ذوي المكانة مجالس حكمهم للشهادة ، حتى ان قاضي القضاة ابن ماکولوسط

(١) الماوردي ، ص ٧٧ - ٨٤ .

(٢) الشيرازي ، المنهج المسلوك ، ص ٩٦ .

(٣) نستنتج ذلك من عبارة تتردد في تراجم الشهود ، فحواها ان ذلك العدل شهد عند القاضي فلان فقبل شهادته . انظر مثلاً : ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ١٣١ . ابن ابي الوفاء ، ج ٢ ، ص ٩٦ و ١٣٧ . زين الدين ابو الفرج عبد الرحمن بن رجب البغدادي الدمشقي الحنبلي ، كتاب الذيل على طبقات الحنابلة ، بعناية هنري لاووست وسامي الدهان (دمشق : المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م) ، مجلد ١ ، ص ٢٠٧ .

(٤) ابن ابي الوفاء ، ج ٢ ، ص ٦٨ - ٦٩ . ابن ابي يعلى ، ج ٢ ، ص ٢٣٨ .

نفرًا من الاعيان لاقتناع الفقيه الخنبلي ابي يعلى الفراء بحضور مجلسه (١) وكان الدخول في عداد الشهود يرشح الشخص المعني لتولي المناصب القضائية ، بيد انه لم يكن شرطًا لتوليها (٢) وكان الشهود يعتبرون من وجوه المجتمع وعلية القوم (٣) حتى ان بعض الشهود كانوا يترفعون عن الشهادة عند نفر من القضاة (٤) ومع ذلك فقد وجد من الشهود من ارتشى وانحرف (٥)

الوكلاء ، او المحامون :

لقد وجد في العهد السلجوقي ، في المناطق العربية التي خضعت للسلاجقة ، اناس يمارسون مهنة المحاماة امام المحاكم ، وكانوا يعرفون باسم الوكلاء باعتبار انهم يتولون عن اصحاب العلاقة في القضايا ، للتحدث نيابة عنهم . ويبدو ان ذم اكثر الوكلاء في ذلك العصر كانت خربة اذ يذكر ابن الجوزي انه جرى في رجب سنة ٥٥٧ هـ / ١١٦٢ م جمع الوكلاء عند حاجب الباب ، * وشرط عليهم ان لا يتبرطلوا من احد (٦) وبين لهم الحد الاعلى من الرسوم ، الذي يجب الا يتعدوه . وكان سبب هذه العملية حادث مشين ارتشى فيه بعض الوكلاء (٧) وقد وصف الشيرازي المتوفى عام ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م الوكلاء في زمانه بانهم لا " خير فيهم ولا مصلحة للناس بهم . . . لان اكثرهم

(١) ابن ابي يعلى، ج ٢، ص ٩٦ — ٩٧.

(٢) ابن ابي الوفاء، ج ١، ص ٢٠٨ و ٢٨٧ و ٣٣٠ و ٣٣٢ و ٣٣٣ وج ٢، ص ٦٨ — ٦٩.

(٣) اذ كانوا يحضرون المناسبات الهامة كبيعة الخليفة انظر مثلاً ابن الجوزي، المنتظم، مجلد ١٠، ص ٥٠.

واستقبال السلطان انظر ابن الجوزي، المنتظم، مجلد ٩، ص ٧٦ — ٧٧.

(٤) ابن الجوزي، المنتظم، مجلد ٩، ص ٨٩.

(٥) المصدر نفسه، مجلد ١٠، ص ٢٠٤.

(٦) المصدر نفسه، والصفحة ذاتها.

(٧) المصدر نفسه، وانظر مجلد ٨، ص ٢٧٣.

رقيق الدين ، ياخذ من الخصمين ثم يتمسكون فيه بشبه (١) الشرع فيوقفون القضية ، فيضيح الحق ويخرج من بين يدي طالبه وصاحبه (٢) مع انه لو ترك كل من الخصمين يوضح ادعاءه لظهر الحق سريعاً للفاضي . . . نكأن ترك الوكلاء في هذا الزمان اولى من نصبهم (٣) الا في حالة كون الموكل عنه امرأة او ضيباً (٤)

(١) في الاصل المطبوع " بسنة " وذلك ناتج عن سهو او خطأ من المحقق ، لان النسخة التي اعتمدها في تحقيقه ك نسخة اولى اوردت اللفظ الصحيح الذي يتفق مع المعنى وهو لفظ " بشبه " الذي ابتناه . ولكن هذه السورة من صور الجمع غابت عن ذاكرة الاستاذ العريني ، على ما يبدو فاستبدلها بكلمة " بسنة " التي افسدت المعنى وهي ولا شك تصحيف ، وقد ذكر في حواشيه انه اتى به من نسخة ثانية من النسخ الخطية التي استعملها في تحقيقه . انظر حاشية رقم ٢ ادناه

(٢) الشيرازي ، نهاية الرتبة ، ص ١١٥ .

(٣) المصدر نفسه ، والصفحة ذاتها .

(٤) المصدر نفسه ، والصفحة ذاتها .

الادارة المالية

لا نقصد بهذا العنوان انه كان في العهد السلجوقي جهاز منظم ، ذو قواعد تنفيذية محددة مختص بالشئون المالية يمكن ان يطلق عليه اسم الادارة المالية ، بل الذي نعنيه هو الكيفية التي تصرف ارباب الحكم بها في الامور المالية .

كان الحكم في العصر السلجوقي يتركز في دوائر ثلاث ، تلتف كل منها حول واحد من مناصب الحكم الرئيسية ، فدائرة تلتف حول الخليفة واخرى حول السلطان وثالثة حول ملك الاقليم (١) وكانت قور هذه المراكز الثلاثة وعلاقة كل منها بالآخر لا تسير على نسق واحد ، بل تتعرض للتغيير من حين لآخر ، نتيجة لتغير مقدار قوة ارباب المناصب الرئيسية . وكانت الدائرة المتمثلة في السلطان ومن حوله هسرا نفذ هذه الدوائر واوسعها سلطة ، وكانت العلاقة بينها وبين الدائرتين الاخرتين علاقة احتواء واشتمال ، ويصدق هذا الوصف بالنسبة للفترة الاولى من العهد السلجوقي واجزاء متقطعة من الفترة الثانية (٢) اما في الفترة الثالثة فقد انفصلت هذه الدوائر بعضها عن بعض من الناحية العملية على الاقل .

وكن هذا الانفصال لا يعني حدوث تبدل في اساليب معالجة الامور المالية ، لقد ظل الحال على ما كان عليه في السابق ، باستثناء استقلال الخلافة في ادارة العراق ، ماليا وسياسيا ، واستقلال الامراء الزنكيين في الجزيرة بلاد الشام . كذلك . اى ان الادارة المالية على الصعيد المحلي والاقليمي لم تتعرض لتغير كبير وانما الذي تغير هو العلاقات الخارجية ماليا وسياسيا (٣)

(١) لا يستطيع الباحث ان يعلق على الفئات الحاكمة في ذلك العصر اسم " حكومة " كما لا يستطيع ان يزعم ان الشخص الذي كان يشغل منصب السلطنة او الخلافة او امانة الاقليم هو صاحب السلطة الفعلية ، لان الامور لم تستقم على نهج واحد .

(٢) في الفترة الثانية الزاخرة بالصراع ، والانتصارات والهزائم كانت الخلافة وحكام الاقاليم يستقلون حيناً ويعودون الى التبعية والخضوع حيناً آخر .

(٣) ان الاحكام العامة التي وردت في هذه المقدمة مستنتجة من دراستنا لمؤسسات الخلافة والسلطنة و امانة الاقاليم .

وفي ضوء هذا التمهيد نجد ان من الانسب دراسة الادارة المالية دراسة موحدة ،
ان لا مجال لعمل دراسة منفصلة لكل من الخلافة والسلطنة والاقاليم لان معنى ذلك
الوقوع في تكرار عديم الفائدة . ومن هذا نستشير الى اية فروق بسيطة تلزم الاشارة اليها في المواضع
المناسبة .

مصادر دخل الدوائر الحاكمة :

كانت الاموال التي تجبى من الرعية على ضربين : اموال حددتها الشريعة ، وبينهما
الفقهاء ، وهي الزكاة ، والخراج ، الجزية ، والقي ، او الغنائم ، والاقطاعات ، بالنسبة للخلافة
في فترات ضعفها (١) اما النوع الثاني فهو ما كان يفرض من ضرائب على التجارة الداخلية والخارجية
والعابرة ، وعلى املاك الناس . وشدة انواع اخرى من الدخل غير المنتظم كالمصادرة التي كان الحكام
يلجأون اليها في كثير من الاوقات ، ولدينا عنها الكثير من الاخبار (٢) ومن الطريف ان احمد
الامراء الذين تولوا حمص من قبل اتابك طغتكين ، صاحب دمشق ، كان يشارك اللصوص قطاع الدرو
ويحصل على سهم من انسابهم (٣)

وكانت الضرائب الشرعية مقبولة عند الفقهاء بطبيعة الحال كما كانت مسلما بها
من جانب الرعية . وقد حدد الفقهاء مقادير الزكاة بالنسبة للاموال النقدية والنسبة
للزروع والثمار والمواشي (٤) واستأرى اهمية لتفصيل هذه المقادير توجب تضمينها في
هذه الصفحات لانها كانت نظرية لا يتقيد بها اكثر الحكام . وحوى بالذكر هنا ان الفقهاء
شدوا على ان الزكاة هي كل ما يجب على المسلم وانه لاحق للحكام في ماله غير الزكاة التي تشمل
زكاة النقد المدخر ، وزكاة وعشور الزروع والثمار وغيرها (٥) وبينما يرى الفقهاء ان من حق عمال

(١) الماوردي ، ص ١٤٢ ، الفراء ، ص ١٥٣ .

(٢) انظر ما يلي ص ٩٦ — ٩٧ .

(٣) ابن القلانسي ، ص ١٨٢ .

(٤) الماوردي ، ص ١١٤ — ١٢٠ ، الفراء ، ص ١١٥ — ١٣١ .

(٥) الماوردي ، ص ١١٣ ، الفراء ، ص ١١٥ .

الصدقة او الجباة ان يأخذوا صدقات الاموال الظاهرة التي لا يمكن اخفاؤها ، كالزروع والثمار والماشية ، يؤكدون ان اخراج زكاة الاموال الباطنة ، كالنقود الذهبية والفضية والسلع التجارية يعود الى المالك ، يخرجها على النحو الذى يراه ، ولا يحق لعامل الصدقات أخذها . (١)

أما الخراج فقد كان يؤخذ من غير المسلمين — في بادىء الامر — على زروعهم وممتلكاتهم حسب المقادير التي حددتها العهود المعقودة معهم ، ولكنها صارت تؤخذ ممن اعتنقوا الاسلام وظلوا في أراضيهم ، حسب رأى بعض المذاهب الفقهية . (٢) ولم اعثر على دليل استدّيع بموجبه التأكيد بأن أراضي قسم من المسلمين كانت أراضي خراج . ولكنني أرجح ان هذا الوضع كان موجودا . (٣)

والجزية هي ضريبة الرؤوس التي كانت تؤخذ من اهل الذمة ، المعاهدين . (٤) أما الغنائم فكانت قسمين : ما يؤخذ من الاعداء غير المسلمين ، (٥) وما كان يأخذه السلاطين والملوك والامراء من اسلاب خصومهم في الحروب التي كانت تدور فيما بينهم .

أما النوع الثاني من الضرائب فقد كان الناس يعتبرونه ظلما صارخا يجأرون بالشكوى منه ، ويحتج الفقهاء لدى الحكام مطالبين بازالته . وكانت الالسنه تلهج بالتناء على الحكام الذين يسقطون الضرائب ، وتعزو ذلك الى تقواهم . (٦) ولسنا نعرف المقادير والنسب التي كانت تفرض على البضائع والمتاجر والاملاك ، غير اننا نعرف انها كانت تفرض على الدكاكين والدور

(١) الماوردى ص ١١٣ ، الفراء ، ص ١١٥ .

(٢) الماوردى ، ص ١٤٧ .

(٣) ابن القلانسي ، ص ١٦٧ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، مجلد ٢ ، ص ٧٥ .

(٤) الماوردى ، ص ١٤٢ ، الفراء ، ص ١٥٣ .

(٥) مثل غنائم أتابكة الموصل والشام من الصليبيين ، انظر ابن القلانسي ، ص ١٤٩ و ١٨٦ و ٣٣٩ و ٣٤٢ ،

ابن الاثير ، الباهر ، ص ٨٦ — ٨٧ و ١٣١ و ١٤٤ .

(٦) ابن الجوزى المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٣٥ و ١١٨ و ٢١٨ و ٢٤٣ — ٢٤٥ ، سبط بن الجوزى ، مجلد ٨ ،

ص ٢٠٦ و ٢٢٣ ، ابن قاضي شهبة ، ص ٦٣ — ٦٥ .

والعقارات (١) وعلى الكثير من اصناف البضائع . وفي القائمة التي اوردها ابن شداد عن ارتفاع مدينة حلب نتبين ان مما كانت تؤخذ عنه الضرائب : الخضر والبقل والمديغة وصبغة الحرير والحرير وسمرة الخضر ، والبساتين وذخيرة الحطب والفحم ومصانع الصابون والملح والمسالخ والاجتياز بخان السلطان والقلي (٢) والقبايين والقنب والحديد وثمان المزابل والموارث الحشرية وغير ذلك (٣) وما دام الحد الشرعي للضرائب قد انهار فان الطريق غدا مفتوحا لكل انواع الافتئات واصبحت كل القواعد عرضة للعبث . ويذكر ابن الاثيران بعض فلاحى الموصل فسروا الى ماردين ، فارس بن عماد الدين زنكي يطلبهم فرد عليه تمرناش ، صاحب ماردين ، " نحن نحسن الى الفلاحين ونخفف عنهم وناخذ منهم في القسمة من الغلال العشرة فلو فعلتم انتم مثل فعلنا لم يفارقكم " فرد زنكي بان تمرناش لو اخذ ١ × لكان كثيرا ، " واما انا فاذا اخذت الثلثين كان قليلا (٤) لانه يجاهد ضد الافرنج . ويذكر ابن القلانسي ان اتابك طغتكين ، امير دمشق ، امر " بازالة حوادث الظلم عن اهل بعلبك وتسويغ بعض خراج اهلها (٥) ويرى لنا ابن العديم انه بعدما استولى مسلم بن قريش العقيلي على حلب جاء وزيره فصادر جماعة ، وضاعف الخراج (٦)

(١) ابن الجوزي المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٨٥ - ٦ و ٢٢٣ - ٤ .

(٢) بيدوان الضرائب كانت تؤخذ من الذين يقلون بعض الاطعمة واصناف الحلوى في الاسواق

(٣) عز الدين ابو عبد الله محمد بن علي بن ابراهيم بن شداد ، الاعلان الخطيرة في ذكر امراء

الشام والجزيرة بعناية دومينيك سورديل (دمشق : المعهد الفرنسي للدراسات العربية

١٩٥٢) ، المجلد ١ ، قسم ١ ، ص ١٥١ - ٣ .

(٤) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٧٩ .

(٥) ابن القلانسي ، ص ١٦٧ .

(٦) ابن العديم ، زبدة الحلب ، مجلد ٢ ، ص ٧٥ .

طرق الجباية :

أ - ما يدفعه ولاية الاقاليم والنواحي :

جرت عادة الحكام في العهد السلجوقي باقطاع قادة الجيش وكبار الموظفين اقاليم او مناطق او مدنا او قرى يجبون اموالها لانفسهم (١) على ان يدفعوا مبالغ محددة منها الى خزينة السلطان او الملك (٢) وليست لديهم معلومات دقيقة عن المقادير التي كان يدفعها المقنعون لان المصادر لم تمدنا الا باخبار قليلة عن هذا الموضوع من ذلك ما ذكره ابن الجوزي من ان وزير السلطان بركيارو وجه رسولا الى الامير صدقه بن مزيد ، صاحب الحلة ، سنة ٤٩٤ هـ / ١١٠١ م يداه به ببلغ مليون دينار تجمعت عليه للخزانة السلطانية (٣) ولكننا لا نعرف عدد السنوات التي تاخر فيها صدقة عن الدفع . ومن ذلك ما اورده ابن العديم عن اسقاط السلطان ملكشاه بن السب تاخر فيها بعض المستحقات المتأخرة على مسلم بن قريش العفيلي صاحب الجزيرة وحلب (٤)

ب - الضمان :

كانت بعض المناطق تضمن الى امنها يبدو لي انهم كانوا متخصصين في ممارسة هذا النوع من العمل كمهنة وبموجب عقد الضمان كان الضامن يدفع مبلغا محددًا من المال في السنة عن بلد معين او يتعهد بدفعه ، ثم يتولى هو جباية الاموال ، فيدفع للحكام ما تعهد به ويحتفظ بالباقي لنفسه (٥) وربما كانت هناك صلة بين نظام الضمان هذا من جهة ونظام الالتزام الذي اتبع ايام الحكم العثماني في المناطق العربية وربما كان نظام الالتزام امتدادا لنظام الضمان السابق عليه ،

-
- (١) ابن الاثير ، الكامل ، ١٠ ص ٥٠ - ابن السبكي ، مجلد ٤ ، ص ٣١٢ . وقد زعم السبكي * ان نظام الملك هو اول من فرق الاقطاعات على الجند . ولكن هذه الطريقة كانت معروفة قبل نظام الملك انظر : المأوردى ، ص ١٩٥ ، و الفراء ، ص ٢٣٣ .
- (٢) الكاتب الاصفهاني ، تواريخ ال سلجوق ، ص ٥٨ .
- (٣) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٦٩ ، ص ١٢٤ .
- (٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ، مجلد ٢ ، ص ٨٥ .
- (٥) الكاتب الاصفهاني ، تواريخ ال سلجوق ، ص ٢١٠ ، وابن الاثير ، الامل ، مجلد ١٠ ، ص ٨ و ١٢ و ٢٥ و ٢٦ و ٥٤ ، وابن ابي اصيعة ، ص ٣٤٤ .

إذا كان قد ظل معمولاً به في زمن الإيبيين والمماليك . ويمكن أن نشور مدى ما كان يتيح نظام الضمان من استغلال للرعية ، على يد الضامين ، الذين لم يكن همهم — في اعتقاد كاتب هذه السطور — مجرد جمع الأموال للحكام والولاة . بل كان همهم الأول أن يحصلوا على الثروة لأنفسهم ، وربما كان عليهم — وهذا ما أرجحه — أن يقدموا مقادير مناسبة في الرشا للحصول على عقد الضمان أو لتجديده ، أو لانقار القيمة المضلوبة منهم بحجة أنها أكبر مما استطاعوا جمعها (١)

جـ — الهدايا والاسترضاءات :

وهناك نوع آخر من الدخل غير المنتظم ، كان يرد إلى خزائن الخلفاء والسلاطين والأمراء ، على شكل هدايا واسترضاءات . فلقد كان العصر الذي ندرسه طافحاً بالكيد والدسائس (٢) وذلك ما جعل أرباب المناصب يعيشون في حذر دائم من تطلب مواقف سادتهم تجاههم بما يؤدى إلى فقدانهم مناصبهم ، وكانوا يحاولون اتقاء مثل هذا المصير بما يقدمونه من هدايا وتحف من حين لآخر .

فاتابك طغتكين صاحب دمشق شعر أن حساده في بلاط السلطان محمد سعوا به لدى السلطان فما كان من طغتكين إلا أن أرسل ابنه بوري مصطحباً معه الهدايا والتحف والخيل والخيول والثياب وما يليق أهداؤه إلى السلطان لكسب رضاه ، وذلك سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٨ (٣) وبعد حوالي ثماني سنوات ، أي سنة ٥٠٦ هـ / ١١١٥ م ، يشتد كيد الحساد لاتابك طغتكين لدرجة تحمله على الشخو بنفسه إلى بغداد وكان السلطان بها وقتئذ حاملاً المال والهدايا المناسبة فاستقبل استقبالاً حسناً ، وحاز من الرضا ما طمح إليه (٤) .

ويذكر ابن الأثير أن الشكوك قد زادت بين السلطان مسعود وأتابك زنكي سنة ٥٣٨ هـ / ١١٤٤ م حتى عول السلطان على أعداد حملة يخضع بها الأتابك الداهية الذي آذت دسائسه السلطان فانسدت

(١) ابن الأثير الكامل، مجلد ١٠ ، ص ٢٣ ، وابن أبي أصيبعة، ص ٣٤٤ .

(٢) انظر ابن القلاسي، ص ١٦١ و ١٩٣ ، والكاتب النجاشي، تاريخ السلجوق، ص ١٠٩ و ١٢٢ وابن الأثير الباهر، ص ٦٥ .

(٣) ابن القلاسي ، ص ١٦١ .

(٤) المصدر نفسه، ص ١٩٣ ، وسبط بن الجوزي ، ص ٥٦ .

وحدث

عليه رلاته وقادته/الى تتابع تمردهم وخروجهم عليه (١) وحاول زكي صرف السلطان عن قصد بلاده بجيوشه فنجح في ذلك بعد ان تعهد له بدفع مبلغ مائة الف دينار (٢)

وكان بعض طالبى الوظائف الهامة يبدلون الاموال في سبيل الحصول عليها ، فابو الفتح منصور بن احمد بن دارست يخطب وزارة الخليفة سنة ٤٥٣ هـ ويعرض ان يلي الوزارة بغير اقطاع ، اى دون راتب بل ويقدم للخليفة مالا ١ فوانى الخليفة واستوزره (٣) وعندما عزى ابن دارست كان فخرالدولة ابو نصر بن جهمير يبدل الاموال ليتولى وزارة الخليفة فقبل الخليفة به واستوزره (٤) وعندما توفي المقتفي سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م وتولى بعده ابنه يوسف المستجد شعر الوزير يحيى بن هبيرة - مع عظمة خدماته للخلافة - ان مركزه اصبح مهددا ، فقدم للخليفة هدية نفيسة منها ما واربعة عشر فرسا ، وسلاح ، وطيب ، وعشرة من الغلمان الاتراك وست بغلات (٥)

وكان السلاطين يقدمون مبالغ من المال واشياء اخرى بمناسبة حصرهم على تقليد الخليفة لهم بالسلسلة او بمناسبة قدومهم الى بغداد في جوم من العلاقات الودية او على سبيل المجاملة (٦)

المصادر ذات :

كثيرا ما كان السلاطين يلجأون الى مصادرة وزراءهم وموظفيهم ورعاياهم وقد فعل بعض الخلفاء شيئا من ذلك ، ولم يختلف امراء الاقاليم عن السلاطين في هذه الناحية . فالوزير كان في اغلب

(١) ابن الاثير، الباهر، ص ٦٥.

(٢) المصدر نفسه والصفحة ذاتها.

(٣) ابن الاثير، الكامل، مجلد ١٠، ص ١٤. وقد اورد الكاتب الاصفهاني رواية مغايرة لرواية ابن الاثير

(الكاتب الاصفهاني، تواريخ ال سلجوق، ص ٢٣) ولكن رواية ابن الاثير اقرب لمنش الحياة

هذا بالاضافة الى تميز المؤرخ عن الكاتب الاصفهاني السجاء.

(٤) الكاتب الاصفهاني، تواريخ ال سلجوق، ص ٢٤؛ ابن الاثير، الكامل، مجلد ١٠، ص ٢٣.

(٥) ابن الجوزي، المنتظم، مجلد ١٠، ص ١٩٣.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٠٦.

الحالات مطلق التصرف في النواحي المالية دون رقابة او محاسبة ، فاذا أضفنا الى هذه الصورة تهافت الطامعين في الوزارة على المنصب ، رغم مصير سابقهم فان الباحث لا يملك الا ان يرجع (١) ان السرقة كانت ديدن اكثر الوزراء . ويبدو انه لم تكن لدى السلاطين والملوك المقدرة على اكتشاف هذه السرقات ، لعدم خبرتهم بالشئون المالية ، فكانوا يلجأون الى مصادرة وزراءهم كلما لمسوا فيهم ثرا . لقد اتهم خصوم نظام الملك اياه بسرقة أموال السلطنة ، فاستطاع ان يقنع السلطان ملكشاه بكذبهم ، (٢) وتذكر المصادر ان محمد بن فخر الملك بن نظام الملك الذي كان وزيرا للسلطان سنجر قد خان الامانة وأخذ الاموال الطائلة لنفسه ، فنكبه سنجر وقتله وصادر امواله . (٣) وقد قُبِر الخليفة المسترشد على وزيره شرف الدين علي بن طراد الزنبي وأخذ من داره أموالا عظيمة بحيث استمر نقلها من الدار ثلاثة أيام ولم تفرغ ، وتعرض للمصادرة معه أحد الكتاب . (٤)

ومن الامثلة على مصادرة العمال ما وقع على حسن بن اسد الفارقي (قتل ٤٨٧ هـ) الذي كان متولي الجباية في آسد ، أيام نظام الملك . (٥) وفي سنة ٤٩٤ هـ قبض الملك دقاق على ابن الصوفي ، رئيس دمشق ، ولم يطلقه الا بعد ان تعهد بدفع مبالغ من المال الى خزانة السلطان . (٦) وفي سنة ٥٢٩ هـ شرع اسماعيل بن بوري صاحب دمشق في مصادرات المتصرفين والعمال . (٧) وبعد ان استولى مسلم بن قريرش العقيلي على حلب جاء وزيره ابو العز بن صدقة البغدادي فصادر جماعة بحلب . (٨) وذكر ابن عساكر ان اسماعيل بن بوري بن طغتكين (ت ٥٢٩ هـ) استرجع بانياس من الصليبيين ثم تحول الى

(١) لدينا بعض الامثلة ولكنها لا تكفي لاصدار حكم قاطع ، انظر مثلا : ابن الجوزي ، المنتظم ،

مجلد ١٠ ص ٢٥ و ٢٧ .

(٢) السبكي ، مجلد ٤ ص ٣٢٥ — ٣٢٦ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ص ٥٤٩ .

(٤) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ١٠ ص ٢٧ ، سبط بن الجوزي ، مجلد ٨ ص ١٤٠ .

(٥) القفطي ، انباء الرواة ، مجلد ١ ص ٢٩٤ — ٢٩٦ .

(٦) ابن القلانيسي ، ١٤٠ هـ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ٢٤٥ .

(٨) ابن العديم ، زبدة الحلب ، مجلد ٢ ص ٧٥ .

اغتناب الاموال و"مصادرة المتصرفين والعمال (١) "

وما دام الكبار يصادرون من هم دونهم من وزرائهم وكبار موظفيهم ، وما دام امراء الاقاليم يصادرون عمالهم ومتصرفيهم فمن الطبيعي ان تكتمل السلسلة الى اخر حلقاتها فيقدم عمال النواحي والقرى على مصادرة من تحت ايديهم من الفلاحين . ويبدو ان انشغال المؤرخين باخبار المصادرات التي كان يوقعها السراطين وكبار الامراء على من هم دونهم ، وعلى اهل البلاد من التجار والفلاحين لم يترك لديهم متسعاً لذكر الكثير من المصادرات التي كان يوقعها عمال النواحي والقرى ومن ذلك فان ابن الجوزي ينقل لنا ضمن ترجمته للسلطان ملكشاه ابن البارسلان ، ان رجلين من قرية من اسفل واسط شكيا للسلطان من ان عامله صادرهما الف وستمائة دينار (٢) وكان للخليفة المنتقي (ت ٥٥٥ هـ) عامل على ناحية نهر الملك ، بلغ من ظلمه وقسوته على الرعية انه ان يعلق الرجال من ارجلهم ويعلق النساء من ائدائهن (٣)

مقدار الدخل :

ولا تمدنا المصادر بتفاصيل رافضة عن كميات الدخل في المناطق العربية مجتمعة ، كما اننا لا نظفر بقوائم وافية كتلك التي اثبتها قدامة بن جعفر في كتاب الخراج . والقائمة المفصلة الوحيدة التي عثرت عليها هي تلك التي اوردتها ابن شداد مفصلاً فيها دخل قسبة حلب وحدها ايام السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب (٤) (٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م - ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م) ومع ذلك فلعل من المناسب ان اثبت مقدار المبالغ التي اوردتها المصادر عن دخل ارباب الحكم في بعض المناطق . بعض المناطق لمجرد تكوين صورة تعطي مجرد انطباع عام عن مستوى دخل ارباب الحكم في ذلك العهد .

(١) ابن عساكر، ج ٣، ص ١٥.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، مجلد ٩، ص ٧٢ - ٧٣.

(٣) سبط بن الجوزي، مجلد ٨، ص ٢٢٤.

(٤) ابن شداد، مجلد ١، قسم ١، ص ١٥١ - ١٥٣.

— في سنة ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م اى قبل دخول السلاجقة بغداد بثلاث سنوات ،
عقد مان البصرة لمدة ثلاث سنوات متوالية ، الاولى ب ١٥٠٠٠٠٠ دينار
والثانية ب ١٦٠٠٠٠٠ =
والثالثة ب ١٨٠٠٠٠٠ = (١)

— وفي سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م ضمن السلطان طغرل بك البصرة والاهواز بمبلغ

٣٦٠٠٠٠٠ دينار (٢)

— وفي سنة ٤٥١ هـ / ١٠٥٦ م ضمن السلطان نفسه واسط ب

٢٠٠٠٠٠٠ = (١)

— وفي السنة التالية ضمن اماركه الشخصية في الكوفة ب

٤٠٠٠٠ = (٤)

— وفي سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م ضمن الوزير الاملاك الخاصة للخليفة

القائم بستة الاف كرونة و

١٠٠٠٠٠٠ = (٥)

— وفي سنة ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م عقد ضمان بغداد ب

١٥٠٠٠٠٠ = (١)

— وعقد ضمان واسط ب

٢٠٠٠٠٠٠ = (٢)

— وفي سنة ٤٥٩ هـ / ١٠٦٧ م ضمن البصرة واسط ب

٣٠٠٠٠٠٠ = (٨)

— وفي سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م امر السلطان ملكشاه ان يزداد في

اقطاع وكلاء الخليفة من معاملة بغداد مبلغ

١٠٠٠٠٠٠ = (٩)

(١) ابن الفوطي، مجلد ٤، قسم ٢، ص ٧٨٢.

(٢) ابن الاثير، الكامل، مجلد ٩، ص ٦١٣ — ٦١٤.

(٣) المصدر نفسه، مجلد ١٠، ص ٨.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٢.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٣.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٥.

(٧) المصدر نفسه، ص ٢٦.

(٨) المصدر نفسه، ص ٥٤.

(٩) المصدر نفسه، ص ١٥٨.

— وفي سنة ١٤٩٧هـ / ١٠٤٤م استولى سيف الدولة صدقة

٥٠٠٠٠٠ دينار (١)

الاسدي على واسط وضمها لمدة ثلاثة أشهر بمبلغ

— وفي سنة ١٤٩٤هـ / ١٠١٠م طولب صدقة بن مزيد امير

١٠٠٠٠٠٠ دينار (٢)

بني أسد بدفع مبلغ

للسلطان بركياروق ، ولكن المبلغ يشمل متأخرات متجمعة .

٢٠٠٠٠ دينار

— وفي السنة ذاتها بعث دبير للسلطان مبلغ

وهذا ايا اخرى ، فطولب بأكثر من ذلك . (٣)

١٠٠٠٠٠٠ دينار

— وفي سنة ١٤٧٢هـ / ١٠٨٠م ضمنت البصرة بمبلغ

سنويا ومائة فرس . (٤)

— كان والي العراق في عهد السلطان محمود بن محمد بن

ملكشاه هو الامير منكوبرس . وكان لهذا الامير وزير قال انه

جمع له من العراق مبلغ (مليون وثلاثمائة ألف وبضعة عشر ألف دينار) (٥)

٣٠٠٠٠٠٠ و ١٠٠٠٠٠٠ دينار

— كان مقدار ما اسقطه نورالدين محمود من الضرائب في الشام سنويا

١٥٦٠٠٠٠ دينار

موزعة كما يلي :

(١) المصدر نفسه ، ص ٣٧٧ .

(٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ١٤٤ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢١٨ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ١١٦ .

(٥) الكاتب الاصفهاني ، تواريخ آل سلجوق ، ص ١٧٢-١٧٣ .

— مكوس المسافرين المارين بعزاز	١٠٦٠٠٠ دينار
— المعبرة	= ٣٦٠٠٠
— دمشق	= ٢٠٦٠٠٠
— حمص	= ٢٦٦٠٠٠
— حران	= ٥٠٦٠٠٠
— سنجار	= ١٦٠٠٠
— الرحبة	(١) = ١٠٦٠٠٠

— تنازع نورالدين محمود واخوه مودود على مدينة سنجار
ثم تصالحا وخرج منها محمود ليتسلمها مودود . وقد اخذ محمود معه الخزائن ،
وهي ليست خاصة بالمدينة وانما هي شطر من خزائن الدولة الاتاكية
بالموصل . فكان مجموع ما حمله من الجواهر والذخائر حمولة ستائة
جمل ، بالاضافة الى ستة وتسعين بغلا محملة ذهبا ، وذلك زيادة
على ما وزعه على اولاد الملوك والامراء (٢)
وحوالى سنة ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م ضمنت الحلة بمبلغ تسعين الف دينار سنويا (٣)

— وذكر ابن العديم انه عندما اقطع السلطان ملكشاه حلب الى آسنقر قسم الدلة سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٨٦ م
احسن قسم الدولة السيرة " وظهر منه عدل لم يعرب بمثله . واستغلها في كل يوم الف وخمس مائة دينار (٤)

(١) ابن قاضي شعبة ، ٦٣ — ٦٤ .

(٢) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٩٨ .

(٣) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ١٠ ، ص ١٤٨ .

(٤) ابن العديم ، ريغية الطلب ، مجلد ٣ ، ورقة ٢٦٨ ق .

— وكانت الضرائب التي تجمع في مدينة حلب على عهد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب (٥٧١ هـ / ١١٨٣ م — ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م) كما يلي :

دار الزكاة	١ ٦٢ ٠٠ ٠ ٠ ٠ ٠	درهم
العشر	٦ ٠٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠	-
الوكالة	٢ ٠٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠	-
سوق الخيل والجمال والبقر	٣ ٨ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠	-
داركورة الجوانية	٣ ٥ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠	-
البطيخ	١ ٠٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠	-
داركورة البرانية العنب	٨ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠	-
الخضر	٥ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠	-
المدبغة	١ ٥ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠	-
دكة الرقيق	١ ٠٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠	-
صبغ الحرير	٨ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠	-
سور الغنم	٤ ٥ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠	-
سور التركمان للغنم	٣ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠	-
عرصة الخشب	٥ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠	-
ضمان الاوتار	٤ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠	-
المسابك	٥ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠	-
البيلونة	٢ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠	-
سمرة الخضر	٢ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠	-
البساتين	٥ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠	-
دار الضرب	١ ٠٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠	-
الرياح	٤ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠	-

الحكومة	١٠٠٠٠٠٠	درهم
ذخيرة الحطب والفحم	٢٠٠٠٠٠	درهم
المصابين	١٠٠٠٠٠	درهم
عداد العرب	١٠٠٠٠٠٠	درهم
الملح المجلوب	٣٥٠٠٠٠٠	درهم
المسالخ	١٠٠٠٠٠٠	درهم
الاجتياز بخان السلطان	١٠٠٠٠٠٠	درهم
القلي	٢٠٠٠٠٠	درهم
الساسنة	١٠٠٠٠٠٠	درهم
عداد التركمان بحلب	١٥٠٠٠٠٠	درهم
وغنم جملتها ثلاثون الف رأس قيمتها	٦٠٠٠٠٠٠	درهم
الجوالي	١٠٠٠٠٠٠	درهم
الفرح واللفظ	٦٠٠٠٠٠٠	درهم
حمام السلطان	٨٠٠٠٠٠	درهم
السجون	٦٠٠٠٠٠	درهم
نخيرة الذمة	٥٠٠٠٠٠	درهم
البقل	٢٠٠٠٠٠	درهم
القبانين	٥٠٠٠٠٠	درهم
الحديد	٥٠٠٠٠٠	درهم
الغيب	٥٠٠٠٠٠	درهم
الحريير	٨٠٠٠٠٠	درهم
الخراج	٣٠٠٠٠٠	درهم
ضمان المزابل	١٠٠٠٠٠	درهم
الموارث الحشرية (تقديرا لا تحريرا)	٣٠٠٠٠٠٠	درهم (١)
المجموع الكلي	٧٠٨٥٥٠٠٠	درهم

سبعة ملايين وثمانمائة وخمسة وخمسون ألف درهم

ثانيا : المصروفات :

من نافلة القول ان نذكر ان واجبات ومسئوليات الحكام في العصر السلجوقي تختلف في كثير من جوانبها عن واجبات الحكومات في العصر الحاضر ، فقد اقتضت المسؤوليات المباشرة للحكام في ذلك العصر على حفظ البلاد من خطر الاعتداءات الخارجية ، وحفظ الامن والنظام في الداخل . اما الخدمات الصحية والتعليمية ، وغيرها من الخدمات العامة فقد كان ينظر اليها على انها فضل واريحية من الحاكمين .

وبعد هذا الايضاح يمكننا ان نحدد الوجوه التي كانت تصرف فيها الاموال العامة بالبنود التالية :

- أ - اقطاعات ورواتب
- ب - نفقات الحروب
- ج - نفقات التجسس (١)
- د - الهدايا والرشا
- هـ - الهبات والعطايا
- و - المصروفات الشخصية الباذخة لارباب الحكم
- ز - نفقات الانشاءات العامة

أ - الاقطاعات والرواتب سبق ان ذكرنا ان الحكام ، من سلاطين وخلفاء وامراء ، كانوا يقطعون اقاليم ومدنا وقرى لاتباعهم من قادة الجند والامراء (٢) ولكن يبدو ان اصطلاح اقطاع كان يطلق ايضا احيانا على مبلغ من المال ، او راتب سنوي يدفع للمقطع . والحقيقة ان هذه النقطة لا تتضح بشكل كاف تماما ، لان المعلومات المتعلقة بها كانت اخبارا عارضة ، من ذلك ما ذكره ابن الجوزي عن الامير احمد يل (ت ٥٠٨ هـ) حين بين ان هذا الامير كان نسي

(١) ان بعض الحكام فقط اهتموا باستطلاع الاخبار .
(٢) انظر ص ٧٢ فيما سبق ، وكذلك ص ١٠٩ فيما يلي .

خدمته خمسة الاف فارس، وان اقطاعه كان اربعمائة الف دينار (١) ومن قبيل ذلك ما ذكر من ان السلطان سنجر بعث بكتاب الى بغداد سنة ٥١٣ هـ / ١١١٦ م فيه اقطاع للخليفة بخمسين الف دينار، ولوزير الخليفة بعشرة الاف دينار، مع ثياب وهدايا اخرى (٢) ويؤيد ذلك ما نسب الى عماد الدين زنكي بن آقسنقر، من انه كان ينهى اصحابه عن اقتناء الاملاك، لان " الاقطاعات تغني عنها " وان خرجت البلاد عن ايدينا فان الاملاك تذهب معها . ومتى صارت الاملاك لاصحاب السلطان ظلموا الرعية وتعدوا عليهم وغصبوهم املاكهم " (٣) وكان الطاع انره الذي ولاه السلطان برشيا روق ولاية العراق ، يزيد لاعلى عشرة الاف دينار (٤) واعطى الخليفة وزيره ابا شجاع اقطاعا ببضعة عشر الف دينار (٥) واستنادا الى هذه الروايات يستطيع الباحث ان يرجح ان الاقطاع كان يعني — في بعض الاحيان — راتبا سنويا . وكان السلاطين والحكام ينفقون مبالغ طائلة على ماليهم سواء على شكل اقطاعات من البلدان او من المال . ويروى لنا السبكي انه عندما وشى الواشون بنظام الملك الى السلطان ملكشاه متهمين الوزير بنهب اموال السلطنة ، احضر النظام الوف المالك الذين اصطفوا صفوا ، شاكي السلاح ، وانهم السلطان ان ما ينفقه انما هو على هؤلاء ، الذين اعدوا لخدمته ولتوطيد حكمه (٦)

ب — نفقات الحروب :

كان عصر السلاجقة عصر حروب وصراع دموي لا يكاد ينقطع ، فحروب للاستئثار بمنصب السلطنة ، واخرى لتوكيد سلطتها ، وحروب بين امراء الاقاليم ، وجهاد ضد الفرنج الغزاة ، وغارات يقوم بها البدو ينهبون مدن وقرى العراق ، ومحاولات من الخلافة لاستعادة سلطتها ، ثم تثبيتها

(١) ابن الجوزي، المنتظم، مجلد ٩ ص ١٨٥؛ وسيط بن الجوزي، مجلد ٨ ص ٥٣ .

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، مجلد ٩ ص ٢٠٦ .

(٣) ابن الاثير، الباهر، ص ٧٧ .

(٤) ابن الجوزي، المنتظم، ص ١١٠ .

(٥) المصدر نفسه، ص ١٠ .

(٦) السبكي، مجلد ٤ ص ٣٢٥ — ٦ .

ولامراء في ان كل ذلك كان يقتضي مبالغ طائلة من الاموال لشراء الممالك واعداد الجيوش .
والامثلة على ذلك كثيرة نجتزئ بواحد منها : يروي الكاتب الاصفهاني ان السلطان سنجر
اشترى مملوكا اعجبه بألف ومائتي دينار ، ثم انه امر وزيره بأن يشتري لذلك المملوك سرادقا وخيولا
وان يشتري له ألفا من الممالك يمشون في ركابه ، كما أمره ان يحل اقطاع أحد الامراء لقطعة
لهذا المملوك المحظوظ .^(١)

ج - نفقات التجسس :

اهتم بعض الحكام اهتماما بالغاً بالاخبار ^(٢) ورغم قلة المعلومات التي تمدنا بها
المصادر عن هذه الناحية فاننا نعثر على جملة من الروايات ، من ذلك ما نقرأه عن الوزير نظام
الملك حين عين له صاحب خبر ، براتب قدره سبع مائة دينار ^(٣) وكان عماد الدين زنكي شديد
العناية بالاخبار ، خاصة اخبار البلاط السلطاني ، وكان يخسر على ذلك مقادير كبيرة من المال .^(٤)
كما كان الخليفة المقتفي " يبذل الاموال العظيمة لاصحاب الاخبار في جميع البلاد " .^(٥)

د - الهدايا والرشا :

لعب المال دورا هاما في الحياة السياسية فكان يذل الكثير من الصعاب ، ويمهد طرق
الكثيرين من ذوي المصالح للوصول الى أغراضهم . وكان بعض الحكام يقدمون الهدايا للخلفاء
على سبيل المجاملة ، من غير ما حاجة الى ما يقابلها .^(٦) ولكن الاكثر حدوثا هو بذل الاموال

- (١) الكاتب الاصفهاني ، تواريخ آل سلجوق ، ص ٢٧١-٢٧٢ . ويمكن الرجوع الى مزيد من الامثلة ،
انظر ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٦-١٨٥ ، والسبكي ، مجلد ٤ ، ص ٣٢٥-٣٢٦ .
- (٢) سنتناول ذلك بشكل أوفى عندما ندرس موضوع البريد ، انظر ص ١١٦ - ١١٨ فيما يلي .
- (٣) ابن أبي الوفاء ، جاء ، ص ٣٧٥-٣٧٧ .
- (٤) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٧٨ .
- (٥) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١١ ، ص ٢٥٦ .
- (٦) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٢٠٦ .

في سبيل تحقيق اغراض محددة ، فعماد الدين زنكي ، مثلاً ، يعرض الاموال والاقتاعات على القاضي بها ، الدين علي بن الشهرزوري ليقوم القاضي باقناع وزير السلطان والسلطان نفسه بتولية زنكي اقليم الموصل . وقد قام الشهرزوري بما طلب منه ، ووفى له زنكي بما وعده .^(١) وأتابك طغتكين يرسل الهدايا والاموال الى السلطان محمد ، ويحملها اليه مرة اخرى بنفسه .^(٢) والخليفة المقتفي يبعث بمبلغ من المال مع عجوز تحمله الى القاضي كمال الدين ابي الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري ، الذي وصل بغداد في رسالة من زنكي للسلطان مسعود . وكان الشهرزوري قد امتنع عن مبايعة المقتفي بحجة ان في عنقه بيعة للراشد ، الذي كان السلطان قد خلعه . وبعد ان تسلم الشهرزوري المال قال للعجوز : " غدا يظهر أثر خدمتي " . وفي اليوم التالي بايع المقتفي .^(٣)

هـ - الهبات والعطايا :

اذا كانت الهدايا والرشا تقدم لاغراض سياسية ظاهرة فان الهبات والعطايا كانت تبذل ، اما بقصد الحصول على الذكر الحسن ، وشيوع السمعة الطيبة ، او لتأليف القلوب وكسب التأييد العام ، او أملاً في الحصول على الثواب بعد الموت . وكان أرباب الحكم يبذلون الاموال الطائلة في هذا السبيل . فقد قيل ان نظام الملك كان " ينعم بالاموال الطائلة والهبات الجزيلة ٥٥٥ كان يتصدق في بكرة كل يوم بمائة دينار .^(٤) وكان رسم الشاعر ابن حيوسر على بني مرداس الفدينار عن كل قصيدة ،^(٥) وقد نافسهم في ذلك الغيليون .^(٦) وكان الوزير جمال

(١) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٣٤-٣٥ .

(٢) فصلنا ذلك فيما سبق ، ص ٩٩ .

(٣) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٥٤ .

(٤) السبكي ، مجلد ٤٤ ، ص ٣٢٢ .

(٥) ابن خلكان ، مجلد ٤٤ ، ص ٦٤ - ٦٥ .

(٦) ابن العديم ، زبدة الحلب ، مجلد ٤٢ ، ص ٧٤ .

الدين محمد بن علي الاصفهاني وزير اتابكة الموصل ، ييذل الاموال الكثيرة في جميع الاقطار وكانت صدقته تصل كل سنة الى بغداد فتفرق على الفقهاء والزهاد والمتصوفة ، ولم يكن يخيب من يقصده (١) وكان السلطان سنجر اكثر الملوك عطاء حتى قيل انه وهب في خمسة ايام متوالية ما مجموعه سبعمائة الف دينار ، زيادة على عدد من الخيل ومقادير من الخلع والاثاث (٢) وكان الحكام الجدد يكترون من العطاء عندما يتولون مناصبهم ، وذلك لكسب قلوب الجند والرعية (٣)

و- المصروفات الشخصية الباذخة :

كان معظم الحكام في العهد السلجوقي يتصرفون بالاموال العامة وكأنها املاك شخصية ، وكان البذخ والثراء ، ثراء الطبقة الحاكمة ، يتجلى في مناسبات الزواج والافراح او عند حدوث النكبات التي يتلوها نهب القصور والمخبات . ويطول بنا الحديث لو اردنا وصف اوتعداد الاموال والمجوهرات والنفقات التي كانت تظهر في زواج السلاطين والخلفاء (٤) ، فيكفي ان نذكر ما يتسع المجال له . فبمناسبة ختان اولاد الخليفة المسترشد زينب بغداد ، عملت زوجته الخاتون قبايا * عليها من الثياب الدياج والجواهر ما ادهر الناس (٥) ويصف ابن الجوزي موكبا لزوجته وزير السلطان محمود ، اذ خرجت زوجته ليلا تركب بغلة تساوي ثلاثماية دينار * بمركب لا تعرف قيمته ، وبين يديها خمس عشرة جنبية بالمراكب الثقيل المذهبة ، ومعها نحو مائة جارية مزينات بالجواهر والذهب وتحتهن الهماليج بمراكب الذهب والفضة وبين ايديهن الخدم والغلمان والنفاطون بالشموع والمشاعل (٦)

(١) الكاتب الاصفهاني : تواريخ - السلجوقي ص ٢١٢ - ٢١٣ ؛ وابن الروزي : المنتظم ، مجلد ١٠ ص ٢٠٩ ، وابن جبير ، ص ٩١ - ٩٣ ؛

(٢) ابن خلكان ، مجلد ٢ ص ١٤٨ .

(٣) ابن الفلانسى ، ص ١٤٤ ، وابن شاکر الكشي ، مجلد ١ ص ٢٠٧ .

(٤) انظر ابن الفلانسى ، ص ١٧٣ ، وابن الاثير : الكامل ، مجلد ١٠ ص ٢١ و ٢٢ و ٢٥ و ١٦٠ .

(٥) ابن الجوزي : المنتظم ، مجلد ٩ ص ٢٤٥ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ٢٤٠ .

وعندما قبض على وزير الخليفة ، ابي القاسم الزينبي وصودر سنة ٥٢٦ هـ / ١١٣٢ م اخذت من داره اموال عظيمة * واواني ذهب ونفحة ، ومراكب ذهب وثياب واثاث واستمر النقل من الدار ثلاثة ايام ولم تغرغ (١)

ز - نفقات الانشاءات العامة :

لم يعدم هذا العصر بعض الصفحات الوضيئة في تاريخه ، فهناك سلاطين وملوك اقاليم ووزراء انفقوا مقادير جليلة من الاموال على بناء المنشآت العامة وانجاز بعض المشروعات التي تفيد منها البلاد . فالسلطان طغرل بك عمردار السلطان (٢) وملكشاه بن البارسلان عمرفناتطور وحفر القنوات من الانهار وبنى الجامع الذي سمي بجامع السلطان كما بنى سوقا وبنى منارة عرفت بمنارة القرون (٣) ومباني الوزير نظام الملك ومدارسه ليست بحاجة الى تنويه . ومن الوزراء الذين اشتهر عنهم كثرة اقامة المنشآت العمرانية الوزير جمال الدين علي بن محمد الاصفهاني وزير اتابك زنكي واولاده . من بعده (٤) واطن ان احدا من حكام العصر السلجوقي لم يشيد من المباني ما شيده نورالدين محمود ، ملك البلاد الشامية ، الذي ابنتى المدارس والمساجد والرباطات وغيرها ، في اكثر البلاد التي حكمها (٥) ولعل في هذه الامثلة القليلة المقتضبة ما يفي بغرضنا .

(١) سبط بن الجوزي ، مجلد ٨ ، ص ١٤٠ .

(٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ص ١٦٩ .

(٣) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٧٠ .

(٤) المصدر نفسه ، مجلد ١٠ ، ص ٢٠٩ ، وابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ٢٢٨ - ٢٣٠ .

(٥) ابن الاثير ، الباهر ، ص ١٧٠ - ٢ ؛ وابن قاضي شهاب ، ص ٩ و ٢١ - ٣١ و ٥٠ - ٥١ - ٥٢ .

الحسبة

عرفت واجبات المحتسب بصورة عامة بأنها تنطوي تحت عبارة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وقد كان على المحتسب مراقبة سلوك افراد المجتمع ، دون تجسس او مضايقة ، ليصحح اى انحراف عن الصراط السوى الذى يفرضه الدين والتقاليد الاخلاقية للمجتمع (١) فهذا محتسب يصدر له امر من ديوان الخليفة بان يعاقب كل تاجر يقدم على فتح ذكائه يوم الجمعة واغلاقه يوم السبت لان ذلك " مشاركة لليهود في حفظ سبتهم (٢) ومحتسب يامر الخليفة ينهي النساء ان يخرجن ليلا للتفرج (٣) ومحتسب يهدد المسئولين عن الحمامات العامة ان هم سحوا لاحد من الجمهور ان يرتادها دون مئزر (٤) وكان على المحتسب ان يراقب الاسواق والتجار ويمنع الغش والتدليس او الاحتكار ، كما كان عليه ان يراقب اصحاب الحرف كالصباغين وصناع الاحذية والبياطرة والاطباء والسيادة واهل الذمة ومعلمي الصبيان . بل وكان من واجباته ان يراقب الناس في المساجد والجوامع ومجالس القضاة والغساليين والمقائين (٥) الخ . . . ويذكر الشيرازي ان اتاك طففتكين صاحب دمشق عين محتسبا وقلده الوظيفة بقوله : " اني وليتك امر الحسبة على الناس بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر . قال : ان كان الامر كذلك فقم عن هذه الطراحة وارفع هذا المسند فانهما حرير واخلع هذا الخاتم فانـه فذهب (٦) كما كان على المحتسب ان يمنع احدا من ايداء الجمهور بتضييق الشوارع ببنا او بغضاعة او قاذورات وغير ذلك (٧)

وقد كان المحتسب يختار من الفقهاء ، رغم انه لا يدخل ضمن واجباته الحكم بين المتخاصمين بل كان يعالج المخالفات الظاهرة . ولدينا عدد من الامثلة لقضاة تولوا الحسبة (٨) وجمع بعض بينها وبين القضاة (٩)

-
- (١) ياقوت ، معجم الادباء مجلد ١٩ ص ٣١ - ٣٤ . (٢) ابن الجوزي ، المنتظم مجلد ٩ ص ٩١ .
 (٣) المصدر نفسه ، ١٢٣ . (٤) المصدر نفسه ، ١٢٩ .
 (٥) الشيرازي نهاية الرتبة ص ٤ - ٥ . (٦) المصدر نفسه ص ٧ - ٨ .
 (٧) ابو حامد محمد بن محمد الغزالي ، احيا علم الدين (القاهرة : مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح د . ت) ، جزء ٢ ص ٢٩٧ والشيرازي نهاية الرتبة ص ١٣ - ١٤ .
 (٨) ابن الجوزي ، المنتظم مجلد ٩ ص ١٢٥ و ١٢٦ .
 (٩) ابن الغوطي ، مجلد ٤ قسم ٢ ص ١٠٦٩ .

وامام هذه الواجبات الواسعة لم يكن المحتسب بمفرده قادرا على القيام بكل هذه الاعباء كما لم يكن باستطاعته معرفة دخائل الاسواق والاعيب التجار واصحاب الحرف من الغشاشين . لذلك فقد كان يتخذ له اعوانا وغلما ناساعدونه ويأتونه بالاخبار (١) وكان للمحتسب ان يستعين بشخص من اصحاب المهن فيجعل " لكل اهل صنعة عريفا من صالح اهلها ، خبيرا بصناعته بصيرا بغشوشهم وتدليسهم ، مشهورا بالثقة والامانة يكون مشرفا على احوالهم ويطالعه باخبارهم (٢)

وكان من حق المحتسب ان يؤدب المنحرفين والمتطاولين على رؤوس الاشهاد (٣) اما بالتعزير او بالضرب الذي لا يصل الى مقدار عقوبات الحدود (٤) لذلك فقد استوجب الشيرازي ان يكون لدى المحتسب طرطور ليلبسه لمن تكون عقوبتهم التعزير او التشهير وان يكون لديه سوط ودرّة لانزال العقوبة البدنية بمن يستحقونها (٥).

(١) الشيرازي نهاية الرتبة ٨٠٤.

(٢) المصدر نفسه ص ١٢.

(٣) ياقوت معجم الادباء مجلد ١٩ ص ٣٣.

(٤) الماوردي ص ٢٤٠ والفرائض ص ٢٨٤.

(٥) الشيرازي نهاية الرتبة ص ١٠.

البريد

يختلف مدلول كلمة " البريد " في التاريخ العربي الوسيط عن مدلولها في ايامنا ، ان
انها كانت تعني نظام وجهاز نقل المراسلات الخاصة بارياب الحكم ، سيما السرية منها . ويذكر الكاتب
الاصفهانى ان البويهيين اهتموا بالبريد ، فلم تكد تخلو منطقة من اراضيهم " من صاحب خبر ، فلم
تخف عنهم اخبار الاقاصي والاناسي ، وحال الطائع والعاصي " (١) اما قول القلقشندي ان
البويهيين اوقفوا عمل البريد حتى تخفى عن الخلفاء اخبارهم (٢) فالظاهر انه يتعلق بجهاز البريد
التابع للخلافة .

واما في العهد السلجوقي فلدينا قدر من المعلومات عن الخدمات البريدية تمكنا من
تكوين فكرة واضحة ، وان لم تكن مفصلة عن البريد . وسرى ، من الامثلة التي سنوردها ، ان وسائل
البريد لم تكن من نوع واحد ، وان الخدمات البريدية لم تسرعلى نسق واحد .

فنحن نقرأ ان نظام الملك ، وزير السلطانين البارسلان وملكشاه ، اهتم بالبريد وجعل
مخصا يعرف بابن السمناني (ت ٤٩٣ هـ / ١١٠٠ م) صاحب خبرة في بغداد ، براتب سنوى مقداره
سبعمائة دينار (٣) وثمة رواية تشير الى ان السلطان الب ارسلان (ت ٤٦٥ هـ / ١٠٧٤ م) اوقف عمل
البريد ، مستهينا بفائده (٤) ، بيد ان ما نقلناه عن نظام الملك يناقض هذه الرواية ، وحتى لو صحت
فالارجح ان اهمال البريد انتهى بوفاة ذلك السلطان . ويذكر القلقشندي ان وسائل الخدمات البريدية
في العصر السلجوقي كانت تتكيف حسب طبيعة الارض وقد استخدمت فيها الخيل والبغال (٥)

-
- (١) الكاتب الاصفهانى، تواريخ ال سلجوق، ص ٦٧.
(٢) الشيخ ابو العباس احمد القلقشندي، كتاب صبح الاعش (القاهرة : دار الكتب السلطانية ١٣٣٨ هـ /
١٩١٩ م) ، مجلد ١٤ ، ص ٣٦٩ .
(٣) ابن ابي الوفاء ، ج ١ ، ص ٣٧٧ .
(٤) الكاتب الاصفهانى، تواريخ ال سلجوق، ص ٦٧ .
(٥) القلقشندي ، مجلد ١٤ ، ص ٣٦٩ .

ويبدو ان الخلفاء ، اهتموا بامر البريد ، حتى في فترة خضوعهم للسلطين ، فبعد عزل الوزير ابي شجاع ، سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م خلع الخليفة " على الاجل ابي سعد بن الموطايا ، وكانت الخلعة دراعة وعمامة ، وحمل على فرس بمركب ذهب ، ورسم بناية الوزارة ، وخلع على ابن اخته تاج الرؤساء ابي نصر هبة الله صاحب الخبر ٠٠٠ جبة وعمامة وحمل على فرس (٢) وكان للخليفة المسترشد صاحب خبر (٢) وقد كان من الطبيعي ان يهتم هذا الخليفة الطمح النشط باعمال البريد . واهتمت الخلافة ، في عهد المقتفي ووزيره ابن هبيرة ، بالبريد اهتماما بالغاً ، فبثت العيون نسي مختلف النواحي والاقاليم ، وانفقت الاموال العظيمة على اسحاب الاخبار (٣) . ويبدو ان هذا الاهتمام استمر الى عهد الخليفة الناصر ، اذ يخبرنا ابن الطقطقي ان النجب السريعة كانت مستخدمة آنذاك . وكان جماعة من النجابين يبيتون في كل ليلة بباب الديوان يبيت احدهم وتحت رأسه راحلته وزاده ونذفته وقد ودع اهله ، فان عرضني الليل مهم توجه فيه " (٤) وتتضح من هذه العبارة دقة تنظيم الخدمات البريدية وشدة الاهتمام بها . والارجح ان هذا التطور بدأ منذ عهد الخليفة المقتفي (٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م — ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م) الذي تحررت فيه الخلافة من نير السلاجقة .

ويذكر القلقشندي ان الزنكيين استخدموا النجب في نقل الرسائل كذلك (٥) بيد ان التطور الهام الذي ادخل على الخدمات البريدية حدث بالتوسع في استخدام الحمام لهذه الغاية . وينسب المؤرخون هذه العملية الى نورالدين محمود بن زنكي بعد ان توسعت مملكته . لقد جعل نورالدين من الحمام اهم وسائل نقل المراسلات في مملكته الواسعة . والظاهر انه شعر بضرورة هذه الخطوة حين كانت تهاجم بعض الثغور التابعة له فلا تصل اليه الاستغاثة الا بعد ان يكون ذلك الثغر قد

-
- (١) ياقوت ، معجم الادباء ، مجلد ١٢ ، ص ٢٠٢ .
 - (٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٢٥٥ .
 - (٣) الكاتب الاصفهاني ، تواريخ ، ص ٢٣٥ ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١١ ، ص ٢٥٦ .
 - (٤) ابن الطقطقي ، ص ٥٥ .
 - (٥) القلقشندي ، مجلد ١٤ ، ص ٣٢٠ .

سقط بيد الصليبيين . ويحدثنا ابن الاثير ان نور الدين اصدره امره " باتخاذ الحمام الهوادي ، وهي المناسيب التي تطير من البلاد البعيدة الى اوكارها ، واتخذت في سائر بلاد (١) . وقد " اجري الجرايات لها ولمربيها ، فوجد بها راحة كثيرة ، فقد كانت الاخبار تاتي له لوقتها ، فانه كان له في كل ثغر رجال مرتبون ، ومعهم من حمام المدينة التي تجاورهم ، فاذا رأوا او سمعوا امرا كتبوه لوقته وعلقوه على الطائر وسرحوه ، فيصل الى المدينة التي هو منها في ساعته ، فتنقل الرقعة منه الى طائر آخر من البلد الذي يجاورهم في الجهة التي فيها نور الدين ، وهكذا الى ان تصل الاخبار اليه ، فانحفظت الثغور بذلك (٢)

واذا كان التوسع في استخدام الطيور قد تم في عهد نور الدين فليس معنى ذلك انها لم تكن مستعملة من قبل ، فنحن نعرف بصورة مؤكدة ان الطيور كانت تستخدم في البريد منذ العهد البويهي ، ان يذكر محمد بن عبد الملك الهمداني ان ' معز الدولة بن بويه وجه رسائل الى بغداد سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٧ م بعث بها على اجنحة الطيور (٣)

كما ان لدينا اشارات عن انها كانت مستعملة في العهد السلجوقي قبل عهد نور الدين محمود . فعندما اقبل تاج الدولة تتش على حلب قاصدا احتلالها ، وكان فيها الاميران بوزان وكروقا ، وهما يومئذ مواليان للسلطان بركيا روق بن ملكشاه ، قرر هذا الاميران الاعتصام في المدينة

(١) ابن الاثير ، الباهر ، ص ١٥٩ .

(٢) شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي المعروف بابي شامة ،

كتاب الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية تحقيق محمد حلمي احمد (القاهرة

وزارة الثقافة والارشاد القومي ١٩٦٢ م) ، الجزء الاول ، القسم الثاني ، ص ٢٥٠ - ٢٥١ .

(٣) محمد بن عبد الملك الهمداني ، ذيل تاريخ الطبري ، تحقيق البرت يوسف كتمان (بيروت :

١٩٥٩ م) ، مجلد ١ ، ص ٢٨٥ .

" وانتظار النجدة من بركيا روق ، لان كتاب الطائر وصل الى حلب يخبر بوصول النجدة الى الموصل (١) وعندما كان عماد الدين زنكي يحاصر مدينة نصيبين سنة ٥٢١ هـ / ١١٢٢ م ، وكانت هذه المدينة تابعة لحسام الدين ترناش بن ايلغازي ، صاحب مارددين ، " سير حسام الدين رقاعا على اجنحة الطيور الى نصيبين ، يعلم من بها من الاجناد " (٢) ان النجدة في طريقها اليهم . وقد سقط احد الطيور في معسكر زنكي ، فامر باصطياد ، وفرض الرسالة ، وكتب رسالة اخرى ، على لسان ترناش ، يفهم منها ان النجدة ستأخر عشرين يوما ، وحملها الى الطائر واطلقه ، فاستسلمت له المدينة (٣) ويمكن ان نستنتج من هذه الرواية وسابقتها ان الحام كان يستخدم لنقل الرسائل اثناء العهد السلجوقي ، وربما كان استخدامه على نطاق ضيق .

ويبدو ان الكثيرين من الحكام ادركوا قيمة البريد فاهتموا به ، اذ يروى عن مسلم بن قرش بن بدران العقيلي ، صاحب الموصل وحلب ، انه اكان له في كل قرية صاحب خبر (٤) وكان عماد الدين زنكي " شديد العناية باخبار الاطراف وما يجري لاصحابها في خلواتهم " . وكان يخسر على ذلك المال الجزيل . . . فكان يصل اليه في كل يوم من عيونه عدة قاصدين . . . " (٥) وينقل ابن الاثير عن والده انه توجه يوما نحو معسكر عماد الدين ، ويبدو ان المرحلة كانت طويلة ، وعند وصوله وجد ان زنكي كان يعلم بجيئه قبل ان يصل المعسكر (٦)

ونستخلص من الامثلة التي اوردناها والروايات التي اثبتناها ان الخيل والبغال والجمال والطيور كانت هي الوسائل التي اعتمدها ، او اعتمد بعضها ، الحكام في العهد السلجوقي . ويمكن

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، مجلد ٢ ، ص ١١٧ .

(٢) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٣٦ - ٣٧ .

(٣) المصدر نفسه ، والصفحة ذاتها .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ١٤٠ .

(٥) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٧٨ ، وانظر ص ٤٧ ايضا .

(٦) المصدر نفسه ، ص ٧٨ .

ويمكن ان نضيف الى ذلك ان الخيول والنجب السريعة أصبحت الوسيلة المفضلة في أواخر ذلك العهد .

الشحنكية

ظهرت وظيفة الشحنكة بعد دخول السلاجقة الى بغداد . وأول من حمل هذا اللقب في العاصمة العباسية هو الامير برسق ، الذي عينه السلطان طغرل بك شحنكة في بغداد سنة ٤٥١هـ / ١٠٥٩م .^(١) ويعرف ابن جبير الشحنكة بأنه صاحب الشرطة ،^(٢) بيد ان الباحث في تاريخ العصر السلجوقي يجد ان وظيفة الشحنكة اكبر من مجرد المسؤولية عن الشرطة . لقد كانت اختصاصات صاحب الشرطة تدخل ضمن المهمات التي أنيطت بالشحنكة ، بيد ان واجبات الشحنكة كانت أوسع بكثير من تلك الاختصاصات .^(٣) ويمكن ان يقال انه كان يمارس ما يعرف اليوم بمهام الحاكم العسكري والمحافظة . وليرلدينا النثير من المعلومات عن نشاط الامير برسق ، أول شحنكة في بغداد . وعند موت السلطان طغرل بك سنة ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م وتنسب البارسلان العرش نجده ، أي البارسلان ، يعين شحنكة جديدا لبغداد هو أيتكين السليمانى .^(٤) ولا نعرف عن أيتكين هذا الا انه ترك ابنه نائبا عنه في بغداد ، وسار الى خدمة السلطان ، ثم حدث من ابنه ما سبب اصرار الخليفة على عزله ، فعين السلطان بدلا منه سعد الدولة كوهرائين .^(٥) وكان كوهرائين من كبار أمراء الدولة ، وهذا ما يعرفنا بأهمية المنصب . وتتضح لنا أهمية كوهرائين عندما نجده بازا السلطان البارسلان يوم اغتياله فيما وراء النهر ، وقد جرح في الحادثة .^(٦) وعندما نشبت المعركة بين ملكشاه وعمه قاورد سنة ٤٦٥هـ / ١٠٧٣م كان كوهرائين بصحبة ملكشاه ، وهو الذى كلف بخنق قاورد بعد أسره في المعركة .^(٧) وفي سنة ٤٦٦هـ / ١٠٧٤م عاد الى بغداد " وجلس له الخليفة القائم . . . وسلم الخليفة الى كوهرائين عهد الخلافة "^(٨) بعد ان قرأ أوله ،

(١) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٨-٩ .

(٢) ابن جبير ، ص ٢٤٤ .

(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٤٧ ، ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١١ ، ص ٤٥ و ٦١ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٣٥ .

(٥) الكاتب الاصفهاني ، تواريخ آل سلجوق ، ص ٤٤ ، ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١١ ، ص ١٠ .

(٦) الكاتب الاصفهاني ، تواريخ آل سلجوق ، ص ٤٦ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ٤٨ .

(٨) أى عهد الخليفة بالسلطنة للسلطان ملكشاه ، باعتبار كوهرائين ممثلا له .

ومتضمنه انه جعل عليه في الملك معوله ٠٠٠ (١) وأكثر من ذلك ان كوهرائين هــذا يأتي الى بغداد شحنة على العراق سنة ٤٧١هـ / ١٠٧٩م مرسلًا من قبل نظام الملك (٢) وبعد وصوله أخذ يقرع الخيلول على باب داره أوقات الصلوات ، وكان قد طلب ذلك من قبل فلم يجبه الخليفة بحجة ان ذلك لم تجربه عادة (٣) ولان ذلك كان أحد رموز الخلافة . ويبدو ان سحابة مرت في سماء العلاقات بين الخليفة والسلطان ، آنذاك — فشجع السلطان الشحنة على هذا السلوك الذي لا بد وأن يكون قد أزعج الخليفة . وعندما أعلن تشرنفسه سلطانا بعد موت أخيه ملكشاه أرسل يوسف بن آبق التركماني على رأس قوة من التركمان ، شحنة لبغداد . (٤) وفي سنة ٤٩٢هـ / ١٠٩٩م قوى مركز السلطان محمد في حلبة الصراع ضد أخيه بركياروق فترك كوهرائين بغداد وتوجه الى محمد فأكرمه وخلع عليه ورده اليها ، وعندما وصلها طلب من الخليفة ان يخطب لمحمد ، فأجاب . (٥) وفي سنة ٤٩٥هـ / ١٠٩٢م عين السلطان محمد بن ملكشاه ايلغازي بن أرتق شحنة ببغداد . (٦) وفي السنة التالية أرسل بركياروق ، وكان ينازع أخاه محمد ، أرسل كمشتكين القيصري شحنة ببغداد أيضا ، فاستنجد ايلغازي بأخيه الامير سكران ، فأبدأ في الوصول اليه ، فانسحب . وعند وصول أخيه تحالفا مع صدقة بن مزيد ، واضطروا الخليفة الى اخراج كمشتكين واعادة الخطبة للسلطان محمد . (٧)

وفي سنة ٥١٩هـ / ١٢٥٠م بعد انتهاء نزاع بين السلطان محمود والخليفة المسترشد ، أراد السلطان الرحيل عن بغداد ، فنظر " في من يصلح ان يلي شحنة ببغداد ، يأمن معه من الخليفة ، ويضبط الامور ، فلم ير في أمرائه ٠٠٠ من يصلح ٠٠٠ غير عماد الدين زنكي ، فولاه شحنة العراق مضافا الى ما بيده من الاقطاع وسار السلطان عن بغداد وقد أمان قلبه من جهة العراق ٠٠٠ (٨)

وقد روى سبط بن الجوزي ان السلطان محمد ولي نجم الدين غازي بن أرتق " شحنة العراق ٠٠٠ (٩)

(١) المصدر نفسه ، ص ٤٩٠

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ١١٠

(٣) المصدر نفسه ، ص ١١٢

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٤٤

(٥) المصدر نفسه ، ص ٢٨٨

(٦) المصدر نفسه ، ص ٣٢٩

(٧) المصدر نفسه ، ص ٣٥٥ — ٣٥٨

(٨) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٣١

(٩) سبط بن الجوزي ، مجلد ٨ ، ص ٣٧

ونجم الدين ايلغازى هذا هو الذى ذكرناه قبل قليل ، ونعته ابن الاثير بـ " شحنة بغداد " (١) ويصف صاحب مرآة الزمان البقش السلاحي بأنه كان زنائب السلطان مسعود في العراق " (٢) سنة ٥٣٢هـ / ١١٣٨م ، بينما يصف ابن الاثير هذا الامير نفسه بأنه " البقش السلاحي ، شحنة بغداد " (٣) ويذكر ابن خلكان ان السلطان مسعود رأى ان يوجه الخصي مجاهد الدين بهروز " الى بغداد والثيا عليها ونائبا عنه بها ، وكذا كانت عادة الملوك السلجوقية في بغداد يسيرون اليها النواب " (٤) . وقد تولى بهروز بعد عزل البقش السلاحي ، وكانت مدة ولايته على العراق نيفا وثلاثين سنة . (٥) وينعت ابو شامة مجاهد الدين بهروز بأنه شحنة العراق . (٦)

ولا يتسع المجال لحشد المزيد من أخبار الشّحن ، بيد ان ما سقناه يكفي — في اعتقاد كاتب هذه السطور — للتدليل على ان الشحنة في بغداد كان يعتبر ممثلا للسلطان لدى دار الخلافة ونائبا عنه في العراق ، وحاكما عسكريا . وهكذا يمكن القول — في ضوء ما سبق من الاستشهادات — ان عبارة شحنة بغداد ، وعبارة شحنة العراق تشيران كلاهما الى مدلول واحد ووظيفة واحدة . الا ان علينا ان نتذكر ان فترات الفوضى ، التي كانت تشوبها التمردات كانت تحد من دائرة ولاية الشحنة ، وربما حصرتها ضمن نطاق مدينة بغداد .

أما الشحنة خارج بغداد فأو خارج العراق ، أى في عواصم الاقاليم والمدن الاخرى ، فقد كان مركزه أقل أهمية من مركز شحنة العراق بطبيعة الحال ، من ناحية تمثيل الاخير للسلطان ونيابته عنه ، ومن حيث أهمية البلد الواقع تحت ولايته . ومع ذلك فان الشحنة كان اكثر من مجرد صاحب

(١) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٣٢٩ .

(٢) سبط بن الجوزى ، مجلد ٨ ، ص ١٦٣ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١١ ، ص ٦٥ .

(٤) ابن خلكان ، مجلد ١ ، ص ٢٣٣ ، وانظر ابن الفوطي ، مجلد ٤ ، قسم ٣ ، ص ٢٠٦ .

(٥) سبط بن الجوزى ، مجلد ٨ ، ص ١٦٣ و ١٨٦ .

(٦) أبو شامة ، السروضتين ، ج ١ ، قسم ٢ ، ص ٣٢٩ .

شرطة هنا أيضا • وما يؤيد هذا الرأي انه عندما عين عماد الدين زنكي شحنة في البصرة وأقطع واسط سنة ٥١٦هـ / ١٢٢م كانت مهمة زنكي مهمة قائد عسكري مسئول عن الدفاع عن المدينة ضد هجمات أمير بني أسعد ، صاحب الحلة ، دبسر بن صدقة • ولم يكن دبسر مجرد مثير للفلاقل ، بل كان عدوا خارجا على السلطان ، استطاع قبل ذلك ، وفي السنة ذاتها ، ان يهزم قوة وجهها اليه السلطان بقيادة آق سنقر البرسقي ، شحنة العراق ، الذي كان زنكي واحدا من أمراء الصغار .^(١)

وكان شحنة دمشق في عهد أتابك طغتكين (٤٨٨هـ / ١٠٩٥م - ٥٢٢هـ / ١١٢٨م) هو في الوقت نفسه نائبه في الولاية .^(٢) وكان أسد الدين شيركوه نائبا لنورالدين محمود في دمشق وشحنة فيها ،^(٣) وقد خلفه في منصبه ابن أخيه صلاح الدين ،^(٤) وكان شيركوه صلاح الدين من أهم قادة نورالدين محمود الذين يعتمد عليهم ، وهذا يدلنا على أهمية منصب الشحنة • ويبدو انه كان لكل مدينة شحنة ، فابن الاثير يذكر انه كان في مدينة سنجار شحنة ،^(٥) ونقرأ لابن الجوزي فيما يرويه عن يحيى بن هبيرة الوزير ، انه كان في بعض القرى شحنة .^(٦)

وكان من احمات الشحنة حفظ الامن في المدينة او البلد الذي تحت ولايته ، فعندما كان العيارون ي قلقون بغداد كان الشحنة هو الذي يتولى كفهم ، هو ، وأتباعه .^(٧) كما كان الشحنة يتولى التحقيق في الجرائم أحيانا .^(٨)

(١) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٢٤-٢٥ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ١٣١ ، سبط بن الجوزي ، مجلد ٨ ، ص ٦٩ .

(٣) ابن القلانسي ، ص ٣٣٦ .

(٤) سبط بن الجوزي ، مجلد ٨ ، ص ٢٥٢ .

(٥) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٩٥ .

(٦) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ١٠ ، ص ٢١٥ .

(٧) المصدر نفسه ، مجلد ١١ ، ص ٤٥ و ٦١ و ٨٩ ، وانظر كذلك ابن الفوطي ، مجلد ٤ ، قسم ٣ ، ص ٢٠٦ .

(٨) ابن الفوطي ، مجلد ٤ ، قسم ٣ ، ص ٢٠٦ .

وفضلا عن هذه الواجبات ذات الصبغة العسكرية نجد بعض الشحن يقومون ببعض الاصلاحات المدنية ، اذ يذكر عن بهروز الخادم انه عمل سدا في النهروانات وحفر مجرى نهريا قديما كان قد انظمر (١) كما انه بنى بعض الرباطات (٢)

وكان الشحنة يستنوب عنه نائبا ، ولنا ندري ان كان هذا الامر قد جرى ^{مجرى} القاعدة العامة ، ولكننا نعرف ان اتيكين السليمانى اناب عنه ابنه في شحنة بغداد (٣) وان الامير منكوير استناب فيها ربيه الامير حسين بن ازيك (٤) وان عبد الرحمن بن طغايك استناب ولده وحمل العبء الى الامير ايلدكر (٥) واحيانا تورد المصادر ذكر نائب الشحنة يقوم بواجبه دون ان تحدد اسمه ، مثل ما ذكره ابن الجوزى من ان شخصا وجد مقتولا سنة ٥١٥ هـ / ١١٢١ م نجاء نائب الشحنة (٦) كما كان للشحنة جنود واتباع تحت امرته ، فمن حادثة القتل هذه يذكر ابن الجوزى ان اصحاب الشحنة كبسوا المحلة ، وان نائب الشحنة وكل عشرة من اصحابه بدار الوزير ، وعشرة آخرين بدار ابن صدقة صاحب المخزن لانها مهما بان لهما علاقة بالجريمة (٧) .

صاحب الشرطة :

يبدو ان المصلاحة لم يعنوا بتعيين صاحب شرطة ، باعتبار ان مهماته تدخل ضمن على الشحنة . ولعل هذا هو السبب في اننا لم نعر على ذكر لصاحب الشرطة في غير مدينة بغداد . اما في بغداد فيرد اسم صاحب الشرطة ، احيانا . ونعرف من هؤلاء ابا محمد النسوى الذى شغل منصب صاحب الشرطة في بغداد ، وتوفي عام ٤٥٢ هـ / ١٠٦٠ م (٨) والظاهر انه شغل هذا المنصب في العهد

-
- (١) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ١١ ، ص ١١٧ ، وابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١١ ، ص ٧٧ .
 - (٢) الذهبي ، المختصر المحتاج اليه ، مجلد ١ ، ص ٢٦٥ .
 - (٣) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٧٠ .
 - (٤) المصدر نفسه ، ص ٥٢٣ .
 - (٥) ابن الفوطى ، مجلد ٤ ، قسم ٣ ، ص ٢٠٦ .
 - (٦) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ١ ، ص ٢٢٢ - ٣ .
 - (٧) المصدر نفسه ، الصفحة ذاتها .
 - (٨) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ١٢ .

البويهى . ويورد ابن الجوزى ذكر ابي الغنائم اسماعيل ، صاحب الشرطة ببغداد ، ويصفه بانه كان ظالما (١) وكان ابو الغنائم يشغل هذا المنصب سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٧ م ويستحدث سبط بن الجوزى عن صاحب شرطة الخليفة ضمن اخبار تلك السنة (٢) ، فلعله هو ابو الغنائم نفسه .

والمرجح لدى ان صاحب الشرطة ببغداد لم يكن له نفوذ يذكر بوجود الشحنة . غير انه من الجائز او الراجح ان منصب صاحب الشرطة قد استعاد شيئا من اهميته في عاصمة الخلافة بعد ان خلت من الشحن ، وبعد تمتع الخلفاء بشي من الاستقلال والقوة .

وظائف اخرى

وغير هذه المؤسسات التي وصفنا نجد في المصادر ذكر عدد من المناصب ، كمنصب عميد العراق الذى كان يعينه السلطان . والظاهر انه كان مختصا بالاشراف على الادارة المدنية . ففي سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٦ م قدم الى بغداد ناظرا في اعمالها ، العميد ابو نصر ، موفدا من قبل السلطان ملكشاه بصحبة سعد الدولة كوهرائين ، الشحنة (٣) ويبدو ان بعض العمدا كانوا يسببون الاذى والضيق للخلافة ، اذ نقرأ ان الخليفة المقتدى بعث بالشيخ ابي اسحاق الشيرازى في رسالة الى السلطان ملكشاه " تتضمن الشكوى من العميد ابي الفتح بن ابي الليث . وامره ان ينهي ما يجرى على البلاد من النظر (٤) ومن شغل هذا المنصب كمال الملك الدهستاني الذى توفي ٤٩٥ هـ / ١١٠٢ م (٥) وفي خلافة المستظهر بالله (٤٨٦ هـ - ٥١٢ هـ) كان عميد بغداد من قبل السلطان محمد بن ملكشاه هو ابو جعفر محمد بن الحسن العراقي (٦)

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ١٤٩ .

(٢) سبط الجوزى ، مجلد ٨ ، ص ١٨ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ١٠٠ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٢٥ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٢٢٢ .

(٦) ابن الفوطى ، مجلد ٤ ، قسم ٢ ، ص ٩٤٢ .

ولا تسعنا المصادر بالكثير من المعلومات عن اختصاصات عميد العراق ، غير ان فينا
اوردناه ما يوحي بانه كان مسئولاً عن الادارة المدنية كما ذكرنا فشكى الخليفة من العميد الى السلطان
تصنت الشكوى مما " يجرى على البلاد من النظر " والذي ينهم من هذه العبارة ان العميد كان
مسئولاً عن النظر .

ومن الوظائف الهامة وظيفة كبير الحجاب ، وهي وظيفة لم تكن خائفة بالخلفاء والسلاطين
وحدهم ، بل ان بعض الوزراء وامراء الاقاليم كان لهم حجاب كذلك . وتدل المعلومات التي بين ايدينا
ان الحاكم الواحد كان له عدد كبير من الحجاب ، فنقرأ مثلاً انه عندما تزوج السلطان طغرل بك
ابنة الخليفة ، وطلب من والدها ان ينقلها من دار الخلافة الى دار السلطنة ببغداد احتج الخليفة
بان الغرض من الزواج كان الشرف ، وليس حقيقة الزواج . وذكر انه اشترط ان يرى السلطان عروسه
في دار الخلافة فتعمل طغرل بك بان من الصعب وجيئه الى دار الخلافة ، اذ يلزم — في تلك الحالة
ان تفرق اماكن لحجابها ، وغلما نه ، اذ لا يمكنهم عنه (١) وعندما نقلت العروس الى دار الملكة
وجلس فيها " كان السلطان والحجاب ، ووجه الاتراك يرقصون في صحن الدار ، فرحا وسرورا (٢)
وقد ذكر ابن الجوزي ان بعض حجاب نظام الملك صنع امرأة ضعيفة من الوصول اليه فطرده نظام الملك
قائلاً : " انا استخدمتك لتوصل الي مثل هذه ، لا لتوصل الي رجلا كبيرا او حاجبا جليلا (٣)

ويذكر ابن الاثير ان الخليفة القائم بامر الله " استخدم ابا تراب الاثيري في الانهاء
وحضور المواكب ، ولقبه حاجب الحجاب (٤) ولنا ندرى ان كان هذا اللقب قد اعطي في هذه
الحالة المفردة ام انه كان يعطي لكبير حجاب دار الخلافة بصفة دائمة . والذي ارجحه انه لم يكن
لقبا دائما بل كرم به الاثيري بعينه . والذي يشجع على مثل هذا الترجيح انني لم اعثر على ذكر
حاجب اخر حمل اللقب نفسه . في حين تردد ذكر الحاجب او حاجب الباب مثل ابي المعالي بن
الحسين الذي كان حاجبا للخليفة ، وقد عزله سنة ٤٦٤ هـ / ١٠٧٢ م (٥) وعبدالله بن محمد
الدامغاني الذي عين حاجبا على باب النوي ، احد ابواب دار الخلافة وكان قبل ذلك قاضيا (٦)

(١) ابن الجوزي المنتظم ، مجلد ٨ ، ص ٢٢٩ .

(٢) المصدر نفسه ، والصفحة ذاتها .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٢٨ ، وانظر مجلد ٩ ، ص ٨٤ .

(٤) ابن الاثير الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ١٤ .

(٥) الكاتب الاصفهاني ، تواريخ ال سلجوق ، ص ٤٥ .

(٦) ابن الجوزي المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٢٥١ .

ومثل أبي منصور ابن بكران حاجب الباب بدار الخلافة ، الذي توفي سنة ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م فعين مكانه ابو عبد الله المردوسي (١) ولكن ذكر الحاجب بصيغة المفرد لا يعني انه كان لدار الخلافة حاجب واحد ، فعندما ولي ابو الحسن الدامغانى ^{قضاة} القضاة سار في موكب مشى فيه النقيان " وحجاب الديوان (٢) وفي سنة ٥١٢ هـ / ١١١٨ م عين ابو الفتح بن طلحة حاجبا في دار الخلافة " فجلس بباب النوبي وجلس ابن المعج نائبه " (٣) وفي سنة ٥١٥ هـ / ١١٢١ م ارسل حاجب من ديوان الخلافة ليستدعي النقيب علي بن طراد (٤)

وعندما تولى عماد الدين زنكي الموصل لأول مرة كان من ضمن اصحابه الذين لا عينهم نسي المناصب الهامة الامير صلاح الدين الياغيساني الذي عينه امير حاجب (٥)

ونحن نستنتج من هذه الامثلة المتعددة وجود وظيفة حاجب كبير وحجاب اخرون معاونون له . ويؤيد الشيرازي استنتاجنا فيذكر " صاحب الحجاب " (٦) و " كبار الحجاب " (٧)

اما اختصاصات الحاجب فالاصل فيها انه صلة بين الخليفة (او السلطان او الملك) وبين الناس . وقد مر معنا ، قبل قليل ، ان الحجاب كانوا يرسلون احيانا ، لاستدعاء بعض الشخصيات الهامة . ويصف الشيرازي عمل صاحب الحجاب فيذكر انه يدخل على الملك ، فاذا استدعى الملك الوزير ياتسي به الحاجب الى ان يوصله الى السرير ثم يتاخر ليتيح للملك ووزيره فرصة السريسة

(١) المصدر نفسه ، مجلد ٨ ص ٢٣٨ ؛ وانظر مجلد ١٠ ص ١٦٠ - ١٦١ .

(٢) المصدر نفسه ، مجلد ٩ ص ٨٣ .

(٣) المصدر نفسه ، مجلد ٩ ص ١٩٩ .

(٤) المصدر نفسه ص ٢٢٣ .

(٥) ابن الاثير ، الباهر ص ٣٥ .

(٦) الشيرازي ، المنهج المملوك ص ٧٠ .

(٧) المصدر نفسه ، الصفحة ذاتها .

في الحديث . (١) ويظل الحاجب يدخل كبار الشخصيات على الملك ، فيوصل الواحد منهم ثم يتركه ويذهب ليرافق غيره . وحين رأتهم المجلس ، ويتخذ الناس أماكنهم حسب أهمية كل منهم " يكون صاحب الحجاب واقفاً بالبعد ، بحيث اذا دعي أجاب . " (٢)

وعندما جاء السلطان طغرل بك الى بغداد سنة ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م كان الحاجب يسير على مسافة بعيدة أمام الموكب ، فعندما خرج وزير الخليفة لتلقي السلطان كان أول من لقيه حاجب السلطان الذي قدم له فرساً ، وجاء بعد الحاجب وزير السلطان ، ثم ان الوزيرين سارا معا الى ان وصلا الى السلطان . (٣) ويوضح لنا الشيزي انه عندما يسير الملك في موكبه تسير أمامه " قطعة من الحجاب في مقدمة الموكب ، يطسرقون ويمنعون أحداً من سلوك الطرقات . " (٤)

وهكذا يمكن ان يقال ان كبير الحجاب كان يختص بتوصيل الشخصيات الهامة الى الملك او السلطان ، او ينقل اليها ومنها ما يراد نقله ، وانه يسير في مقدمة الموكب الملكي عند خروجه . بيد ان نفوذ الحاجب كان يتضخم أحيانا خاصة حجاب بعض السلاطين ، ففي سنة ٥٣٦هـ / ١١٤٢م تولى عبد الرحمن طغايرك حجة السلطان ، واستولى على المملكة ، وعزل الامير تتر الطغرلي عنها ، وآل أمره الى ان يمشي في ركاب عبد الرحمن . (٥) كذلك نقرأ ان أحد كبار حجاب دار الخلافة استغل منصبه استغلالاً سيئاً ، فقبض عليه ووكل به في الديوان ، وأحضر

(١) المصدر نفسه ، والصقحة ذاتها .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٧١ .

(٣) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ص ١٦٤ .

(٤) الشيزي ، المنهج السلوكي ، ص ٧١ .

(٥) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١١ ، ص ٨٨ .

الناس واقفوه على ما اخذ منهم واخرج منه الى بيته (١)

وقد بالغ احد الباحثين المحدثين في اهمية وظيفة الحاجب وذهب الى انه " هو الذى يتصل بالسلطان ويكون صلة الوصل بينه وبين الوزير ، وهو وحده الذى يتلقى اوامر السلطان الشفهية وهو وحده ايضا الذى يستطيع ان يوصل الاوامر والنواهي السلطانية الى الوزير للقيام بتنفيذها . اى انه الشخص الوحيد المخول بنقل مطالبات السلطان معنى ذلك ان كلام الحاجب هو كلام السلطان ، وعلى الوزير وغيره من موظفي الدولة تنفيذ اقواله " (٢)

ولكن الحقيقة غير ذلك ، فقد كان الوزير هو اهم الشخصيات بعد السلطان ، وذلك عندما يكون وضع السلطنة سويلا . اما تضخم دور الحاجب فقد كان شذوذا . والامثلة التي سقناها تبين ان دور الحاجب لم يكن بهذه الاهمية قط . والذى اراه ان منصب كبير حجاب السلطان كان يعطي لكبار الامراء احيانا من قبيل التكريم والتشريف . وكان شاغل المنصب هو الذى يعطي الاهمية للمنصب وليس العكس . واود ان اضيف هنا انني لم اعثر على ما يشير الى اعمال مهمة قام بها الحاجب في عهد قوة السلطنة بل قلما يرد ذكر الحاجب السلطاني في المصادر .

وهناك وظيفة خاصة بدار الخلافة هي وظيفة " استاذ الدار " ورغم ان اسم وظيفته يدل على اختصاصه بالشؤون الخاصة لدار الخلافة ، اى انها تماثل وظيفة مدير البلاط في العرف الحديث ، الى حد ما فقد اعتبر من الشخصيات الهامة . وقد تضخم نفوذه في الفترة الاخيرة من العهد السلجوقي حتى اننا نجد استاذ الدار عضد الدين ابا الفرج بن رئيس الرؤساء يتآمر مع الامير قايماز المتحكم في دولة الخلافة فيقتل الخليفة المستنجد باغلاق الحمام عليه وهو مريض سنة ٥٦٦ هـ / ١١٢١ م وبعد الخلار من الخليفة الحقا به

(١) ابن الجوزي المنتظم ، مجلد ١٠ ، ص ١٦٠ - ١٦١ .

(٢) حسين امين ، تاريخ العراق في العصر السلجوقي (بغداد : المكتبة الاهلية ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م) ، ص ١٨٢ .

وزيره ابن البلدى ، الذى قطعت جثته ورميت في دجلة (١) ويبدو ان نفوذ استاذ الدار استمر في الاتساع لدرجة ان اصبح اسمه يذكر في الخطبة في ايام الخليفة الناصر لدين الله (٢)

ومن ذوى الاهمية والمكانة من موظفي ذلك العصر صاحب المخزن ، وكان مسئولا عن حفظ الخزينة . ولكن نفوذه كان يزداد احيانا مثله في ذلك مثل غيره من كبار موظفي ذلك العصر ، لدرجة اننا نجد صاحب المخزن في دار الخلافة يتسبب مع اخرين في عزل ابن جهمير وزير الخليفة وذلك سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٧ م (٣)

وكان المستوفي ، او صاحب ديوان الاستيفاء مختصا بجمع الاموال المستحقة للخزانة . وما اظن ان اهمية هذا الموظف بحاجة الى تنويه ، نظرا لاختصاصه بجمع الاموال ، فكان صاحب ديوان الاستيفاء شرف الملك ابو سعد محمد بن منصور بن محمد مثلا من ابرز اعوان الوزير نظام الملك (٤)

اما صاحب الطغراء فهو الذى كان يكتب الطغرى ، وهي الطرة التي تكتب فوق البسمة بالقلم الغليظ ومضمونها نعت السلطان او الملك الذى صدر عنه الكتاب (٥) وكثيرا ما نجد ان صاحب الطغراء او الطغرائي هو كاتب الانشاء ايضا (٦) ولكن هذا خاص بدولة السلاطين . اما بالنسبة لدار الخلافة فاننا نجد كاتب الانشاء ولم لاحظ انه كان هناك طغرائي للخليفة . ومع ذلك فقد كان كاتب الانشاء موظفا هاما في بلاط الخليفة ، فهذا كاتب الانشاء ابن الموصلاي ينوب عن الوزير (٧) في حالة غيابه او شغور منصبه اما كاتب الانشاء سديد الدولة بن الانباري ، محمد بن عبد الكريم ، فقد

(١) ابن الاثير الباهر ، ص ١٥٠ - ١ ، وابن ابي اصيبعة ، ص ٣٤٧ - ٣٤٨ .

(٢) ابن جبير ، ص ١٨١ .

(٣) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ١٤٩ ؛ وسبط بن الجوزي ، مجلد ٨ ، ص ١٨ .

(٤) الكاتب الاصفهاني ، تاريخ ال سلجوق ، ص ٥٩ ؛ وابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٢٥٥ .

(٥) ياقوت معجم الادباء ، مجلد ١٠ ، ص ٥٧ ؛ وابن خلكان ، مجلد ١ ، ص ٤٤٢ .

(٦) الكاتب الاصفهاني ، تاريخ ال سلجوق ، ص ٥٩ و ١٢٩ .

(٧) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ١٠ ، ص ٢٠٦ .

بعث به الخليفة رسولا من قبله الى السلطان سنجر^(١) وكان صاحب ديوان الانشاء والطغراء في السلطنة واحدا من أهم معاوني نظام الملك^(٢) كما ان ابا القاسم الدرگزيني صاحب الطغراء والانشاء كان احدا المتحكين في السلطنة أيام سنجر^(٣) وقد أصبح وزيرا بعد ان نجح في مؤامراته ضد خصومه^(٤).

ويبدو لي ان بإمكان الباحث ان يستنتج ان الوظائف العسكرية كانت تتفوق في أهميتها ونفوذها على الوظائف المدنية ، وهذا أمر غير مستغرب عندما يكون الحكم متركزا الى الجيوش . وربما صدق مثل هذا القول على أوضاع بعض أقطارنا العربية في الوقت الراهن . كذلك يمكن ان نستنتج ان أهمية المنصب كانت تتوقف على قوة شخصية شاغله ونفوذ ، وقد أشرنا الى ان بعض شاغلي المناصب ذات الأهمية القليلة نسبيا استطاعوا فرض نفوذهم على الدولة بشكل عنيف .

(١) الكاتب الاصفهاني ، تواريخ آل سلجوق ، ص ٥٩٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٢٩٠ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٢٧ - ١٢٩ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٤٤ .

T
130A
pt 2

الفصل الثالث

الحياة العقلية

الحياة العقلية

ملاحمها العامة :

نعني بالحياة العقلية امورا ثلاثة : اولها المفاهيم الاساسية التي يتبناها المجتمع عن الكون والانسان والعلاقة بينهما ، وثانيها الجهود العقلية الرامية لفهم مظاهر الحياة ، وموقف هذه الجهود من الافكار السابقة ومقدار مساهمتها بالجديد من الافكار ، وثالث هذه الامور يتمثل في مقدار اهتمام الناس بتثقيف العقول وتدريبها على التفكير ، او جعلها تدرك الظواهر والافكار على نحو معين ، واهداف هذه العملية التثقيفية والمسالك أو الاساليب التي تسير على هديها ، ومقدار ما تحققه من نجاح .

ان اهم الملاحم البارزة التي يلاحظها الدارس للحياة العقلية العربية في العصر السلجوقي هي :

- ١ - غلبة الطابع الديني ، اذ ان النظرة الاساسية التي شكلت الاطار العام لتفكير الناس عامة ، في ذلك العصر كانت نظرة دينية ، تنبع من العقيدة الاسلامية .
- ٢ - الايمان الغيبي ، فقد تضمنت العقيدة الاسلامية من مبدأ ظهورها ضرورة الايمان الغيبي بأمور حددتها ، كالبعث والحساب والجنة والنار والملائكة والجن والشيطان . وقد توسع الناس في الايمان الغيبي لدرجة شلت عقولهم ، بحيث اصبح لديهم الاستعداد لقبول كل خرافة مهما بدا من غرابتها وبعدها عن طبيعة الاشياء .

٣ - الجمود وروح التقليد ، وهو يعود الى ما قبل العصر السلجوقي بزمان طويل

٤ - وحدة الانقسامات الدينية والمذهبية

ولسنا بحاجة الى سرد المفاهيم الاساسية التي تبناها المجتمع عن الكون والانسان ، والعلاقة بينهما ، اذ انها امور مشهورة ومعروفة . ولكن ربما كان ادراك مقدار الاسراف في الايمان الغيبي ، والجمود وروح التقليد ، وحدة الانقسامات الدينية يستلزم عرض بعض الامثلة .

فهذا ابن عساكر، وهو من اكبر رجالات العصر، يروى أمورا من قبيل قصة شيخ ضرير اعتكف ثلاثين سنة في كهف بجبل لبنان - على زعم ابن عساكر - وكان طائر يأتيه كل يوم بأطعمة مختلفة الألوان . وذل رجل طريقه فقدم على ذلك الشيخ في معتكفه وتحدث اليه ، وفي ذلك اليم احضر الطائر طعاما أضافا، بمناسبة حضور هذا الضيف، كما توحى الرواية . وعندما عزم الرجل على الرحيل وهو لا يستطيع الاهتداء الى طريق دمشق قال له الشيخ انه بعد ان يخرج من عنده ويمشي خطوات سيجد امامه أسدا في انتظاره ، وعليه ان يتبعه اذا مشى امامه، فسيدل له على الطريق . وتقول الرواية ان الاسد دله على الطريق ، وان الرجل وصل الى دمشق .

وفي ترجمته للشيخ ابي الفرج الشيرازي (ت ٤٨٦ هـ)، يذكر ابن ابي يعلى الغراء البغدادى ، المتوفى سنة ٥٢٦ هـ ان الشيخ ابا الفرج هذا اجتمع مع الخضر مرتين . وكان تشر بن الب ارسلان ، صاحب دمشق قد عزم على الذهاب لمقابلة أخيه السلطان ملكشاه ، وقد ملأ الخوف قلبه من استدعاء أخيه له ، فذهب الى الشيخ الشيرازي هذا يطلب منه الدعاء ، فأكد له الشيخ انه لن يراه . وسافر تشر، فلما وصل هيت بلغه خبر موت أخيه السلطان ، فرجع (٢) . وكان الشيخ الشيرازي يدعو على أحد مخالفه ويقول : " كم ارميه ولا تقع الرمية به : فلما كان في الليلة التي هلك ذلك المخالف فيها ، قال ابو الفرج لبعذر اصحابه : قد أصبحت فلانا وقد هلك . ففوّخت الليلة ، فلما كان بعد بضعة عشر يوما ورد الخبر بوفاة ذلك الرجل الذي اخبر ابو الفرج بهلاكه " (٣)

ونسب الى الشيخ عبد الله بن محمد المؤيدى الشافعي انه رأى في المنام ، في منتصف محرم سنة ٤٦٨ هـ ، الشيخ ابا أسحاق الشيرازي (ت ٤٧٦ هـ)، كبير الفقهاء الشافعية في عصره ، رآه يطير في السماء الثالثة أو الرابعة ، وأن ملكا اعترضهم

(١) ابن عساكر، ج ٢ ، ص ٢٩٩ - ٣٠٢ .

(٢) ابن ابي يعلى ، ج ٢ ، ص ٢٤٨ - ٢٤٩ ، ابن رجب ، مجلدا ، ص ٨٨ .

(٣) ابن رجب ، مجلد ١ ، ص ٨٨ .

فهذا ابن عساكر، وهو من اكبر رجالات العصر، يروى أمورا من قبيل قصة شيخ ضرير اعتكف ثلاثين سنة في كهف بجبل لبنان - على زعم ابن عساكر - وكان طائر يأتيه كل يوم بأطعمة مختلفة الألوان . وضل رجل طريقه فقدم على ذلك الشيخ في معتكفه وتحدث إليه ، وفي ذلك اليوم احضر الطائر طعاما أضافا، بمناسبة حضور هذا الضيف ، كما توحى الرواية . وعندما عزم الرجل على الرحيل وهو لا يستطيع الاهتداء الى طريق دمشق قال له الشيخ انه بعد ان يخرج من عنده ويمشي خطوات سيجد أمامه أسدا في انتظاره ، وعليه ان يتبعه اذا مشى أمامه، فسيد له على الطريق . وتقول الرواية ان الاسد دله على الطريق ، وان الرجل وصل الى دمشق .

وفي ترجمته للشيخ ابي الفرج الشيرازي (ت ٤٨٦ هـ)، يذكر ابن ابي يعلى الفراء البغدادى ، المتوفى سنة ٥٢٦ هـ ان الشيخ ابا الفرج هذا اجتمع مع الخضر مرتين . وكان تنثر بن الب ارسلان ، صاحب دمشق قد عزم على الذهاب لمقابلة أخيه السلطان ملكشاه ، وقد ملأ الخوف قلبه من استدعاء أخيه له ، فذهب الى الشيخ الشيرازي هذا يطلب منه الدعاء ، فأكد له الشيخ انه لن يراه . وسافر تنثر، فلما وصل هيت بلغه خبر موت أخيه السلطان ، فرجع (٢) . وكان الشيخ الشيرازي يدعو على أحد مخالفيه ويقول : " كم ارميه ولا تقع الرمية به ، فلما كان في الليلة التي هلك ذلك المخالد فيها ، قال ابو الفرج لبعذر اصحابه : قد أصبحت فلانا وقد هلك . ففوّخت الليلة ، فلما كان بعد بضعة عشر يوما ورد الخبر بوفاة ذلك الرجل الذي اخبر ابو الفرج بهلاكه " (٣)

ونسب الى الشيخ عبد الله بن محمد المؤيدى الشافعي انه رأى في المنام ، في منتصف محرم سنة ٤٦٨ هـ ، الشيخ ابا أسحاق الشيرازي (ت ٤٧٦ هـ)، كبير الفقهاء الشافعية في عصره ، رآه يطير في السماء الثالثة أو الرابعة ، وأن ملكا اعترضهم

(١) ابن عساكر، ج ٢ ، ص ٢٩٩ - ٣٠٢ .

(٢) ابن ابي يعلى ، ج ٢ ، ص ٢٤٨ - ٢٤٩ ، ابن رجب ، مجلدا ، ص ٨٨ .

(٣) ابن رجب ، مجلد ١٤ ، ص ٨٨ .

وأقرأ الشيخ أبا اسحق السلام من الله ، وبلغه سؤاله : "ماذا تدرس لأصحابك ؟
 فقال الشيخ : ادرس ما نقل عن صاحب الشرع . فقال له الملك : فاقرا علي
 شيئا من ذلك لأسمعه . فقرأ عليه الشيخ مسألة لا أذكرها ، فاستمع له وانصرف .
 وأخذ الشيخ يطير وأصحابه معه ، فرجع الملك بعد ساعة ، وقال للشيخ : ان الله
 تعالى يقول : الحق ما انت عليه واصحابك ، فادخل الجنة معهم" . (١)
 ومن الجائز ان يكون الشيخ المؤيدى قد حلم ، ورأى في المنام ما وصفه ،
 بيد اننا لا نقصد تصديق او تكذيب حدوث الرؤيا ، بل الذى نقصده هو بيان
 ما تدل عليه القصة من عقلية خرافية ، ذلك ان الشيخ المؤيدى وجماعته صدقوا
 هذه القصة ، ونشروها على أساس انها تدعم مذهبهم ، ما دام الله سبحانه
 وتعالى قد قال للشيخ الشيرازى ان الحق ما هو عليه ، اى مذهب الشافعي .
 ومن قبيل ذلك ما ذكره ابن الجوزى من خوارق نسبها الى الزاهد اردشير
 بن منصور العبادى ، احدها ان شخصا خاطئا جاء الى الشيخ ليعلن توبته ، فقال
 له الشيخ : "قف مكانك ليعسل ما المطر ، فوقف ، فوقع المطر . . . (٢) ولم تكن
 هناك غيوم او بواذر مظر (٣) .

وهناك روايات متعددة عن خوارق منسوبة للشيخ ابي الحسين بن ابي عبد
 الله الصوفي المقدسي ، الذى كان مقبلا بالشام أيام نور الدين محمود ، منها ان
 الشيخ كان مسافرا يوما مع صديق له ، وكان الوقت صيفا والحر شديدا . فدعسا
 الشيخ رفيقه الى ان يقوما بزمن مقناة ، فاجابه ، وبدأ رفيقه بحفر وهو يزرع . وبعد
 ان فرغا استراحا قدر ساعة تحت شجرة بعيدة عن المكان الذى زرعا فيه . ثم
 أمر الشيخ رفيقه بالذهاب الى المقناة التى زرعاها ليحضر لها بطيخا ، فذهب ولم
 يجد شيئا . فقام الشيخ وأخذاه الى ذلك المكان فاذا هو ارض خضراء تموج بالبطيخ .
 فأكل حتى شبعوا وملا خرجيهما ، واكلا سفرتهم الى وجهتهما (٤) .

(١) السبكي ، مجلد ٤ ، ص ٢٢٧ — ٢٢٨

(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٧٥ — ٧٦

(٣) المصدر نفسه ، والصفحة ذاتها .

(٤) ابن العديم ، بغية الطلب ، مجلد ٨ ، ورقة ٧٠ ق .

ونقل عن الشيخ الصوفي احمد الرفاعي المتوفى عام ٥٧٠ هـ والذي نشر طريقته بين اهل البطائح ، جنوبي العراق ، نقل عنه انه كان يعظ وهو واقف على شبي مرتفع ، والناس محتشدون امامه . وربما خطا في الهواء بضع خطوات فوق رؤوس الناس ثم عاد الى موضعه (١) . وامثال هذه الخرافات تملأ بطون الكتب ، وتغني نفس القارى بكثرتها (٢) .

وجاءت حملة ابي حامد الغزالي ضد العقل ، ودعوته الناس الى الايمان بالكشف وأنه وحده الطريق الصحيح الى المعرفة الحققة ، وتقسيمة العلم الى علم الظاهر المستند الى ظاهر النصور الدينية وعلم الباطن الذى يأتي عن طريق الكشف ، جاءت سنداً قويا للاتجاهات الغيبية المسرفة (٣) . ومن العجيب ان يؤكد الغزالي ان علوم الباطن ، او علوم المكاشفة ، التي هي " مقصد الطالبين ومطمح نظر الصيديقين " (٤) - حسب رأيه - غير مرخص بايداعها الكتب ، " ولا متحدث بها من انعم الله عليه بشي منها الا مع اهله ، وهو المشارك فيه ، على سبيل المذاكرة ، وبطريق الاسرار " (٥) .

ويتصل بهذه الافات التي زادت في جمود العقل العربي ان المعاصرين آمنوا بالتنجيم واعتقدوا صحة اقوال المنجمين . ومن مظاهر ذلك ما يلاحظه القارى لتاريخ ابن القلانسر، المتوفى ٥٥٥ هـ من حرص المؤلف على ان يذكر " الطالع " عند ذكره ابتداء السنين التي تحدث فيها احداث يعتبرها هامة (٦) .

ومن امثلة تأثر الناس ، عامتهم وخاصتهم ، بالتنجيم ان المنجمين اکتروا الحديث عن طوفان شامل سيحيق بالعالم سنة ٤٨١ هـ . فأمر الخليفة باحضار ابن عيشون ، ويبدو انه كان من مشاهير المنجمين ، فقال ابن عيشون : انه عندما حدث " طوفان

(٤) الشعراني ، ج ١ ، ص ٨٠٨ .

(٢) ابن ابي يعلى ، ج ٢ ، ص ٢٢٠-٢٢١ ، ابن العديم ، بغية الطلب ، مجلد ٨ ، ورقة ٦٧ ق - ٦٩ ق ، ابن رجب ، مجلد ١ ، ص ١١ و ٣٨ و ٥٠-٥١ و ١٣٥ - ١٣٦ .

(٣) الغزالي ، المنقذ ، ص ٧٩ ، والاحياء ، ج ١ ، ص ١٨-١٩ .

(٤) الغزالي ، الاحياء ، ج ١ ، ص ٤ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ١٩ .

(٦) انظر ابن القلانسر ، ص ٢٥٧ و ٢٩٧ و ٣١٩ و ٣٢٦ و ٣٣١ و ٣٣٣ و ٣٣٧ و ٣٥٠ .

نحس اجتماع في برج الحوت الطوالح السبعة والآن فقد اجتمع في برج الحوت من الطوالح ستة وزحل لم يجتمع معهم ، فلو كان معهم كان طوفان نحس . ولكن اقول : ان مدينة او بقعة من البقاع يجتمع فيها (١) عالم من بلاد كثيرة فيغرقون . . . (٢) فتوقع الناس ان تفرق بغداد ، وأمر الخليفة بالاستعداد لمواجهة فيضان احتمال فيضان دجلة ، وبحراسة المواضع التي يخشى ان تنبثق منها المياه (٣) . ويذكر ياقوت ان البديع الاسطرلابي (ت ٥٣٤ هـ) "عمل الطلاسم ورصد لها ما يوافقها من الاوقات السعيدة ، وحملها الى الملوك والامراء والوزراء ، فجربوها فصحت وحصل له منها ٠٠٠ اموال جمعة ٠٠٠" (٤)

ومن ناحية اخرى فقد أخذ الجمود بخناق الفقهاء والعلماء في ذلك العصر حتى لم يعد مجال لحركة الفكر او تقدمه . وقد ذكر عن امام الحرمين ، وهو من ابرز فقهاء الشافعية في العصر السلجوقي ، روى عنه انه تراجع عن تعاطي الكلام . وقد نسب اليه : "وكت اهرب في سالف الدهر من التقليد ، والآن فقد رجعت عن الكل الى كلمة الحق ، عليكم بدين العجائز ، فان لم يدركني الحق بلطف بره والا فالويل لابن الجويني" (٥) وسئل الفقيه منصور بن محمد السمعاني (ت ٤٨٩ هـ) عن اخبار الصفات ، اى صفات الله ، فأجاب : "عليكم بدين العجائز" (٦) ولم يقتصر الجمود على الفقهاء والمفكرين الدينيين ، بل ان روح التقليد طغت على الانتاج الادبي كذلك . وبعد ان كانت المحسنات البديعية زينة مقبولة فسي انتاج كتاب الفترة السابقة لعصر السلاجقة اصبحت هذه الزينة تتكلف لذاتها

(١) في الاصل "فيه" .

(٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ١ ، ص ١٧ .

(٣) المصدر نفسه ، والصفحة ذاتها .

(٤) ياقوت ، معجم الادباء ، مجلد ١٩ ، ص ٢٧٤ .

(٥) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ١ ، ص ١٩ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ١٠٢ .

لتستر تبلد الازهان^(١). فمقامات الحريري ، مثلاً ، التي اعتبرت اعظم انتاج ادبي في العصر السلجوقي ، كانت تقليدا صريحا لمقامات بديع الزمان الهمذاني ، ليس في شكلها الادبي فحسب ، بل وفي شخصيات الروايين ، فابو الفتح الاسكندراني عند الهمذاني يمثل ابو زيد السروجي عند الحريري^(٢). وقد اتسمت هذه الفترة بضخامة انتاجها الادبي وتدني مستواه من لحيت النوع^(٣)

ومن اسوأ السمات التي اتسمت بها الحياة العقلية في العصر السلجوقي الانقسامات المذهبية ، وتعدد الفرق الدينية ، تلك الانقسامات التي زاد من شرورها ما صاحبها من تعصب مفرط ، وضيق افق قائل ، وحقد على المخالفين يعمي البصر والبصيرة . وقد ادت هذه الحال الى اجتهاد كل فريق في محاولات للقضاء على الخصوم بما نيسو من وسائل .

اهتمامات المفكرين :

كان الفقهاء هم اهل العلم والفكر ، وقد نتج عن هذه الحقيقة ان العلوم الدينية هي التي حظيت بأكبر عناية . والواقع اننا لا نجد أثرا لاهتمام العلماء بالمشاكل الحياتية التي عانى منها الناس ، وهي مشاكل في غاية الخطورة على الكيان العام ، جعلته فريسة لامراض مزمنة لا نهاية لها ، في مختلف جوانب الحياة . وبدلاً من ذلك شغل اكثر الفقهاء انفسهم بأمور عقيمة لا يفهمها عامة الناس ولا يهتمون بها اهتماماً ذاتياً ، وانما تعيش في ادمغة الفقهاء .

وقد احتدمت الخلافات بين فقهاء المذاهب السنية الفسهم ، وبينهم وبين اتباع الفرق الشيعية . ويبدو انه كان هناك شمة دعوات فكرية مناهضة للمعتقدات الدينية بصفة عامة . وكانت اهم المشاكل التي انشغل بها المفكرون :

(1) H.A.R. Gibb, Arabic Literature; an introduction (London: Oxford University Press, 1926), PP. 83-84

(2) Ibid., PP. 87 and 89

(3) Ibid., P. 83 ، وانظر جرجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية

١ - صفات الذات الالهية ومكانها (١)
ب - هل يرى الانسان الله في الآخرة؟ (٢)
ج - هل الانسان يتصرف بحرية ام ان الله يسيره ، والى أى حد؟ (٣)
د - هل القرآن مخلوق ام هو كلام الله؟ (٤)
تلك هي اهم المشكلات التي اختلف حولها فقهاء اهل السنة فيما بينهم .
وقد شهدت بغداد صراعا داميا مدمرا ، كاد يكون مستمرا ، بين السنة والشيعة
الامامية ، وكان الخلاف يدور حول عدد من المشاكل الرئيسية ، مع وجود خلافات
في بعض تفاصيل الشعائر الدينية وما يشاكلها . واهم ما تردده المصادر من مشاكل
الخلاف :

١ - مشكلة الامامة ، وقول الشيعة " بامامة علي رضي الله عنه بعد النبي عليه
السلام ، نضا طاهرا ، وتعيينا صادقا " . . . (٥) لان الامامة اهم افور الدين
ولا يجوز ان يرحل النبي دون ان يقرر امرها ويحسم اسباب الخلاف فيها (٦) .
وقد أضاف الشيعة ان الامامة انتقلت في ابناء علي من بعده (٧) .
ب - مشكلة المفاضلة بين الصحابة ، فقد اعتبر الشيعة محمدا وعليا خير البشر (٨) ،
كما اعتبروا أبا بكر وعمر وعثمان مفتصبين للخلافة (٩) ، هذا بينما رتب

(١) ابو حامد الغزالي ، فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة ، تحقيق سليمان دنيا (القاهرة ،

دار احياء الكتب العربية ، ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م) ، ص ١٧٥ .

(٢) المصدر والصفحة ذاتهما .

(٣) ياقوت ، معجم الادباء ، مجلد ١٥ ، ص ٢٦١ ، ومجلد ١٨ ، ص ٢٥٧ ، السبكي ، مجلد ٤ ،

ص ٢٦١ - ٢٦٢ .

(٤) الدليل هنا استنتاجي ، أخذناه من تأكيد كثيرين من الفقهاء السنيين على ان القران كلام الله

ليس مخلوقا . انظر ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ١٩٢ ، السبكي ، مجلد ٤ ،

ص ٢٨٦ - ٢٨٩ . والمشكلة قديمة ظهرت بصورة عنيفة أيام المأمور واستمرت أيام المعتصم
والواثق ، وقد أيد كل من هؤلاء الخلفاء المعتزلة في قولهم بخلق القرآن .

(٥) ابو الفتح عبد الكريم بن ابي بكر احمد الشهرستاني ، الملل والنحل ، تحقيق عبد العزيز

الوكيل (القاهرة ، مؤسسة الحلبي وشركاه ، ١٩٦٨ م) ج ١ ، ص ١٦٢

(٦) المصدر والصفحة ذاتهما .

(٧) المصدر نفسه ، ص ١٤٦ .

(٨) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ص ١٧٢ .

(٩) الشهرستاني ، ج ١ ، ص ١٤٦ و ١٤٥ .

اهل السنة الخلفاء الراشدين من حيث الافضلية على النحو الذى تولوا به الخلافة^(١) .
وهناك مواضع أخرى أكثر اغراقاً في الشكلية اختلف حولها الفريقان ، مثل اضافة
الشيعة لعبارة : "حي على خير العمل" الى الاذان ، مقابل العبارة التي يستعملها
اهل السنة : "الصلاة خير من النوم"^(٢) ومواضع أخرى فقهية لا نرى ضرورة لاستقصائها ،
مثل اعتقاد الشيعة بعدم جواز السجود على ما ليس بأرض ولا نبات ، وأن الزواج من
الكتابيات حرام ، وأن الطلاق المعلق على شرط لا يقع وان وقع شرطه ، وأمثال ذلك^(٣) .
أما الخلافات بين اهل السنة من ناحية والشيعة الاسماعيلية ، أو الباطنية ، من
ناحية أخرى ، فقد كانت أعمق من ذلك وأوسع . وقد تناول الغزالي حركة الاسماعيلية
بالبحث في كتاب مستقل ، فذهب الى ان حركتهم كانت ثمرة مؤامرة واسعة دبرها
"المجوس والمزدكية ، وشرذمة من التنوية الملحدين ، وطائفة كبيرة من ملحدة الفلاسفة
المتقدمين . . ."^(٤) ويتحدث الغزالي عن حركة الاسماعيلية فيجعلها استمراراً لهذه
المؤامرة القديمة ، ويعد من توراتها وتحركاتها ثورة بابن الحزبي ، الذى ظهر ايسام
المعتصم^(٥) . ولسنا نستطيع متابعة ابي حامد فيما ذهب اليه ، فالغزالي سني متحمس ،
يهاجم الاسماعيلية بعنف ، لذلك فقد يسيء تمثيل آرائهم . ومهما كانت تزاوته فليس
بإمكان الباحث الأخذ بأحكامه على خصومه . هذا فضلاً عن ان الغزالي الذى كتابه
للخليفة العباسي المستظهر ، بتكليف منه^(٦) ، كجزء من جهود اهل السنة لجلبهم
التحدى الفاطمي الاسماعيلي ، ومحاولة دحره والقضاء عليه . وهناك ناحية أخرى ، وهي

(١) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ط ١٩٢ ، السبكي ، مجلد ٤ ، ص ٢٨٦ - ٢٨٩ .

(٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ص ١٧٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٢٠ - ١٢٦ . وقد نسب هذه الأقوال الى الشريف المرتضى ،
زعيم الشيعة .

(٤) ابو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، تحقيق عبد الرحمن بدوي (القاهرة : الدار
القومية للطباعة والنشر ، ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٤ م) ، ص ١٨ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ١٤ - ١٥ .

(٦) الغزالي ، فضائح ، ص ٣ .

ان الغزالي لا يناقش مبادئ الاسماعيلية كما كانت تعترض في العهد السلجوقي فحسب، بل يعتبر كثيرا من الحركات، التي قامت في عهود متعددة سابقة، نسيجا واحدا وحركة متسلسلة مستمرة^(١)، ويناقشها على هذا الاساس. ومع اننا لسنا في موقف يسمح لنا برد هذا الرأي، الا ان كاتب هذه السطور لا يميل الى قبول فكرة الوحدة والاستمرارية في الحركات الشيعية المتطرفة.

ويمكن ان نستنتج من اشارة مقتضبة اوردها الغزالي ان آراء الاسماعيلية في العصر السلجوقي اختلفت عن آرائهم في العصور السابقة، فهو يقول ان لقب التعليمية "هو الاليق بباطنية هذا العصر، فان تعويلهم الاكثر على الدعوة الى التعليم وابطال الرأي وايجاب اتباع الامام المعصوم، وتنزيله - في وجوب التصديق والاقتداء به - منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم".^(٢)

ويتحدث الشهرستاني عن التطور الذي طرأ على الدعوة الاسماعيلية في العصر السلجوقي بقوله: "تم ان اصحاب الدعوة الجديدة تنكبوا هذه الطريقة^(٣) حين اظهر الحسن بن محمد بن الصباح دعوته، وقصر على الالتزام كلمته، واستظهر بالرجال وتحصن بالقلع".

وكان بدء صعوده الى قلعة الموت في شهر شعبان سنة ثلاث وثمانين واربعمائة، وذلك بعد ان هاجر الى بلاد امامه، وتلقى منه كيفية الدعوى لابناء زمانه، فعاد ودعا الناس اول دعوة الى تعيين امام صادق قائم في كل زمان. وتتميز الفرقة الناجية عن سائر الفرق بهذه النكته، وهي ان لهم اماما وليس لغيرهم امام".^(٤) ويضيف الشهرستاني ان ابن الصباح حمل اصحابه على الاقتصار في مناقشتهم لمناوئهم على

(١) المصدر نفسه، ص ١١ - ٢٠ -

(٢) المصدر نفسه، ص ١٢ -

(٣) اي طريقته القديمة في الدعوة.

(٤) الشهرستاني، ج ١، ص ١٩٥ -

نقاط قليلة محددة ، وقد منع العوام عن الخوض في العلوم ، وكذلك الخواص عن مطالعة الكتب المتقدمة الا من عرف كيفية الحال في كل كتاب ودرجة الرجال في كل علم .

ولم يتعد باصحابه في الالهيات عن قوله ان الهنا اله محمد . . . فان قيل لواحد منهم . ما تقول في الباوى تعالى ؟ . . . لم يجب الا بهذا القدر ، ان الهى اله محمد ، و (هو الذى ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) (١) ، (٢)

ويضيف الشهرستاني انه ناظر القوم كثيرا على مقدماتهم ، اى القائلة انه لا بد من معلم ، ولا بد ان يكون معصوما ، ومعينا ، فلم يزدوا في ردهم على مناقضاته عن قولهم : "أفحتاج اليك ؟ أو نسمع هذا منك ؟ أو نتعلم عنك ؟" (٣) . وفي ضوء هذا الذى نقلناه عن الغزالي والشهرستاني كليهما ارى ان حركة الاسماعيلية العاملة في اراضي السلطنة السلجوقية كانت أداة من أدوات الخلافة الفاطمية ، تستعملها لتحطيم الخلافة السنية تمهيدا لأن ترتها في كل ارجاء العالم الاسلامي ، اكثر مما كانت دعوة ترمي الى نشر عقيدة معينة . ولعل كثرة عمليات الاغتيال التي قام بها الباطنية ضد الحكام السنيين في السلطنة السلجوقية تعضد هذا الرأى ، ذلك ان عمليات الاغتيال ليست أداة الدعوة ونشر الفكرة ، وانما هي أداة تدمير القوة القائمة تمهيدا لازاحتها .

والظاهر ان ثمة حركات الحادية كانت ناشطة قبل العهد السلجوقي وفي اثنائه . فقد اورد ابن الجوزى نهن رسالة بعث بها السلطان محمود الغزنوى الى الخليفة القادر سنة ٤٢٠ هـ ، تشير الى حملة قام بها محمود ضد الجماعات المنحرفة عن

(١) سورة التوبة ، ٣٣

(٢) الشهرستاني ، ج ١ ، ص ١١٢ .

(٣) المصدر نفسه ، والصفحة ذاتها .

الدين . ورغم ان الرسالة تصف المعتزلة والرافضة والباطنية بأنهم أهل الإلحاد، الا انها تشير الى جماعات "يهدون جميع الملل مخاريق الحكماء، ويعتقدون مذاهب الاباحة في الاموال والفروج والدماء" (١) . وتذكر الرسالة ان زعيمهم المدعو رستم بن علي جمع بين خمسين زوجة في عصمته في وقت واحد (٢) .

بيد ان هناك رواية تؤكد وجود هذا النشاط الالحادي بشكل أوضح ، فقد روى عن ابي الوفاء بن عقيل ، كبير الحنابلة في بغداد ، انه بلغه ان الباطنية افسدوا عقيدة السلطان ملكشاه بن الب ارسلان ، حتى صار يقول : " ايش هو الله ؟ والى ما تشيرون بقولكم ، الله ؟ " وأضاف ابن عقيل انه عمل على رد السلطان الى حياض العقيدة ، فكتب له ما خلاصته ان الملحدين ينكرون كل ما لا تدركه الحواس فسي حين ان الانسان يدرك ان ما يقوم به البشر من انجازات في حقول الطب والهندسة وغيرهما انما مرده الى الروح والعقل ، وهما حقيقتان لا تدركان بالحواس ، بل بالاستدلال عليهما عن طريق أثرهما . فكذا يستدل على الله من آثار صنعه في " الرياح والنجوم وادارة الافلاك وانبات الزرع وتقليب الازمنة " (٣) فعاد السلطان الى الايمان بالله (٤) .

والواقع ان العلاقات بين أهل السنة كانت تدور حول امور شكلية ، وعندما يقارن الباحث بين اقوال الحنابلة الذين كانوا يوضعون بانهم مجسمة (٥) ، واقوال الشوافقة الذين ناصروا مذهب الاشعري لا يكاد يحسر فرقا يذكر ، حتى من ناحية الشكل . ولدينا وصية لفقير من كبار فقهاء الشافعية ، هو اسماعيل الصابوني (ت ٤٩٩ هـ) نستطيع ان نتبين منها رأى جماعته ، فهو يأمر اولاده باتباع الكتاب والسنة ، وما كان عليه الائمة (٦) . وهو " يشهد ان الله سبحانه وتعالى قدر الخير

(١) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ص ٣٨-٣٩ .

(٢) المصدر والصفحة ذاتهما .

(٣) المصدر نفسه ، مجلد ٩ ، ص ٧٣-٧٤ ، ابن رجب ، مجلد ١ ، ص ١٨٠ .

(٤) المصدران والصفحات ذاتهما .

(٥) انظر ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٥٨ ، ابن رجب ، مجلد ١ ، ص ٢٠٩ .

(٦) السبكي ، مجلد ٤ ، ص ٢٩٠ .

وأمر به ورضيه وأحبه وأراد كونه من فاعله ٠٠٠ وقدر الشر وزجر عنه ولم يرعه ولم يحبه ، وأراد كونه من مرتكبه غير راض به ولا محب له ٠٠٠ ويشهد ان القرآن كتاب الله وكلامه ، ووحيه وتنزيله ، غير مخلوق ، وهو الذى فى الصاحف مكتوب ٠٠٠ ويشهد ان الله مستوعلى عرشه ، استوى عليه كما بينه فى كتابه ٠٠٠ من غير ان يكتف استواءه عليه ٠٠٠ اذا الكيفية على صفات ربنا منفية ٠٠٠ ويشهد ان الله تعالى موصوف بصفات العلى التى وصف بها نفسه فى كتابه ٠٠٠ لا ينفى شيئا منها ولا يعتقد شبهها له بصفات خلقه ٠٠٠ ويسلك فى الآيات التى وردت فى ذكر صفات البارى ٠٠٠ والاخبار التى صحت عن رسول الله ٠٠٠ فى بابها ، كآيات مجي الرب يوم القيامة ، واتيان الله فى ظلل من الغمام ، وخلق آدم بيده ٠٠٠ وغيرها مسلك السلف الصالح ٠٠٠ من قبولها وروايتها على وجهها بعد صحة سندها ، وإيرادها على ظاهرها ٠٠٠ واتقاء اعتقاد التكيف والتشبيه فيها ، واجتناب ما يؤدى الى القول بردها وترك قبولها ، او تحريفها بتأويل مستنكر ٠٠٠ وينهى فى الجملة عن الخوض فى الكلام والتعمق فيه والاشتغال بماكره السلف ٠٠٠ ويشهد ان خير الناس بعد رسول الله ٠٠٠ ابو بكر ٠٠٠ ثم عمر ٠٠٠ ثم عثمان ٠٠٠ ثم علي ٠٠٠ ويترحم على جميع الصحابة ويتولاهم ٠٠٠ ويوصى الى من يخلفه من ولد وأخ وأهل وقريب وصديق وجميع من يقبل وصيته من المسلمين عامة ان يشهدوا بجميع ما شهد به ٠٠٠ (١)

ويحدد ابن ابي يعلى الغراء عقيدة الحنابلة نقلا عن والده الذى كان كبير فقهاء الحنابلة فى عصره (ت ٤٥٨ هـ) على هذا النحو :

” ٠٠٠ الايمان والتصديق بما وصف الله تعالى به نفسه ووصفه به رسوله ، مع ترك البحث والتفكير ، والتسليم لذلك ، من غير تعطيل ولا تشبيه ولا تفسير ولا تأويل ٠٠٠ فاعتقد الوالد السعيد وسلفه ٠٠٠ فى جميع ما وصف الله تعالى به نفسه ، او وصفه به رسوله ٠٠٠ ان جميع ذلك صفات الله عز وجل ، تمر كما

(١) المصدر نفسه ، ص ٣٨٦ — ٢٨٩ . لقد اخترنا وصية الصابوني لانها جامعة ، ولكن ليس معنى ذلك اننا اعتمدنا على شاهد واحد ، ان كثيرا ما ترد نقطة وأخرى من هذه النقاط كراى يتبناه الشوافعة .

جاءت من غير زيادة ولا نقصان . . . فهم بها مؤمنون . . . ومعرفة كيفيتها جاهلون .
لا يجوز عندهم ردها كرد الجهمية ، ولا حملها على التشبيه ، كما حملته المشبهة ،
الذين اثبتوا الكيفية ، ولا تأولوها على اللغات والمجازات ، كما تأولتها الاشعرية . . .
(١) ويمضي ابن ابي يعلى في تصوير آراء الحنابلة : "فأما الرد على المجسمة
لله : فيرده الوالد السعيد بكتاب ، وذكره ايضا في اثناء كتبه فقال : لا يجوز ان
يسمى الله جسما . . . فمن اعتقد ان الله سبحانه جسم من الاجسام واعطاه حقيقة
الجسم من التأليف والانتقال فهو كافر" . (٢)

فهذا الحنبلي يحاول ان ينفي عن الحنابلة تهمة التشبيه والتجسيم ، بل ويتحدث
عن المشبهة والمجسمة وكأنهم جماعات أخرى مناوئة ، ولكننا نجد عند مصدر حنبلي
آخر ان الحنابلة انفسهم هم المتهمون بالتشبيه والتجسيم ، ذلك انه عندما جاء
نظام الملك الى بغداد سنة ٤٨٤ هـ طلب ان يجتمع بفقهاء الحنابلة ليسألهم
عن مذهبهم ، فقد قيل لي انهم مجسمة . (٣) وفكر ابو الوفاء بن عقيل ، كبير الحنابلة ،
في الامر واستعد للامتحان على النحو التالي :

١ - سؤال المخالفين عن احمد وعما اذا كان ثقة في اخبار رسول الله والعلم
بالشريعة .

٢ - فان اقرؤا "فنحن على مذهب ذلك الرجل الذي أجمعوا على تعديله . . .
وان قالوا احمد ما شبه وانتم شبهتم ، قلنا الشافعي لم يكن أشعرياً
وانتم اشعرية ، فان كان مكذوباً عليكم فقد كذب علينا" . (٤)

ولكن يبدو انه كان هناك متطرفون من الجانبين ، اذ ينقل ابن رجب الحنبلي
عن فقيه حنبلي عاير في العصر السلجوقي هو ابو الحسن بن الفاعور كان يقول :

(١) ابن ابي يعلى ، ج ٢ ، ص ٢٠٩

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢١٢ .

(٣) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩٠ ، ص ٥٨ .

(٤) المصدر والصفحة ذاتهما .

”الحجر الاسود يمين الله حقيقة“ (١) وقد علق ابن رجب على ذلك بقوله —
انه ان صح هذا القول عن ابن الفاعوس فمردء الى أن طائفة من أصحابنا وغيرهم
نفوا وقوع المجاز في القرآن“ (٢)

وقد ناقش الغزالي اتهامات هذه الفرق والمذاهب بعضها للبعض الآخر ، وبين
انها غلوا مبرر له ، واظهر ان اشد الناس عداء لتأويل النصوص عن ظاهرها ، وهم الحنابلة
اضطروا للتأويل ، اذ ان احمد بن حنبل أول الحديث المنسوب الى النبي ؟ ”الحجر
الاسود يمين الله في الارض“ (٣) وحديث آخر : ”قلب المؤمن بين اصبعين من أصابع
الرحمن“ (٤) وحديث ثالث : ”اني لاجد نفس الرحمن من قبل اليمن“ (٥) وقد عزا
الغزالي اكتفاء احمد بتأويل هذه الاحاديث الثلاثة دون غيرها الى انه ، أى ابن حنبل ،
”لم يكن معناه في النظر العقلي “ ولو امكن لظهر ذلك في الاختصاص بجهة فوق وغيره“ (٦)
وذهب الغزالي الى ابعاد من ذلك بتحديد اصول الايمان بأنها ثلاثة : ”الايمان
بالله ، وبرسوله ، وباليوم الآخر“ وما عداه فروع ، واعلم انه لا تغير في الفروع أصلا ، الا
في مسألة واحدة ، وهي ان ينكر أصلا دينيا علم من الرسول بطريق التواتر“ (٧) ثم
يتناول الغزالي قضية الشيعة الامامية ويبين ”ان الخطأ في أصل الامامة وتعيينها وشروطها
وما يتعلق به لا يوجب شي“ منه تقيرا“ (٨)

وهكذا نتبين ان ما استند اهتمامات المفكرين واستهلك جهودهم وطاقاتهم لم
يكن له الاهمية التي اعطيت له ، ولم يكن يستحق ان تثار من اجله كل تلك

(١) ابن رجب ، مجلد ١ ، ص ٢٠٩ .

(٢) المصدر والصفحة ذاتهما .

(٣) الغزالي ، فيصل التفرقة ، ص ١٨٤ .

(٤) المصدر والصفحة ذاتهما .

(٥) المصدر والصفحة ذاتهما .

(٦) المصدر نفسه ، ص ١٨٥ ، وانظر الصفحات ١٧٥ — ١٩٥ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ١٩٥ .

(٨) المصدر والصفحة ذاتهما .

الاحن ، وتهدر كل تلك الدماء ، ويحدث كل ذلك التمزق في الكيان الاجتماعي .
وهذا الحكم ليس من وجهة نظرنا ، أهل القرن العشرين (او القرن الرابع عشر
الهجري) ، بل من وجهة نظر الغزالي اكبر رجال الدين في ذلك العصر .
الحركة العلمية :

من الطبيعي ان تسيطر العلوم الدينية على الحركة العلمية ما دامت النظرة
الاساسية التي استندت اليها الحياة العقلية هي النظرة الدينية . بيد ان الاهتمام
بعلوم اللغة والادب لم يكن قليلا ، ان لاقى هذان الفرعان من فروع النشاط العقلي
قدرا طيبا من العناية . وبجانب ذلك فقد حظيت كتابه التاريخ وسير الرجال باهتمام
عدد كبير من المصنفين . كذلك فقد نالت فروع اخرى من فروع المعرفة حظا من
العناية ، رغم قلته ، ومن هذه الفروع : الطب والعلوم الرياضية والفلك ، الذي كان
مرتبطا بالتنجيم ، وغير ذلك مما سيبر معنا بعد قليل .

انقسمت العلوم الدينية الى عدد كبير من الفروع ، كال تفسير ، والحديث ، والفقه ،
والفرائض ، اى الموارث ، والاقراء ، اى اقراء القرآن وعلومه ، والمناظرة ، والاصول
والفروع والخلاف . وقد تخصص في حقول هذه المواضيع عدد كبير من الناس ، كما
وجد — في كثير من الاحيان — علماء شاركوا في عدد كبير من التخصصات ، مثل ابي
الوفاء بن عقيل (ت ٥١٣ هـ) الذي كان فقيها مقرئا اصوليا متكلميا واعظا ومتصوفا (١)
ومثل عبد الوهاب بن عبد الواحد الشيرازي الدمشقي (ت ٥٣٦ هـ) ، الذي كان فقيها
واعظا مفسرا محدثا (٢) ، ومثل ابي علي بن البناء ، الذي كان مقرئا محدثا فقيها
واعظا اصوليا فرائضيا مفتيا مدرسا وأديبا (٣) .

وقد جمع الكثيرون بين العلوم الدينية والعلوم او الفنون الادبية ، مثل الفقيه
الاصولي النحوي الاديب الشاعر الحسن بن صافي البغدادى (ت ٥٦٨ هـ) ، (٤)

(١) ابن رجب ، مجلد ١ ، ص ١٧١ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٣٧ .

(٣) ابن ابي يعلى ، ج ٢ ، ص ٢٤٣ ، ياقوت ، معجم الادباء ، مجلد ٧ ، ص ٢٦٥ .

القفطي ، انباء الرواة ، مجلد ١ ، ص ٢٧٦ .

(٤) ابن عساكر ، ج ٤ ، ص ١٦٦ — ١٧٠ ، القفطي ، انباء الرواة ، مجلد ١ ، ص ٣٠٥ .

ابن خلكان ، مجلد ١ ، ص ٣٧ ، الذهبي ، مجلد ١ ، ص ٢٨١ .

وعبد الله بن علي المقرئ (ت ٥٤١ هـ) الذي كان يقرأ بالروايات وتخرج عليه جماعات كثيرة ، وكانت له معرفة بالنحو واللغة ، كما كان شاعرا وامام مسجد (١) ، وعلي بن عبيد الله بن الزاغوني (ت ٥٢٧ هـ) الذي كان فقيها وكانت له حلقة للمناظرة بجامع المنصور ببغداد ، كما كان محدثا واعظا نحويا مؤرخا فرائضيا حاسباً ، وخلف مصنفات كثيرة ، منها اربعة في الفقه وواحد في الفرائض وآخر في الحساب وثلاثة في اصول الدين واصل الفقه ومصنف في الوعظ وآخر في التاريخ وديوان خطب ، بالاضافة الى خمسة كتب في امور متنوعة (٢) . والواقع ان اكثر اهل العلم ، في العصر الذي ندرسه ، كان الواحد منهم يلم باكثر من ناحية من نواحي التخصص . وقد جمع الكثيرون من الأدباء واللغويين بين الادب بفروعه وعلم اخرى ، مثل محمد بن احمد البيوردي ، الذي كان مقرئاً ونسابة ومؤرخا ولغويا واديبا وشاعرا ، كما عمل امينا لدار الكتب التابعة للمدرسة النظامية ببغداد . وقد ترك ثلاثة عشر مصنفا ، أحدها في التاريخ ، وبقيتها في الطبقات والانساب والادب وغير ذلك (٣) . ومثل ابي منصور موهوب بن أحمد الجواليقي البغدادي ، الذي كان اديبا نحويا فلكيا محدثا ، وترك عددا من المصنفات (٤) . ومحمد بن محمد بن مواهب المعروف بابن الخراساني البغدادي النحوي الاديب الشاعر العروضي الكاتب المحدث . وقد ترك مصنفا في العرور ، وتنايف ادبية ، وديوان شعر قيل انه من خمسة عشر مجلدا (٥) . وفي غير مجالات العلوم الدينية واللغوية والادبية لدينا عدد ممن جمعوا بين عدد كبير ومتنوع من الاختصاصات ، كابي المجد محمد بن عبيد الله الباهلي ، الذي تولى أمر مارستان نور الدين محمود بدمشق ، وكان من المشهورين في الصناعة

(١) القفطي ، انباء الرواة ، مجلد ٢ ، ص ١٢٣ .

(٢) ابن رجب ، مجلد ١ ، ص ٢١٦ .

(٣) ياقوت ، معجم الادباء ، مجلد ١٤ ، ص ٢٣٤ .

(٤) السمعاني ، مجلد ٣ ، ص ٣٧٠ ، ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ٤٢٤ .

(٥) ياقوت ، معجم الادباء ، مجلد ١٩ ، ص ٤٦٦ ، القفطي ، انباء الرواة ، مجلد ٣ ، ص ٢١٣ .

الطبية وعلم الهندسة والنجوم والموسيقى ، وكان يلعب بالعود ويجيد الغناء والايقاع والزمير وسائر الآلات ، وقد عمل ارغنا وبالغ في اتقائه ، وكان الاطباء يجلسون بين يديه ويتداولون علومهم تحت اشرافه (١) . وهبه الله بن الحسين بن احمد البغدادي ، الذي كان ادبيا فاضلا شاعرا حكيما عارفا بالطب والرياضة والهيئة والنجوم والرصد والزيج ، متقنا عمل الآلات الفلكية . وقد ترك مصنفات منها اثنان في الفلك والآلات الفلكية ، وثالث جمع فيه ديوان الشاعر ابن الحجاج ورتبه وبوبه ، كما ان له ديوان شعر من نظم (٢) . وامين الدولة هبة الله بن التلميذ ، اوجد زمانه في صناعة الطب ، كان ساعور (رئيس اطباء) البيمارستان العضدي ببغداد حتى وفاته سنة ٥٦٠ هـ . وقد فوض الخليفة اليه رئاسة اطباء ببغداد ، فكان عنده منهم خمسون تلميذا . فضلا عن الطب فقد كان ادبيا شاعرا خطاطا موسيقيا عالما باللغات العربية والفارسية واليونانية والسريانية . وقد ترك عددا كبيرا من المصنفات ، ستة عشر منها في الطب والادوية ، ومصنف في الادب ، فضلا عن شعر كثير (٣) . ولدينا طبيب جمع بين الطب والقضاء ، فقد كان طبيبا في بيمارستان العسكر السلطاني ، المتنقل ، ثم اصبح اقضى القضاة في عصر الخليفة المقتفي (٤) .

انتعاش الحركة العلمية :

شهدت المنطقة العربية في العهد السلجوقي نشاطا علميا واسعا ، ربما كان يضاهي في مقداره ما سبقه في القرنين الرابع والثالث للهجرة . والواقع ان الذي وصل الى ايدينا من الانتاج العلمي لهذا العصر اوسع مما تبقى من انتاج اى من

(١) ابن ابي اصيبعة ، ص ٦٢٨ .

(٢) ياقوت ، معجم الادباء ، مجلد ١٩ ، ص ٢٧٣ ، القفطي ، اخبار العلماء ، ص ٢٢٢ ،

ابن ابي اصيبعة ، ص ٣٢٦ .

(٣) القفطي ، اخبار العلماء ، ص ٢٢٢ - ٢٢٤ ، ابن ابي اصيبعة ، ص ٣٤٩ - ٣٧١ .

(٤) القفطي ، اخبار العلماء ، ص ٢٦٤ .

ذيك القرنين السابقين^(١)، ذلك ان الانتاج الفكري في المنطقة العربية في هذه الفترة تميز بضخامته^(٢). ولقد حاولت، في مطلع قياسي بهذه الدراسة، ان انظم جدولا احصائيا بعدد العلماء وانواع تخصصاتهم، وعدد الكتب وموضوعاتها، بيد انني ما لبثت ان اقتنعت، بعد ان انفقت كثيرا من الوقت والجهد، باستحالة الوصول الى نتيجة تمثل الواقع، ولو بشكل تقريبي، وذلك للأسباب التي شرحتها في مقدمة هذا البحث^(٣). ورغم ذلك، فان الأرقام التي توصلت اليها كانت كبيرة، سواء بالنسبة لعدد العلماء، أو عدد الكتب، أو عدد مجلدات الكتاب الواحد. وثمة مظهر آخر من مظاهر انتعاش الحركة العلمية هو انتشار المدارس العالية في طول ارجاء السلطنة السلجوقية وعرضها، حتى غدا في الامكان ان نسمي ذلك العصر عصر المدارس بحق. ولا جرم ان قيام المدارس على هذا النطاق الواسع هو اهم مفخرة للعصر السلجوقي^(٤).

وهناك عدة عوامل ساعدت على رواج سوق العلم، ابرزها ذلك التشجيع والدعم الذي لقيته الحركة التعليمية. وقد سبق ان اشرنا الى الصراع بين الخلافتين العباسية السنية والفاطمية الشيعية، والمعنا الى حركة الباطنية التي اتخذتها الدولة الفاطمية اداة في هذا الصراع. وربما كانت جهود السلطات السنية في بناء المدارس ونشر التعليم السني قائمة على هذه الدوافع، ووسيلة لمواجهة الدعاية الاسماعيلية الدؤوبة الذكية العنيفة.

وفي مجتمع ديني التفكير كان لحد الدين على غلب العلم ونشره تأثير كبير في تنشيط الحركة العلمية. ولا جرم ان اكثر الفقهاء قد اعتبروا ان ما حث عليه الدين هو العلوم الدينية، بيد اننا نجد الغزالي يوسع الدائرة فيجعل تعلم الطب والحساب ومثيلاتها فوضاء دينية، فهو يقول عندما يحدد من العلم ما هو فرض عين وما هو فرض كفاية، يقول عن النوع الثاني انه "كل علم لا يستغني عنه في قوام

(١) جرجي زيدان، مجلد ٢، ص ٣٥٥. Gibb, P. 83

(٢) انظر ص ١-٣ فيما سبق

(٣) سنتناول موضوع المدارس بعد قليل

امور الدنيا ، كالطب ، ان هو ضرورى في حاجة بقاء الابدان ، وكالحساب ، فانه ضرورى في المعاملات . . . وهذه هي العلوم التي لو خلا البلد عن يقوم بها حرج اهل البلد واذا قام بها واحد كفى ، وسقط الفرض عن الآخرين . فلا يتعجب من قولنا ان الطب والحساب من فروض الكفايات ، فان اصول الصناعات ايضا من فروض الكفايات ، كالزراعة والسياسة والحياكة ، بل الحجامة والخياطة . . . (١) ومن اثر التوجيه الديني نجد ان بعض العلماء كانوا يعلمون العلم دون أجر ، مثل ابي البركات الانماطي ، المحدث العابد الحنبلي ، الذي كان " يقعد طول النهار لمن يطلب العلم ، وكان سهلا في اعارة الاجزاء لا يتوقف ، ولم يكن يأخذ اجرا على العلم ، ويعيب من يفعل ذلك ويقول : علم مجانا كما علّمت مجانا . . . (٢)

ومن ظواهر تقدير بعض العلماء للعلم وللوقت قول ابي الوفاء ابن عقيل : " اني لا يحل لي اني اضيع ساعة من عمري ، حتى اذا تعطل لساني عن مذاكرة ومطالعة ، وبصرى عن مطالعة اعلمت فكرى في حال راحتي ، وانا مستطرح ، فلا انهز الا وقد خطر لي ما اسطره . واني لأجد من حور على العلم وانا في عشر الثمانين اشهد ما كنت اجده وانا ابن عشرين سنة . . . (٣) ومن اقواله في هذا المضمار : انا اقصر بغاية جهدى اوقات اكلتي ، حتى اختار سف الكعك وتحسيه بالماء ، على الخبز ، لأجل ما بينهما من تفاوت المضغ ، توفرنا على مطالعة ، او تعطير فائدة . . . (٤)

ولعل مما يؤكد لنا تقدير المعاصرين للعلم وشغفهم به قول المحدث الفقيه محمد بن أحمد ابن ابي السقر : " هذه كتبي أحب الي من وزنها ذهباً . . . (٥) ومن هذا القبيل ما روى عن الاديب الشاعر الفارسي الامير العربي اسامة بن منقذ انه حين نهب الصليبيون السفن التي استقدم فيها اهله ومناعه من مصر الى الشام ، وهناه نور الدين بوصول الاهل سالمين وعزاء عن المال ، قال : أما الكتب التي نهبت

(١) الغزالي ، الاحياء ، ج ١ ، ص ١٥

(٢) ابن رجب ، مجلد ١ ، ص ٢٤١ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٧٦ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٧٧ .

(٥) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ١ ، ص ٩ .

فكانت " اربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة • فان زهابها حزازه في قلبي ما عشت • (١) "

ولكن اذا كانت الحركة العلمية قد اصاب هذا القدر من الانتعاش من حيث ضخامة انتاجها وسعتها، وما لقيته من عون وتشجيع من جانب الحكام والافراد ، فان على الباحث ان يلاحظ تدني المستوى النوعي لانتاج هذه الفترة (٢) . وقد عزا الاستاذ Gibb هذا التدني الى الحكم السلجوقي ، بل انه جعل السنة التي بدأ فيها هذا الحكم في بغداد ، وهي سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م ، جعلها حدا فاصلا ينتهي عنده ما سماه بـ "العصر الذهبي" ويتبدى ما سماه بـ "العصر الفضي" (٣) . فهو يذهب الى ان الادب العربي اعتمد في ازدهاره على الرعاية التي كان يحظى بها من جانب الحكام ، لذلك فقد كان طبيعيا ان يتأثر بالتقلبات وللمفاجآت التاريخية • وعليه فار تحديد سنة ١٠٥٥ م (٤٤٧ هـ) كنقطة تحول في تاريخ الادب العربي لم يكن تحديدا اعتباطيا ، حسب رأى الاستاذ Gibb ففي ظل اولئك البدو غير المتحضرين انعدم الاستقرار وعت الفوضى ، وتلك حالة لم تكن ملائمة للحفاظ على الادب او أى نوع من انواع الثقافة (٤) . ويمضى الاستاذ Gibb مؤكدا فكرته بأن الامراء الفرس، اى البويهيين ، كانوا يألفون العربية ، وكانت لديهم ملكة التمييز التي تمكنهم من رعاية الادب • اما الاترا - فقد ندر ان كان لهم الملم بالعربية (٥) .

(١) اسامه ، ص ٣٥ .
(٢) Gibb, PP. 83 - 84

(٣) اعتقد ان التطورات الحضارية اعقد من ان نحدد مراحلها بالسنين • وهذا القول ينطبق على الانتاج الادبي باعتباره مظهرا من مظاهر تحضر الانسان • ان المرحلة القديمة تبقى لها بعض آثار في المرحلة التالية لها ، كذلك فان المرحلة القادمة تظهر بعض عناصرها متخفية قبل ان تغرب المرحلة القائمة •

(٤) Gibb , P. 82

(٥) Ibid., PP. 82 - 83

ومع موافقة كاتب هذه السطور للاستاذ Gibb بان الرعاية عامل مهم في ازدهار الادب والثقافة الا اننا لا نعتقد انها العامل الوحيد او الحاسم . ولعل الاستقرار السياسي والاقتصادى ، والحرية الفكرية هي العوامل الاهم في هذا الميدان . واذا كان الادب العربي قد اعتمد في عصر ازدهاره على الرعاية ، الى حد كبير، فانني اعتقد انه لولا الاستقرار والازدهار النسبي في القرنين الاول والثاني لاختلفت النتائج . وقد سبق ان طرحنا فكرة ان الاستقرار والازدهار في الناحيتين السياسية والاقتصادية يهيئ الارض السالحة لبذور الثقافة والادب ، بيد ان نمو الثقافة والادب وتطورهما ابداً حركة من التطورات السياسية . لذلك فقد تتوفر فترة استقرار سياسي واقتصادى تلقى فيها بذور نهضة ثقافية تأخذ في النمو البطيئ ، ثم تحدث تقلبات سياسية تزيد الاستقرار والازدهار ، ولكن اغراس الثقافة تستمر في النمو حتى تنضج رغم الفوضى المحيطة بها ، فاذا نضجت توقف نموها ، ثم اخذت في الضمور والذبول والتجمد ، ولكي يستمر الازدهار الثقافي لا بد من زراعة اغراس ثقافية جديدة ، وهذه لا بد لها من تربة صالحة ، وهي قدر من الاستقرار السياسي والاقتصادى ، فاذا انعدم ذلك انعدم امكان نمو دورة جديدة من اغراس الثقافة ، وبقيت الاشجار القديمة الهزلة تزداد ضموراً وذبولاً وتجمداً ، الى ان تذوى وتندثر (١) . وهذا ، في رأينا ، هو ما حدث بالنسبة للثقافة العربية ، فان الاستقرار السياسي والاقتصادى النسبي في القرنين الاول والثاني للهجرة مهد الارض للغرس فكانت اصول ثمار القرنين الثالث والرابع ترجع الى القرنين الاول والثاني . ولما بلغت دوحة الثقافة ذروة نموها بدأ خط حياتها بتخذ مساراً منحدرًا ، يزداد انخفاضه كلما تقدمت به السنين .

فاذا كان العصر البويهي ارفع مستوى ، من الناحية الحضارية ، من العصر السلجوقي الذى تلاه ، فان علينا ان نلاحظ ان هذا التفوق لم يكن في كل جوانب المنجزات الحضارية ، بل كان في المنجزات العقلية والادبية والفنية . وعندما ان هذه المنجزات الرائعة التي شهدتها العصر البويهي هي ثمار تلك البذور والاغراس التي بدأ نموها في عصر الاستقرار في القرنين الاول والثاني للهجرة ، هذا مع علم انكارنا انه كان للرعاية بعض الاثر . ولنضرب مثلاً بحركة الترجمة والنقل والاقتباس التي بدأت في القرن الاول واحتاجت فترة طويلة حتى تهضم وتمثل ، ثم تلد او تثمر ثماراً عريضة الطابع في القرنين الثالث والرابع . وعندما انتهى العهد البويهي نضب معين هذه الثمار ، ولم تكن فوضى القرنين الثالث والرابع قد هيأت الفرصة لاغراس وبذور جديدة

لثمر في القرنين الخامس والسادس . لذلك تدنى مستوى انجازات العصر السلجوقي .
ومن ناحية الادب واللغة والمنجزات العقلية خاصة يمكن ان يضاف سبب آخر وهو
استمرار تدفق العناصر الاعجمية غير المتحضرة . وسنعود لشرح هذه النقطة بعد
قليل .

اما في الجوانب المتعلقة بتماسك الامة وشعورها بوحدتها وتعاون افرادها —
وقطاعاتها في سبيل تحقيق الخير العام ، وولاء الأفراد للجماعة ، وتوفر قدر من الحرية ،
وانتظام الاجهزة الحكومية ، وتوفر الامن للرعية ، في كل هذه الجوانب ، نجد ان العصر
البويهى لم يكن احسن حالا من العصر السلجوقي . وهذه كلها جوانب حضارية هامة ،
بل هي الاهم — في رأينا — وهي المعيار الاول ، لانها تتعلق بالنواحي الانسانية ،
وبمدى مقدرة الانسان على كبح انانيته وتنظيم النوازع الحيوانية في داخله .
واذا كان قد قيل عن السلاجقة بحق انهم اشاعوا الاضطراب والتخريب والدمار ،
فذلك لم يكن وفقا عليهم ، والذي يراجع تاريخ عهد البويهيين وعهد السلاجقة لا يجد
بينهما فرقا في هذه الناحية ، بل ربما كان العصر البويهى اكثر اغراقا في الفوضى
والتخريب والتدمير . وقد اشرنا اشارة مقتضبة ، في موضع سابق من هذه الدراسة ،
الى بعض ضروب الفوضى والتخريب التي حدثت في العهد البويهى ^(١) ، وهي لا تقل
سوءا عن اسوأ ما شهده العصر السلجوقي . ولسنا نستطيع التحدث هنا عن مزيد
من امثلة هذه الفوضى ، فبإمكان اى باحث ان يرجع الى تاريخ تلك الفترة ، خاصة
كتاب تجارب الامم لمسكويه ، وتاريخ ابي شجاع وتاريخ ابن الاثير . ^(٢)

(١) انظر ما سبق ، ص ٢٣ — ٢٥ .

(٢) انظر مسكويه ، ج ٦ ، ص ٣٠٣ — ٣١٠ و ٣١٥ و ٣١٨ — ٣٢١ و ٣٢٣ — ٣٢٩

و ٣٣٥ — ٣٤٢ و ٣٦٧ — ٣٧٠ و ٣٨٠ — ٣٨٣ و ٣٨٧ ، ابو شبلج ،

ص ١٣٢ — ٣ و ١٦١ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ص ٦٢ — ٦٣ و ٧٣ .

ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ٨ ، ص ٦١٩ و ٦٢٨ و ٦٣٤ — ٦٣٧ و ٦٤٤ — ٦٤٦

و ص ٦٧١ — ٦٧٢ و ٦٩١ و مجلد ٩ ، ص ٤١ و ٤٨ — ٤٩ ، ٦٣ — ٦٤ مثلا .

واذا كان في العصر البويهى ملك مستنير نسبيا اعني عضد الدولة ، فان عهد عضد الدولة في العراق لم يزد عن خمس سنوات ، في حين زاد عهد الاستقرار والانتعاش في عهد السلطانين الب أرسلان وابنه ملكشاه ووزيرهما نظام الملك عن ثلاثين سنة . فضلا عن ذلك فان دولتي الزنكيين في الموصل وبلاد الشام تمتعتا بإدارة حازمة واستقرار داخلي وحكام مستنيرين ، وكان حظهما من ذلك اكثر ممن حظ دولة بني بويه .

أما عن الرعاية التي لقينها الثقافة والادب في العصر السلجوقي فأقول ان المعلومات التي تمدنا بها المصادر تمكن الباحث من الحكم بأن مقدار الرعاية في العصر السلجوقي كان اكبر منه في العصر البويهى ، وهذه دعوى لا بد من تأييدها بطائفة من الامثلة الحية ، لا مجرد الاشارة العابرة الى عدد من الصفحات في المصادر .

يذكر ابن عساکر ان السلاجقة والأتابكة والولاة في العصر السلجوقي كانوا يعتنون بالشعراء ويجزلون لهم العطاء^(١) . والواقع اننا نجد كثيرا من المعلومات التي تؤيدها هذا الحكم العام الذي اصدره ابن عساکر ، فعند عهد السلطان طغرلبيك نجد الوزير عميد الملك الكندري يجيز الشاعر الاديب الباخري بألف دينار بعد ان مدحه الشاعر بقصيدة^(٢) . وعندما قدم السلطان الب أرسلان (٤٥٥ هـ - ٤٦٥ هـ) الى حلب ، كان شاعر يرافق المعسكر السلطاني ، وقد مدح الوزير نظام الملك بقصيدة خان باب قنسرین بمدينة حلب^(٣) . وعندما استولى سليمان بن قنلشر ، صاحب قونية ، على مدينة انطاكية ، اظهر السلطان ملكشاه النبأ باعتبار ان الفتح كان باسمه ، فهناه الناس ومدحه الشعراء^(٤) .

ويذكر ابن الاثير ان الملك سيف الدين غازي بن زنكي ، صاحب الموصل ، اجاز الشاعر الحير بيح بألف دينار اميرى ، عندما مدحه بقصيدة ، وقد اُضاف الى الجائزة خلعا وثيابا ، فضلا عن تعهده الشاعر بالاكرام طوال مدة بقاءه في بلاطه ^(٥) .

(١) ابن عساکر ، ج ٥ ، ص ٣٤٨ - ٣٥٠ .

(٢) الباخري ، ص ١٤٠ - ١٤٦ .

(٣) ابن العديم ، بغية الطلب ، مجلد ٨ ، ورقة ١٦٥ و

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ١٣٩ .

(٥) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٩٣ - ٩٤ .

وكان الامراء العرب من بني مرداس، أصحاب حلب، وبني عقيل، أصحاب الموصل، يجزلون العطاء للشعراء، ويتنافسون في هذا الميدان. فيذكر الكاتب الاصفهاني ان الشاعر ابن حيوس مدح مسلم بن قريش العقيلي بقصيدة، وكان أمراء بني مرداس يعطون هذا الشاعر ألف دينار على القصيدة، فقال مسلم: "همني تسموالى أن أزيد على عطاياهم...".^(١) وتحققا لذلك أقطع مدينة الموصل للشاعر الذي ما لبث ان توفي قبل ان يجبي ارتفاع المدينة.^(٢) والظاهر ان اقطاعه الموصل كان بعد ان ملك الامير العقيلي حلب.

ولقد هزت انتصارات نور الدين محمود على الصليبيين الشعراء فمدحوه بعدد من القصائد، وكان يجزل لهم العطاء.^(٣) وكان الوزير جمال الدين الاصفهاني، الملقب بالجواد، وزير عماد الدين زنكي وأولاده من بعده، كان من رعاة العلم والادب، يجزل العطاء للشعراء، فصاحت بأفضاله ألفاظ الفصاح، وأتوا اليه من كل فج عميق... وقصده العظماء ومدحه الشعراء.^(٤) ومن مدحه منهم الحيرببصر، والكاتب الاصفهاني.^(٥)

وكانت المجالس العلمية تعقد تحت رعاية بعض الوزراء، وتجري فيها المناقشات والمناظرات. فيخبرنا ياقوت ان القاسم بن علي الحريري، صاحب المقامات، "دخل يوما ديوان السلطان بيغداد، وهو منغر بذكوى الفضل والبلاغة... فقال له بعض

(١) الكاتب الاصفهاني، خريدة القصر، مجلد ٢، ص ٥٦، ابن خلكان، مجلد ٤، ص ٦٤-٦٥.

(٢) المصدران والصفحات ذاتها.

(٣) الكاتب الاصفهاني، خريدة القصر، مجلد ١، ص ١١١-١١٤ و ١٢٥ و ١٥٧-١٥٨.

ابن الاثير، الباهر، ص ٩٩-١٠١ و ١٠٣ و ١٠٩. أبو شامة، مجلد ١،

قسم ١، ص ١٤٠-١٤١ و ١٤٤-١٤٧ و ١٥١-١٦٣ و ١٦٨-١٧٠ و ١٧٤-١٧٧ و

١٧٩-١٨٣ و ١٨٥-٢٠٠ و ٢٠٣-٢٢١ و ٢٢٨-٢٣٥ و ٢٣٧-٢٣٨ و ٢٥٤-٢٥٨ و

٢٧٢-٢٧٣ و ٢٧٦-٢٧٩، وهناك أمثلة أخرى.

(٤) الكاتب الاصفهاني، تواريخ آل سلجوق، ص ٢١٢.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢١٢-٢١٣.

الكتاب : أى شيء تتعانى من صناعة الكتابة حتى نباحث فيه ؟ فأخذ بيده قلما وقال :
كن ما يتعلز بهذا ، وأشار الى القلم . فقليل له : هذه دعوى عظيمة ، فقال : امتحنوا
تخبروا . فسأله كل واحد عما يعتقد في نفسه اتقانه ، فأجاب الجميع احسن جواب . . .
فانتهى خبره الى الوزير ابو شروان بن خالد ، فأدخله عليه ، وما بكليته اليه . . . (١)
وكان للوزير يحيى بن هبيرة مجلس دورى للفقهاء والحديث والادب ، يجتمع فيه
اهل العلم أيا ما معينة في الاسبوع ، ويتداولون العلوم ، يشاركونهم في ذلك الوزير
نفسه . (٢)

واذا اعتبرنا التعميم الذى اصدره الاستاذ Gibb بالنسبة لجهل السلاطين بالعربية
منطبقا على السلاطين الاوائل فان ذلك الحكم لا ينطبق على من جاءوا بعدهم ، فيصف
ابن خلكان السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه (٥١١ هـ - ٥٢٥ هـ) بأنه كان
قوى المعرفة بالعربية ، حافظا للشعار والتواريخ والسير ، شديد الميل الى اهل العلم
والنير (٣) . ونقرأ عن السلطان محمود انه كان يناظر العلماء ويروى الاحاديث ، فقد
أورد ابن رجب ان الفقيه ابن فور ، دخل على السلطان محمود فتناظرا . قال ابن
فور للسلاطين : " لا يجوز ان تصف الله بالفوقية ، لأنه يلزمك ان تصفه بالتحتية ، لأنه
من جاز ان يكون له فوق كان له تحت . فقال محمود : ليس أنا وصفته بالفوقية فتلزمني
أن أضفه بالتحتية ، وإنما هو وصف نفسه بذلك . قال : فبهت . " (٤) وقد نسب السى
السلطان مسعود انه كان يروى الحديث ، وكان القاضي ابو بكر محمد بن عبد الباقي
الانصارى يروى جزءا من الحديث عن السلطان بروايته عن شيوخه : " وكان الناس يسمعون

(١) ياقوت ، معجم الادباء ، مجلد ١٦ ، ص ٢٦٤ .

(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ١٠ ، ص ٢١٥ ، الذهبي ، مجلد ١ ، ص ١٢١ .

(٣) ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ٢٦٩ .

(٤) ابن رجب ، مجلد ١ ، ص ١٥ - ١٦ .

عن السلطان عن قاضي المارستان * (١) ويذكر ابن عساكر ان الملك نور الدين محمود سمع الحديث وأسمعه ، وكان مجازا في الحديث (٢) ، وقد نسب ابن قاضي شهبة الى نور الدين انه صنف كتابا في الجهاد (٣) .

وهكذا نرى ان الادب والعلم لقيا رعاية وتشجيعا على نطاق واسع خلال العهد السلجوقي ، وان بعثر رعاة الادب والعلم من الحكام شاركوا في الانتاج بانفسهم . ولعلنا قدمنا الدليل على عدم صحة القول بأن سلاطين السلاجقة كانوا جهلة باللغة العربية .

لقد ذكرنا الاضطراب السياسي والتدهور الاقتصادي كعامل من عوامل تدهور المستوى النوعي للانتاج الادبي ، غير ان هناك سببا أهم — في رأينا — وأشد تأثيرا . لقد شهدت الدولة العربية الاسلامية اختلاط العرب بشعوب اعجمية ، وهي تلك التي كانت تقطن البلاد المفتوحة ، كما شهدت سيلا متدفقا من العبيد المجلوبين والجنود المرتزقة والشعوب غير المتحضرة تنال متابعة لتستقر مع العنصر العربي وتختلط به ثم لا تلبث ان تسيطر على مقدرات الدولة وتخضع العرب بسلاطنتها . وبذلك اصبح العرب أقلية وسط طوفان من البشر غير العرب . وزاد الذين بلية تفوق تلك العناصر غير المتحضرة من حيث مركزها السياسي والاجتماعي ، الأمر الذي أزال دافعا سابقا شجع الاعاجم على اتقان العربية ، وهو دافع تعلم لغة الحكام سواء كان ذلك من قبيل تشبه الأدنى بالأعلى ، أم بغرض تحقيق منافع مادية . كذلك فان هذا الامتزاج الذي امتزجه العرب بغيرهم قد خفض مستوى صلتهم هم انفسهم بلغتهم وقدرتهم على اتقانها . وظلت هذه الافة في تزايد يتناسب مع تزايد أعداد الاعاجم غير المتحضرين .

فتدني المستوى النوعي للانتاج الادبي يعود الى عملية الاحتلاط الواسعة هذه ، بالدرجة الاولى ، ثم الى الاضطراب الذي شهدته الاراضي العربية منذ عهد المتوكل ،

(١) ابن الفوطي ، مجلد ٤ ، قسم ٢ ، ص ١٢٢٢ .

(٢) نقله عنه ابن قاضي شهبة ، ٨١ .

(٣) ابن قاضي شهبة ، ٨١ .

لا الى نقص الرعاية وجهل السلاجقة بالعربية بصفة خاصة .

التعليم وانتشار المدارس

كان المسجد ، منذ صدر الاسلام ، مركزا تعليميا بجانب كونه مركزا تعبديا . وقد ظل الامر كذلك حتى العهد السلجوقي ، وفي أثنائه وفيما بعده . ولكن هذا العصر شهد انتشارا واسعا للمدارس ، التي غدت أكثر أهمية من المساجد في حقل التعليم . ويبدو لي ان من غير السهل تحديد أول زمن بنيت فيه المدارس ، وأول من بناها . وقد ذكر السبكي ان الذهبي نسب الى نظام الملك انه أول من بنى المدارس . ولكن السبكي نفى زعم الذهبي ، وقال ان المدرسة البيهقية بنيسابور كانت موجودة قبل عهد نظام الملك . وكان الامير نصر بن سبكتكين ، أخو السلطان محمود الغزنوي ، قد بنى المدرسة السعدية بنيسابور قبل العهد السلجوقي بزمن طويل . ويضيف السبكي ان أبا سعد اسماعيل بن علي بن المثنى الاستراباذي بنى مدرسة ثالثة في المدينة نفسها ، وأن مدرسة رابعة بنيت في تلك المدينة للاستاذ أبي اسحاق الاسفرائيني ، المتوفى سنة ٤١٨ هـ . بل لقد كانت المدارس معروفة بنيسابور قبل ان تبنى هذه المدارس الاربع التي عدناها .^(١)

أما في العصر السلجوقي فقد أصبحت المدارس العالية تنتشر في معظم المدن العربية التي ضمتها سلطنة السلاجقة ، حتى لم تكد تخلو منها مدينة أو بلدة . والمهم في الامر ان انشاء المدارس غدا سياسة اتبعها الكثيرون من الحكام لاستخدامها — على ما يبدو للباحث الحالي — في تأييد الاتجاهات المذهبية والسياسية التي يعمل لها أرباب الحكم . وهذا لا يمنع ، بطبيعة الحال ، ان يكون هناك اناس بنوا المدارس بقصد نشر العلم والحصول على الذكر الحسن او المثوبة في الدار الآخرة .

وقد ذكر ابن جبير انه كان في بغداد وحدها نحو ثلاثين مدرسة ، وما منها مدرسة الا وهي يقصر القصر البديع عنها ، وأعظمها وأشهرها النظامية^(٢) أما الموصل فقد كان فيها نحو ست مدارس وأكثره تلوح " كأنها القصور المشرفة " .^(٣) وكانت لنصيبين مدرستان^(٤) ولرأمر العين مدرسة^(٥) ولحرا ن مدرسة^(٦) ولدنيصر مدرسة .^(٧) أما حلب فقد

(١) السبكي ، مجلد ٤٤ ص ٣١٤ . وانظر ص ٢٥٦ كذلك .

(٢) ابن جبير ، ص ١٨٣ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٨٩ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ١٩٦ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٩٦ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ١٩٣ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ١٩٩ .

فقد بلغ عدد مدارسها التي وردت اسمائها في المصادر تسع مدارس، وثلاث دور للحديث . ويخبرنا ابن جبير انه كاتبها ، حين زارها ، ست مدارس^(١) . وكانت لحماة ثلاث مدارس^(٢) . أما حمص فقد كانت فيها مدرسة واحدة^(٣) ، ولعل السبب في ذلك وقوعها على الحدود يلا مع الصليبيين ، وتعرضها لغارات حصن الاكراد ، الذي كان بيد الغزاة^(٤) . وكان في دمشق نحو عشرين مدرسة^(٥) .

ويذكر ابن الاثير ان نظام الملك بنى المدارس في اكثر البلدان "حتى جزيرة ابن عمر" التي هي زاوية من الارض لا يؤمها لها - بنى فيها مدرسة كبيرة ، وهي تعرف الان بمدرسة رضي الدين^(٦) . ويؤكد السبكي هذه الرواية ويقول انه كان لنظام الملك في كل مدينة بالعراق مدرسة^(٧) . وقد اتفق ابن الجوزي ، الحنبلي ، والسبكي ، الشافعي ، على ان العلم كان منتعشا ، وان سوقه كانت رائجة وان أهله كانوا محل التكريم في عهد الوزير نظام الملك ، الذي استغرق ثلاثين سنة^(٨) .

وقد نشر نور الدين محمود المدارس في بلاد الشام ، حيث بناها في دمشق وحلب وحماة وحمص وعلبك ومنبج والرحبة^(٩) .

وفي الموصل بنى الملك سيف الدين غازي بن زنكي المدرسة العتيقة ، وكانت

(١) ابن شداد ، مجلد ١ ، قسم ١ ، ص ٩٦ و ٩٨ و ١٠٠ و ١٠٣ و ١٠٥ و ١١٠

و ١١٣ و ١٢١ - ١٢٢ ، ابن جبير ، ص ٢٠٤ .

(٢) ابن جبير ، ص ٢٠٧

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٠٩ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٢٣٠ .

(٦) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٩ .

(٧) السبكي ، مجلد ٤ ، ص ٣١٣ - ٣١٤ .

(٨) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٦٨ ، السبكي ، مجلد ٤ ، ص ٣١٩ .

(٩) ابن خلكان ، مجلد ٢ ، ص ٢٥٦ ، مجلد ٤ ، ص ٢٧٢ .

احسن المدارس واكبرها^(١) . وبنى الوزير ابن هبيرة مدرسة بمحلة باب البصرة في بغداد^(٢) ، وقد حولت بنفشا الرومية ، وهي جارية للخليفة المستضيء ، دارا كانت تملكها الى مدرسة وفتتها على الحنابلة^(٣) . ووقفت عصمت خاتون بنت ملكشاه ، زوجة الخليفة المستظهر ، مدرسة على اصحاب ابي حنيفة . وقد وصفها ابن الساعي بأنها " ليس في الدنيا مدرسة اكبر منها " .^(٤) وعندما قدم ابو سعد محمد بن منصور ، مستوفي المملكة الى بغداد سنة ٤٥٦ هـ بنى مدرسة لاصحاب ابي حنيفة^(٥) . ونقرأ ان نائب صاحب اربل بنى مدرسة للفقيه الشافعي الهبي العباس الخضر بن نصر الاربلي^(٦) .

وكان الاثرياء يشاركون في بناء المدارس وسنجدزء من ذلك بأمثلة قليلة ، فقد بني القاضي ابو سعد المخري مدرسة بباب الارج ببغداد^(٧) ، وبنى الشيخ عبد الوهاب بن الحنبلي مدرسة للحنابلة بدمشق بباب الفراديس^(٨) ، وبنى تاج الملك ابو الغنائم مدرسته التاجية بباب ابرز ووقفها على اصحاب الشافعي^(٩) . وكانت تخصص لهذه المدارس اوقاف كثيرة تغطي نفقاتها ونفقات الاسانذة والطالبة ، وكان يدفع للطلاب رواتب ايضا . وقع رجح السبكي ان نظام الملك هو " اول من قدر المعاليم للطلاب " .^(١٠)

-
- (١) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٩٣ ، ابن خلكان مجلد ٣ ، ص ١٢٢ .
 - (٢) ابن خلكان ، مجلد ٥ ، ص ٢٨٤ ، ابن الفوطي ، مجلد ٤ ، قسم ٣ ، ص ٥٨١ .
 - (٣) ابن الساعي ، جهات الخلفاء ، ص ١١١ - ١١٢ .
 - (٤) المصدر نفسه ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .
 - (٥) الكاتب الاصفهاني ، تواريخ السلجوق ، ص ٣٢ .
 - (٦) ابن خلكان ، مجلد ٢ ، ص ١٠ .
 - (٧) ابن رجب ، مجلد ١ ، ص ٢٠٠ .
 - (٨) المصدر نفسه ، ص ٢٣٨ .
 - (٩) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٤٦ .
 - (١٠) السبكي ، مجلد ٤ ، ص ٣١٤ ، ٣١٩ ، وانظر امثلة اخرى : ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٦٦ و ٢٦٢ ، ابن جبير ، ص ١٨٣ و ٢٢٠ و ٢٢٥ ، ابن الساعي ، جهات الخلفاء ، ص ١١١ - ١١٢ .

ولدينا العديد من الامثلة لمحسنين ساهموا في تشجيع الحركة العلمية بوقف الكتب على طلبة العلم ، بجانب ما كان يقفه الحكام والوزراء ، فالطبيب الاديب ابو علي يحيى بن عيسى بن جزلة وقف كتبه قبيل وفاته ^(١) ، وكذلك فعل الفقيه ثابت بن منصور الكيلي ^(٢) ، وعلي بن طاهر بن جعفر السلمي النحوي ، الذي وقف خزانة كتب له في موضع حلقاته بجامع دمشق ^(٣) . وقد ابنتى محمد بن هلال بن المحسن الصابي ، الكاتب المؤرخ (ت ٤٨٠ هـ) دار كتب ببغداد ووقف فيها نحو من اربعمئة مجلد ^(٤) / امثلة اخرى كثيرة ^(٥) .

ويستطيع الباحث في تاريخ الحركة التعليمية ان يحدد عدة مستويات سارت فيها حركة التعليم والتعلم ، فقد كان هناك تعليم اولي ، يقابل المدرسة الابتدائية في عصرنا ، وتعليم عال ، يقابل الجامعات . فضلا عن ذلك فقد كان الكثيرون ممن طلاب العلم يجوبون مختلف الاماكن سعيا الى مشاهير العلماء واهل التخصص ليتلقوا العلم عندهم ، اى أنه كان بجانب المراكز التي يعلم فيها الطلاب جهود فردية خاصة للتعليم عن طريق السعي للوصول الى العلماء .

كان الصبيان يتلقون التعليم الاول في المكاتب ، علي يد المؤدبين ، او المعلمين ^(٦) . ونعرف من بين المواضيع التي كان يتعلمها الصبيان القرآن ، الذي كانوا يلقنونه تلقينا ، والحديث ، والخط ^(٧) . وكانوا يتدربون على الخط بكتابة ابيات من الشعر ، تنزيها للقرآن . وكان هناك مدرّس خاص يلقي القرآن ، وآخر لتدريس الخط في وقت محدد . وقد لاحظ ابن جبير ان تخصيص مدرّس وحصر خاصية

(١) ابن خلكان ، مجلد ٥ ، ص ٣١١ -

(٢) ابن رجب ، مجلد ١ ، ص ٢٢٢ .

(٣) القفطي ، انباه الرواة ، مجلد ٢ ، ص ٢٨٣ .

(٤) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٤٢ - ٤٣ ، ابن الفوطي ، مجلد ٤ ، قسم ٢ ص ١١٦٣ - ١٢٦٤ .

(٥) انظر ابن عساکر ، ج ١ ، ص ٤٠٨ ، ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ١٣ ، السبكي ، مجلد ٤ ، ص ٣٥ .

(٦) الكاتب الاصفهاني ، خريدة القصر ، مجلد ٢ ، ص ١٦٩ .

(٧) ابن جبير ، ص ٢٢٠ .

بالخط يعين على اتقانه (١). وكان هناك اشخاص يسمى الواحد منهم بـ "الكافل" مهمتهم كفالة التلاميذ في طريق مجيئهم الى المكتب وعودتهم منه عند انتهائهم الدروس، حيث كانوا يرافقونهم في الذهاب والاياب (٢).

أما المدارس العالية فقد كان ينتدب للتدريس فيها مشاهير العلماء، وكانت تولية المدرس أمرا اعتبر خطيرا، فكان الحاكم، سواء كان سلطانا أو وزيرا أو ملكا اقليم، هو الذى يختار المدرس ويعينه (٣). وفي بعض الاحيان كان التعيين يتم بموسم (٤). ويبدو انه كان هناك ثمة نظام للتخرج، اذ يذكر ابن خلكان ان أبا حامد الغزالي اختلف الى دروس امام الحرمين، وجد في الاشتغال حتى تخرج في وقت قصير (٥).

وكانت المساجد مراكز يتلقى فيها الطلاب العلم عن المشايخ، فقد كان ابراهيم اسحاق الشيرازي يدرس في مسجد باب المراتب ببغداد، قبل ان تبنى المدرسة النظامية (٦). وكانت في جامع دمشق حلقات يحضرها من لا يجيدون قراءة القرآن. وقد بلغ عدد الذين كانوا يتعلمون القرآن في ذلك الجامع عند مرور ابن جبير بدمشق سنة ٥٨٠ هـ اكثر من خمسمائة شخص. وبجانب هؤلاء كانت تعقد حلقات التدريس للطلبة في الجامع نفسه (٧).

وكان من المألوف جدا في ذلك العصر ان تجد رجلا من اهل العلم يطوفون البلدان والاقطار، سعيا الى العلماء المشاهير. ولعل من ابرز الامثلة على ذلك نشاط تاج الاسلام ابي سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني الشافعي، الذى رحل في طلب العلم والحديث الى الشرق والغرب، والشمال والجنوب، كما يقول ابن

(١) المصدر والصفحة ذاتهما.

(٢) المصدر نفسه، ٢٢٥.

(٣) ابن الجوزي، المنتظم، مجلد ٩، ص ٥٣ و ٥٥، الكاتب الاصفهاني، خريدة القصر، مجلد ١، ص ٣٠٨.

(٤) ابن الجوزي، المنتظم، مجلد ٩، ص ٥٣.

(٥) ابن خلكان، مجلد ٣، ص ٣٥٣، وانظر امثلة اخرى: القفطي، انباء الرواة، مجلد ٢، ص ١٢٣، السبكي، مجلد ٤، ص ٣٨٦.

(٦) ابن الجوزي، المنتظم، مجلد ٨، ص ٢٤٧.

(٧) ابن جبير، ص ٢٠، وانظر: ياقوت، معجم الادباء، مجلد ١٣، ص ٢٥، القفطي،

انباء الرواة، مجلد ٢، ص ٢٨٣.

خلكان ، وسافر الى ما وراء النهر وسائر بلاد خراسان عدة مرات ، ودخل قومن والرى واصبهان وهمدان وبلاد الجبال والعراق والحجاز والشام والموصل وغيرها من البلاد التي يطول ذكرها ويتصدر حصرها . وقد قيل ان عدة شيوخه تزيد على اربعة آلاف (١) .

ومن امثلة السفارين بحثا عن العلم والحديث احمد بن علي بن ثابت البغدادي ، الذي يقال انه صنف قريبا من مائة مصنف ، ورحل الى البصرة ونيسابور واصبهان وسمع ببغداد والدينور والكوفة وهمدان والحجاز ، وسكن دمشق فترة من حياته (٢) . ومنهم ابو القاسم علي بن الحسن بن عساكر الذي رحل وطوف وجاب البلاد ، وكان رفيق السمعاني . وعاد من رحلته الى دمشق ، ثم مكث ان يم شطسر خراسان ودخل نيسابور وهراة واصبهان والجبال (٣) . وهبة الله بن المبارك السقطي ، الذي سمع ببغداد وواسط والبصرة والكوفة والموصل واصبهان والجبال وغيرها ، وبالغ في الطلب (٤) . ومحمد بن موسى الحازمي ، الذي تفقه ببغداد وسمع بهمدان وارتحل الى عدة بلاد في العراق ، ثم سافر الى الشام والموصل وبلاد فارس واصبهان وهمدان وكثير من بلاد اذربيجان (٥) . ومحمد بن طاهر المقدسي ، المعروف بابن القيسراني ، الذي كان احد الرحالين في طلب العلم والحديث ، وسمع بالحجاز والشام ومصر والشعور والجزيرة والعراق والجبال وفارس وخرستان وخراسان واستوطن همدان ، وكانت ولادته بالقدس ووفاته ببغداد (٦) . وغيرهم كثيرون .

(١) ابن خلكان ، مجلد ٢ ، ص ٣٧٨ .

(٢) المصدر نفسه ، مجلد ١ ، ص ٧٦-٧٧ .

(٣) المصدر نفسه ، مجلد ٢ ، ص ٤٧١ .

(٤) ابن رجب ، مجلد ١ ، ص ١٤٠ .

(٥) ابن خلكان ، مجلد ٣ ، ص ٤٢١ .

(٦) المصدر نفسه ، مجلد ٣ ، ص ٤١٥-٤١٦ .

اما عن المواد التي كان يتعلمها طلاب التعليم العالي في المدارس فانني لم اعثر على تفصيل لها، بيد ان اشارات عرضية وردت بهذا الشأن تعرفنا بعض هذه المواد . فقد ذكر ان نظام الملك اشترط في كتاب وقف المدرسة النظامية ببغداد ان يكون المدرس بها ، والواعظ ، والذي يقرئ القرآن ، والذي يدرس النحو من اتباع المذهب الشافعي (١) . فاذا كنا نفهم من شروط وقف النظامية انه كان يدرس بها النحو والقرآن ، وان طلابها كانوا يتلقون نوعا من التربية الاخلاقية على يد الواعظ ، فان المصادر لم تذكر لنا ما كان يلقيه المدرس . ويبدو لي ان المؤرخين لم يحفلوا بتفصيل ذلك لأنه كان من الامور المعروفة بداهة . وطبيعي ان يقوم المدرس بتدريس الفقه . والفقه متعدد الفروع ، والارجح ان فروع العلوم الفقهية كانت مما يتلقاه طلاب المدارس العالية .

ومن ناحية اخرى نجد تفصيلا للمواد التعليمية التي كان يتلقاها الطلاب عن شيوخهم . فكثيرا ما تشير المصادر ، في تراجم الاعيان ، الى شيوخ المترجم له وتعدددهم وتعدد العلوم التي تلقاها منهم . فابو الوفاء بن عقيل ، مثلا ، قرأ علم القراءات على ابي الفتح بن شيطا وآخرين ، وتلقى الادب والنحو عن ابي القاسم بن برهان ، والزهد عن ابي بكر الدينوري ، وعن الحرانية ، وعن بنت الجنيدي ، وتلقى آداب التصوف عن ابي منصور العطار ، والحديث عن التوزي وجماعته غيره ، وتعلم الشعر والترسل من ابن شبل ، ودرس الفرائض على ابي الفضل الهمداني ، والوعظ على ابي طاهر بن العلاف ، والاصول على ابي الوليد بن البيان . واخذ الفقه عن ابي يعلي الفراء ، والمناظرة عن ابي اسحاق الشيرازي (٢) كذلك فاننا نعرف ان الادب والشعر والنحو كان يدرس في المساجد ، جنبا الى جنب مع العلم الدينية (٣) .

(١) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٦٦ ، وانظر القفطي ، انباء الرواة ،

مجلد ٣ ، ص ٢٥٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢١٢ - ٢١٣ ، وهناك امثلة اخرى كثيرة ، انظر ابن عساكر ،

ج ٤ ، ص ١٦٦ - ١٧٠ ، القفطي ، انباء الرواة ، مجلد ١ ، ص ٣٠٥ ، الذهبي ، مجلد ١ ،

ص ٢٨١ .

(٣) ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ٤٢٥ .

ولم تكن علوم الطب والفلسفة والفلك والكيمياء والرياضيات تلقى الاهتمام المناسب في ذلك العصر، فأبو حامدا الغزالي يشكو انصراف طلاب العلم عن العلوم الطبية . مع لزومها وضرورتها ، واهتمامهم بفروع العلوم الدينية مع كثرة المتخصصين فيها ، ويقول ان اكثر الاطباء من اهل الذمة ^(١) . وكانت الفلسفة من فروع المعرفة المقوتة في ذلك العصر . وقد ألف الغزالي كتابه تهافت الفلاسفة لتنبيه " من حسن اعتقاده في الفلاسفة ، وظن ان مسالكهم نقية عن التناقض ، ببيان وجوه تهافتهم " ^(٢) . وفي ترجمة ابن عساكر لتوفيق بن محمد بن زريق الاطرابلسي (ت ٥١٦ هـ بدمشق) ، الذي كان ادبيا شاعرا مهندسا متجعجا وحاسبا ، يصفه بأنه " كان يتهم بقلّة الدين ، والميل الى مذهب الاول ^(٣) " . ويخبرنا ابن الجوزي ان أبا علي المعتزلي ، الذي كان يدرس علم الفلسفة والمنطق " اضطره اهل السنة الى ان لنم بيته خمسين سنة لا يتجاسر ان يظهر " ^(٤) . ويذكر ابن الفوطي ان عبد الله بن محمد الميانجي الصوفي (ت ٥٢٥ هـ) خلط كلام الصوفية بكلام الحكماء ، وصلب ^(٥) . وقد اعتنى كثيرون من الناس بتعلم الحساب وتعليمه ، وصنفوا في ذلك الكتب ^(٦) ، غير انني لم اعثر على اية اشارة الى ان الحساب والهندسة والرياضيات عامة كانت تدرس في المؤسسات التعليمية العامة . ويغلب على ظني ان هذه الفروع الهامة من فروع العلم كانت تعتمد على الجهود الفردية . أما الطب فانتا نعرف ان كبار الاطباء الذين كانوا يشرفون على المستشفيات كان يشرفون على تعليم الاطباء فيها ، فمحمد بن عبيد الله الباهلي ، الطبيب المشهور ، كان مشرفا على البيمارستان الكبير بدمشق ، وكان الاطباء يجلسون بين يديه ، ويتداولون علومهم تحت اشرافه ^(٧) .

(١) الغزالي ، الاحياء ، ج ١ ، ص ١٩ .

(٢) الامام الغزالي ، تهافت الفلاسفة ، تحقيق سليمان دنيا (القاهرة : دار المعارف ، د . ت . ٥٠) ، ص ٨٠ .

(٣) ابن عساكر ، ج ٣ ، ص ٣٦٠ .

(٤) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٢٠ .

(٥) ابن الفوطي ، مجلد ٢ ، ص ١١٣ - ١١٣٢ .

(٦) انظر ياقوت ، معجم الادباء ، مجلد ١٢ ، ص ٤٦ ، ومجلد ١٩ ، ص ١٠٦ ، ابن ابي اصيبعة ، ص ٤٧١ - ٤٧٢ .

(٧) ابن ابي اصيبعة ، ص ٦٢٨ .

وامين الدولة هبة الله بن التلميذ كان رئيس البيمارستان العضدى حتى وفاته سنة ٥٦٠ هـ . وقد فوض اليه الخليفة رئاسة مهنة الطب ببغداد ، وكان عنده خمسون طالب طب يتلقون التدريب على يديه . ونقرأ ان مريضا جاءه وطلابه الخمسون بين يديه ، فسألهم امين الدولة عن فوض ذلك الرجل فلم يعرفوا ، فوصف له دواء وصرفه (١) .

ويبدو انه كان من اساليب التعليم في ذلك الزمان ان تطرح المواضيع ويتداولها الطلاب بالمناقشة تحت اشراف استاذهم ، وعن ذلك يقول الفقيه ابو سعد عبد الرحمن المتولي انه حضر مجلس الاستاذ ابي الحارث السرخسي . وكانت ثياب عبد الرحمن خلقة ، لا تشبه ثياب اهل العلم ، فجلس في اخريات الطلاب . فتكلموا في مسألة ، فقلت واعتضت . فلما انتهيت من نوبتي أمرني ابو الحارث بالتقدم . ولما عادت نوبتي استدعاني وقربني حتى جلست الى جنبه ، وقام بي والحقني باصحابه ، فاستولى علي الفرج (٢) .

وكان لكبار الاساتذة معيدون ، يعيدون دروسهم للطلاب ، مثال ذلك ان محمد بن هبة الله السلمي تولى الاعادة بالمدرسة النظامية ببغداد (٣) ، وكان الكيا الهراسي من رؤوس معيدى امام الحرمين في الدرس (٤) ، وقد شغل ابو اسحق الشيرازي وظيفة الاعادة في مطلع حياته التعليمية (٥) .

ويلاحظ ان الاملاء كان من الاساليب الشائعة في التعليم في ذلك العصر ، فيروى ، مثلاً ، ان الشريف ابا السعادات هبة الله بن الشجرى (ت ٥١٢ هـ) أملى اكبر تأليفه في اربعة وثمانين مجلساً ، وختمه بمجلس قصره على ابيات من شعر العنتبي ، حيث ذكر ما قاله الشراح فيها وأضاف الى تلك الاقوال بعض آرائه (٦) . وقد نسب الى محمد بن عبد الله الخطيبي (ت ٥٧١ هـ) انه

(١) المصدر نفسه ، ص ٣٧١ وانظر الصفحات ٣٤٩ - ٣٧١ ، والفقهي ، اخبار العلماء ، ص ٢٢٢ - ٢٢٤ .

(٢) ابن خلكان ، مجلد ٢ ، ص ٣١٥ .

(٣) ابن خلكان ، مجلد ٣ ، ص ٣٧٢ .

(٤) المصدر نفسه ، مجلد ٢ ، ص ٤٤٨ ، وانظر الفقهي ، انباه الرواة ، مجلد ٢ ، ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

(٥) السبكي ، مجلد ٤ ، ص ٢١٥ .

(٦) ابن شاکر الكشي ، مجلد ٢ ، ص ٦١٠ .

انه املى مجالس كتبها الناس عنه (١). ومن المرجح ان شخصا بعينه كان يكلف بكتابة ما يمليه الاستاذ ، وهذا لا يمنع ، بطبيعة الحال ، ان يدون من اراد من الحاضرين ما يريد تدوينه ، فقد ورد ضمن الاختصاصات التي نسبت الى الفقيه ابي علي البرداني البغدادي (ت ٤٩٨ هـ) انه كان مستمل (٢).

وكان الحفظ والاستظهار اهم الطرق المعتبرة في استيعاب العلم ، فكان طلاب الاجازات يحفظون ما في الكتب عن ظهر قلب ثم يقلونها على مصنفها (٣) ، وهذه طريقة لا تخلو من عقم وضعف .

اما عن طريقة اعطاء الاجازات والحصول عليها من المشايخ فالظاهر انها لم تكن دائما تعطى بعد تثبيت دقيق من مقدرة الطالب العلمية ، بل كانت تعطى في بعض الاحيان في لقاء عرضي ، او حتى دون لقاء الطالب بالمدرس ، فقد روى القاضي ابو الفرج محمد بن عبد الله البصري انه اجتمع بالشيخ محمد بن احمد بن سهل ، المعروف بابن بشران (ت ٤٦٢ هـ) " وكان في صحبتي ٠٠٠ من الكتب التي تصلح ان تقرأ عليها الحماسة ، وشعر ابي الطيب ، وغريب الحديث ٠٠٠ فسألته وقلت : ايها الشيخ ، لا بد من قراءة أحد هذه الكتب عليك ثم استجازتك جميع ما ترويه من الكتب لا روية عنك . فوقع الاقتصار على الحماسة لأنها اصغر حجما من الآخرين . فبدأت بقراءته عليه يوم الجمعة رابع عشر من جمادى الاولى سنة ستين واربعمائة . وسألته عن استاده فيها فقال : قرأتها على ابي الحسين بن علي ٠٠٠ بن دينار عن ٠٠٠ عن ٠٠٠ عن ابي تمام (٤) وذكر غيث بن علي ان ثابت بن احمد البغدادي ، المحدث ، " قدم علينا وذكر لنا ان له اجازات متعددة ،

(١) الذهبي ، مجلد ١ ، ص ٦٥ .

(٢) ابن ابي يعلى ، مجلد ٢ ، ص ٢٥٣ ، السمعاني ، مجلد ٢ ، ص ١٤٤ ،

(٣) انظر ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٧ ، ص ١٦٠ ، ياقوت ، معجم الادباء ،

مجلد ٢ ، ص ١٥٣ ، القفطي ، انباء الرواة ، مجلد ٣ ، ص ٤٤ - ٤٥ .

(٤) القفطي ، انباء الرواة ، مجلد ٣ ، ص ٤٤ - ٤٥ ، وانظر امثلة اخرى في :

ابن عساكر ، ج ٥ ، ص ٢٩١ ، وابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ٢٥٦ .

وكتب لنا خطه بالاجازة بجميع مسموعاته في مستهل شهر ربيع الاول سنة سبع وسبعين واربعمائة ثم توجه الى الحج * (١) وأورد ابن عساكر ان الواعظ المحدث ذو الفقار بن محمد جاء دمشق سنة ٥٢٠ هـ وكان يروى الحديث " فلم احفظ عنه شيئا . وخرج عن دمشق بعد حدوث فتنة جرت وسكن الموصل ، وسمع منه بها ، واستجيز لي منه * (٢) ثم اسند الحافظ عنه حديثا (٣) . وروى ابن جبير انه قابل رئيس علماء الشافعية باصبهان في الحج ، " شاهدناه في مجلسه فرأينا رجلا يدوب طلاقة وبشرا ، ويخف للزائر كرامة وبها ٠٠٠ استجزناه فأجازنا نثرا ونظما * (٤) "

أما الطلاب الذين كانوا يتلقون العلم في المدارس العالية فأرجح انهم كانوا يعطون اجلزة تبين المستوى العلمي الذي بلغوه ، غير انني لم أعثر على أية اشارة الى مثل هذه الاجازات في كل ما قرأت .

(١) ابن عساكر، ج ٣ ، ص ٣٦٢

(٢) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٥١ .

(٣) المصدر والصفحة ذاتهما .

(٤) ابن جبير، ص ١٦٠ .

الفصل الرابع

الحياة الاجتماعية

الحياة الاجتماعية

ان عناية الباحث في هذا الفصل ، موجهة لدراسة المجتمع من حيث تركيبه ،
ومن حيث مظاهر نشاط الناس ومكاناتهم الاجتماعية وطرائق كسبهم لمعاشهم .
والواقع ان هذا الموضوع غاية في التعقيد ، لان الباحث لا يستطيع التحدث عن
المجتمع دفعة واحدة ككل موحد ، لانه - في واقع الامر - ليس كذلك . وهو من ناحية
اخرى لا يستطيع تقسيم المجتمع الى طبقات وفئات يتكلم عن كل منها على حدة واضعا بينها
خطوطا فاصلة مميزة ، لانها - في واقع الامر - ليست كذلك . فاذا كان بإمكاننا ان ندرس
طبقة الحكام كقوة واضحة المعالم ، بارزة الحدود الى حد كبيره فان الامر بالنسبة لرجال
الدين ، مثلاً ، لا يبدو كذلك . ان بإمكاننا ان نتحدث عن رجال الدين من حيث اختصاصهم
ونمط تفكيرهم ، بيد ان مراتبهم كانت مختلفة متفاوتة تفاوتاً كبيراً ، اذ لا يمكن مقارنة قاضي
القضاة وكبار القضاة والفقهاء ومشايخ الطرق الصوفية الكبار بقاض في قرية ، او امام مسجد
صغير في منطقة قليلة الاهمية ، او باحد صغار المتصوفة من كانت تمتلي بهم الخوانق
العديدة . وما قلناه عن رجال الدين ينطبق على التجار وعلى المرأة وعلى اهل الذمة ، وحتى
الرقيق ، اذ ان هناك الكثيرين من الارقاء الذين تولوا ارقى المناصب في الدولة ، كامارة الحج
وشحنكية العراق ، وقيادة الجيوش .
وليس من السهل كذلك ، الحديث عن طبقة الخاصة وطبقة العامة ، لان ذلك لا يختلف
عن بحث المجتمع دفعة واحدة ، اذ يلزم ان ندخل في طبقة الخاصة الحكام وكبار الفقهاء
والعلماء ومشايخ الصوفية وكبار التجار والاطباء ، وكبار الارقاء ونساء الخاصة ، الى غير ذلك .
وهذا الخليط غير متجانس ، يصعب بحثه مرة واحدة . واذا اردنا ان نقسم كلا من طبقتي
الخاصة والعامة الى فئات فمعنى ذلك ان نتحدث عن رجال الدين مرة عند بحثنا لفئات

الخاصة ومرة عند بحثنا للفئات العامة ، وكذلك الحال بالنسبة للتجار واهل الذمة والمرأة والبدو . وهذه الطريقة تبدو محملة ومموجة لما تنطوى عليه من تكرار . وسنحاول التغلب على هذه الصعوبة باتباع خطوتين : اولهما تقسيم مجمل للناس من حيث مكانتهم الاجتماعية ، وثانيهما بحث اكثر تفصيلا عن فئات الناس من حيث نشاطاتهم وانماط حياتهم الخاصة .

يمكن القول ان المجتمع انقسم في نظر المعاصرين الى فئتين : الخاصة والعامة . الا ان من البديهي ان هذا التقسيم لم يكن دقيقا ، ان هناك افرادا كثيرين يصعب تصنيفهم مع الطبقة العليا او الدنيا ، وربما كانوا في مركز وسط ، او اقرب الى الطبقة العليا دون ان يعدوا منها ، او اكثر قربا من طبقة العامة دون ان يدخلوا في عداد افرادها . وقد تخطر للمرء فكرة طبقة وسطى ، بيد ان هذا الفكرة الحديثة لا يمكن تطبيقها على ذلك المجتمع الذي ندرسه ، ان لا يمكن وضع حدود تقريبية لطبقة وسطى ، كما ان المعاصرين انفسهم لم يحسوا بمثل هذا الاحساس ولم يتصوروا هذا التصور .

وعلى ذلك فاننا سناخذ بتقسيم الناس الى خاصة وعامة ، مع ما فيه من نقص وخلل . كانت الطبقة الحاكمة ، التي تشمل الخلفاء والسلطين والملوك وامراء النواحي والوزراء وكبار الموظفين وكبار القادة العسكريين تترفع على قمة المجتمع ، وبجانبها او بعدها مباشرة كبار رجال الدين من فقهاء وقضاة وكبار محدثين ومشايخ صوفية . ورغم اننا لا نجد الا القليل عن كبار التجار ، الا ان هناك اشارات في المصادر تخبرنا انهم كانوا على صلة وثيقة بالحكام^(١) . ويبدو لي ان عدم بروز اهمية التجار يرجع الى تسلط العسكريين وتعرض

(١) ابن ابي يعلي ، ج ٢ ، ص ٢٤٦-٢٤٧ ، ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٦٩ ، ص ٨٦ و ١٧٩ - ١٨٠ ، السبكي ، مجلد ٤ ، ص ٢٩٩-٣٠١ ، ابن رجب ، مجلد ١ ، ص ١٧٩-١٨٠ .

التجار للنهب والابتزاز في فترات الفوضى • كذلك فقد دخل رجال من اهل الذمة الوظائف الحكومية وبلغوا مناصب عالية مما سنتعرض له فيما بعد • اما الارقاء فكان منهم اناس من الفئة الحاكمة • وكان مشايخ البدو حكاما على قبائلهم ، كما تملك بعضهم اقاليم رئيسية ، وصاهروا سلاطين السلاجقة (١) •

اما طبقة العامة فيدخل فيها عامة اهل المدن من صغار الموظفين وصغار رجال الدين واهل الحرف ، كالتجارين والحدادين والاساكة وصغار التجار ، وكذلك السقاؤون والحمالون والكناسون وافراد العشائر البدوية • ومن دخل في حكم هؤلاء جميعا ، كما يدخل فيها الفلاحون الذين لا نجد عنهم اخبارا تعرفنا باحوالهم • وسنحاول الآن دراسة كل قطاع من القطاعات الاجتماعية على اساس نشاطات المنتمين اليه ، بغض النظر عما اذا كان يدخل في نطاق الخاصة أو العامة •

الطبقة الحاكمة :

لقد سبق لنا الحديث عن نشاط الفئات الحاكمة اثناء بحثنا لنظم الحكم والادارة • وليس ثمة داع لاعادة ما ذكرنا عن حياتهم السياسية • بيد ان حياة اولئك الناس لم تكن كلها حروبا وموافرات ونزاعات وادارة ، بل تخللتها اوقات هدوء مارس فيها الحكام ما كان يمارسه غيرهم من الناس من ضروب اللهو وانتهاج اللذات • وتحكي لنا المصادر ان بعض الخلفاء مارسوا لعبة الكرة والصولجان ، ان يروي الكاتب الاصفهاني ان الخليفة المقتدى واولاده لعبوا بالكرة عندما كانوا في زيارة لمدينة واسط ، وقد شاهدهم بنفسه (٢) •

(١) تزوج مسلم بن قریش العقيلي ، صاحب الموصل وحلب ، اخت السلطان البارسلان ، عمة ملكشاه •

(٢) الكاتب الاصفهاني ، تواريخ السلجوق ، ص ٢٩١ •

وقد اغرم بعض السلاطين والملوك بهذه اللعبة ، فكان السلطان ملكشاه يمارسها (١) ، وكان نور الدين محمود اذا لم به غم نزل الى الميدان وظل يلعب بالكرة طول نهاره ، فاذا جن الليل ، بدأ يلعب الشطرنج حتى ينام (٢) . وكان السلطان صلاح الدين يخرج الى ميدانين غربي دمشق حيث يلعب بالصولجة ، وكان ابناؤه يخرجون الى هذين الميدانين للعب كل ليلة ، فضلا عن سباق الخيل والرماية (٣) .

وكان الصيد احدى الرياضات والهوايات التي احبها السلاطين والامراء ، ويبدو ان السلطان ملكشاه كان اشهر من مارس هذه الهواية ، اذ تذكر المصادر انه حسب ما صاده فكان اكثر من عشرة آلاف (٤) . وفي بعض الاحيان كان يسم ما يصطاده من الحيوانات البرية بوسمه ثم يطلقه (٥) . وتذكر الروايات انه خرج مرة لوداع الحجيج ، فجاوز العذيب ، ثم انتنى الى الصيد ، وقد بلغ من كثرة ما اصطاده تلك المرة انه بنى منارة من حوافر حمر الوحش وقرنوا الطباء (٦) . ولدينا رواية عن خروج الخليفة المستنجد للصيد سنة ٥٦٠ هـ (٧) . وفي سنة ٥٠١ هـ بعث السلطان محمد بن ملكشاه اربعين طبيا من صيده هدية الى دار الخلافة ، وكانت كلها تحمل رسم السلطان ملكشاه ، الذي سبق له صيدها واطلاقها (٨)

(١) ابن الاثير، الكامل، مجلد ١٠، ص ١٥٦ .

(٢) الشيزري ، المنهج المسلوك ، ص ٦٨-٦٩ .

(٣) ابن جبيرة ، ص ٢٣٥ .

(٤) ابن خلكان ، مجلد ٤، ص ٣٧١ .

(٥) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩، ص ١٥٥ .

(٦) ابن خلكان ، مجلد ٤، ص ٣٧١ .

(٧) ابن الاثير، الكامل ، مجلد ١١، ص ٣٢٠ .

(٨) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩، ص ١٥٥ .

ويبدو ان الامراء وعلية القوم كانوا يمارسون هذه الهواية . ومن الادوات التي كانت مستعملة في الصيد الفهود والكلاب والصقور . وكان الصيادون يصطادون الحيوانات البرية ، كالحمر الوحشية ، والغزلان ، والارانب ، كما كانوا يصطادون انواعا من الطيور (١) . وكان الكثيرون من الحكام مولعين بالغناء ، فيروى ابن خلكان ان السلطان ملكشاه اعجب بغناء احدى المغنيات ، " فهم بها ، فقالت : يا سلطان العالم ، اني اغار على هذا الوجه الجميل ان يعذب بالنار ، فان الحلال ايسر . . . فقال : صدقت ، واستدعى بالقاضي فتزوجها . . . (٢) . وكان السلطان مسعود بهب بمبالغ كبيرة من المال للمغنيين في الليلة الواحدة (٣) ، وكان من عادة الامير نصربن مرداس ، صاحب حلب ، ان ينزل الى دار بولص ، النصراني ، فيعقد مجلس الانس عند (٤) .

وغنى احد المطربين بابيات من شعرا بن منير الطرابلسي ، الشاعر المشهور ، امام عماد الدين زنكي ، صاحب الموصل ، اثناء حصاره لقلعة جعبر ، فاعجب عماد الدين بالشعر ، وبعث يستدعي الشاعر لموافاته (٥) .

وفي سنة ٥١٥ هـ الم مرض بوزير السلطان محمود ، فعاد السلطان وزيره ، فاقام الوزير حفلة بلغت تكاليفها خمسين الف دينار ، وتخللها الاغاني والملاهي (٦) . وكانت حياة اكثر رجال الحكم تتسم بالبذخ والاسراف المتناهي ، فعندما تزوج الخليفة

(١) الكاتب الاصفهاني ، خريدة القصر ، مجلد ١ ، ص ٣٦٧-٣٩٠ .

(٢) ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ٣٧٣ .

(٣) سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ، مجلد ٨ ، ص ١٨٨ .

(٤) ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ٦٦ .

(٥) المصدر نفسه ، مجلد ١ ، ص ١٤٢ .

(٦) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ١ ، ص ٢٢٨ .

المستظهر اخت السلطان محمد بن ملكشاه وزفت اليه سنة ٥٠٤ هـ زينت بغداد ، ووصل جهاز العروس على "مائة واثنين وستين جملاً ، وسبعة وعشرين بغلاً ، وجاءت النجائب والمهور والجواري المزيّنات ٠٠٠ (١) . وحين احترقت دار الملكة ببغداد سنة ٥١٥ هـ كان فيها من الاثاث والجواهر " ما يزيد على قيمة الف الف دينار ٠٠٠ (٢) وفي السنة التالية خرجت زوجة وزير السلطان للنزهة في موكب من جواربها ، وهي تركب بغلة تساوي ثلاثمائة دينار ، بمركب لا تعرف قيمته ، وبين يديها خمرة عشرة جنبية بالمراكب الثقيل المذهبة ، ومعها نحو مائة جارية ، مزيّنات بالجواهر والذهب ، وتحتهن الهماليج بمراكب الذهب والفضة ، وبين ايديهن الخدم والغلمان والنفاطون بالشموع والمشاعل ٠٠٠ (٣) .

ويذكر عن السلطان سينجر بن ملكشاه ان خزائنه ضمت من الاموال ما لم يسمع بمثله في سابق العصور ، وانه كان معطاءً مسرفاً . وفي موجة من موجات سخائه بلغ ما وهبه في خمسة ايام متتابعة — كما تقول الرواية — سبعمائة الف دينار ، هذا بالاضافة الى عدد من الخيل والخلع والاثاث (٤) .

وليس لدينا الكثير عن الحياة الخاصة للحكام ، اذ ان الاضواء كلها مسلطة على دورهم السياسي . ولد لنا وصف اورد السبكي لعمل الوزير نظام الملك اليومي ، فقد كان النظام يخرج مبكراً الى دار السلطان ، ثم يعود من الديوان وقت الضحى فيخلو بنفسه حتى الظهر . وبعد صلاة الظهر يتخذ مجلسه ، ويجتمع عنده جلساؤه ، ويقرأ بين يديه جزء من

(١) المصدر نفسه ، ص ١٦٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٢٤ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٤٠ .

(٤) ابن خلكان ، مجلد ٢ ، ص ١٤٨ ، ويمكن الاطلاع على امثلة اخرى بالرجوع الى ابن جبير ، ص ١٨٥ و ١٩٠ .

الحدث على شيخ من كبار المحدثين . وكان من عادة الوزير ان يكرم هذا الشيخ باجلاسه الى جانبه . ثم يتكلم الفقهاء ويتداولون المسائل الفقهية ، والنظام جالس خافض اراسه ، يسمع كل ما يجرى في مجلسه ، ويسأل اهل مجلسه عن حوائجهم " وينعم بالاموال الطائلة والهبات الجزيلة . ويقال : كان يتصدق في بكرة كل يوم بمائة دينار" (١) .

ويورد الشيرازي وصفا للصورة التي كان الناس يجلسون عليها في مجلس الملك ، ورغم ان الشيرازي لا يصف ملكا بعينه ، اى انه يضح صورة عامة مجردة ، الا اننا نعتقد انه استجمع هذه الصورة مما كان يعرفه عن حياة الملوك وقواعدهم . ولو اضفنا الى ذلك انه الف كتابه للسلطان صلاح الدين ، فالارجح ان هذه الصورة تنطوى على بعض الواقع ، على الاقل ، وان كنا نميل الى الظن انها لم تكن تطبق بحذافيرها دائما .

فهو يقول ان الآداب الملكية تقتضي ان يجلس اصحاب الملك واعوانه واولياؤه ثلاث مراتب : ففي المرتبة الاولى ، وهي الدنيا حسب ترتيبه ، يجلس الجند والغلمان . ويجلس في المرتبة الثانية القواد المتوسطون الذين يوليهم الامراء بعض الاعمال ، ويجلس معهم الطواشية وغيرهم . اما المرتبة الثالثة فهي مخصصة للامراء والاكابر الذين يخطب لهم على المنابر ويتولون الاعمال . ومن يجلس مع هذه الطبقة كبار الحجاب والقضاة والعلماء . وتعرف هذه المرتبة بدلهيز الخاصة ، ومكانها قريب من الستارة . وعند جلوس الناس لا يسمع ان يختلط قوم باخرين ولا ان يعلو احد على من هو فوقه مرتبة . ويتولى الحجاب مراقبة ذلك وتنفيذه ، فاذا اقدم احد على الجلوس في غير منزلته اقاموه . اما صاحب الحجاب فيجلس ملاصقا للوزير والي الباب الذي يصل منه الى الملك . ويمسك بالستارة المسبلة على الباب بوابون اشداء ، ولا يطلقونها لاحد ليطلع منها على صحن الدار ، حيث

يجلس الملك^(١) . وقد سبق ان اشرنا الى ما يقوم به الحاجب من ادخال الاعيان على الملك ، واحدا واحدا .^(٢)

ومن الآداب التي يجب على الوزير ان يراعها وهو ماثل بحضرة الملك ان يمسك بيده مؤية صغيرة يروح بها على على الملك . وفي هذه الاثناء ينبغي ان يكون صاحب الحجاب واقفا على بعد ، بحيث اذا نودى اجاب . وبعد ذلك يخرج الوزير ومعه الحاجب فيجلسان في دهليز الخاصة وينظران في اعمال الدولة المهمة وحوائج الناس^(٣) .

وعند ما يسير الموكب الملكي ، تتقدمه مجموعة من العجائب ، كما سبق ان ذكرنا ، يخلون الطريق ، وتسير امام الملك وعلى جانبيه خيول مسوفة عليها احسن العدد . اما الوزير فيسير خلف الملك بحيث اذا دعاه اجاب ، دون ان يحوج الملك الى الالتفات الى الوراء بعنقه . وعند ما ينهي الملك كلامه يعود الوزير الى مكانه^(٤) .

ويكون خلف الوزير رؤساء الخدم ومختلف طبقات العساكر ، وبغال تحمل الشراب واخرى تحمل الماء . وهناك خادم يحمل الجوائز في صرر ذات مبالغ متنوعة ، من خمسة دراهم الى مائة الف ، فاذا امر الملك بهبة عرف الكيس الذي يحتويها فصرفه . ويلزم ان يسير في الموكب الملكي العلماء والفقهاء والمؤذنون والفضلاء^(٥) .

ومن الافضل الا " يكثر الملك من الركوب ، فان هيئته كالاسد في قلوب اهل البلد . . . ولا يتحجب فان ذلك مضر بالملك ، بل يكون التحجب والظهور بقدر الحاجة بهم ، فان

(١) الشيزري ، المنهج السلوك ، ص ٦٩-٧٠ .

(٢) انظر ما سبق ، ص ١٢٨ .

(٣) الشيزري ، المنهج السلوك ، ص ٧١ .

(٤) المصدر نفسه والصفحة ذاتها .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٧١-٧٢ .

السباع الكاسرة اذا لم تشاهد الراعي بلغت مرادها من الغنم" (١) .

رجال الدين :

شهد العصر السلجوقي انتعاش المذاهب السنية من الناحية السياسية ، اذ دالت دولة بني بوية الشيعة ، وانتزعت بلاد الشام من ايدي الفاطميين ، وانتهى الامر بازالة الخلافة الفاطمية ذاتها . وقد استغرقت هذه العملية كل الفترة التي ندرسها . وفي هذه الاثناء كان الحكام يبذلون جهودا كبيرة للقضاء على نفوذ المذاهب الشيعية ، فشهدت فارس والعراق والشام جهودا تكاد تكون متواصلة في هذا السبيل ، ولم يستثن السيف وعمليات الابداء من الوسائل التي تدرع بها اهل السنة (٢) . وقد ساهم رجال الدين من السنة بنصيب وافر في هذا الميدان ، وكانوا يضغطون باستمرار ، كلما رأوا من السلطة بعض تراخ ، ويجرضون عامة السنة على الاشتباك مع مخاليفهم (٣) . ومن جراء ذلك نرى الاشتباكات بين السنة والشيعة في بغداد تكاد لا تنقطع ، وكانت السلطة تقف بجانب السنة في اغلب الاحوال (٤) . وكان الشيعة يجبرون على محو شعارهم المفضل الذي كانوا يكتبونه على مساجدهم ، محمد وعلى خير البشر ، ويجبرون على كتابة شعار السنة : خير الناس بعد محمد ابو بكر وعمر وعثمان ثم علي (٥) . وفي سنة ٥٠٠هـ / ١١٠٧م ورد بغداد رأس مقدم الباطنية بقلعة اصفهان ورأس ولده ، وكان السلطان محمد بن ملكشاه قد

(١) المصدر نفسه ، ص ٧٢ .

(٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٢٩ و ٤٧-٤٨ ، الكاتب الاصفهاني ، خريدة القصر ، مجلد ٢ ، ص ١٠٦٨ ، ابن قاضي شهبه ، ٧-٨ .

(٣) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ص ٢٤٠ و ٢٧٧ ، مجلد ٩ ، ص ٢٦-٢٧ و ص ٤٧-٤٨ مثلاً .

(٤) المصدر نفسه ، والصفحات ذاتها .

(٥) المصدر نفسه ، مجلد ٨ ، ص ١٧٢ .

وجه جهودهم للقضاء عليهم بعض ان ظلوا في تلك القلعة اثني عشرة سنة يقلقون البلاد بغاراتهم (١) . ويحدثنا ابن جبير ان بلدة الباب في منطقة حلب كان اهلها يدينون بالمذهب الاسماعيلي ، فتجمع اهل البلاد المجاورة واعملوا فيهم السيوف حتى افنؤهم عن آخرهم (٢) . كذلك ذكر ابن جبير ان جماعات الفتوة ببلاد الشام كانت تقتل الروافض ايضا وجدتهم (٣) .

ان ما صاحب هذه العمليات السنية من ظاهرة نشر المدارس لتعليم مذاهب السنة ، وانتشار ونشر الحركة الصوفية بيناء الرباطات والخوانق واغداق الاوقاف عليها يحمل الباحث على الظن بان هذه الحركة التعليمية والدينية كانت تهدف الى تعضيد الجهود التي مارسها الحكام لدخرا التشيع . وربما ساعدنا هذا الغرض على فهم اهمية رجال الدين ، بشقيهم الثقافي والصوفي في المجتمع .

وفضلا عن مساهمتهم في محاربة التشيع فقد كان الفقهاء والعلماء هم العارفون بالدين والامناء على الشريعة في مجتمع يستند كيانه السياسي وحياته العقلية غلي الفكرة الدينية بدرجة كبيرة . يضاف الى ذلك ان الحكام كانوا ينتظرون من الفقهاء الدعم والتأييد الذي يطوع لهم الرعية . لهذا لا نجد غرابة في قيام تحالف بين رجال الحكم ورجال الدين ، بغض النظر عما اذا كان ذلك التحالف عن وعي او عن عفوية ، وسواء تم بالتفاهم الصريح ام بادراك كل فريق ما يريد من الآخر ادراكا قلبيا او غريزيا صامتا .

ولدينا كثير من الشواهد على ان الحكام كانوا يحرصون على كسب رضا رجال الدين وتأبيدهم ، فعندما تزهد الفقية على بن الحسن الصندلي وانقطع عن زيارة السلاطين قال له

(١) المصدر نفسه ، مجلد ٤٩ ، ص ١٥٠-١٥١ .

(٢) ابن جبير ، ص ٢٠٢ .

(٣) ابن جبير ، ص ٢٢٧ .

السلطان ملكشاه بن الب ارسلان في الجامع؛ لم لا تجي' الي ؟ ، فرد بقوله : " اردت ان تكون من خير الملوك حيث تزور العلماء ولا اكون من شر العلماء حيث ازور الملوك " (١) .

وكان الوزير نظام الملك يعظم الفقهاء ، وكان مجلسه عامرا بالعلماء في اغلب الاوقات . حتى ان بعض خلصائه نصحوه بالحد من ذلك حتى لا يشغله الفقهاء عن اعمال الدولة ، فرد بقوله : " هذا للطائفة اركان الاسلام ، وهم رجال الدنيا والآخرة ، ولو اجلست كلا منهم على رأسي لاستقلت لهم ذلك " (٢) . وقد اعطى السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه الى الفقيه احمد بن محمد الغزالي ، الواعظ (ت ٥٢٠ هـ) ، اخي ابي حامد الغزالي ، الف دينار (٣) . وكان امراء عساكر نور الدين محمود يتقنون بين يديه ، ولا يجرون على الجلوس الا اذا امرهم ، ومع ذلك فقد كان اذا دخل عليه الفقيه يخف لاستقباله ، ويمشي بين يديه ، ويجلسه بجانبه (٤) . وكان نور الدين حريصا على التقرب من الفقهاء والوعاظ ، فقد ذكر ابن الجوزي ان نور الدين كاتبه مرارا (٥) ، كما كان يكاتب الفقهاء والعباد والزهاد في جهات كثيرة ، فعندما استقر رأيه على فتح حصن حارم ودعا الملوك المجاورين لدولته لموازنته عزم فخر الدين قرا ارسلان ا على التخلف ، الا انه عاد فقرّر الذهاب ، فلما سأل أصحابه عن سبب ذلك ، رد بان اهل بلاده سيخرجون عن طاعته ان تخلف ، لان نور الدين " كاتب زهادها وعبادها . . . يستمد منهم الدعاء " ويطلب منهم ان يحثوا المسلمين على الغزاة . . . " (٦)

(١) ابن ابي الوفاء ، ج ١ ، ص ٢٥٧ .

(٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٦٩ ، ص ٦٥ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٦٠ .

(٤) ابن قاضي شهبه ، ص ٢٧ .

(٥) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ١٠ ، ص ٢٤٩ .

(٦) ابن الاثير ، الباهر ، ص ١٢٣ ، وانظر ابا شامة ، الروضتين ، مجلد ٦١ ، قسم ٢ ، ص ٣٤٠ .

ونحن نعتقد ان تقوى نور الدين محمود كان لها اثر كبير في دفعه للتقرب من الفقهاء ورجال الدين ، بجانب رغبته في الاستفادة من دعمهم وتأبيد هم لسياسته .

وما ساعد على ازدياد مكانة الفقهاء انهم الفئة التي كان يختار من بينها القضاة .
ولم يكن اختصاص القضاة محصورا في نظر القضايا واصدار الاحكام ، بل كانوا يتولون
الاشراف على الاوقاف ، والوصايا ، والتركات (١) . ولكي ندرك اهمية هذا الجانب من عملهم
علينا ان نتذكر ان الاوقاف كانت عظمة المقدار في ذلك الزمان ، اذ ان التعليم والمستشفيات
وكثير من المنافع العامة كانت تعتمد في استمرارها على اوقاف تعين لها ، كالبساتين ،
والطواحين وغيرها . وقد لاحظ ابن جبيران الاوقاف تكاد تستغرق كل اراضي دمشق
ونواحيها (٢) .

ونظرا لمكانة الفقهاء فقد كانوا ينتدبون للسفارة بين الملوك والحكام في اوقات السلم
والحرب ، وفي ظروف مختلفة . فقد وجه الخليفة القائم الفقيه والقاضي ابا الحسن الماوردي
الى طغرل بك سنة ٤٣٥ هـ ، ليعنفه على ما سببه جنوده من تخريب بنواحي الري (٣) ، وفي
سنة ٤٥١ هـ انفذ السلطان طغرل بك الفقيه الاشعري احمد بن فورك برسالة الى امير
الموصل قريش بن بدران ، وقد وصف طغرل بك رسوله بانه " الاستاذ العالم فخر العلماء " بن
فورك من اعيان العلماء بخدمة دولتنا ، المتخصصين بشرف ايجابنا ودعوتنا (٤) .
وعندما انتهكت حروب الوراثة السلطان بركياء روق ارسل القاضي ابا المظفر الجرجاني ، واما
الفرج احمد بن عبد الغفار الهمداني ، ليتوسطا في اصلاحه مع اخيه السلطان محمد ، وقد تم

(١) الامام ابو حامد محمد بن محمد الغزالي ، احياء علوم الدين (القاهرة : مكتبة ومطبعة
محمد علي صبيح واولاده ، د . ١٩٠٠) ، ج ١ ، ص ١٩ ، السمعاني ، مجلد ٤ ، ص ١٥ - ١٦ .

(٢) ابن جبيرة ، ص ١٨٣ و ٢٢٣ ، انظر ايضا ابن الساعي ، جهات الخلفاء ، ص ١١١ - ١١٢ ،
والسبكي ، مجلد ٤ ، ص ٣١٩ .

(٣) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ص ١١٦ .

(٤) ابن الغوطي ، مجلد ٤ ، قسم ٣ ، ص ٩٧ .

الصلح سنة ٤٩٧هـ (١) . وعندما استطال ينال بن انوشكين ، احد مقدمي جيوش
السلطان محمد ، على اهل بغداد راسله الخليفة المستظهر بقاضي القضاة الدامغاني ،
ليكشف عن ظلمه (٢) . وراسل السلطان بركياروق بن ملكشاه لبراهيم بن مسعود الغزنوي بالفقيهابي
الحسن الطبري ، المعروف بالكيا (٣) . وفي سنة ٥١٣هـ راسل السلطان سنجر الخليفة
المسترشد بالقاضي الهروي (٤) . وثمة اشارة تحمل على الاعتقاد بان السفارة كانت
في بعض المناطق والاحوال وظيفة ومنصبا رسميا دائما ، لا مهمة طارئة تجدد كلما جد
طاري ، فقد ذكر ابن طولون ان السلطان صلاح الدين اراد ان يولي الفقيه عبد الله بن ابي
عصرون قضاة دمشق ، وكان القاضي بها ضياء الدين بن تاج الدين الشهرزوري ، الذي
كان لا بد من عزله لتحقيق ما اراده السلطان ، " فاعفي ، وترك له وكالة بيت المال
والسفارة الى الملوك . وولى السلطان ابن ابي عصرون . . . (٥) .

وفضلا عن ذلك فقد كان الفقهاء يمثلون النخبة المثقفة في المجتمع ، وكان تأثيرهم
على العامة كبيرا ، ونستطيع ان نتبين مدى تأثير الفقهاء على العامة من بعض ما تورد
المصادر من امثلة ، ففي سنة ٤٨٦هـ مر ببغداد واعظ فقيه من اهل مروء عائد من الحج ،
فجلس للوعظ بالمدرسة النظامية ، فتكاثر عليه الناس " حتى امتلا صحن المدرسة واروقتها
وبيوتها وغرفها وسطوحها ، وعجز المكان ، فكان يجلس في قراح ظفرو ، وفي كل مرة يتضاعف

(١) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٣٧٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٥٤ ، وانظر ص ٣٥٧ .

(٣) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ١ ، ص ١٠٩ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٠٩ .

(٥) ابن طولون ، صلواته .

الجمع . . . وكان النساء اكثر من ذلك، فكانوا على سبيل الحزر ثلاثين الفا . . . وكانوا اذا تكلم ضججوا وهاموا، وترك الناس معاشهم، وحلق اكثر الصبيان شعورهم وأووا الى المساجد . . . وارىقت الانبذة والخمورة وكسرت آلات الملاهي^(١) . وذكر ابن الجوزي ان احد المجالس التي وعظ بها هو، اى ابن الجوزي نفسه، قدر الحضور فيه بمائة الف . "وتاب خلق كثير، وقطعت شعورا، ثم نزلت فمضيت الى زيارة قبر احمد، فتبعني من حزر بخمسة آلاف"^(٢) . وقال ان الخليفة والوزير وصاحب المخزن وكبار العلماء كانوا يحضرون مجلسه، وان عدد الشباب الذين جز نواصيهم بلغ اكثر من عشرين الفا^(٣) . ويؤيد ما ذكره ابن الجوزي عن نفسه وصف ابن جببر الذي حضر بعض هذه المجالس في طريق عودته من الحج . فيقول ان الواعظ ابن الجوزي اطار قلوب مستمعيه "الى ان علا الضجيج وتردد بشهقاته النشيج ، واعلن التائبون بالصياح ، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح ، كل يلقي ناصيته بيده، فيجزها، ويمسح على رأسه داعيا له . ومنهم من يغش عليه فيرفع في الاذرع اليه . . ."^(٤)

هذا، ولا يفوتنا ان ننوه بالجهد الكبير والنشاط الواسع الذي قام به الفقهاء في حقل التعليم والكتابة والتأليف مما سنتعرض له في الفصل الخاص بالحياة العقلية^(٥) وقد برز من بين الفقهاء رجال ادركوا قيمة الوقت وقيمة العلم، فحرصوا على الاستفادة من كل

(١) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٤٩ ، ص ٢٥٠-٢٦٠ .
(٢) المصدر نفسه ، مجلد ١٠ ، ص ٢٨٤ .
(٣) المصدر والصفحة ذاتهما .
(٤) ابن جببر ، ص ١٢٧ .
(٥) انظر ص ١٤٧-٨ فيما سيه نسبق .

دقيقة من حياتهم . (١)

غير ان محتوى علمهم وحصيلته نشاطهم — من ناحية اخرى — كانت ادنى بكثير من حجم هذا النشاط وزخمه ، الامر الذى لا يشجع الباحث على النظر اليهم باحترام كبير . ورغم هذه المكانة التي تمتع بها الفقهاء والعلماء فان دورهم في توجيه الاحداث السياسية الكبرى في الدولة والمجتمع كان تافها ، ثم انهم من جهة ثانية قصرُوا — في اعتقادي — تقصيرا شنيعا عن رؤية مصادر الالام التي كان المجتمع يعاني منها أشد المعاناة ، ولم يكونوا أهلا لقيادة المجتمع ، رغم ان مركزهم كان مركز قادة ، فكانوا قادة خاملين بلداً متحجرين . ومما تجدر الاشارة اليه ان الفقهاء لم يكن لهم أى تنظيم يضمهم ، مثل التنظيمات الكنسية المعروفة في المسيحية ، ولكنهم انقسموا الى تكتلات مذهبية لا ترقى الى درجة التنظيم ، بل هي بعيدة عنه بعدا كبيرا . وكان التنافس والتنازع والاحقاد بين هذه المذاهب شديدة ، وكان محور الاختلافات شكلية تافهة لا مسار لها بحياة الناس ، حتى ولا بأصول المعتقدات . (٢) لقد عرف العصر السلجوقي علماء جديرين بالاحترام ، لترفعهم عن المطامع واحتقارهم للمغريات المادية (٣) ، بغض النظر عن تقصيرهم في ادراك مشاكل الامة ، بيد ان هذا النوع من العلماء كانوا أقلية ضئيلة . في حين ان أكثر العلماء كانوا منافقين متلونين ، يتهافون على المناصب والمطامع . وفي ذلك يقول الامام الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) ان علماء

(١) انظر ص ١٥١ فيما سبق .

(٢) انظر ص ١٣٨ — ١٣٩ فيما سبق .

(٣) انظر مثلاً : ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٩٥ و ١١١ و ١٧٣ ؛ القفطى ، انباء السرواة ، مجلد ٢ ، ص ٢٧٩ — ٢٨٣ ؛ ابن رجب ، مجلد ١ ، ص ٢٤١ .

عصره قيدت الاطماع السنتهم فسكتوا . " وان تكلموا لم تساعد اقوالهم احوالهم ، فلم ينجحوا .
ولو صدقوا وقصدوا حق العلم لافلحوا . ففساد الرعايا بفساد الملوك ، وفساد الملوك
بفساد العلماء ، وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه عليهم (١) . ويعترف
الغزالي انه كان هو نفسه يعمل كما يعمل غيره من العلماء ، في سبيل الحصول على
المال والجاه والابهة ، وظل هذا الشعور يعذبه الى ان اقتنع ان الخلاص انما يكون في
طريق التصوف (٢) . وقد وصف ابو الوفاء بن عقيل (ت ٥١٣ هـ) كبير فقهاء الحنابلة في
عصره ، ظاهرة نفاق العلماء وتهافتهم على المال والمناصب ، وكيف انهم كانوا يتلونون
بلون ارباب الحكم ، وكيف ان بعضهم كان يتقرب الى الوزير ابن جهير برفع الاخبار اليه .
وعندما ارتفع شأن نظام الملك في السلطنة ، وكان يميل الى الاشاعة ، انقلب بعض الحنابلة
المتشددين ، الذين كانوا يناوئون ابن عقيل متهمين اياه بالتراخي في حنبليته ، والميل الى
الاشعرية ، لمجرد انه كان يعارض التشدد ، انقلب هؤلاء الى اشاعة متحمسين ، وصاروا
يهاجمون ابن عقيل على اساس انه حنبلي متزمت . كل ذلك " طمعا في العز والجرايات " (٣) .
ويتفق الامام الغزالي مع ابن عقيل في اتهام علماء ذلك العصر بالتهافت على المناصب
والاموال ، والتقرب من الحكام من اجل ذلك (٤) .

وكان عدد الفقهاء كبير جدا ، لدرجة ان الغزالي تذر من كثرتهم ، وقال ان
" البلد مشحون بالفقهاء " (٥) في حين لم يكن هناك اقبال على علوم الطب والحساب

(١) الغزالي ، الاحياء ، ج ٢ ، ص ٣١٢ .

(٢) ابو حامد محمد بن محمد الغزالي ، المنقذ من الضلال مع ابحاث في التصوف ودراسات
عن الامام الغزالي بقلم عبد الحليم محمود (القاهرة : دار الكتب الحديثة ، ١٩٦٨) ،
ص ١٢٩ .

(٣) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٩٣ .

(٤) الغزالي ، الاحياء ، ج ١ ، ص ١٩ .

(٥) المصدر نفسه ، والصفحة ذاتها .

لانها لا تجلب المنافع التي كانت تجلبها العلوم الفقهية (١) . ومن مظاهر كثرة عدد الفقهاء ان السلطان محمد بن ملكشاة خرج من دار السلطنة ببغداد يوما فرأى حول الدار نحو اربع مائة فقيه ، فامر بكسوتهم جميعا (٢) .

والصنف الثاني من رجال الدين هم الصوفية . وقد سلك هؤلاء طريقا غير طريق الفقهاء ، وعاشوا حياة مختلفة عن حياتهم . ذلك ان الكثيرين منهم اقاموا في الرباطات والخوانق التي انتشرت في المدن الكبيرة (٣) وفي الاماكن النائية على حد سواء (٤) . واتخذت بعض جماعاتهم مراكزها في منطقة البطائح ، في جنوب العراق (٥) ، وفي جبال الهكارية بمنطقة الموصل (٦) . كما اتخذ بعضهم من جبال لبنان مقرا للخلوة والتعبد (٧) . وبينما تركز الفقهاء في المدن ، وعاشوا في عزلة نسبية عن سواد الناس ، نظرا للفرق بين مستواهم الثقافي والعقلي ومستوى العامة ، نجد ان بعض دعاة المتصوفة اختلطوا بالناس واقتربوا من العامة وربطوا الكثيرين منهم بعجلتهم . ويبدو لي ان مما ساعدهم على هذا النجاح كون الدخول في سلك الصوفية لا يحتاج الى كبير علم او ثقافة كبيرة . واذا كان الفقهاء قد اسرفوا في الاهتمام بالشكليات والتنطع في المجادلات الجوفاء الجافة فقد خاطب دعاة الصوفية عواطف العامة ، ولجأ بعضهم الى اساليب الشعوذة التي تنطلي على السذج وترضي الجهلة .

(١) الغزالي ، الاحياء ، ج ١ ، ص ١٩ .

(٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٤ ، ص ١٥٦ .

(٣) بلغ عدد الرباطات التي انشئت في بغداد في العصر السلجوقي ثمانية وعشرين رباطا .

(٤) انظر ابن جبيرة ، ص ١٩٨ و ٢١٩ و ٢٢٣ و ٢٣١ و ٢٣٣ ، مثلا .

(٥) عبد الوهاب الشعراني ، الطبقات الكبرى المسماة بلوائح الانوار في طبقات الاخيار (القاهرة : ١٣١٥ هـ / ١٨٩٧ م) ج ١ ، ص ١٢٠ .

(٦) ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ٤١٧ - ٤١٨ .

(٧) ابن عساكر ، ج ٢ ، ص ٢٩٩ ، ابن جبيرة ، ص ٢٣٣ ، ابن شداد ، مجلد ٢ ، قسم ٢ ، ص ٣٥ .

ويمكن ان يضاف الى الاسباب التي ساعدت على انتشار الحركة الصوفية ما كان يرصد للرباطات من اوقاف تدر الاموال التي توفر لنزلاتها ونزيلاتها حياة وادعة ، بعيدة عن الجو العام الذي يعوج بالاضطرابات والفوضى ، وتكفيهم مؤونة الكدح في سبيل العيش .
فالشيخ احمد الرفاعي (ت ٥٧٠هـ) ، مثلاً ، اقام بمنطقة ام عبيدة بارض البطائح بالعراق ورعى الكثيرين من المريدين " وتلمذ له خلائق لا يحصون " . وتبعه اهل القرى المحيطة بام عبيدة (١) . والشيخ عدى بن مسافر الهكاري الذي نسبت اليه طائفة العدوية ، صحب الكثيرين من اعيان الصوفية ، ثم اعتزل في جبال الهكارية ، بمنطقة الموصل وبنى له بها زاوية ، فمال اليه اهل تلك المناطق لدرجة لم يسمع بها من قبل ، وتبعه اناس كثيرون ، وبالفوا في اعتقادهم فيه " حتى جعلوه قبلتهم التي يصلون اليها ، وذخيرتهم في الاخرة التي يعملون عليها " (٢) .

وكان بعض الصوفية يختارون العزلة للتعبد والتأمل ، وربما عاد الواحد منهم بعد فترة وخالط العامة ودعاهم الى اتباع طريقته ، وربما اقام باحد الربط ، فالغزالي ، مثلاً ، اعتزل الناس ، ثم بنى رباطاً للصوفية . وقد ألف بعد ان اعتزل اروع كتبه الاحياء ، والمنقذ من الضلال (٣) . والشيخ ابو النجيب عبد القاهر السهروردي تلقى الفقه في المدرسة النظامية ببغداد ، ثم مال الى التصوف ، وانقطع عن الناس مدة طويلة ، ثم

(١) السمعاني ، مجلد ٤١ ص ٣٦٣ ، ابن خلكان ، مجلد ٢ ص ٣٧٣ ، الشعراني ، ج ١ ص ١٢٠-١٢١ .

(٢) ابن خلكان ، مجلد ٢ ص ٤١٧ .

(٣) الغزالي ، المنقذ ، ص ١٣١ و ١٤٠-١٤٧ ، ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ١٦٩ ، ابن خلكان ، مجلد ٣ ص ٣٥٣ - ٣٥٤ .

رجع ودعا جماعة الى الله... فرجع بسببه خلق كثير الى الله تعالى ، وبنى رباطا...
بيغداد ، وسكنه جماعة من اصحابه... (١)

وكان الشيخ احمد بن محمد بن دوست يجمع اعدادا من المتصوفة ويدور بهم على
قبائل العرب فينتقل من حلة الى حلة ، وكان ينزل - احيانا - عند صديقه الصوفي ابي
بكر الطريشي الذي كانت له زاوية في البادية (٢) .

وكان الكثيرون من الاغنياء والحكام الاتقياء ، او السامعين الى الشهرة ، يبنون الرباطات
للمتصوفة ويوقفون عليها الاوقاف التي تقوم بنفقة نزلائها (٣) . وكانت هناك رباطات للنساء
اسوة برباطات الرجال (٤) .

وقد شارك بعض المتصوفة في النشاط العلمي لعصرهم ، فهناك من جمع بين التصوف
ورواية الحديث ، مثل احمد بن محمد الطريشي (ت ٤٨٧) الصوفي المحدث الذي سمع
بمصرود مشق وبيت المقدس (٥) ، واسماعيل بن احمد ، اوبو البركات ، المعروف بشيخ الشيوخ
(ت ٥٤١ هـ) (٦) ، والحسن بن الحسين الاندلسي ، الذي كان شيخ وقته وكان ذا طريقة
حسنة في تربية المريدين ، وقد سمع منه الحديث (٧) . كما كان من بين المتصوفة فقهاء ،

(١) ابن خلكان ، مجلد ٢ ، ص ٣٧٣-٣٧٤ .

(٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٦٩ ، ص ١١ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١١ و ٤٦ و ٥٩ و ١٨٤ و ٢٣٨ ، ابن جبير ، ٢٢٣ ، ابن
الغوطي ، مجلد ٤٤ ، قسم ١ ، ص ١٥٨ .

(٤) ابن عساكر ، مجلد ٢ ، قسم ١ ، ص ١٥٨ ، وابن شداد ، مجلد ١ ، قسم ١ ، ص ٩٥ ،
ومجلد ٢ ، قسم ٢ ، ص ٢٦ .

(٥) ابن عساكر ، ج ٢ ، ص ٥٤ .

(٦) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٢ .

(٧) السمعاني ، مجلد ١ ، ص ٣٣٦ .

ووعاظ ، ومفسرون ، ومتكلمون ومقرئون وشعراء وأدباء ، مثل أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن
القشيري ، الفقيه المفسر المحدث الأصولي المتضلع في الأدب والشعر والكتابة وعلم التصوف ،
صاحب المصنفات ^(١) ، وعلي بن عقيل ، أبو الوفاء ، المقرئ الفقيه الصوفي الواعظ
الأصولي ^(٢) ، وسعد الله بن نصر اللعالي دجاني ، الواعظ الشاعر الصوفي ^(٣) ، وعين
القضاة أبو المعالي عبد الله بن محمد الميانجي ، الصوفي الفقيه الأديب الفيلسوف ^(٤) ،
ومحمد بن نباء ، أبو البيان القرشي ، المعروف بابن الحوراني ، الذي كان أديبا لغويا شاعرا
فقيها زاهدا متصوفا ، وكان شيخ الطريقة البيانية بدمشق ^(٥) . وقبل هؤلاء جميعا
وفوقهم من حيث الأهمية أبو حامد الغزالي ، الملقب بحجة الإسلام ، الذي ساهم مساهمة
جديرة بالتقدير ، في ميدان الحياة العلمية والتعليمية ، وخلف عددا كبيرا من المصنفات
التي بذت ما نعرفه من مؤلفات علماء ذلك العصر ^(٦) . وغير هؤلاء كثيرون .
ويبدو أن الحركة الصوفية غشيتها التفسخ قبل عهد السلاجقة وظل ملازما لها ، إذ
يبدى عبد الكريم بن هوازن القشيري (ت ٤٦٥ هـ) ، صاحب الرسالة ، تألمه لما آلت
إليه أحوال الصوفية في عصره ، ذلك " أن المحققين من هذه الطائفة انقضوا أكثرهم ، ولم
يبق في زماننا . . . إلا أثرهم . . . لا بل اندرست الطريقة بالحقيقة . . . وزال الورع
واشتد الطمع . . . وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق

(١) ابن خلكان ، مجلد ٢ ، ص ٣٧٥-٣٧٧ .

(٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٢١٢-٢١٣ .

(٣) أبو عبد الله محمد بن شاكر الكشي ، فوات الوفيات ، بتحقيق محيى الدين عبد الحميد
(القاهرة : مكتبة النهضة ، ١٩٥١) ، مجلد ١ ، ص ٣٤١ .

(٤) ابن الغوطي ، مجلد ٤ ، قسم ٢ ، ص ١١٣٠-١١٣٢ .

(٥) ياقوت ، معجم الأدباء ، مجلد ١٩ ، ص ٢١٣ .

(٦) ان شهرة الغزالي تغني عن ذكره انظر ترجمته في : ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ،
ص ١٦٨-١٧٠ ، ابن خلكان ، مجلد ٣ ، ص ٣٥٣-٣٥٥ .

ذريعة ٠٠٠ واستخفوا باداء العبادات ٠٠٠ وركتوا الى اتباع الشهوات وقلة المبالاة بتعاطي المخطورات ، والارتفاق بما يأخذونه من السوق والنسوان ، واصحاب السلطان ٠٠٠ وادعوا انهم تحرروا عن رق الاغلال وتحققوا بحقائق الوصال ٠٠٠ وليس لله عليهم فيما يؤثرونه او يذرونه عتب ولا لوم ، وانهم كوشفوا باسرار الاحدية ، واختطفوا عنهم بالكلية (١) ، وزالت عنهم احكام البشرية (٢) . وقد حاول القشيري في رسالته اصلاح هذه الحال ورأب الصدع الذي قام بين فئات من المتصوفة من ناحية واهل السنة من ناحية اخرى (٣) . وقد اشار ابو حامد الغزالي الى ما يدعيه " بعض من يدعي التصوف انه قد بلغ حالة بينه وبين الله تعالى اسقطت عنه الصلاة واحلت له شرب الخمر والمعاصي واكل مال السلطان ٠٠٠ (٤) وهذا الصنف ، في رأى الغزالي ، " ممن لا شك في وجوب قتله ٠٠٠ وقتل مثل هذا الفضل من قتل مائة كافر، اذ ضرره في الدين اعظم ، وينفتح به باب من الاباحة لا ينسد " (٥) . وقام الغزالي بمحاولة ، كسابقة القشيري ، للتوفيق بين التصوف والتسنى (٦) .

ويبدو لي ان اتساع حركة التصوف ، وتغلغلها في صفوف العامة ، في الحضرة والريف والبادية ، كان من اهم العوامل التي حولت كثرة الناس الى مذاهب اهل السنة ، تلك العملية

(١) اى جذبت قلوبهم وارواحهم للحق جذبا سريعا . (وهذه الحاشية لمحقق كتاب الرسالة القشيرية) .

(٢) ابو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري ، الرسالة القشيرية ، تحقيق عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف (القاهرة : دار الكتب الحديثة ، ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٦ م) ، مجلد ١ ، ص ٢٠-٢١ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٥٥ ، مثلا .

(٤) الغزالي ، فيصل التفرقة ، ص ١٩٧ .

(٥) المصدر نفسه ، والصفحة ذاتها .

(٦) الغزالي ، المنقذ من الضلال ، ص ١٢٦-١٣٩ و ١٤٨ ، والاحياء ، ج ١ ، ص ١٥-٢٦ .

التي احتاجت سنين طويلة ، والتي بلغت غايتها بعد عصر السلاجقة بزمان طويل ، كما ذكرنا .

المرأة ،

حددت الشريعة الاسلامية للمرأة وضعاً يختلف عن وضع الرجل من بعض الوجوه ،
فالبقاء في البيت اولى من الخروج (١) ، والمرأة لا يحق لها ان تسافر الا ومعها زوجها
او احد محارمها كما ان من المحذور عليها ان تختلي باجنبي (٢) . هذا فضلا عن قضية
الميراث وقضية الشهادة . وقد تأثرت حياة المرأة بهذه التعليمات الشرعية تأثراً
كبيراً رغم ان هذه التعليمات لم تلق التزاماً بها بصفة كاملة دائماً .

ومن هنا ينبغي ان لا يتوقع الباحث ان يجد معلومات عن حياة المرأة العربية

تساوى او تقارب المعلومات المتوفرة عن نشاط الرجال .

ومع ذلك فاننا نجد امثلة — وان كانت قليلة — لنساء ساهمن في الحياة العامة ،
السياسية والعلمية ، فقد سبق ان ذكرنا نشاط ارملة السلطان ملكشاه وجهودها الرامية
الى حفظ العرش لابنها السلطان محمود بن ملكشاه (٣) . ولد لنا عدد من الامثلة لنساء
ساهمن في الحركة العلمية ، كفاطمة بنت علي المؤيد المعروفة ببنت الاقرع المحدثه ،
كاتبة الخط الحسن . وقد اهلها حسن خطها لان تكتب كتاب الهدنة الذي صدر عن
دار الخلافة الى ملك الروم . وقد سافرت الى بلاد الجبل وكتبت ورقة لعמיד الملك الكدرى ،
وزير السلطان طغرل بك ، فاعطاها الف دينار (٤) . وقد بلغ من مكانة المرأة ان كبار

(١) سورة الاحزاب ، اية رقم ٣٣ .

(٢) ابن ابي الوفاء ، ج ٢ ، ص ٢٧٦ .

(٣) انظر ما سبق ، ص ٥١ — ٥٢ .

(٤) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٤٠ .

العلماء في ذلك العصر لم يجدوا اى حرج في تعداد استاذاتهم من النساء، فقد ذكر
الفقيه الحنبلي ابو الوفاء بن عقيل ان ممن تلقى العلم عنهم امرأة تدعى الحرانية ، واخرى
تعرف ببنت الجنيد (١) . ويطلق ابن الجوزى على المحدثه شهدة بنت الابرى لقب
شيختنا ، وينقل عنها الكثير من الروايات (٢) ، خاصة في كتاب ذم الهوى (٣) . وكانت
فاطمة بنت محمد بن احمد السجرقندى ، الفقيه الحنفى الكبير، زوجة الامام علاء الدين
الكاسانى ، فقيهة عالمة ، وعندما كانت الفتوى تخرج من بين ابيها ، قبل زواجهما ، كان
يظهر عليها توقيعها بجانب توقيع والدها . وعندما تزوجت كان توقيعها يظهر على الفتاوى
بجانب توقيع والدها وتوقيع زوجها . وقد سكن زوجها الشام في عهد نور الدين محمود
لعرف لها نور الدين مكانتها . وينسب اليها انها اول من سنت لفقهاء حلب سنة الافطار
في المدرسة الحلاوية ايام رمضان ، اذ تبرعت باسورتين للانفاق منهما على هذا الفرض ، ثم
جرت العادة به بعد ذلك (٤) هذه امثلة ، وهناك كثير غيرها لا يتسع المجال لذكرها .
وفضلا عن ذلك كانت هناك رباطات للصوفيات من النساء (٥) .
اما نساء العامة فقد كانت الكثيرات منهن يأسدن ازواجهن في العمل ، فلدينا بعض
الاخبار عن عمل بعضهن غسالات او خبازات في بيوت الاثرياء (٦) .

(١) المصدر نفسه، ص ٢١٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١١٧ ، ١٥١ ، ١٧٢ .

(٣) ابو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى ، ذم الهوى ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ومراجعة
محمد الغزالي (القاهرة : دار الكتب الحديثة ، ١٣٨١هـ / ١٩٦٢م) ، الصفحات
٤١٧ و ٥٣٦ و ٥٣٨ و ٥٤٥ و ٥٤٨ و ٥٥٣ و ٥٥٧ و ٥٦١ و ٥٦٣ و ٥٦٤ و ٥٧٤ و ٦٢٥ و ٦٥٤ ، مثلاً .

(٤) ابن ابي الوفاء ، ج٢ ، ص ٢٧٨-٢٧٩ .

(٥) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ١٠ ، ص ٧-٨ ، وابن شداد ، مجلد ١ ، قسم ١ ،
ص ٩٥ ، ومجلد ٢ ، قسم ٢ ، ص ٢٦ .

(٦) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ١٠ ، ص ٦٩ .

ولم يكن المجتمع يلتزم الحدود التي ارادها الفقهاء، لذلك نجد المحتسب يمنع عبور النساء مع الرجال في الزوارق^(١)، مما يدل على ان العبور المختلط كان يؤدى الى ما يخالف الشريعة، ومثل ذلك ما نقرأه تحذير الفقهاء مما يتبع اللقاءات العارضة التي كانت تحدث بين الجنسين، سواء على شطوط الانهار اوقات النزهة، او على ابواب الحمامات المخصصة للنساء^(٢)، او الاسواق . ويبدو ان محاولات كانتبذل من كل من الجنسين للاتصال بالجنس الآخر خارج حدود الشريعة، ان نرى الشيزرى يحذر المؤدب، اى معلم الصبيان، من ارسال صبي مع امرأة ليكتب لها خطابا، خوفا من ان يستغل الصبي بعض الرجال للاتصال بتلك المرأة^(٣). كما يحذر الشيزرى من تعليم الكتابة للنساء "لان ذلك مما يزيد المرأة شرا، وقيل ان مثل المرأة التي تتعلم الخط مثل الحية التي تمسق سمها" (٤) ورغم ان الشيزرى ربما كان يمثل آراء عدد من الناس، الا ان الآراء الغالبة لم تكن بهذا التشدد المسرف بدليل ما سقناه من امثلة عن النشاطات العلمية لبعض النساء وما كن يلقين من احترام، حتى من كبار الفقهاء، امثال ابن الجوزى، الذى تتلمذ على امرأة، ولقبها بـ شيختنا، رغم قوله ان النساء من طباعهن الغدروانه لا وفاء لهن^(٥).

اهل الذمة :

عاشت في العصر السلجوقي جماعات من المسيحيين واليهود بين المسلمين في بلاد العراق والجزيرة والشام . وليس لدينا اى احصاء لعدد المسيحيين في هذه البلاد، الا ان

(١) ابن الجوزى، المنتظم، مجلد ٩، ص ١٥٩، ومجلد ١٠، ص ١١٧ .

(٢) الشيزرى، نهاية الرتبة، ص ١٠٩ .

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٠٤ .

(٤) المصدر والصفحة ذاتهما .

(٥) ابن الجوزى، ذم الهوى، ص ٦٤٦-٦٤٧ .

آدم متزقد رانه كان في بغداد خلال القرن الرابع الهجري ما بين اربعين الى خمسين الف مسيحي . وقد بنى تقديره على ارقام الاموال المجموعة جزية في القرن الثالث واوائل القرن الرابع الهجريين (١) . كما ذكر ان الرحالة اليهودي بنيامين التوديلي

Benjamin of Tudela قدر عدد اليهود في المملكة الاسلامية، باستثناء المغرب،

بحوالي ثلاثمائة الف يهودي، وذلك في اواخر العهد السلجوقي . في حين ان كاهنا يهوديا آخر سافر الى المشرق حوالي ١١٨٥م قدر عدد اليهود في العراق وحده بمائة الف . وما ذكره بنيامين ان عدد اليهود في دمشق بلغ ثلاثة آلاف في حين ان بتاحيا Petachia قدرهم بعشرة آلاف . اما حلب فقد كان فيها خمسة الاف يهودي .

وكانت لليهود تجمعات في منطقة الموصل، باعداد كبيرة، حيث عاشوا في جميع المدن الواقعة " بين نينوى ودجلة " . وكان في جزيرة ابن عمر اربعة آلاف ، وفي الموصل ما بين ستة وسبعة آلاف ، وفي حرية ، بشمال العراق ، خمسة عشر الفاء ، وعكبرا وواسط عشرة آلاف وفي بغداد الف ، وفي الحلة عشرة آلاف وفي الكوفة سبعة آلاف وفي البصرة الفان (٢) .

وقد ذكر ابن جبير بضع قرى مربها كان جميع اهلها نصارى ، مثل قرية تل العقاب قرب مدينة رأس العين شمال الشام وهي " للنصارى المعاهدين الذميين (٣) ، وقرية الجسر ،

(١) آدم متز، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة محمد عبد الهادي ابوريدة (القاهرة : المعهد الخليفي للابحاث المغربية ، ١٩٤٠م) مجلد ١ ، ص ٦٣-٦٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٦١-٦٢ .

(٣) ابن جبير ، ص ١٩٥ .

بازاء سابقتها (١) وبلدة القارة ، جنوبي حمص (٢) ، كما ذكر النصارى المعاهدين المجاورين لجبل لبنان (٣) .

وكان الجاتليق ، وهو الرئيس الروحي لطائفة النساطرة ، يعتمد من قبل دار الخلافة رئيسا لجميع الطوائف المسيحية في اراضي الخلافة ، وكان يتولى منصبه بعهد يصدره الخليفة . ولعل من حسن الحظ ان نظفر بصورة عهد صدر عن الخليفة بتولية الجاتليق سنة ٥٣٣هـ / ١١٣٩م في عهد الخليفة المقتفي لامر الله ، وهذا نصه كما نشره آمدروز :

”ولما انتهيت حالك الى امير المؤمنين ، وانك امثل اهل ملتك طريقة ، واقربهم الى

الصلاح مذهبا . . . وحضر جماعة من النصارى الذين يرجع اليهم في استعلام سيرة امثالك . . . فاتفقوا باجماع من ارائهم واهوائهم على اختيارك لرياستهم ومراعاة شئونهم وتدبير وقوفهم والتسوية في عدل الوساطة بينهم ، قويهم وضعيفهم ، وسألوا ايضا نصبك عليهم بالاذن الذي به تثبت قواعده . . . وبرز الاذن الامامي الاشرف ، لازالت اوامره معضودة بالتوفيق بترتيبك جاتليقا لنسطوري النصارى بمدينة السلام ومن تضمنته ديار الاسلام ، وزعيما لهم ومن عداهم من الروم واليعاقبة والملكية في جميع البلاد وكل حاضر في هذه الطوائف وباء ، وانفرادك عن كافة اهل ملتك بتقمص اهبه الجتلقة المتعارفة في اماكن صلواتكم ومجامع عبادتكم ، غير مشارك في هذا الانسان ، ولا مفسح في التحلي به لمطران او اسقف او شماس ، خطا لهم / عن / ربتك ووقفا بهم دون محلك ، وان ولج احد في باب المجادلة . . . وابي النزول على حكمك . . . كانت العقوبة به حائقة حتى تعتدل قناته . . .

(١) ابن جبير ، ص ١٩٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٠٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٣٤ .

وامر بحملك على مقتضى الامثلة الامامية في حق من تقدمك من الجتالقة . . . والحياطة لك ولا هل ملتك في الانفس والاموال والحراسة للكافة بصلاح الاحوال واتباع العادة المستمرة في مواراة امواتكم وحماية بيعكم ودياراتكم . . . وان يقتصر في استيفاء الجزية على تناولها من العقلاء والواجدين من رجالكم دون النساء ومن لم يبلغ الحلم من اطفالكم ، ويكون استيفاؤها نوبة واحدة في كل سنة من غير عدول في قبضها عن قبضة الشرع المستحسنة . . . » (١)

ومن هذا النص يتبين لنا ان المسيحيين كانوا يتمتعون بنوع من الاستقلال الذاتي في ادارة شئونهم تحت رئاسة زعمائهم الروحيين ، وانهم كانوا يدفعون الجزية مرة في السنة عن كل واحد من الرجال البالغين ، بغض النظر عما كانوا يتعرضون له في فترات الاضطراب ، اذ ان الاذى في تلك الظروف يلحق بجميع المدنيين مسلمين كانوا او مسيحيين او غيرهم .

واعتقد ان هذا الوضع ينطبق على الجماعات اليهودية كذلك ، فقد كان لهم رئيس روحي معتمد لدى دار الخلافة يلقب برأس الجالوت وكان يستدعى مع جاتليق النصارى كلما طرأ طارئ يتعلق باهل الذمة (٢) . ولدينا ادلة على ان بعض اهل الذمة شغلوا مناصب عالية في الدولة ، واشهر من شغلوا المناصب العالية في دار الخلافة

(١) وردت صورة هذا العهد في تذكرة ابن حمدون التي نشرها آمدروز في *Journal of the Royal Asiatic Society*, (1908), 467.

ولم اعثر على هذا المجلد من مجلة الجمعية الآسيوية الملكية ، وقد اخبرني موظفو المكتبة انه ناقص ، ولم يرد الى المكتبة اصلاً . وقد نقلت هذه الصورة عن آدم متر ، مجلد ١ ، ص ٥٩ .

(٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ص ٩٦ .

العلاء بن الحسين بن وهب بن الموصلايا ، كاتب الانشاء بدار الخلافة ، الذي امضى في الخدمة اكثر من نصف قرن .

وكان هبة الله بن التلميذ ، الطبيب الاديب المسيحي المشهور ، مختصا بالخلفاء ،

يتولى علاجهم ، وقد كان يعالج سلاطين السلاجقة احيانا (١) . وكان ابو علي بن

فضلان اليهودي كاتباً للخاتون زوجة الخليفة القائم (٢) . ويبدو من رواية اوردها ابن

الجوزي عن احداث سنة ٤٥٠ هـ ان المسيحيين واليهود كانوا يسيطرون على عدد كبير من

الوظائف الهامة ، الادارية والمالية ، في ديوان دار الخلافة ، ففي تلك السنة ، وامام

موجة من موجات ضغط المتزمتين لالزام اهل الذمة بلبس الغيار طلب من ابن فضلان وابن

الموصلايا وغيرهم من كبار الموظفين الذميين التأخر في دورهم " فانقطعوا عن المعاملات ،

وتأخر الكتاب والجهايزة عن الديوان " (٣) . وقد ذكر الامام الغزالي ان معظم الاطباء

في زمانه كانوا من اهل الذمة ، ونعى على المسلمين تخلفهم في هذا الميدان (٤) .

وفضلا عن ذلك فقد اشتغل اهل الذمة بالحرف اليدوية ، فكان منهم جهايزة

وصرافون وخياطون وصباغون واساقفة وخرازون (٥) . وقد وجد الرحالة بنيامين ان يهود

القدس في القرن الثاني عشر الميلادي كانوا يحتكرون صناعة الصباغة (٦) .

(١) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٢٣٤ .

(٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ص ١٩٠ .

(٣) المصدر والصفحة ذاتهما .

(٤) الغزالي ، الاحياء ، ج ١ ، ص ١٩ .

(٥) المقدسي ، ص ١٨٣ .

(٦) انظر آدم متزه ، مجلد ١ ، ص ٦٥-٦٦ .

ويمكن ان نستنتج من الخبر الذى اوردہ ابن الجوزى عن صدور امر الى المحتسب ببغداد بأن "يوءب كل من فتح دكانة يوم الجمعة ويغلقه يوم السبت من البزازين وغيرهم ٠٠٠ لان ذلك مشاركة لليهود في حفظ سبتهم" (١) ، يمكن ان يستنتج منه ان التجار اليهود كانوا يسيطرون على بعض انواع التجارة ، على الاقل ، لدرجة ان التجار المسلمين كانوا يضطرون لمجاراتهم في التعطيل يوم السبت . ولست اجد لهذه العبارة تفسير غير هذا . ويذكر ابن الاثير يهوديا كان ضامن البصرة سنة ٤٧٢هـ ، ويقول انه كان على درجة عظيمة من الثراء ، وانه كان وثيق الصلة بنظام الملك . وقد توفيت زوجة هذا الثرى اليهودى فمضى في جنازتها كل من كان في البصرة باستثناء القاضي . وقد اخذ السلطان ملكشاه من هذا الممول اليهودى مبلغ مائة الف دينار (٢) ورغم مظاهر التسامح التي تمتع بها اهل الذمة ، والتي اشرفنا اليها قبل قليل ، فان الجولم يخل من بعض سحب التعصب والاضطهاد . فقد كان المتزمتون من الفقهاء يتحينون الفرص للضغط على السلطة لفرض اللباس الخاص وتوابعه على اهل الذمة . من امثلة ذلك ان الخليفة المقتدى امر بنقص ما علا من دور اليهود وسد ابوابهم المقابلة لجامع وامرهم بخفض اصواتهم بقراءة التوراة ، وذلك سنة ٤٧٨هـ (٣) . وتكرر امثال هذه الجراءات سنة ٤٨٠هـ و ٤٨٤هـ . وفي هذه السنة الاخيرة ، وعلى هذه الاجراءات اضطر ابن الموصلايا ، كاتب الانشاء بدار الخلافة الى اعتناق الاسلام (٤) . وقد اسندت اليه نيابة

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩٩ ، ص ٩١ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ١١٦ .

(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩٩ ، ص ١٧ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٣٨ و ٥٥ ، ياقوت ، معجم الادباء ، مجلد ١٢ ، ١٩٧ .

الوزارة بعد ذلك بوقت قصيره في السنة ذاتها (١) . ويقال ان خدمته للخلفاء
ابتدأت منذ عام ٤٣٢ هـ (٢) . وفي سنة ٤٩٨ هـ "ازيل الغيار عن اهل الذمة الذي
كانوا الزموا سنة اربع وثمانين ولا يعرف سبب زواله" (٣) . وفي سنة ٥١٥ هـ طلب من اهل
الذمة لبس الغيار "فانتهى الامر الى ان يسلموا الخليفة اربعة آلاف ، والى السلطان
عشرين الف دينار" (٤) . ولعل سبب ازالة الغيار سنة ٤٩٨ هـ الذي جهله ابن
الجوزي كان دفع مهالغ من المال .

ورغم هذا الاضطهاد الذي يوصف له ، فانه يمكن القول ان وضع اهل الذمة في
البلاد الاسلامية عامة كان طيبا ، اذا ما قورن باضطهادات الاقليات في اوربا .

الاشراف :

اطلق لقب الاشراف على كل من انتسب الى سلالة العباس بن عبد المطلب ، عم
النبي ، وكل من انتسب الى سلالة علي بن ابي طالب . وكان هذا اللقب في العهد
السلجوقي يشمل الاسرتين العباسية والعلوية . وكثيرا ما يرد في المصادر راسم نقيب
النقباء ، او نقيب العلويين والعباسيين (٥) ، بيد اننا لا نظفر الا بالنزر اليسير عن حياة
هذه الفئة . وقد كان الخليفة هو الذي يعين نقبيا لكل من افراد العائلتين في بغداد (٦) ،

(١) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٤٩ ، ص ٥٦ .

(٢) ياقوت ، معجم الادباء ، مجلد ١٢ ، ص ٢٠١-٢٠٣ .

(٣) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٤٩ ، ص ١٤٣ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٢٨ .

(٥) ابن عساکر ، ج ١ ، ص ٣٩٩ ، ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٤٩ ، ص ٥٣ و ٨٢ و ١٠٤ و ١٢٦
ومجلد ١٠ ، ص ١٢٣ ، العماد الاصفهاني الكاتب ، خريدة القصر وجريدة العصر ،
بعناية شكري فيصل (دمشق ، ١٩٥٩م) ، مجلد ٢ ، ص ٢٤٩ .

(٦) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ص ٩١ ومجلد ٤٩ ، ص ٥٣ .

غير اننا نسمع بنقيب للاشراف في البصرة (١) ، ونقيب للعلويين في الموصل (٢) ، وعليه يمكن استنتاج انه كان للاشراف نقيب في كل بلدت وجدت فيه مجموعة منهم . والذي يشجع على مثل هذا الاستنتاج ان المبدأ الذي انشئت هذه المؤسسة بموجبه يجعل وجود النقيب امرا لا غنى عنه . اما نقيب النقباء فقد كان رئيسا للنقباء جميعا (٣) . وكانت هذه الفئة من الناس تتمتع باحترام المعاصرين ، بسبب انتسابها الى النبي (٤) ، فلا غرو والحالة هذا ان شكل هو "لا" طبقة خاصة يضعها المسلمون في مكانة اعلى من غيرهم ، على اساس النسب وحده .

وقد بين كل من الماوردي والفراء سبب انشاء منصب النقابة والمبدأ الذي قام عليه بانه "صيانة ذوى الانساب الشريفة عن ولاية من لا يكافئهم في النسب ولا يساويهم في الشرف" (٥)

والنقابة على ضربين ، خاصة وعامة — حسب رأى الفقهاء — وصلاحيات النقابة الخاصة اضيق من صلاحيات النقابات العامة ، اذ ان النقيب من النوع الاول لا يسمح له باصدار الاحكام واقامة الحدود . وتخول النقابة العامة صاحبها ان يحكم في القضايا وان يقيم الحدود . هذا فضلا عن ولايته على الايتام منهم ، وعلى املاك الايتام ، واختصاصه بتزويج الايامي اللاتي لا اولياء لهن ، والحجر على السفهاء . ثم تشترك النقابة العامة والخاصة في الواجبات الآتية :

(١) سبط بن الجوزي ، مجلد ٨ ، ص ١٩٣ .

(٢) الكاتب الاصفهاني ، خريدة القصر ، مجلد ٢ ، ص ٢٤٩ وانظر ص ٢٥٣ منه .

(٣) وهذا مجرد استنتاج .

(٤) انظر مثلاً : الكاتب الاصفهاني ، خريدة القصر ، مجلد ٢ ، ص ٢٤٩ .

(٥) الماوردي ، ص ٩٦ ، الفراء ، ص ٩٠ .

- ١ — حفظ انسابهم من ان يدخلها غريب او ان يخرج منها منتم اليها .
 - ٢ — تمييز بطونهم ومعرفة انسابهم وتسجيل ذلك في سجلات خاصة .
 - ٣ — معرفة المواليد والوفيات منهم واثباتها في السجلات حفاظا على الانساب .
 - ٤ — حملهم على ادب السلوك الذى يتناسب مع مكانتهم .
 - ٥ — تنزيههم عن المكاسب الدنيئة والمطالب الخبيثة .
 - ٦ — كبحهم عن ارتكاب الآثام وغشيان المحارم .
 - ٧ — منعهم من محاولة التسلط على العامة ، اعتدادا بنسبهم وشرفهم ، وحملهم على ان يستنطقوا قلوب الناس ويستميلوهم .
 - ٨ — معاونتهم في استعادة حقوقهم ان اغتصبها آخرون .
 - ٩ — ان ينوب النقيب عنهم في المطالبة بحقوقهم في الفيء والغنيمة .
 - ١٠ — ان يمنع اياما هم من الزواج من غير اقفاشهم .
 - ١١ — تقويم ذوى الهفوات منهم .
 - ١٢ — مراعاة اوقافهم والمحافظة على اصولها وتنمية فروعها . (١)
- ومن الاخبار القليلة التي وردتنا عنهم ان الخليفة المستضي فرق — عندما تولى الخلافة —
مالا عظيما على الهاشميين والعلويين ، وعلى المدارس والريظ^(٢) . وقد اشار ابن جبير
الى ان افراد البيت العباسي كانوا يسكنون الجانب الشرقي من بغداد ، بدار الخلافة ، وهم
" في تلك الديار معتقلون اعتقالا جميلا ، لا يخرجون ولا يظهرون ، ولهم المرتبات القائمة بهم " (٣) .

(١) الماوردي ، ص ٩٦-٩٧ ، الفراء ، ص ٩٠-٩١ .

(٢) ابن شاکر الكتبي ، مجلد ١ ، ص ٢٧٠ .

(٣) ابن جبير ، ص ١٨١ .

هنا ، في حياة هذه الفئة ، تتجلى الطبقية ، فهذه طبقة تركز على مبدأ اعتقادي ، تعتبر نفسها ، ويعتبرها أكثر المعاصرين أهلا لذلك ، وهي طبقة خاملة متعطلة ، تعيش عالة على المجتمع .

القبائل البدوية؛

ليس هناك الكثير مما يمكن قوله عن البدو في هذا الفصل ، وقد سبق ان ذكرنا دور بعض القبائل في المجال السياسي ، كبنى مرداس ، الذين حكموا حلب^(١) ، وبنى عقيل ، الذين حكموا الموصل وحلب^(٢) ، وبنى أسد الذين اتخذ أمراؤهم الحلة لهم مقرا ، وتقلبوا في علاقاتهم مع الخلفاء والسلاطين^(٣).

وقد سبق ان أشرنا الى ما كان البدو يسببونه من تخريب وفساد كلما أحسوا بضعف السلطة المركزية^(٤) ، وليس ثمة داع لتكراره ، بيد اننا نود ان نؤكد الانار الضارة لهذا العبث على حياة المجتمع واستقراره ، حتى ان مدنا هامة عريقة في تاريخها ، كالبحيرة والكوفة غشيها الخراب وكادت تندثر وهجرها الكثيرون من أهلها^(٥) ، هذا فضلا عما كان يتعرض له أهل السواد من سلب ونهب^(٦).

(١) انظر ما سبق ، ص ٦٧ .

(٢) انظر ما سبق ، ص ٦٥ — ٦٧ .

(٣) انظر ما سبق ، ص ٦٤ — ٦٥ .

(٤) انظر ما سبق ، ص ٦٤ — ٦٥ .

(٥) مجهول ، كتاب صورة الارض لابن حوقل ، ص ٢١٣ ، وهذا الشخص واحد الذين نسخوا كتاب ابن حوقل ، وقد زار المنطقة في النصف الاول من القرن السادس ، وأضاف معلوماته عنها الى نص ابن حوقل ، بيد انه ميز ما أضافه عن النص الاصلى . وانظر كذلك : ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٦٣ ، ابن جبير ، ص ١٦٨ .

(٦) انظر ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ١٨٣ و ٢١٧ و ٢٥٦ و ٣٥٧ — ٤٠٢ ، مثلا .

ومن اهم القبائل العربية التي برز ذكرها في المصادر، وقامت بدور هام في حياة المجتمع — سلبيا كان هذا الدور ام ايجابيا — بنو اسد وبنو خفاجة وبنو عقيل وبنو مرداس وبنو منقذ (١) .

وقد اقتضت طبيعة النظام القبلي قيام نوع خاص من العلاقة بين القبائل والدولة ، اذ اعتبر شيخ القبيلة ذا سلطة منفردة على عشيرته او قبيلته (٢) . وهذه الولاية لم تقم على اساس الشرافة ، وانما قامت على اساس الضرورات العملية ، لان السيطرة على افراد وجماعات البدو عن غير طريق شيوخهم امر متعذر ، كما قامت على اساس التقاليد والاعراف الراسخة من قرون طويلة تعود الى العصر السابق للاسلام .

الارقاء :

كان الارقاء يشكلون عنصرا هاما من عناصر المجتمع في العهد السلجوقي . ولم يكن

الارقاء كلهم من مرتبة واحدة ، اذ يمكننا ان نميز منهم اربعة اصناف :

١ — المماليك الجنود

٢ — الخصيان ، خدم البيوت

٣ — الارقاء الذين كانوا يعملون لسادتهم في الارض واواة اعمال من هذا القبيل .

وهذا الصنف نفترض وجوده افتراضا ، رغم اننا لم نعثر على امثلة تدل على

وجوده ضمن اخبار العصر السلجوقي .

(١) عن عبث بني خفاجة انظر ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ١ ، ص ٦٣ ، ابن جبيرة ، ص ١٦٨ . وعن بني منقذ انظر ابن خلكان ، مجلد ٣ ، ص ٨٦ — ٨٧ ، ومجلد ٤ ، ص ٣٥٧ . وقد سبق الحديث عن اسد وعقيل والمرداسيين .

(٢) الماوردي ، ص ١٩ ، الفراء ، ص ١٤ .

٤ - الجوارى .

كان استرقاق المعاليك الجنود اسما ، رغم انهم كانوا يشترون بالمال ، ذلك انهم بدخولهم الخدمة العسكرية كانوا ينتقلون من حال الى حال ، لان العسكريين هم القوة الفعالة الاولى التي يخشاها السلاطين والخلفاء والملوك ، ويعملون على استرضائها ، ويخشاها العامة كذلك . وقد سبق لنا القول ان معظم جيوش السلاجقة وقادتهم كانوا ينتمون الى هذا الصنف من الارقاء ، وان اولئك القادة اصبحوا المسيطرين على السلاطين عندما ذبلت السلطنة السلجوقية (١) .

اما الخصيان ، فهم ، كما هو واضح من اسمهم ، ذكور قطعت منهم اعضاء الذكورية لكي يخدموا في البيوت دون احتمالات اقامتهم علاقات مع النساء (٢) . ولكن كثيرين منهم تخطوا هذه المنزلة الدنيئة وتوصلوا الى ارفع المناصب في دولتي الخلافة والسلطنة معا . فقد تولى عدد من هؤلاء الخصيان امانة الحج سنين طويلة (٣) ، وهي من الولايات الكبرى المعدودة ، في نظر الفقهاء (٤) ، كما نجد بعضهم يرسل سفيرا بين الحكام (٥) ، وبعضهم الآخر يتولى منصب شحنة العراق . وقد سبق ان اشرنا الى سعد الدولة كوهرائين ، الخصي الذي كان خادما ملوكا لامراة ، ثم انتقل الى ملكية السلطان البالاسلان ، وتولى منصب الشحنة ، في العراق ، وشارك الخليفة في رموز الخلافة ، اعني قرع الطبول على باب داره (٦) .

(١) انظر ما سبق ، ص ٤٤ .

(٢) انظر السمعاني ، مجلد ٥٥ ، ص ٤-٥ .

(٣) سبط ابن الجوزي ، مجلد ٨ ، ص ٧٠ .

(٤) الماوردي ، ص ١٠٨-١١٢ ، والفراء ، ص ١٠٨-١١٤ .

(٥) سبط ابن الجوزي ، مجلد ٨ ، ص ٧٠ .

(٦) انظر ما سبق ، ص ١٢١ .

اما النوع الثالث من الارقاء فلا نكاد نسمع عنه شيئا ، باستثناء اشارات عابرة تذكرنا بوجوده ، من ذلك ما نقرأه عن محمد بن احمد الكركنجي الذي كان له عبيد يرسلهم في تجارته الى الاقطار بينما يشتغل هو بطلب العلم ^(١) ، وعن صافي ، عتيق القائم بامر الله ، الذي اعتق ، بدوره ، عبيده واما ، قبيل وفاته ، واوصى لكل منهم بجزء من تركته ، وعن ابي سعيد صافي بن عبد الله الجمالي الذي كان احد المعتقين ، وكان سيده قد علمه القرآن والادب مع اولاده ، وقد نقل عنه السمعاني مجلسين من اماليه ببغداد ^(٢) .

وهذه الامثلة التي شقناها توحى كلها بمعاملة كريمة ، وحياة طيبة لهؤلاء الارقاء ، بيد ان الواقع التاريخي لا يحتمل ما يمكن ان يستنتج من هذا الامثلة من تعميمات . فبالرغم من ان الدين الاسلامي قد وضع اسسا كريمة لمعاملة الرقيق ، سواء في ذلك القرآن والاحاديث النبوية ^(٣) ، فقد عاش الآلاف من الارقاء في اوضاع بائسة مزرية ، وثورة الزنج في القرن الثالث الهجري مشهورة . وبالرغم من ان الباحث الحالي لم يعثر على اخبار عن رقيق الارض في العصر السلجوقي الا ان وجودهم امر مرجح .

(١) ياقوت ، معجم الادباء ، مجلد ١٧ ، ص ٢٣٢-٢٣٣ .

(٢) السمعاني ، مجلد ٣ ، ص ٣٢٥ .

(٣) تقول الآية رقم ٣٣ من سورة النور : والذين يبتغون الكتاب مما ملكت ايمانكم فكاთبهم ان علمتم فيهم خيرا ، وآتوهم من مال الله الذي آتاكم وقد نسب الى النبي انه قال : " ايما رجل اعتق امرا مسلما استنقذ الله بكل عضو منه عضوا من النار ابو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري ، صحيح البخاري (القاهرة : كتاب الشعب ، و . ت) ، ج ٣ ، ص ١٨٨ وانظر ص ١٩٨ ففيها تفسير الآية الآتفة الذكر ، وقد فسرت بان السيد يجبر على تحرير العبد ان طلب العبد ذلك وقدم او تعهد بسداد مال المكاتبه .

وكانت الجوارى صنفين ، صنفا للخدمة ، وصنفا آخر للمتعة او الغناء او الابهة . وقد ظهر الصنف الثاني في قصور الخلفاء^(١) ، وبلاط السلاطين والملوك ، وبيوت الوزراء والاثرياء^(٢) . وقد احرزت الكثيرات من ينتمين الى هذا الصنف مكانة عالية ، ويبقى ان نذكر ان جميع امهات الخلفاء في العصر السلجوقي كن من الجوارى ، من مختلف السلالات والاجناس ، فالقائم ابن جارية رومية تدعى قطر الندى^(٣) ، والمقتدى ابن جارية ارمنية تدعى ارجوان^(٤) ، وكانت ام المستظهر جارية تدعى كلهبار^(٥) ، وام المسترشد جارية تدعى ربابة^(٦) ، وام الراشد جارية تدعى جلنار^(٧) ، وام المقتفي جارية حبشية تدعى ست السادة نزهة^(٨) . اما المستنجد فقد كانت امه جارية رومية تدعى طاووس ، وقيل : نرجس^(٩) ، وكانت ام المستضي جارية ارمنية اسمها غضة^(١٠) . وكانت بعض هؤلاء الجوارى المحظوظات يساهمن في الاعمال الخيرية ، مثل بنفشا بنت عبد الله الرومية ، مولاة الخليفة المستضي ، التي حولت دارا لها على شاطي دجلة

(١) الاريلي ، ص ٢٦٢ .

(٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٢٤٠ .

(٣) ابن القلانسي ، ص ١٠٧ .

(٤) الاريلي ، ص ٢٦٨ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٢٧٠ .

(٦) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١١ ، ص ٢٨ ، الاريلي ، ص ٢٧٢ .

(٧) الاريلي ، ص ٢٧٣-٢٧٤ .

(٨) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١١ ، ص ٢٥٦ ، الاريلي ، ص ٢٧٣ .

(٩) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١١ ، ص ٣٦٠ .

(١٠) المصدر نفسه ، ص ٤٥٩ .

الى مدرسة للحنابلة وعينت لها الاوقاف التي تغطي مصروفاتها (١) .

العامية :

العامية هم السواد الاعظم والاغلبية الساحقة من السكان ، هم الشعب ، بتعبير عصرنا . تنضم هذه الفئة صغار التجار من اصحاب الدكاكين ، والباعة المتجولين ، كما تضم اهل الحرف من خياطين وحدادين ونجارين وبنائين وحائك وصباغين وكحاليين وجزارين واساقفة وصانعي فلانس ومطرزين وصناع حصر وصفارين وكناسين وحراس وحمالين وفعلة ، ومن على شاكلتهم .

ويدخل ضمن هذه الفئة الرقيق ، وصغار الجند ، واهل الريف . وقد عاش العامة تحت وطأة الظروف السياسية المضطربة حياة قاسية وعانوا من الفقر والارهاب ومطالب الحكام (٢) وتعديات الجند (٣) الشيء الكثير . فضلا عن الضرائب المباشرة التي كان الحكام يجبرونها كلما شعروا بحاجة الى المال كان هناك نظام الضمان الذي سبق الحديث عنه (٤) . وكان الضامن الذي يدفع مبالغ محددة للحكام ولا يتردد في استعمال كل الوسائل التي تفكره من مضاعفة ارباحه . وبجانب هذا فكثيرا من تعرض الناس للمصادرة ، سواء في المدن او في الريف ، وعندما كانوا يتمكنون من رفع شكاياتهم كانوا يجأرون بالشكوى ، ففي سنة ٤٧٩ هـ دخل الى دار الخلافة ثلاثة من اهل ناحية نهر الفضل وشكوا للخليفة

(١) ابن الساعي ، جهات الخلفاء ، ص ١١١-١١٢ .

(٢) انظر ابن القلانسي ، ص ١٠٨ و ١١٢ و ٢٠٢ و ٢٤٥ ، ابن عساكر ، ج ٢ ، ص ٣٣١ ، ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ص ١٦٥ ومجلد ٩ ، ص ١٣٨-١٣٩ ، ومجلد ١٠ ، ص ٦٩ .

(٣) انظر ابن القلانسي ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٩ ، ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ص ١٦٩ ، ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ٩ ، ص ٦١٢ و ٦٢٧ .

(٤) انظر ما سبق ، ص ٩٨ .

من انهم صودروا وعوقبوا ، وانهم مضت عليهم اربعة اشهر وهم واقفون بالباب شاكين ، دون جدوى . فوعدهم الخليفة المقتدى بانصافهم (١) . وفي سنة ٤٩٦ هـ دخل الامير ينال ، وهو من اتباع السلطان محمد ، بغداد ، وافسد القرى وقسط عليها اموالا ، فبعث اليه الخليفة بقاضي القناة حاثا اياه على الكف عن ايداء للرعية فلم يرتدع ، بل انه احتجز سفنا تحمل بضاعة للخليفة وقرر عليها مالا (٢) . وقد ذكر ان احد عمال الخليفة على منطقة نهر الملك بلغ به الظلم انه كان يعذب الرجال فيعلقهم من ارجلهم ، ويعذب النساء لدرجة انه يعلقهن من اثنائهن (٣) . وقد فر فلاحو بعض قرى الموصل من قسوة الجباة ونقل الضرائب ، ولكن عماد الدين زنكي لاحقهم واعادهم الى ضياعهم (٤) . واخبار المصادرات وارهاق الشعب بالضرائب وتعديات الجند اكثر من ان تستقصى (٥) ، خاصة في فترات الفوضى واحتدام الحروب الداخلية . ومن اكثر الامور ايداء ما كان يتعرض له العامة من نزول الجنود السلاجقة في دورهم عند حلول هولا ببغداد وغيرها من المدن (٦) . على ان هذا لم يكن يحدث دائما ، بل في اوقات الفوضى والحروب .

وخلال عهد السلطانين البارسلان وملكشاه كانت الاحوال السياسية مستقرة والنظام

-
- (١) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٢٧ .
- (٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ١٣٥ .
- (٣) سبط ابن الجوزي ، مجلد ٨ ، ص ٢٢٤ .
- (٤) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٧٩ .
- (٥) انظر مثلا : ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ١٣٧-١٣٨ و ٢١٨ و ٢٢٢-٢٢٣ و ٢٣٢ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، مجلد ٢٠ ، ص ٧٥ .
- (٦) ابن عساكر ، ج ٢ ، ص ٣٣١ ، ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ص ١٦٩ و ٢٢٨ ، ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ٩ ، ص ٦٢٧ .

مستبأ ، والتعديلات قليلة ، ولكن باب الفوضى انفتح على مصاريعه بعد وفاة ملكشاة ،
وتكررت المظالم ، فكثر اللصوص ونشطت حركة العيارين وتكررت مهاجمتهم لاصحاب الاموال .
من امثلة ذلك ان العيارين اشتد فتكهم بالجانب الغربي من بغداد سنة ٤٩٠ هـ (١) .
وفي سنة ٤٩٢ هـ حدثت مجاعة ونشط العيارون في محال العاصمة العباسية (٢) .
وتكررت اخبارهم في احداث السنة التالية ، حتى قيل انهم سرقوا بعض متاع قاضي القضاة
الدامغاني (٣) . وفي سنة ٤٩٧ هـ اضطرت قوة الشرطة الى الانسحاب من الجانب الغربي
وتركه للعيارين وعجز الشّحن عن حفظ الامن (٤) . وفي سنة ٥٣٢ هـ عظم امر ابن بكران ،
زعيم العيارين في العراق وزاد عدد اتباعه وصار يركب في جماعته ويتجول دون تخف .
" وكان ابن بكران يكثر المقام بالسواد ومعه رفيق له يعرف بابن البزاز ، فانتهى امرهما الى
انهما ارادا ان يضربا باسمهما سكة في الانبار " (٥) . وتكرر اخبار حركات العيارين
سنة ٥٣٦ هـ ، حيث عجز بهروزه الشحنة ، عن كف اذاهم . وفي سنة ٥٣٨ هـ كان متولي
الشحنكية صارما ، فصلب بعض من كانوا يحمون العيارين ، وطاردهم ، فهرب اكثرهم (٦) .

بعض مظاهر الحياة الاجتماعية

مما مر معنا في الصفحات السابقة ، سواء عن الحياة السياسية او الاجتماعية ندرك

(١) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ١٠٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٠٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١١٣ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٣٧ .

(٥) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١١ ، ص ٦٣ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ٨٩ و ٩٥ .

انه كان هناك تفاوت كبير من الناحية الاقتصادية ، بين الحكام ومن يمكن ان يعتبروا من الخاصة ، وبين عامة الناس . وهذا التفاوت لم ينتج عن نشاط المترفين وجد هم ، وكسل المحرومين وخمولهم في معظم الاحوال ، بل ربما كان اكثر الناس جدا وكدحا هم اقلهم نصيبا من ثروة البلاد ، واكثرهم معاناة من الحرمان والشقاء .

وبجانب مظهر التفاوت هذا نلمس مظاهر اخرى ، منها تفكك الكيان الاجتماعي وتقطع اوصاله ، الامر الذي نلمسه في ظهور جماعات وتكتلات متنوعة ، يجمعها عدم الشعور بوحدة الامة . من هذه الجماعات والتكتلات جماعات العيارين في العراق ، وجماعات الاحداث في البلاد الشامية ، وما نلمسه من تكتل اهل الاحياء واهل الاسواق ، هذا فضلا عن انقسام الناس الى فرق ومذاهب دينية متناحرة .

وفضلا عن ذلك نجد ان الناس كانوا يمارسون ضروبا من اللهو والترويح عن النفس ، كما نجد ان بعضهم ينصرف الى حياة المجون والتفسخ الخلقي .

العيارون والاحداث

شهد المجتمع البغدادي خلال العصر السلجوقي نشاطا لجماعات من الرجال كانت تمارس اعمال السطو على بيوت الاغنياء ، وتثير الرعب في احياء المدينة من حين لآخر ، كلما شعرت بضعف السلطات . وقد عرفت هذه الجماعات باسم العيارين . وقد اشرنا قبل قليل الى بعض اعمال السطو التي كان العيارون يقومون بها ، ولا حاجة بنا الى تكرار ما ذكرناه او استقصاء مزيد من اخبار هذه الاحداث (١) .

(١) انظر ما سبق ، ص ١٢٣ .

غير ان علينا ان نشير الى جانب آخر من حياة العيارين ، وهوانهم كانوا جماعات تمتعت بقدر من التنظيم ، وكانت لهم تقاليد وقواعد خلقية عرفت عن بعضهم ، منها عدم الاعتداء على النساء ، وعدم الغرور ، وتخصيص اصحاب الثرا بهجماتهم (١) .

وقد تناول المؤرخون المعاصرون العيارين بالثلب ، ونظروا اليهم باشمئزاز واحتقار ، بينما رأى بعض الباحثين المحدثين فيهم ثوارا على الظلم الاجتماعي الذي عانى منه المجتمع البغدادي (٢) . وقد دافع البعض عن هذه الجماعات لدرجة انه كاد يصفهم بانهم حركة وطنية ثورية تقدمية (٣) .

ويتراءى للكاتب هذه السطور ان الذين كتبوا عن العيارين لم يصلوا الى نتائج حاسمة ، لان الموضوع - في اعتقادي - يحتاج الى دراسات اوفى ، ولست ادري ان كانت مثل هذه الدراسات ستتوصل الى معلومات كافية تمكن الباحثين من الوصول الى النتيجة المرجوة . وحيث ان موضوع العيارين يمثل جزءا صغيرا من هذا الدراسة التي اقوم بها فانني ارى في معالجته بسرعة ، واصدار احكام تستند الى هذا النوع من المعالجة مخاطرة لا اود القيام بها . ومع ذلك فساتحدث عن الموضوع في حدود الجوانب المتعلقة بنشاط هذه الجماعات في العهد السلجوقي ، وسأطرح بعض الاستنتاجات التي لا تزيد الا قليلا عن درجة التخمينات ولعل الفرصة تتاح لي في المستقبل ، او لغيري ، باعطاء دراسة

(١) عبد العزيز الدوري ، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي (بيروت : دار الطليعة للطباعة والنشر ، ١٩٦٩) ، ص ٧٧-٧٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٧٧ .

(٣) بدرى محمد فهد ، العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري (بغداد : مطبعة الارشاد ، ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م) ، ص ٣٠٩ .

هذه الظاهرة حقها .

ليس غريبا ان تظهر في اخلاق العيارين بعض صفات الرجولة والشهامة ، فهم بشر قبل كل شيء ، والانسان لا يكون خيرا كله ولا شرا كله، بل فيه من هذا وذاك . لذلك فانني اعتقد ان المبالغة في اطراء العيارين لا تستند الى ادلة كافية ، سيما اذا كان لدينا قرائن تؤدى الى نتائج مغايرة . من ذلك ما اورده ابن الجوزي في اخبار سنة ٤٢٦ هـ حين ذكر ان العيارين اخذوا بغال السقائين وثياب القصارين ^(١) . وقد تكرر منهم ذلك في سنة ٤٢٨ هـ ^(٢) . وقد ذكر ابن الاثير في اخبار سنة ٥٣٦ هـ ان العيارين في بغداد كانوا على ارتباط باخي امرأة السلطان ، وبابن وزيره . وقد دوخوا البلد ، وكان الشحنة يعجز عن كفهم فتمتعهم بحماية هذين الشخصين ، اذ ان نسيب السلطان وابن وزيره كانا يقاسمان العيارين اسلابهم ^(٣) . واورد ابن الجوزي خبرا من هذا القبيل مفاده ان جماعة من العيارين سلبوا ثياب احد قومة الحمامات ^(٤) . وقد حاول احد الباحثين المحدثين نفي نسبة هذه التعديات الى العيارين ، ونسبها الى اللصوص العاديين ، دون سند ^(٥) وذلك بغية تأكيد ما ذهب اليه من تنزيه العيارين عن النقائص والدنايا . انني لا ارى مبررا لهذا التحيز ضد اللصوص الافراد ، فهم ايضا بشرفيهم من نوازع الخير والشركا ينسب الى العيارين . واعتقد ان اللصوصية ليست دائما ناتجة عن

(١) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ص ٨٢-٨٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٩١ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١١ ، ص ٨٩ و ٩٥ .

(٤) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ١٠ ، ص ٦٧ .

(٥) فهد ، ص ٣٠٦-٣٠٧ .

طبيعة شريرة ، بل انها في اغلب الاحوال تنتج عن فساد اوضاع المجتمع وتعرض ثنات منه الى الظلم ، وحرمانها من فرص الحصول على الكفاية بالطرق العادية المشروعة . ومن خلال هذه المعلومات تراني اميل الى الاعتقاد ان العيارين كانوا جماعات متعددة مختلفة الاحجام ، وان سخطهم على الاغنياء كان امرا طبيعيا ، اذ ان ما عند الفقراء لا يستحق المخامرة . وقد اوردنا امثلة من تعرض الفقراء ، احيانا لاعتداءات العيارين .

ومن البديهي ان ظهور العيارين على النحو الذي وصفنا نتج عن اختلال الاوضاع السياسية والاقتصادية ، ويمكن ان يقال ان حركاتهم كانت تمردا على ذلك الاختلال ، ولكنه كان تمردا محدود الافق ، لم يستهدف احداث تغييرات سياسية واجتماعية عامة ، بل استهدف مجرد الانتقام من السلطة ، ومن الاغنياء ، كما استهدف الحصول على مال يرفع افراد هذه الجماعات من حضيض الفاقة ، ويجعلها في مركز مهيب يثير الرعب في النفوس ، بدلا من الذل والاستكانة للظلمة . ولكن هذه الاتجاهات لم تتسع وتعمق لتشمل رفع الظلم عن الآخرين ، وتغيير الاوضاع العامة . واحكامنا هذه تتعلق بنشاط العيارين في العصر السلجوقي فقط .

وثمة حركات اخرى نجدها في بلاد الشام ، هي حركات الاحداث ، فقد تردد ذكرهم على انهم جماعات من شباب المدن يشاركون في الاحداث السياسية الداخلية ، كما يشاركون في الحروب ضد الاعداء الخارجيين . وقد كانت هذه الحركات موجودة في بلاد الشام قبل العهد السلجوقي ، ففي سنة ٣٦٠ هـ اقام الشريف ابو القاسم اسماعيل بن ابي يعلى الدعوة للخليفة العباسي المطيع ، بدمشق ، فجاء القائد الفاطمي جعفر بن فلاح الى دمشق . وقد القي القبض على ابن ابي يعلى وارسله جعفر الى مصر ، مع جماعة من الاحداث الذين كانوا

عائونه (١) . وفي سنة ٣٧١هـ ثار شخص يدعى قسام على الفاطميين ببلاد الشام ، وكان قسام هذا قد "نشأ بدمشق . . . ثم انه صاحب رجلا يقال له ابن الجسطار من مقدمي الاحداث وحملة السلاح وطالبي الشره فصار من حزيه وتزايد امره الى ما انتهى اليه" (٢) . وفي سنة ٣٧٨هـ تمرد منير، والي دمشق من قبل الفاطميين وجمع "رجالة من احداث البلد من حمال السلاح وطلاب الشر والفساد واستعد للحرب وتأهب للقاء" (٣) . وحين تعرضت دمشق لهجمات القائد السلجوقي اتسز بن اوق ، في اوائل السبعينات من القرن الخامس الهجري والتقى عليها الحصار، استحکم الخلف في داخلها بين العسكرية ، والمصامدة ، والاحداث من اهلها" (٤) .

وعندما حاصرتاج الدولة تتشى حلب ، وكان فيها اصحاب بركياروق ، عول بوزان وكربوقاء على المصابرة حتى وصول النجدة من قبل بركياروق " وقرروا مع الاحداث ذلك" (٥) ، ولكن قوما من الاحداث ، "من لا يعرف ولا يذكر . . . فتحو باب انطاكية ، فدخلت قوات تتش البلد (٦) .

وفي سنة ٥٠٥هـ كان رضوان بن تتش ، صاحب حلب ، قد مال الى الباطنية ، وخطب لصاحب مصر . وقد دبر الباطنية مؤامرة لقتل تاجر ثرى من اعدائهم ، ينفق الاموال في

(١) ابن القلانسي ، ص ١ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٤٠ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٩٩ .

(٥) ابن العديم ، زبدة الحلب ، مجلد ٢ ، ص ١١٧ .

(٦) المصدر والصفحة ذاتهما .

قتلهم ومطاردتهم ، ولكن مؤامرتهم لم تنجح ، وهرع الناس من السنة والشيعه الى مكان الحادث ، وظهروا انكار ما جرى على الرجل وعبث احداث السنة " بهجاعة من احداث الباطنية فقتلوهم ، ولم يتجاسر رضوان على انكار ذلك " (١) .

وفي سنة ٥٣٣ هـ ملك الروم ، اى الامبراطور البيزنطي ، لحصار حلب ، ومعه ريمند ، صاحب انطاكية وابن جوسلين ، " فنزل على حلب من قبلها ٠٠٠ وخرج اليهم احداث حلب فقاتلوهم وظهروا عليهم ، وقتل من الروم مقدم كبير ، ورجعوا الى خيمهم خائبين " (٢) .

وعندما عمل تاج الملوك بوري ، صاحب دمشق ، على الفتك بالباطنية ، وقتل وزيره الذى كان يظاهرهم ويتآمر معهم سرا ، وشاع خبر قتل الوزير في البلد " ثارت الاحداث بدمشق والغوغاء والاباس بالسيوف والخناجر المجردة ، فقتلوا من ظفروا به من الباطنية ٠٠٠ وافنؤهم جميعا ، تقطيعا بالسيوف وذبحا بالخناجر ، وجعلوا مصرعين على المزابل ٠٠٠ " (٣) . وقد كان جماعة من احداث دمشق يشكلون جزءا من الحرس الخاص لتاج الملوك بوري (٤) . والواقع ان كل ما يذكر عن الاحداث بدمشق وحلب ويعلمك لا يعدو هذا لانواع من النشاطات .

ومن الامثلة التي سقناها نرى ان الاحداث كانوا جماعات مسلحة من الشبان ، يشاركون في الاحداث السياسية بشكل مستمر ، وقد يثيرون المشاغبات والمصادمات ، لكنهم لم يرد

(١) المصدر نفسه ، ص ١٦٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٦٥ .

(٣) ابن القلانسي ، ص ٢٢٣ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٣٠ .

عنهم - في ما قرأنا - القيام باعمال السطو والسلب والنهب ، لا ضد الاغنياء ولا ضد
الفقراء .

وقد اورد ابن العديم ذكر شقي من الشطار عرف بالمجن ، واسمه بركات بن فارس
الفوعي . " وكان هذا المجن اولاً من جملة اللصوص الشطار وقطاع الطرق الذعارة
فاستتابه قسيم الدولة آق سنقر ، وولاه رئاسة حلب لشهامته وقايتة ومعرفته بالفسدين .
وكان في حال اللصوصية يصلي العشاء الاخرة بالفوعة ، ويسرى الى حلب ويسرق منها
شيئاً ، ويخرج ويصلي الفجر بالفوعة ، فاذا اتهم بالسرقة احضر من يشهد له . . . (١)
انه صلى العشاء والصبح بالفوعة فينجو . وقد اساء المجن التصرف في ولايته مما اغاظ
الملك رضوان ، فعذبه عذاباً شديداً ليستصفي ماله ، من ذلك انه حتى طستا حتى احمر
ووضعه على رأسه ، ونفخ دبره بكير الحداد وثقب كعابه . " ولما وضع النجار المثقب على
كعبه قطع الجلد واللحم ولم يدر المثقب ، فلطمه المجن وقال له : ويلك لا تعرف : احضر
خشبة وضعها على الكعب . فاحضر خشبة ووضعها على كعبه فدار المثقب . . . فقيل له
" كيف تجد طعم الحديد ؟ فقال : قولوا للحديد كيف يجد طعمي . ولم يقر المجن مع كل
هذا بدرهم واحد " (٢) .

ان صفات المجن هذه هي الصفات المعروفة عن عيارى العراق ، بيد ان ابن العديم
لم ينسبه الى الاحداث ، مع انه اورد الكثير من اخبارهم . لذلك فانني ارجح ان حركات
الاحداث تختلف عن حركات العيارين وعلى الاقل في عهد السلاجقة .

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، مجلد ٢ ، ص ١٣٨-١٣٩ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٤٠ .

ولعل من الجائز نسبة حركات الاحداث الى الفتوة . فقد ذكر ابن جبير اثناء

حديثه عن طائفة الرافضة ببلاد الشام " وسلط الله على هذه الرافضة طائفة تعرف

بالنبوية ، سنيون ، يدنون بالفتوة وبامور الرجولة كلها . وكل من الحقوه بهم لخصلة

يرونها فيه . . . يحزموه السراويل فيلحقونه بهم ، ولا يرون ان يستعدى احد منهم في

نازلة تنزل به لهم في ذلك مذاهب عجيبة . واذا اقسام احدثهم بالفتوة برقسه . وهم

يقتلون هو " لا " الروافض اينما وجدوهم . وشأنهم عجيب في الانفة والائتلاف " (١) . غير ان

علينا ان نتذكر ان زيارة الرحالة الاندلسي للشام كانت سنة ٥٨٠هـ ، اي اثناء خلافة

الناصر لدين الله ، العباسي . الذي تبني حركة الفتوة وحاول ان ينشرها وان يجعل منها

سندا للخلافة العباسية (٢) وعلى ذلك لا نستطيع التأكيد ان حركة الفتوة التي وصفها

ابن جبير كانت امتدادا لحركة الاحداث ، بل ربما يمكن القول ان جهود الناصر استقطبت

الاحداث .

ولا يفوتنا ان نذكر في هذا المقام منظمة للفتوة شكلها في بغداد شخص عرف بابن

الرسولي ، الخباز ، وكانت حركته سرية اسماعيلية ، على ارتباط بالفاطميين ، وقد الفها

الكتب ، ووجه الدعاة الى الاقطار ، حتى اكتشف امره وقبض عليه وعلى نفر من اتباعه ، وفر

الباقون (٣) . وقد نسب بعض الباحثين هذه الحركة الى العيارين ، واتخذ منها دليلا

على انهم خطوا بحركتهم الى الامام (٤) . ولكنني لا ارى مبررا لمثل هذه المبالغات ، واعتقد

(١) ابن جبير ، ص ٢٢٧ .

(٢) الشيخ ابو عبد الله محمد بن ابي الكرم المعروف بابن المعمار البغدادي الحنبلي ،
كتاب الفتوة ، تحقيق مصطفى جواد وزملائه (بغداد ، مكتبة المثنى ، ١٩٥٨) ،
ص ١٢٣-١٢٤ .

(٣) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ص ٣٢٦-٣٢٧ .

(٤) فهد ، ص ٣٠٠ .

ان حركة العيارين غير حركة ابن الرسولي ، المنتسبة الى الفتوة ، رغم انها ربما تكون قد اندمجت في الفتوة بعد ان تبناها الناصر الدين الله .

وخلاصة القول ان العصر السلجوقي شهد عددا من الحركات المختلفة ، ادت الظروف السياسية والاجتماعية الى نشأتها . واعتقد ان هذه الحركات لم تكن موحدة ، بمعنى ان العيارين لم يكونوا حركة واحدة ، بل كانوا جماعات تختلف في اعدادها ومدى التزام افرادها باخلاق الشهامة . كما اعتقد ان حركات الاحداث في بلاد الشام كانت متعددة ، وان الواحدة منها كانت محدودة بالمدينة التي تنتسب اليها ، وربما وجد في المدينة الواحدة اكثر من حركة ، سيما حين تتعدد فيها الفرق الدينية . وقد مر معنا قبل قليل ذكر احداث السنة واحداث الباطنية .

تكتل اهل الاحياء والاسواق :

ومما يلاحظ ، في بغداد خاصة ، ان اهل الاحياء كانوا يشعرون بنوع من الوحدة والعصبية لحبيهم . ففي سنة ٤٨١ هـ شرع اهل حي باب البصرة في بناء قنطرة جديدة . ومن الطريف ان قرأ انهم كانوا ينقلون الاجر في اطباق الذهب والفضة ، على نفقات المزامير ودقات الطبول . ويبدو ان المقصود من ذلك هو التظاهر بالعظمة ^(١) . وبعد شهرين قام اهل الكرخ ببناء عقد لمحلته ^(٢) . وعندما ابتداء ابن جهير بتعمير سور الحرم ببغداد ، واذن للامة بالفرجة استعرض اهل الاحياء ابهتهم وتنافسوا في اظهار فنونهم ، فاهل حي باب المراتب عملوا فيلا من البواري المطلية بالقار وتحتة اناس يحملونه ويمشون به ، وعملوا زرافة على نفس الشاكلة . اما اهل محلة سوق يچی فقد خرجوا بناعورة تدور معهم في الاسواق . وجاء اهل سوق المدرسة بقلعة من الخشب تسير على عجل ،

(١) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٤٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٤٤ .

وفيها غلمان يضربون بقسي البندق والنشاب (١) .

كذلك نلاحظ شعور اهل البلد الواحد بان لهم كيانا خاصا يعتزون به، وقد وصف ابن جبير اخلاق البغداديين بالكبر والتعالي، واذا حاول احدهم ان يظهر التواضع بان تصنعه " يزدرون الغريب" ويظهرون لمن دونهم الانفة والاباء، ويستصغرون عن سواهم الاحاديث والانباء، قد تصور كل منهم في معتقده وخلده ان الوجود كله يصغر بالاعانة الى بلده... (٢)، بيد انه استثنى العلماء من نعمته ونقده اللانع (٣) . وفي سنة ٤٩٧ هـ سقطت منارة واسط التي كانت قد بنيت سنة ٣٠٤ هـ ويبدو انها كانت فريدة في نوع بنائها اذ نقرأ ان الواسطيين كانوا يفتخرون بها . وحين سقطت لم يصب بسقوطها احد بسوء، ولكن البكاء والعيول ارتفع في المدينة اكثر مما لو كانوا فقدوا عزيز عليهم (٤) .

وثمة امر آخر يسترعى انتباه الباحث وهو تماسك اهل الصناعات، فبمناسبة حادثة بناء سرو الحرير، التي اشرنا اليها آنفا، جاء الحاكمة ببئر على عجل، وفيها حائك ينسج، وكذلك فعل السقلاطونيون . اما الخبازون فقد جاءوا بتنور وتحتة ما يسير به، والخباز يخبز ويرمي الخبز للناس (٥) . وهذه الاستعراضات وغيرها من الاعمال المشتركة توحى بوجود ارتباطات تنظيمية لاهل كل صناعة، والا لما امكثهم القيام بهذه الاعمال، كما ان ظاهرة التنافس في هذه المظاهرات تؤيد هذا الاحتمال .

وقد وردت اشارة مقتضبة ومبتورة، في الوقت ذاته، الى عريف للصناع والفعلة، ففي اخبار سنة ٤٧٩ هـ ذكر ابن الجوزي انه " ٠٠٠ في صفر ٠٠٠ دخل عريف الصناع والفعلة،

(١) المصدر نفسه، ص ٨٥ .

(٢) ابن جبير، ص ١٧٤ .

(٣) المصدر والصفحة ذاتهما .

(٤) ابن الجوزي، المنتظم، مجلد ٩، ص ١٣٧ .

(٥) المصدر نفسه، مجلد ٩، ص ٨٥ .

والصناع معه على العادة الى دار الخلافة ، فخرج المقتدى يمشي في الدار، فخرج اليه ثلاثة من الرجال فقبلوا الارض وقالوا نحن رجال من رؤساء نهر الفضل صودرنا وعوقبنا . . . (١) ويبدوان هوؤلاء الرجال المتظلمين الثلاثة اندسوا بين الصناع والفعلة ليصلوا الى الخليفة ، فانشغل ابن الجوزي بخبرهم واهمل ذكر عريف الصناع والفعلة وبتربخبرهم ، ربما لان زيارتهم كانت تقليدية ، وانه ليس فيها شي يستحق التسجيل من وجهة نظره . كذلك اورد ابن الجوزي خبرا عن ابي عبد الله بن الجلاب ، شيخ البزازين بباب الطاق في بغداد . وكان ابو عبد الله رافضيا مغاليا في الرقص ، فامر وزير الخليفة صاحب الشرطة بقتله ، فقتل (٢) .

ونجد اشارة اخرى الى عرفاء اهل الحرف عند الشيزري ، الذي تحدث عن جواز تعيين عريف لاهل كل صنعة من بينهم ، يكون خبيرا بصناعتهم . وقد نسب الشيزري حديثا الى الرسول : " استعينوا على كل صنعة بصالح اهلها " (٣) . ولكن اذا كانت مظاهر تكاتف اهل الصناعات التي ظهرت في الاستعراض الذي ذكرنا خبره اعلاه تشجع على افتراض وجود تنظيمات لاهل الصناعات ، فان اشارة كل من ابن الجوزي والشيزري لا تعد دليلا او سنداً قويا لصحة هذا الفرض . والحقيقة ان الباحث لا يجد في تاريخ هذه الفترة ما يمكنه من معالجة موضوع نقابات الحرفيين بحيث يجلو صورتها كما كانت في العهد السلجوقي بالذات ، لا في العهود او المناطق الاخرى .

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٧ .

(٢) المصدر نفسه ، مجلد ٨ ، ص ١٧٢ .

(٣) الشيزري ، نهاية الرتبة ، ص ١٢ .

بعض مظاهر اللهو :

ان ذكر الحروب ، والظلم والضرائب وعبث الجند وغارات العيارين ربما يحمل القارىء على الاعتقاد بان حياة العامة كانت حياة عابسة جافة ليس فيها سوى الرعب والقلق والآلام والفقر ، كما ان ذكر الفقهاء وتأثيرهم الواسع ، والصوفية ورياطاتهم وخوانقهم ، ربما يوحي بمجتمع يعيش ضمن قواعد اخلاقية صارمة ، ولكن مثل هذا التصور لا يتفق مع الواقع .
لقد سبق ان اشرنا الى ضروب اللهو التي مارستها الطبقات العليا في المجتمع ، بيد ان الطبقات الدنيا كان لها نصيبها كذلك ، من وسائل الترويح عن النفس والابتسام للحياة الصاخبة ونسيان متاعب الالمس والغد .

ففي المناسبات العامة ، كعيد الفطر وعيد الاضحى ، مثلاً ، كان يجرى في بغداد استعراض عسكري ، حيث يمر الجنود على صهوات جيادهم والعامة يتفرجون . وكانت بغداد تزين بتعليق ستائر الديباج المختلفة الالوان (١) .

وكانت ثمة مواسم واعياد اخرى كثيرة توفر للعامة فرصة للبهجة والسرور ، مثل المهرجان الذى كانوا يسمونه الصدق ، وقد عملهُ السلطان ملكشاه في بغداد سنة ٤٨٤ هـ واورد لنا ابن الجوزى وصفا ضافيا لكيفية تلك الاحتفالات : فقد اشعلت النيران ، واضيئت الشموع العظيمة على ظهور السميريات والزوارق الكبيرة ، ونصبت على كل زورق قبة عظيمة ، وخرج عامة بغداد يتفرجون فامضوا ليلتهم على الشواطيء واشعلت النار في مواضع كثيرة على شاطئ دجلة ، وقد شارك كبار رجال الدولة في هذا الاحتفال وعرضوا من مظاهر الزينة ما يتناسب مع مكانتهم . وقد مدت من على سطح دار السلطنة حتى النهر حبال شدت باحكام وعلق بها

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ص ٤٤ و ٥٧ ومجلد ١٠ ، ص ٣٥ و ٥٨ و ١٥٧ ، ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ٦ ، ص ٢١٦ .

زورق يصعد به رجل في الحبال وفيه نار مشتعلة (١) ، وواضح ان عملية هذا الزورق المعلق تشبه (التفريك) الحديث من بعض الوجوه .

ومن المناسبات التي كان العامة يحتفلون بها مناسبات زواج الخلفاء او ختان اولادهم ، فعندما تزوج الخليفة المستظهر ابنة السلطان ملكشاه ، وزفت اليه سنة ٥٠٤هـ / ١١٠٠م لبست بغداد حفل زينتها (٢) .

وعندما كانت تعود قافلة الحجاج كان الناس يستقبلونها بالزيينات ، ويصف لنا ابن جبير الذي كان ضمن قافلة الحج التي وصلت الى الموصل سنة ٥٨٠هـ كيف خرج الناس جميعا ، ركبانا ومشاة ، نساء ورجالا ، وخرج امير البلد ليستقبل والدته التي كانت عائدة مع الحجاج ، " فدخل الحاج المواصلة ٠٠٠ على احتفال وابهة ، قد جللوا اعناق ابلهم بالحرير الملون ، وقلدوها القلائد المزوقة " (٣) .

ويبدو ان عامة بغداد كانوا يتحينون الفرص ، مهما كانت ، للترويح واظهار البهجة ، فعندما شرع الوزير عميد الدولة بن جبير في عمارة سور محلة الحریم ببغداد " حمل اهل المحال السلاح والاعلام والبقوات والطبول ، ومعهم المعاول والسبيلات وانواع الملاهي والخيالات ، فعمل اهل باب المراتب من البواري المقيرة على صورة فيل وتحتة قوم يسيرون به ، وعملوا زرافة كذلك ، واتى اهل قصر عيسى بسميرية كبيرة فيها الملاحون يجدفون ، وهي تجري على هاذوره ، واتى اهل سوق يحيى بناعورة تدور معهم في الاسواق ، وعمل اهل سوق المدرسة قلعة خشب تسير على عجل وفيها غلمان يضربون بقسي البندق والنشاب ، واخرج

(١) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٥٧ .

(٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٢٦٦ .

(٣) ابن جبير ، ص ١٩٠ .

قوم بئرا على عجل ، وفيها حائك ينسج ٠٠٠ وكذلك الخبازون ، جاءوا بتنور وتحتته ما يسير بها والخباز يخبز ويرمي الخبز الى الناس (١) .

وكان عامة بغداد يخرجون للنزهة في الزوارق ، ليلا ونهارا ، وقد شاهد ابن جبير عددا كبيرا منها ، قال انه يفوق الحصر . وكان اهل دمشق يلتقون للنزهة والفرجة عند جامع دمشق كل عشية ، يروحون ويجيئون مشرقين مغربين ، من باب جيرون الى باب البريد ، يتحادثون او يقرأون ، ويظلون على هذه الحال حتى وقت العشاء حيث ينصرفون . وكان بعضهم يمارس هذه النزهة في الفترة الصباحية كذلك (٢) .

وفضلا عن هذا ما لانواع من اللهو كانت لبعض الناس مجالس صرب وغناء ، يشد وفيها المغنون وتصدح الموسيقى وتغني القيان ، من ذلك ما اورد ياقوت ان مطربا غني في حفلة ختان لابن احد وجهاء البصرة ، وكان صوت المغني جميلا فظل القوم يستمعون اليه يومهم بطوله (٣) .

وحضر الشاعر محمد بن القيسراني مجلس سماع ، اى حفلة غنائية ، وكان المطرب عذب الصوت فطرب القوم وهاجهم الوجد ، فانشد الشاعر القيسراني :

والله لو انصف العشاق انفسهم فدوك منها بما عزوا وما صانوا
ما انت حين تغني في مجالسهم الا نسيم الصبا والقوم اغصان (٤) .

وكان المغنون يشدون برائعات ابيات الشاعر محمد بن بختيار المعروف بالابله

(١) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٨٥ .

(٢) ابن جبير ، ص ٢١٥ .

(٣) ياقوت ، معجم الادباء ، مجلد ١٦ ، ص ٢٧٠ .

(٤) ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ٥٤ .

” ويتهافتون على نظمه تهافت الطير الحوم على عذب المشرب “ (١) .

وقد عمل الشاعر الطبيب الاديب الموسيقي عبيد الله المظفر الباهلي (ت ٥٤٩ هـ)
ارجوزة طويلة يصف فيها مجالس اللهو والشراب ، يذكر فيها ان المتنادمين في تلك المجالس
كانوا يبدأون بتناول الاكل ، ثم شراب الفقاع ، يتبعه النبيذ ، ثم النقل والرياحين والورود
والتفاح والخيار . وبعد ذلك تغني القيان ، وبعد ان ينتهي الغناء يشرع السمار في
رواية النوادر ويتناطحون الشعر ، وهنا يكون الشراب قد فعل فعله في الرؤوس ، واذ ذاك
تبدأ الفوضى ، ربما احدثوا تخريبا في اثاث البيت من جراء عريدتهم ، وقد يكسرون الاقداح
والقناني . واذ خرج احدهم لقضاء حاجة فقد يقابل جارية او غلاما فيغازلها او يغازله ،
وربما يصادف ابن صاحب البيت او ابنته ، وربما يكون الغزل باللسان او باليد . وقد يقتتل
المتنادمون بفعل الخمر ويعلو صياحهم فيتأذى الجيران ويشكونهم الى الشحنة . والويل لربة
البيت ان قرروا النوم فيه حتى صباح اليوم التالي (٢) .

حتى الصوفية كانت لهم اشعار خاصة وكانوا يستمعون الى الغناء (٣) .

وكان الفقهاء يضيقون ذرعا بمظاهر التحلل الخلقي التي كانت منتشرة في المجتمع
البغدادى ، ففي سنة ٤٦٤ هـ اجتمع زعماء الحنابلة والشافعية في جامع القصر ، وطلبوا من
ال خليفة جملة مطالب ، منها ازالة المواخير ، ” وتتبع المفسدين والمفسدات ومن يبيع
النبيذ . . . فتقدم الخليفة بذلك ، فهرب المفسدات ، وكبست الدور ، واريقت الانبذة ،

(١) المصدر نفسه ، ص ٨٧ .

(٢) ابن ابي اصيبعة ، ص ٦٢٠-٦٢٣ ، وانظر الكاتب الاصفهاني ، خريدة القصر ،
مجلد ١ ، ص ٣٥٨-٣٦٤ ، ففيها وصف آخر لمجالس الشراب واللهو .

(٣) سبط بن الجوزى ، مجلد ٨ ، ص ١٤٩ .

ووعدوا بقلع المواخير . . . (١) . وفي سنة ٤٧٨ هـ صدر امر بقمع المجون وارقة الخمر
وكسر ادوات اللهو الموسيقية ، ونقص دور اهل الفساد (٢) . ويبدو ان الظروف التي
كانت تساعد على انتشار هذه المظاهر كانت قوية ، يدعمها نفوذ الجند السلجوقي واتباع
السلطان ، ففي السنة التالية ، ٤٧٩ هـ ، تكررت عملية محاولة ازالة ما يشكو منه الاتقياء ،
ونادى المنادون في الاسواق بالوعيد لمن لا يرتدع (٣) . وفي سنة ٤٨٨ هـ احتج الفقهاء
على استهتار العامة والجند بالاخلاق ، وعولوا على لزوم بيوتهم ، وكتب ابو الوفاء بن عقيل ،
كبير الحنابلة الى الوزير بن جهير تقريرا غاضبا : "فما بالنا نعقد الختمات ورواية الاحاديث ،
فاذا نزلت بنا الحوادث تقدمنا بجمع الختمات والدعاء عقييها ، ثم بعد ذلك طبول وصواني ،
ومخانيت وخيال ، وكشف عورات النساء مع حضور الرجال . . . كيف تطالب الاجناد بتقبيل عتبة
ولثم ترابها ، وتقيم الحد في دهليز الحرم ، صباحا ومساء ، على قدح نبذ مختلف فيه ، ثم
تمرح العوام في المسكر المجمع على تحريمه هذا مضاف الى الزنا الظاهر بباب بدر ولبس
الحرير على جميع المتعلقين والاصحاب . . . ثم لا تلمنا على ملازمة البيوت والاختفاء عن العوام ،
لانهم ان سألونا لم نقل الا ما يقتضي الاعظام لهذا القبائح والانكار لها ، والنيابة على
الشرعة " (٤) .

(١) ابن رجب ، مجلد ٦١ ، ص ٢٤ .

(٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٦١ ، ص ١٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٦ .

(٤) ابن رجب ، مجلد ٦١ ، ص ١٧٨-١٧٩ .

الفصل الخامس

الحياة الاقتصادية

الحياة الاقتصادية

ان المقومات التي تتشكل منها الحياة الاقتصادية لاى شعب من الشعوب هي الانتاج ، وطرائق توزيعه وأساليب تبادل السلع في داخل البلاد وخارجها . لذلك ، فان الحديث عن الحياة الاقتصادية لا بد له من ان يتناول الزراعة والتجارة والصناعة وما يتعلق بها . وسنحاول التحدث عن كل جانب من هذه الجوانب بقدر ما تمدنا به المصادر .

أولا : الزراعة :

لقد لقيت الزراعة الكثير من عناية الحكام . وسنرى من خلال الامثلة التي سنسوقها بعد قليل ان معظم الحكام كانوا يدركون اهمية الانتعاش الزراعي ويبدلون في سبيل تحقيقه جهودا تستحق التتويه . بيد ان الزراعة لم تسلم من عوامل التخريب التي تمثلت في عبث القبائل البدوية ^(١) وحروب المتنازعين من السلاطين والملوك ، وكذلك الحروب الصليبية ^(٢) . الا ان التخريب الذي سببته هذه العوامل لم يكن مستمرا كما انه لم يحدث في جميع المناطق العربية في آن واحد . لقد كان التخريب يحدث عندما ينشغل أصحاب السلطة بالنزاع فيما بينهم ، وينصرفوا بذلك عن النظار في حفظ الامن وترقية اقتصاد ممتلكاتهم . وما خفف عن المناطق العربية ان معارك الوراثة التي كانت تدور بين المعسكرات السلجوقية كانت تجري في الاراضي الفارسية في أغلب الاحيان . وتجدر الاشارة الى ان النزاع بين أرباب الحكم لم يجتذب الى حلبته سوى الحكام والعسكريين وطبقة الموظفين ، بينما ظل افراد الرعية عامة بمنأى عن تلك الحلبة ، غير ان الرعية لم تسلم من رذائل يطالها بين آونة وأخرى .

أما الاشتباكات التي نتجت عن الغزوات الصليبية فقد انحصرت في أغلب الاوقات في مناطق

الحدود بين العدوين ، كما تخللتها فترات هدوء وتناهم من آن لآخر .

ومهما يكن من أمر فقد مرت السلطنة السلجوقية في فترة استقرار ساد فيها الامن والهدوء

بين سنتي ٤٥١ و ٤٨٥ هـ كما ان ولاية الموصل وبلاد الشام نعمت بدرجة طيبة من الامن والاستقرار تحت حكم الاتابكة . وقد بذل كثيرون من الحكام جهودا خلية بالتقدير في ميدان تنشيط الزراعة وانهاشها .

(١) انظر أمثلة عن عبث البدو في : ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٨ ص ٢٢٤ ومجلد ٩ ص ٦٣ و ٩٧

و ١٣٤ ، ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ص ٢٧ و ١٨٣ و ٢١٧ و ٣٥٦ و ٤٠١ .

(٢) انظر أمثلة في : ابن القلانسي ، ص ٤١ و ١٧١ ، أسامة بن منقذ ، كتاب الاعتبار ، حققه فيليب

حتي (برنستون : مطبعة جامعة برنستون ١٩٣٠ م) ، ص ٨٥ — ٨٨ .

وتعدنا المصادر بمعلومات لا بأس بها عن جهود قام بها الحكام لاصلاح وسائل الري ، ففي سنة ٤٥٢ هـ / ١٠٦٠ م سد بنو ورام ، وهم جماعة من الاكراد بثق النهروانات ، كما عمل العميد ابو الفتح على اصلاح يتوق الكرخ (١) وعندما انفجرت البثوق في منطقة الفلوجة سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٦ م وانقطعت المياه من النيل وغيره في تلك المنطقة . وجلا اهل البلاد قام عميد الدولة ابن جهمير باصلاحها سنة ٤٧٢ هـ / ١٠٨٠ م (٢) وفي سنة ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م سد ظفر القائي بتق نهر عيسى الذي كان قد مضى على خرابه ثلاث وعشرون سنة ، سد فيها مرارا لكنه لم يثبت الا عندما اصلحه ظفر المذكور (٣)

وتكاد المصادر تجمع على ان السلطان ملكشاه بن الب ارسلان (٤٦٥ هـ / ١٠٧٣ م - ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م) نام باصلاحات كثيرة منها حفر الانهار وتعمير القناطر (٤) وفي سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٩ م فوض السلطان محمد بن ملكشاه عمارة العراق الى معروف الخادم ف حفر الانهار وكدى السواقي نعم الرخص بالعراق (٥) وفي سنة ٥٣٤ هـ / ١١٤٠ م ولي على العراق بهروز الخادم الذي زادت مدة ولايته على ثلاثين سنة ، قام خلالها بكثير من الاصلاحات الانشائية من ضمنها انشاء بعض السدود (٦)

وهكذا يستطيع الباحث القول بان الحكام في العهد السلجوقي كانوا يدركون اهمية العناية بنظام الري ، وكانوا يبذلون في ذلك الجهود المناسبة كلما واتتهم الفرصة وكلما مكتتهم مشاغلهم من ذلك . وقد مرت معنا بعض الامثلة على اهتمام الشحن بامور الزراعة والري ، ويبدو ان الشحنة والعميد (٧) كانا يتعاونان في هذا المضمار .

-
- (١) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ١٢ .
 - (٢) المصدر نفسه ، ص ١٠٠ - ١٠١ .
 - (٣) المصدر نفسه ، ص ١٢٢ .
 - (٤) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٢٩ و ٧٠ ؛ ابن الاثير ، الباهر ، ص ١١ ؛ ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ٣٧١ ، مثلاً .
 - (٥) سبط بن الجوزي ، مجلد ٨ ، ص ٢٧ .
 - (٦) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١١ ، ص ٧٧ ؛ سبط بن الجوزي ، مجلد ٨ ، ص ١٨٦ .
 - (٧) عن وظيفة العميد انظر ما سبق من ١٢٥ .

ولعل مما يدعم هذا الرأي ما نجده من امثلة عن حرص الحكام على انتعاش الزراعة فحتى قواد الجيوش السلجوقية كان بعضهم يدرك اهمية هذا الانتعاش من ذلك ما نقرأه عن اتمز بن اوفى الذى انتزع دمشق من ولاية الفاطميين سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٦ م اذ لم يكد يستقر بالمدينة حتى نظروا في امور دمشق واحوالها بما يعود بصلاح اسماها ووفور استغلالها ، واطلق للفلاحين المجرى والغوطة السجلات للزراعات والزهم الاشتغال بالعمارات والفلاحات ، فصلحت الاحوال وتواصلت من سائر الجهات العلل (١) . فهذا القائد السلجوقي الذى لم يعرف عنه انه كان من كبار الامراء لا يكتفى بالتشجيع الكلامي بل يقدم البذار ويلزم الفلاحين بالعمل . وقد اعتم اتابك طغتكين صاحب دمشق باصلاح الاوضاع الزراعية وتعمير الضياع المهجورة واحيا الاراضي الميتة فاستأذن السلطان والخليفة في ذلك فاذنا له : " فعمرت عدة ضياع يبابا خالية . . فاجريت عيون مياهها واعيدت الى اجمل عاداتها (٢) . وليس ادل على اهتمام عماد الدين زنكي صاحب الموصل بالزراعة من انه هدّد حسام الذين تمرشوا ، صاحب ديار بكر بغزو بلاده ان لم يعد بعض فلاحى الموصل الذين هربوا اليه كما سبق ان ذكرنا (٣) وقد اشرنا الى ان زنكي كان يشدد على منح اصحابه من ظلم الرعية (٤)

والذى نخبر به من هذه السجالة عن حالة الزراعة في العهد السلجوقي بشكل عام انها كانت مزدهرة وان الحكام او معظمهم على الاقل كانوا يدركون اهمية الانتعاش الزراعي وكانوا يبذلون جهودا وعناية ليست بالقليلة في سبيل توفيره .

وقد خلف لنا الرحالة ابن جبير الذى سار من جنوب العراق ، فمر ببغداد والموصل وحلب ودمشق ، ثم خرج منها الى عكا ، على الساحل الفلسطيني ، خلف لنا وصفا شيقا لازدهار الزراعة

(١) ابن القلانسي، ص ١٠٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢١٩.

(٣) انظر ما سبق، ص ٩٧.

(٤) انظر ما سبق، ص ٩٠.

في هذه المناطق . فالمنطقة المجاورة للحلة * وارفة الظلال بشجرات الفواكه (١) والقصر الواقعة على الطريق من الحلة الى بغداد محاطة كلها ببساط اخضر من الزروع والاشجار والبساتين وحدائق النخيل (٢)

ويمتد امام مدينة نصيبين وخلفها * بسياط اخضر من البصره * فيه مزارع من الماء تسقيه وتطرد في نواحيه ، وتحف بها عن يمين وشمال بساتين ملتفة الاشجار ، يانعة الثمار . . . ولحدائق تنتظم بحافتيه (٣) قرية تل العقاب على طريق الموصل - حلب * تحفها البساتين والكروم وانواع الاشجار وينسرب بازائها نهر ترف الظلال عليه . . والبساتين قد انتظمت (٤) واما مدينة راس العين فتتناسب جداول الماء من العيون المتفجرة في ارضها وتسير وسط المروج الخضر * كأنها سبائك اللجين مدودة في بساط الزبرجد ، تحف بها اشجار وبساتين قد انتظمت حافتيها الى اخر انتهائها من عمارة بطائعها (٥) وتحيط البساتين بمنيج وترف الحدائق النفرة حول بزاغة (٦) ولحلب ريف يسقيه نهر والريف بساتين كثيرة وبها الكرم المعروشة تتدلى منها عناقيد العنب (٧)

وبلاد المهرة ، سواد كلها ، تغطيها اشجار الزيتون والتين والفسق وانواع الفاكهة ويتصل التفاف بساتينها وانتظام قراها مسيرة يومين وهي من اخصب . . البلاد واكثرها خيرات (٨)

-
- (١) ابن جبير، ص ١٧١ - ١٧٢ .
 - (٢) المصدر نفسه والصفحتان ذاتهما .
 - (٣) ابن جبير، ص ١٩٢ .
 - (٤) المصدر نفسه ص ١٩٥ .
 - (٥) المصدر نفسه والصفحة ذاتها .
 - (٦) المصدر نفسه ص ٢٠١ .
 - (٧) المصدر نفسه ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .
 - (٨) المصدر نفسه ، ص ٢٠٥ .

وتحف البساتين بندر حماة وتلف فيها اشجار الاعناب ، وتنوع المزارع والمحارث . (١)

والبساتين التي يراها المسافر عندما يقترب من دمشق لا يوصف حسناتها ، فدمشق
"جنة المشرق" ، تحلت بأزاهير الرياحين ، وتجلت في حلل سندسية من البساتين ، أحدقت بها احداق
الهالة بالقمر ، وامتدت بشرقيها غواتها الخضراء امتداد البصر . (٢) وجبل لبنان من أخصب جبال
الدنيا ، فيه أنواع الفاكهة ، وفيه المياه المردة ، والظلال الوارفة . (٣)

وقد أوردت المصادر التي بين ايدينا ذكر عدد من أنواع مزروعات العراق بصورة عرضية ،
وهي لذلك لا تعتبر حصرا لكل أنواع المحاصيل الزراعية العراقية . ومن هذه المحاصيل التي ذكرتها
المصادر : النخيل (٤) والحنطة والشعير (٥) والدخن (٦) والفواكه ، بتعبير مجمل (٧) ، والعنب (٨)
والتوت (٩) ، والسفرجل (١٠) ، والتفاح (١١) ، والرمان (١٢) ، والتين (١٣) ، واللاتج والليمون (١٤)

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢١١ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٣٣ .

(٤) السمعاني ، مجلد ٥ ، ص ٢٩ ، ابن جبير ، ص ١٦٧ - ١٦٩ .

(٥) ابن جبير ، ص ١٧١ .

(٦) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ص ٢٩٧ .

(٧) ابن جبير ، ص ١٧١ و ١٨١ .

(٨) الماوردي ، ص ١١٧ ، ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ص ٢٨٩ .

(٩) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ص ٢٧٣ ، مجلد ٩ ، ص ٧٦ .

(١٠) المصدر نفسه ، مجلد ٨ ، ص ١٧٠ ، ابن خلكان ، مجلد ٥ ، ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

(١١) ابن خلكان ، مجلد ٥ ، ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

(١٢) الخطيب البغدادي ، مجلد ١ ، ص ١١٢ ، ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ص ١٣٢ .

(١٣) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ص ٢٨٩ .

(١٤) المصدر نفسه ، ص ٢٤٦ .

والخرنوب (١) والبطيخ والقثاء (٢) والخيار (٣) والباذنجان (٤) والباقلاء (٥) والحمص (٦) .
وقد ذكر المقدسي المتوفى ٣٧٥هـ / ٩٨٥م زراعة السمسم في منطقة تكريت ، كما أشار الى التمور والحنطة
والشعير باعتبارها من محصولات العراق الرئيسية . (٧) ورغم ان المقدسي متقدم عن فترتنا بما يقرب من
ثلاثة أرباع قرن ، فالذي نرجحه ان انتاج هذه المحصولات قد استمر في العصر السلجوقي ، بغض
النظر عن احتمال تعرضه للزيادة أو النقصان في بعض الاحيان .

والموصل من أكثر البلاد فاكهة فالرمان يبقى الى ان يدرك العتيق والجديد ، وكذلك
الكشري ، وقريب منه الغب . وأما التفاح فيجمع العتيق والجديد . (٨) وعندما حاصر محمد شاه
وزين الدين على كوجك بغداد سنة ٥٥٢هـ / ١١٥٧م كانت الامدادات التموينية ترد للغزاة من الموصل ،
دقيقا وسكرا وعسلا وسمن . (٩) وقد ذكر ابن الاثير ان الموصل في العهد الاتابيكي كانت تميز ببغداد
أربعة أشهر من كل سنة . (١٠) ومن قبله ذكر المقدسي في وصفه لاقليم آقور ، الذي يشمل ديار ربيعة
وديار مضر وديار بكر ، وقصبتها الموصل ، ذكر ان هذا الاقليم يميز أكثر العراق . (١١)

-
- (١) المصدر نفسه ، ص ٢٩٦ .
 - (٢) المصدر نفسه ، ص ٢٨٢ .
 - (٣) المصدر نفسه ، ص ١٣٢ .
 - (٤) ابن خلكان ، مجلد ٥ ، ص ١٢٦ .
 - (٥) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ص ٢٨٩ .
 - (٦) الخطيب البغدادي ، مجلد ١ ، ص ١١٩ .
 - (٧) ابو عبد الله محمد بن احمد المقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم
(بيروت : مكتبة خياط ، د . ت . د) ، ص ١٢٣ و ١٣٣ .
 - (٨) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٨٢ .
 - (٩) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ١٠ ، ص ١٧٠ .
 - (١٠) ابن الاثير ، الباهر ، ص ١٣٩ .
 - (١١) المقدسي ، ص ١٣٦ .

ويذكر ابن حوقل من زراعات منطقة الموصل الحبوب والقمح والشعير والكرم (١) والسهم والقطن والارز (٢) والنخيل (٣) والقطن (٤) والجوز واللوز والبندق والزبيب والتين وغير ذلك (٥) وقد وصف احد الذين زاروا الموصل سنة ٥٦٠ هـ / ١١٦٥ م بانها عمُرت عمارة لم تكن قط منذ اسست (٦)

وكانت بلاد الشام غنية بزراعة الزيتون والفسق والفاكهة من تين وعنب ومشمش ولوز ورمون وموز وليمون ونارنج وترنج ونخيل . وكان نصب السكر يزرع في كثير من المناطق الساحلية من بلاد الشام وفي وادي الاردن (٧) ومن حاصلات البلاد الشامية ذات الاهمية الحنطة والشعير والعدس والجلبان والقطن (٨)

وقد اعتمد الناس في ري مزارعهم على مياه الانهار والعيون والمطر ولنا نعرف الكثير عن نظام الري في تلك الحقبة ، ولكن المعلومات القليلة التي تسعنا بها المصادر تمدن مسن

-
- (١) ابو القاسم بن حوقل النصيبي ، كتاب صورة الارض (بيروت : دار مكتبة الحياة د ٥) ص ١٩٣ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٩٣ .
(٣) المصدر نفسه ص ١٩٤ .
(٤) المصدر نفسه ص ١٩٦ - ١٩٧ .
(٥) المصدر نفسه ص ٢٠٣ .
(٦) مجهول ، كتاب صورة الارض ، لابن حوقل ، ص ١٩٥ ؛ وهذا الشخص احد الذين نسخوا كتاب ابن حوقل وقد اضاف ثلاثة اسطر خلاصتها انه زار منطقة الموصل في تلك السنة وروى ما شاهده من ازدهارها
(٧) ناصر خسرو علوي ، سفرنامه ، ترجمة يحيى الخشاب (القاهرة : مطبوعات معهد اللغات الشرقية - كلية الاداب ، جامعة فؤاد الاول (١) : ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥ م) ، ص ١١ - ١٩ و ٢٣ - ٣٥ ؛
ابن عساكر مجلد ٣ ص ٣٦١ ؛
Steven Runciman, A History of the Crusades
(Cambridge:1955), Vol.III, pp.352 - 353.

(٨) ابن العديم ، زبدة الحلب ، مجلد ٢ ص ٢٨٥ .

تكوين فكرة عامة . فيذكر ناصر خسرو ان نهر الابله الذي تحيط به الحدائق ، تتفرع منه قنوات كل منها في سعة نهر (١) ووصف ابن جبير الطريق بين الحلة وبغداد بانها اكثر الطرق سواقي وجسورا ، فلا تكاد تمشي ميلا الا وتجد قنطرة على نهر متفرع من الفرات (٢) ومدينة راس العين ، ونصيبين تسقى بساتينها وحقولها بقلوبقنات تنساب فيها المياه من العيون والانهار فتسقى الاشجار والزرع (٣)

وكان الزراع يستعملون الدواليب او السواقي لرفع المياه الى الاراضي المرتفعة عن مستوى مصدرها (٤) فقد ذكر ناصر خسرو انه رأى كثيرا من السواقي على نهر العاصي بحماه (٥) وبعده باكثر من مائة سنة مر ابن جبير ورأى الشيء نفسه وقال ان الدواليب تكثر على الجانبين من نهر العاصي الذي تكتنفه البساتين (٦) وفي عهد الخليفة المستضي كان الماء يرفع مك دجلة الى دار الخلافة بواسطة اربعة دواليب ، كل منها اعلى من الاخر ، بحيث ياخذ اولها من النهر ، والثاني من الماء الذي يرفعه الاول ، والثالث من الثاني والرابع من الثالث (٧) ويذكر ابن الجوزي انه كانت في منطقة البصرة قناة من الرصاص تنقل الماء الى الخزانات البعيدة وانه كانت لهذه القناة اوقاف خاصة بها (٨)

(١) ناصر خسرو ، ص ٩٩ .

(٢) ابن جبير ، ص ١٧١ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٨٢ و ١٩٥ - ١٩٦ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٦٩ .

(٥) ناصر خسرو ، ص ١٢ .

(٦) ابن جبير ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

(٧) تاج الدين ابو طالب علي بن انجب المعروف بابن الساعي ، نساء الخلفاء المسمى جهات الائمة الخلفاء من الحرائر والامار (القاهرة : دار المعارف ، د . ت) ، ص ١١٢ - ١١٣ .

(٨) ابن الجوزي ، المتظم ، مجلد ٩ ، ص ٥٣ .

ثانياً : التجارة

بديهي ان التجارة ضرورة من ضرورات الحياة الحضرية ، وهي تشط وتشمع دائرتها وتنوع السلع الداخلة فيها كلما ارتقت حياة الانسان وزاد حظه من الحياة المدنية وتعددت مطالبه . وقد شهدت الدولة العربية الاسلامية - خاصة ابان ازدهارها السياسي - حركة تجارية من اعظم ما عرفه التاريخ حتى ذلك العصر . ورغم الاضطراب السياسي الذي نلمسه بوضوح في كثير من سني العهد السلجوقي فقد بلغت الحركة التجارية في المشرق العربي السلجوقي حظاً مرموقاً من النشاط .

التجارة الداخلية :

كانت المدن العربية في العهد السلجوقي عامرة الاسواق كثيرة المتاجر ، فكانت اسواق بغداد تعج بالنشاط التجاري حتى قال ابن جبير انها " تشتمل من الخلق على بشر لا يحصيهم الا الله " (١) وقد وصف ناصر خسرو اسواق مدينة ابله ، جنوبي العراق بانها من احسن الاسواق في العالم (٢) وكانت اسواق مدينة الحلة مشحونة بمختلف انواع البضائع (٣) وكذلك الحال بالنسبة لتكريت نسي الشمال (٤) بل ان بعض القرى كانت لها اسواق وصفت بانها كاسواق المدن (٥)

اما الموصل فقد كانت الحركة التجارية فيها على درجة عالية من الازدهار ، وكانت اسواقها تحتوي على مختلف البضائع وتضم عشرات الخانات الكبيرة والقيصريات والمحلات التجارية الواسعة المكتظة ببضائع الشرق والغرب . وكان بها اربعة اسواق او اكثر للصنف الواحد من البضاعة (٦) وكانت دنيفر ونصيبين وحران ومنبج وبزاعة عامرة الاسواق (٧)

(١) ابن جبير ص ١٨٢ - ١٨٣ .

(٢) ناصر خسرو ص ٩٩ .

(٣) ابن جبير ص ١٦٩ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٨٦ .

(٥) المصدر نفسه ص ١٧٢ .

(٦) ابن حوقل ص ١٩٤ - ١٩٥ ؛ ابن جبير ص ١٨٨ - ١٨٩ ؛ وانظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان (بيروت : دار بيروت ودار صادر ١٩٥٧ م) ، مجلد ٥ ص ٢٢٣ .

(٧) ابن جبير ، ١٩٢ - ١٩٣ و ١٩٧ - ٢٠١ .

(١) وأما حلب فكانت أسواقها واسعة وجوانبتها كثيرة تحوى من مختلف البضائع. (١) وأسواق دمشق من أحفل أسواق البلاد وأحسنها انتظاما ٠٠٠ ولا سيما قيسارياتها. (٢)

وكانت المدن الكبيرة تحتوى على كثير من الأسواق بعضها مخصص ومنسوب لأصناف من البضائع بذاتها والبعض الآخر منسوب لأسماء المواضع التي تقوم فيها ، وغير ذلك. (٣) وليس أراد على مدى ازدهار التجارة في المدن العربية من عدد أسواق دمشق التي أورد ابن عساكر أسماءها بلغت ثمانية وأربعين سوقا ، بالإضافة الى ستة أسواق صغيرة سماها سويقات ، وسبع قيساريات. ومن أسماء هذه الأسواق نعرف أنواع البضائع التي كانت تصنع أو تتبادل فيها ، وسنذكر منها ما دل على صنف من المصنوعات أو السلع. فمن هذه الأسواق الدمشقية : سوق الريحان (٤) وسوق الشعير (٥) وسوق البر وسوق السراجين وسوق القطانين وسوق القلانسيين (٦) وسوق الرطابين وسوق الرماحين وسوق الصرف وسوق الطير (٧) وسوق الحبالين وسوق اللؤلؤ. (٨)

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٠٣ ، وقد بلغ عدد أسواق حلب التي أورد ابن شداد أسماءها أربعين سوقا .

(٢) ابن جبير ، ٢٣٦ .

(٣) الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق صلاح الدين المنجد

(دمشق : مطبوعات المجمع العلمي العربي ، ١٩٥٤) ، المجلد الثانية ، القسم الاول ، ص ٦٢

و٦٤ و١٣٠ و١٥٦ و١٥٨ . وسنظل نميز هذه الطبعة بعبارة "المجلد ٢ ، قسم ١" بدلا من

عبارة "١ ، ص ٥" ، مثلا ، التي نشير بها الى طبعة تاريخ ابن عساكر الاخرى التي هذبها

بدران ، وانظر كذلك ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٢٧ و١٣٥ ، مثلا .

(٤) ابن عساكر ، مجلد ٢ ، قسم ١ ، ص ٢٤ و١٣٧ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٤٨ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ٥٧ و٧١ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ٥٨ و٦١ و١٥٥ .

(٨) المصدر نفسه ، ص ٦١ و٧١ و١٥٥ .

(١)

سوق الدقاقين ، سوق البقل ، سوق دار البطيخ (٢) سوق السلالين (٢) سوق الغزل (٣) ، سوق
القناديل (٤) سوق الاساكة (٥) سوق الاطباقيين (٦) سوق الخواصين ، سوق القمح (٧) سوق
الكتانيين (٨) سوق الفاكة (٩) سوق الحدائين ، سوق الدقيق ، سوق النحاسين (١٠) سوق
الابارين ، سوق البزوريين ، سوق المناخليين (١١) سوق الحدادين ، سوق المطرزين (١٢) وبلغ
عدد اسواق حلب التي وردت اسماءها ضمن كتاب العلاق الخطيرة ، لابن شداد اربعين سوقا منها :

سوق الحريريين (١٣) وسوق البز (١٤) وسوق الحدادين ، وسوق الكتانيين (٢٥) وسوق الخشابيين (١٦)
وسوق الطير ، وسوق الخزازين (١٧) وسوق الفرائيس (١٨) وسوق الحصارين ، وسوق السراجيين (١٩)
وسوق الفقاعيين (٢٠) وسوق الطباخين (٢١) وسوق الغنم (٢٢) وسوق التبن (٢٣) وسوق السلاح (٢٤)

(١) المصدر نفسه ، ص ٦٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٦٣ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٦٨ و ١٦٠ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٦٩ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٧١ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ٧٣ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ٧٤ و ١٤٢ و ١٥٨ و ١٦٢ وقد ذكر ايضا باسم سوق البر .

(٨) المصدر نفسه ، ص ٧٤ .

(٩) المصدر نفسه ، ص ١٢٩ .

(١٠) المصدر نفسه ، ص ١٢٧ .

(١١) المصدر نفسه ، ص ١٥٥ .

(١٢) المصدر نفسه ، ص ١٦٣ .

(١٣) ابن شداد ، الجزء الاول ، القسم الاول ، ص ١٤ .

(١٤) المصدر نفسه ، ص ٣٢ و ٣٦ و ١٤٧ .

(١٥) المصدر نفسه ، ص ٤٢ و ٤٥ و ٦٢ .

(١٦) المصدر نفسه ، ص ٦٣ و ١٤٤ و ١٤٧ .

(١٧) المصدر نفسه ، ص ٦٦ و ١٤٦ و ١٤٧ .

(١٨) المصدر نفسه ، ص ٦٨ .

(١٩) المصدر نفسه ، ص ٦٩ .

(٢٠) المصدر نفسه ، ص ٧٥ .

(٢٢) المصدر نفسه ، ص ٧٩ و ١٥١ .

(٢١) المصدر نفسه ، ص ٨٩ .

(٢٣) المصدر نفسه ، ص ١٣٤ .

(٢٤) المصدر نفسه ، ص ١٤٤ .

وسوق الصاغة ، وسوق النطايعين ،^(١) وسوق الاساكفة ، وسوق الزجاجيين ، وسوق العطارين ،^(٢) وسوق الخيل ،^(٣) وغير ذلك .

وكان المار بأسواق بعض المدن العربية يشاهد فيها ، فضلا عن البضائع التي تدل عليها أسماء هذه الاسواق ، أفرانا تباع الخبز للجمهور ،^(٤) وأناسا يقلون الزلابية ،^(٥) وآخرين يقلون السمك ،^(٦) والنقانق ،^(٧) كما كان هناك صانعو الهريسة ،^(٨) والصابون ،^(٩) وشواءو الخراف ،^(١٠) وبائعو الرؤوس والأكار ،^(١١) والحلوانيون ،^(١٢) وثمة حوانيت للحاكة ،^(١٣) والخياطين ،^(١٤) والصباغين .^(١٥)

ونقرأ أحيانا عن سوق خاصة بالصيدلة في واسط ،^(١٦) حيث تباع الادوية والعقاقير التي كانت مستعملة في ذلك العصر ، كالراوند الصيني ، والافيون المصري ، واللبان الذكر ، والتمر الهندي ، والمصطكى ، وغير ذلك .^(١٧)

(١) المصدر نفسه ، ص ١٤٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٦٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٤٩ و ١٥١ .

(٤) الشيزي ، نهاية الرتبة ، ص ٢٤ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٢٥ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ٣٣ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ٣٨ .

(٨) المصدر نفسه ، ص ٣٦ .

(٩) المصدر نفسه ، ص ٢٧-٢٨ .

(١٠) المصدر نفسه ، ص ٣٠ .

(١١) المصدر نفسه ، ص ٣٢ .

(١٢) المصدر نفسه ، ص ٤٠ .

(١٣) المصدر نفسه ، ص ٦٥ .

(١٤) المصدر نفسه ، ص ٦٧ .

(١٥) المصدر نفسه ، ص ٧١-٧٢ .

(١٦) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٢٧ .

(١٧) المصدر نفسه ، ص ٤٢-٤٧ .

وبالإضافة الى التجارة المحلية في البلد الواحد كان هناك تبادل السلع بين المدينة والريف ، وبين منطقة واخرى ، وبين قطر واخر ضمن المنطقة العربية السلجوقية ومع اقطار دار الاسلام المختلفة . وقد توفر الامن خلال بعض فترات الحكم السلجوقي ، خاصة في عهد السلطان ملكشاه حيث كانت القوافل تسير من بلاد ما وراء النهر الى اقصى بلاد الشام دون حراسة . وكان التاجر الواحد الاثنان يسافران دون خوف او رهبة (١) وفي اوقات الخطر كان التجار يسرون في قوافل كبيرة ، او ينتظرون قافلة الحج لمصاحبتها (٢) بل كانوا يصاحبون الحملات العسكرية احيانا (٣) وقد كانت الحركة التجارية بين العراق والموصل والشام ناشطة ، فكانت السفن تملأ دجلة وتنقل البضائع الشرقية العابرة (٤) والبضائع المحلية (٥) وفضلا عن ذلك فقد كانت القوافل التجارية تنقل البضائع من قطر الى اخر (٦) حتى ان القار ، وهو سلعة ثقيلة ورخيصة كان ينقل من العراق ليباع في كل انحاء الشام بما في ذلك عكا وسائر المدن الساحلية (٧)

ومن التسهيلات التي اعدت للحركة التجارية توفر الخانات لنزول التجار والقوافل ، على طول الطريق من الخليج ، جنوبي العراق ، الى دمشق (٨) وقد نهج ابن جبير معاصريه من العجاج المغاربة ان يسلكوا هذا الطريق في سفرهم فضلا اياه عن الطريق المار بمصر عبر الصعيد نمينا عذاب على البحر الاحمر (٩)

-
- (١) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ١ ، ص ٧٠ .
 - (٢) ناصر خسرو ، ص ١٠ ، والكاتب الاصفهاني ، تواريخ ال سلجوق ، ص ٢٥١ ، وابن جبير ، ص ١٨٥ - ١٨٦ .
 - (٣) ابن الاثير ، الباهر ، ص ١٤٤ .
 - (٤) Atiya, p.175. وانظر ابن الجوزي ، مجلد ١ ، ص ٢١٦ ، وابن جبير ، ص ١٨٠ .
 - (٥) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ١ ، ص ٢٥٠ .
 - (٦) المصدر والصحة ذاتهما .
 - (٧) ابن جبير ، ص ١٨٢ .
 - (٨) ابن جبير ، ص ١٧١ و ١٨٧ - ١٨٨ و ١٩١ و ١٩٣ و ٢٠٠ و ٢٠٥ - ٢٠٧ و ٢٠٩ - ٢١٠ .
 - (٩) المصدر نفسه ، ص ٤٣ .

وفي موسم الحج كان التجار يجتمعون من مختلف الاقذار الاسلامية ، فقد كان يعتقد في منى أثناء الحج "سوق من أعظم الاسواق ، يباع فيها من الجوهر النفير الى أدنى الخرز ، الى غير ذلك من الامتعة وسائر سلع الدنيا ، لانها مجتمع أهل الافاق " . (١) وفي مكة كان يعقد سوق مماثل ، يباع فيه " من الدقيق الى العقيق ، ومن البر الى الدر " . (٢)

وتورد لنا المصادر بعض الامثلة عن نشاط تجارى بين العراق وسواحل الخليج العربي ، من ذلك ما يذكره ابن خلكان عن عادة تجار عراقيين السفر الى البحرين للحصول على اللؤلؤ من المغاصات هناك . (٣)

ورغم نشوب الحروب الصليبية فان الحركة التجارية بين الشام ومصر استمرت برا وبحرا ، فكان المحاربون منهمكين في صراعهم والتجار منهمكين في تجارتهم . (٤) ومن الطريف ان نقرأ عن قافلة تجارية متجهة الى الاراضى الصليبية ، يقابلها جيش اسلامى عائد من المعركة ، محملا بالغنائم ، فلا يمنعها ذلك مواصلة السفر الى وجهتها . (٥)

وكان التجار والحجاج المغاربة يقدمون الى الشرق على السفن الاوروبية ، (٦) اذ اصبحت السيطرة في البحر المتوسط للاربيين ، خاصة الجنوبيين والبنادقة ، وذلك منذ ان انتزعت صقلية من أيدي المسلمين ١٠٩١ م . ويذكر القفطى ان تاجرا شاميا جلب كتابا نفيسا من أصبهان الى الشام ، حيث اشتراه منه أندلسي من أهل مرسية ، ونقله الى مصر . (٧)

(١) المصدر نفسه ، ص ١٤٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٤٣ .

(٣) ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ١٠٣ .

(٤) أسامة ، ص ٣٥ .

(٥) ابن جبير ، ص ٢٣٥ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ٢٣٥-٢٤٥ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ٢٤٧ و ٢٥٥-٢٥٦ .

(٨) القفطى ، انباء الرواة ، مجلد ٣ ، ص ١٩٤-١٨٥ .

التجارة الدولية : الهند والصين :

بدأت تجارة العرب في العصر الاسلامي مع بلاد الصين والهند في وقت مبكر ، اذ نجدها مزدهرة في القرن الثامن الميلادي ونجد جالية عربية اسلامية كبيرة في ميناء كانتون الصيني سنة ٧٥٨م^(١) وقد بلغت هذه التجارة طليقة ذروة نشاطها في القرن التاسع الميلادي (٢) وقد استمر النشاط التجاري خلال القرن العاشر الا ان المعلومات التي توردها المصادر بعد هذه الفترة قليلة ومتباعدة الزمن ، بيد انها تبين استمرار الحركة التجارية على ما كانت عليه في السابق (٣) وقد جرت العادة بان تنقل بضائع الهند على ظهور السفن عبر الخليج الفارسي وشط العرب ودجلة الى بغداد والموصل ، ومن هناك تحمل القوافل السلع الجلوية لاسواق حلب ودمشق وبلاد الساحل الشامي عامة (٤) وقد ظلت المراكب الصينية تبحر الى الموانئ العربية اثنا القرن الثاني عشر الميلادي وحتى زمن التوسع المغولي (٥) وعندما كان ناصر خسرو في طريق عودته الى بلاده بعد ختام رحلته شاهد في مياه الخليج بين البصرة وعبادان منارتين خشبيتين ارتفاع الواحدة منهما اربعون ذراعاً و يضاف في البرج المقام على راس كل منهما مصباح داخل غطاء زجاجي لارشاد السفن حتى لا ترتطم بالارض في المياه الضحلة (٦) ويعدد ابن جبير اصناف من البضائع الهندية التي كانت تباع في موسم الحج بمكة (٧)

(١) Hourani, pp.62-63.

(٢) Ibid.

(٣) Ibid., p.83.

(٤) Aziz S. Atiya, Crusade, Commerce and Culture (Bloomington:Indiana University Press, 1962), pp.175 - 176.

(٥) Runciman, III, p.359.

(٦) ناصر خسرو، ص ١٠٠.

(٧) ابن جبير، ص ٨٦.

ورغم ان المصادر لا تمدنا بأخبار عن نشاط التجار العرب في هذا الميدان الشرقي ، فثمة ذكر لبعض تجار كانوا يسافرون الى الهند ، مثل علي بن أحمد القطان الحلبي ، التاجر البغدادي الذي سافر الى مسرو ، حيث قابله السمعاني ، وخرج منها الى بلاد الهند .^(١) ومثل رامشت ، التاجر الفارسي الثرى ، الذى كان يسافر الى الهند ، والذى قام بكسوة الكعبة عندما انشغل الخلفاء والسلاطين بحروبهم عن هذا الواجب الديني سنة ٥٣٢هـ / ١١٣٨م .^(٢)

التجارة مع أوروبا

ظل العرب يسيطرون على التجارة الدولية في البحر الابيض المتوسط الى أواخر القرن الحادي عشر الميلادي (الخامس الهجري) ، واذ ذاك تمت للنورمان السيطرة على جزيرة صقلية وانتزاعها نهائيا من أيدي المسلمين سنة ١٠٩١م ، الامر الذى آذن ببداية تنصير مياه هذا البحر . وجاء نجاح الحملة الصليبية الاولى سنة ١٠٩٦م فأكمل حلقة تلك السيطرة الاوربية . ومع هذا فقد ظلب صقلية ملتقى التجارة المتبادلة بين الغرب الاوربي والشرق العربي .^(٣)

ومع ان الموانئ الشامية كانت قبل عصر الحروب الصليبية تستقبل السفن القادمة من الموانئ البيزنطية والاوربية الغربية والاندرلسية والمصرية ، موقرة بالبضائع ، وكانت تبحر منها السفن العربية في اتجاه معاكس الى موانئ تلك الاقمار^(٤) الا ان خضوع البحر الابيض المتوسط للسيطرة الاوربية بعد بدء الحروب الصليبية زاد من حجم التبادل التجارى بين الشرق والغرب ووسع آفاقه الى درجة لم تعهد من قبل .^(٥)

(١) السمعاني ، الانساب ، مجلد ٤ ، ص ٣١٤ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١١ ، ص ٦٥ .

(٣) Atiya, pp. 169 - 170.

(٤) ناصر خسرو ، ص ١٣ .

(٥) Atiya, p.170.

واتخذ الصليبيون من عكا ميناء رئيسيا وجعلوها اهم مركز تجارى في شرق المتوسط ،
فصارت "محط الجوارى المنشآت في البحر كالاعلام ، ، ، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع
الاناق ، سككها وشوارعها تخصص بالزحام ، وتضيق فيها مواطى" الاقدام (١) ، ولم تكن عكا هي
الميناء الوحيد ، فهناك ميناء صور الذى كانت تنقل منه السفن الى اوروىا كذلك (٢) وميناء اللاذقية
الذى ظل يستأثر بمقدار كبير من التجارة الشرقية الى زمن المماليك (٣) .

وكانت السلع المصدرة من المشرق العربى الى اوروىا اما مستوردة في الاصل من
بلدان الشرق الاقصى ، كالقرفة والتوابل والزنجيل وجوزة الطيب والقرنفل والمسك وعود الهند (٤)
او من انتاج البلاد العربية كالسكر والزجاج ، والاقمشة المختلفة الانواع (٥) وبعض مواد الصباغة
مثل النيلة العراقية وكذلك المصنوعات المعدنية الدمشقية والتوابل من جنوب الجزيرة العربية (٦)
ويفترض ان حركة عامة لمعدن الذهب قد سارت من الاقطار الاسلامية الى الاقطار المسيحية ، عبر
الدول الصليبية اذ ان العملة الذهبية لم تكن مستعملة في اوروىا المسيحية قبل عهد الحروب الصليبية (٧)

وكانت اهم البضائع التي يستوردها المشرق العربى من اوروىا هي المعسادن
والخشب (٨) .

(١) ابن جبىر، ص ٢٤٩.

(٢) المصدر والصفحة ذاتهما.

(٣) Runciman, III, p. 361.

(٤) Ibid., p. 359.

(٥) Ibid., p. 353.

(٦) Ibid., p. 355.

(٧) Ibid., pp. 363-364.

(٨) Ibid., p. 357.

وكانت الارباح التي تدرها هذه التجارة الشرقية تسيل لعاب التجار الايطاليين فتحملهم على التخاذل عن المشاركة الجادة في الحروب الصليبية لنصرة العقيدة ، وعلى عدم الانسجام مع السروح الدينية التي جاءت الحملات الى الشرق باسمها (١) وقد اضطرت الاحتياجات المالية قادة الدولات الصليبية والحكام المسلمين انفسهم الى المحافظة على قدر مناسب من اسس التعامل السلمي يسهل استمرار التجارة بين الجانبين (٢) ومن مظاهر حرص الصليبيين على ما كانت تدره التجارة مع اعدائهم المسلمين حسن معاملتهم للتجار وتخفيفهم للرسم الجمركية (٣) وقد كان التجار العرب يتنقلون بحرية داخل الاراضي الصليبية وبين مدنها (٤) وبالمثل فقد كان التجار الاوربيون لا يكتفون بشراء البضائع المجلوبة الى اسواق المدن الصليبية ، بل كانوا يختلفون الى الاسواق العربية ، حيث يستطيعون شراء البضائع باسعار اقل من اسعار مثيلتها في اسواق المدن الصليبية (٥)

ورغم الانانية المفرطة التي طبعت سلوك معظم الحكام في العهد السلجوقي فقد ادرك الكثيرون منهم اهمية توفر الامن والاستقرار لازدهار البلاد ، وحرصوا على استمرار الحركة التجارية . فقد كان السلطان البارسلان ، ثاني السلاطين السلاجقة ، شديد الاهتمام برده جنده عن اموال الرعية ، وقد بلغه ان واحدا من خواص مماليكه سلب من احد الناس ازارا ، فامر بالقبض على ذلك المملوك ، وعليه (٦) وقد روى عن ابنه السلطان ملكشاه ان بائع بطيخ من اهل السواد شكاه اليه ان بعض الجنود نهبوا بضاعته ، فاهتم السلطان بالامر ، الى ان اكتشف ان مرتكبي تلك الجريمة من اتباع الامير الذي كان يشغل منصب الحاجب نالزمه باحضارهم لينالوا القصاص . وحين ابلغه انهم نروا قال للسوادى : " خذ مملوكي هذا قد

(١) Ibid., pp. 356, 365.

(٢) ابن جبير ، ص ٢٢٥ ؛ وانظر

(٣) ابن جبير ، ص ٢٤٧ .

(٤) ابن جبير ، ص ٢٤٩ — ٢٥١ .

(٥) Runciman, III, pp. 353-354.

(٦) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٧٥ .

وهبته لك عوضاً عن بطيخك . . . (١) وكان يشير الى الحاجب . ولم يفك ذلك المملوك نفسه من بائع البطيخ الا بعد ان دفع له مبلغ ثلاثمائة دينار . (٢) وقد جاء هذا السلطان الى بغداد ثلاث مرات وكان الناس يتخوفون من ارتفاع الاسعار واعتداءات الجند ، ولكن الامر كان على العكس من هذه التوقعات ، اذ كان الباعة المتجولون يخترقون عسكره ليلاً ونهاراً " ولا يخافون ، ولا يبيعون الا بما يريدون . . . (٣) ولم يتعد عليهم أحد من الجند . (٤)

وعمل تقسيم الدولة آق سنقر (ت ٤٨٧هـ) أمير منطقة حلب ، على استئصال شأفة قطاع الطرق ، وكان يأمر أهالي القرى والديار بالاغلاق أحد بابه ، وبأن يترك الحراثون أدوات الحراثة في الحقول دون حراسة ، امعاناً منه في تحدى من قد تنازعهم أنفسهم الى اغتصاب الاموال . وقصد عمريت "حلب في أيامه بسبب ذلك ، ولورود التجار والجلابين اليها من كل مكان . . . (٥)

وكان عماد الدين زنكي يهتم بحفظ الامن ومنع الاعتداء واغتصاب الاموال ، وكان شديد السطوة على من يتجاسر على ذلك ، حتى ان أحداً من جنده لم يكن ليجرؤ على أخذ علاقة تبين لاطعام دابته " الا بشئها او بخطط من الديوان . . . (٦)

أما عدالة نور الدين محمود بن زنكي فهي أشهر من ان تحتاج الى تنويه ، وقد أظنبت المؤرخون في مدحه وفي التنويه بعمارة البلاد في عهده ، وباسقاطه للجمارك عن التجارة . (٧)

ووصف ابن جبير حرص أمراء الولايات الليبية وجيرانهم حكام الاقاليم العربية على انتعاش الحركة التجارية بقوله : " . . . والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الاحوال ، وأهل الحرب مشغولون

(١) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٧٠ ، ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٢١١-٢١٢ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٢١٢ .

(٣) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٧٢ ، ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٢١٣ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٢١٣ .

(٥) ابن العديم ، زبدة الحلب ، مجلد ٢ ، ص ١٠٤ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ٢٨٣-٢٨٤ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ٢٣١ ، ابن قاضي شهبه ، ص ٦٣-٦٤ .

بحريهم والناس في عافية والدنيا لمن غلب . هذه سيرة اهل البلاد في حريهم وفي الفتنة الواقعة بين امراء المسلمين وملوكهم كذلك . ولا تعترض الرعايا ولا التجار (١) . وهذا الوصف يمثل الحقيقة الى درجة كبيرة لو تغاضينا عن التعميم الذي اطلقه الرحالة الاندلسي .

والواقع اننا نجد ثمة امثلة لتعرض التجار والمسافرين للعدوان وقد سبق ان اشرنا الى ان احد الذين تولوا امرة منطقة حمص كان يشارك قطاع العراق اسلابهم (٢) وهناك امثلة لتعدييات قليلة من جانب الصليبيين ، من ذلك ما ذكره ابن العديم عن مجيئ اثنتي عشرة من قسوسة بحرية من قبرص هاجمت ميناء اللاذقية سنة ٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م حيث نهب المغيرون جميع ما كان للتجار (٣) وما ذكره الامير اسامة بن منقذ ان صاحب عكا الفرنجي نهب مراكب كان فيها اهل اسامة ومناعه وكتبه التي اسف عليها الشاعر الاديب كثيرا ، وذلك رغم ان نور الدين اخذ عهدا من الامير الفرنجي بعدم التعرض لتلك القافلة (٤) وورد ابن الاثير حادثة مشابهة اذ تعرض الفرنج لسفن كانت فيها بضاعة تخص والده وتجارا كثيرين غير فنهبوها (٥)

ويمكن ان يضاف الى ذلك اعمال السلب والنهب التي كانت تقوم بها القبائل العربية في جنوب العراق كلما احست بضعف السلطة السلجوقية في تلك الاقاليم (٦) وقد ذكر ابن جبير ان اكثر مدينة الكوفة خراب بسبب هجمات البدو من قبيلة خفاجة عليها (٧) وقد وصف احد الذين زاروا البصرة سنة ٥٣٧ هـ تلك المدينة بانها قد خربت * ولم يبق من اثارها الا الاقل وطمست معالمها فلم يبق منها

(١) ابن جبير، ص ٢٣٥ .

(٢) انظر ما سبق ص ٩٥ .

(٣) ابن العديم، زبدة الحلب، ص ١٣٠ .

(٤) اسامة، ص ٣٥ .

(٥) ابن الاثير، الكامل، مجلد ١٠، ص ٤٨٢ — ٤٨٣ .

(٦) ابن الجوزي، المنتظم، مجلد ٩، ص ٦٣ و ٩٧ و ١٢٤ و ٢١٧ و ٢٢٧ و ٢٣١ و ٢٣٥ .

(٧) ابن جبير، ص ١٦٧ — ١٦٨ .

الى محال معلومة ٠٠ وقد بقي في كل محلة بيوت معدودة وباقي بيوتها اما خراب واما غير مسكونة .
وجامعها باق في وسط الخراب ٠٠ (١) ويعود السبب في خرابها الى جور الولاة ، وغارات البدو من
قبيلة خفاجة . بيد ان اضمحلال المدينة لم يحدث كله في عصر السلاجقة بل انه بدأ منذ ثورة الزنج
في القرن الثالث الهجري (٢)

وفضلا عن هذا فان الصراع بين المتنازعين من السلاجقة ، ثم بين
السلاطين والخليفتين المسترشد والراشد كان يتيح الفرصة للجندو الرابعين في السلب
والنهب والاعتداء على الاهالي لاشباع نهمهم (٣) ولعل من حسن حظ الاقاليم العربية ان اكثر
معارك الصراع على السلطة دارت في المناطق الايرانية كما سبق ان ذكرنا .

اما العيارون فقد اذاقوا التجار والتمولين ضربا من التكيل والرعب كما شعروا بضعف
السلطة الحاكمة ، خاصة في بغداد واخبارهم كثيرة التردد على صفحات الحوليات التاريخية (٤)

ولكن بالرغم من هذه المعوقات التي تعرضت لها الحركة التجارية بشكل جزئي ، فقد
كانت التجارة مزدهرة ناشطة ، بل انها حققت توسعا ملحوظا عما كانت عليه قبل عهد السلاجقة ، او
قبل بدء الحروب الصليبية بتعبير ادق (٥) وذلك بفضل انفتاح الطريق للاروبيين على مصراعيه
الى شرق البحر الابيض المتوسط ، وبفضل وجود قواعد تجارية اوروبية هامة على تلك الشواطئ ،
بجانب حرص الحكام في المنطقة على ترقية التجارة ، كما سبق ان ذكرنا (٦)

(١) مجهول ، كتاب صورة الارض لابن جوقل ص ٢١٣ ، اضاف احد نسخ كتاب ابن حوقل سطورا من
عنده وقد ميزت في الطباعة بحروف صغيرة .

(٢) المصدر والصفحة ذاتهما .

(٣) ابن الجوزي المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ١١١ و ١٢٤ و ١٣٥ .

(٤) المصدر نفسه ، مجلد ٨ ، ص ٧٥ و ٧٨ و ٧٩ و ٨٢ و ٩٢ ، مجلد ٩ ، ص ١٠٣ و ١٠٦ و ١١٣ و ١٢٧ .

ابن الاثير الكامل ، مجلد ١١ ، ص ٤٥ و ٦١ و ٨٩ .

(٥)

Atiya, p.170.

(٦) انظر ما سبق ص ٤٥ — ٤٦ .

ثالثاً : الصناعات

كانت صناعة النسيج من اهم الصناعات المزدهرة في المشرق العربي اثناً الحكم السلجوقي فقد اشتهرت بغداد من ضمن ما اشتهرت به بنسج الاقمشة العتابية ، المصنوعة من الحرير والقطن ، والمنسوبة الى محلة العتابية ، احدى محال بغداد ، التي كانت مركز صناعة هذه الاقمشة (١) وكان السلاطين والملوك يحتفظون في خزائنهم بكميات من هذا النوع من القماش ويعدونه من ضروب المال العظيمة القيمة (٢) وقد ذكر الوزير ابو شجاع في تاريخه ان صمام الدولة بن بويه عول في سنة ٣٧٥ هـ ٩٨٥ م ، على فرض ضرائب على انتاج المنسوجات الحريرية والقطنية في بغداد ونواحيها وقد تهيأ له ان يضمن هذه الضرائب مليون درهم في السنة (٣) وهذا يدلنا على عظم مقدار ما كانت تنتجه بغداد من الاقمشة ايام البويهيين ، بيد اننا لا نعرف اذا كان الانتاج قد استمر بنفس المستوى في العهد السلجوقي ام لا . ويذكر المقدسي اصنافاً من النسيج الذي انتجته بغداد في النصف الثاني من القرن الرابع ونرجح ان انتاجها استمر في العهد السلجوقي ، فعدد منها القز والعباداني والازر والعمائم الرنيعة التي عرفت باسم (يكانكي) والمناديل القصرية والبويبية وكانت بلدة النعمانية تنتج ثياب الصوف العسلية (٤)

وقد نوه المقدسي بكثرة الحاكة في مدينة قصر ابن هبيرة (٥) وصناعة الصوف في تكريت (٦) وقد اشتهرت واسط بصناعة الستور والواسطية (٧) وحفظ لنا الرحالة الاندلسي ابن جبير وصفا شيقاً للاقمشة الكتانية العراقية التي كانت تصنع منها الخيام والسرادقات والقباب مرقشة باللونين الابيض والاسود (٨) ووصف الكسوات التي كان الخليفة العباسي يبعث بها للكعبة وللنساء الاثمة بالمسجد

(١) ابن جبير ، ص ١٨٠ ، وانظر ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٨٥ .

(٢) الكاتب الاصفهاني ، تواريخ ال سلجوق ، ص ٢٣٠ .

(٣) ابو شجاع ، ص ١١٢ - ١١٨ .

(٤) المقدسي ، ص ١٢٨ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ١٢١ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ١٢٣ و ١٢٨ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ١٢٩ .

(٨) ابن جبير ، ص ١٢٧ .

الحرام نذكر ان كساء سقف الكعبة كان من الحرير الملون بينما كان ظاهرها مكسوا بستور من الحرير الاخضر وعليها اسم الخليفة العباسي الذي ارسلها (١) وقال ابو عبدالله بن النجار ان الخليفة المستضيء بعث الى الكعبة بـ " ستارة من الابرسم البنفسجي ، عليها الطراز والجامات البيض المرقومة ٠٠٠ فلما ولي الامام الناصر انقذ بستارة اخرى من الابرسم الاسود ، وطرزها وجاماتها من الابرسم الابيض . فلما حجت الجهة ام الخليفة وعادت الى العراق عملت ستارة من الابرسم الاسود ايضا فنفذ بها نعلقت على هذه (٢) ويمكن ان يستنتج من هذه الروايات ان هذا النوع الفخم الثمين من الاقمشة كان يصنع في العراق .

اما الموصل فقد ارتقت وازدهرت في العصر الاتاكي الى درجة لم تبلغها من قبل (٣) وقد نقل صاحب كتاب منهل الاولياء عن سبط بن الجوزي ان عدد خانات الحياكة في الموصل في اواخر العهد الاتاكي بلغ ١٠٨ خانات وخمسة وسبعين الفجومة. (٤) (نول).

وكان الوزير جمال الدين المعروف بالجواد ، الذي وزر للاتاكة بالموصل يبعث في كل سنة احمالا كثيرة من القماش على ظهور الجمال لتوزيعها على المحتاجين في الديار الحجازية (٥) وقد شاهد ابن جبير اهل الموصل وهم خارجون لاستقبال زوجة ملكهم العائدة من الديار الحجازية وقد زينوا وجللوا اعناق ابلهم بالحرير الملون (٦) ومن المرجح ان صناعة نسج الصوف والكتان في آمد ، التي تحد عنها المقدسي (٧) وقد استمرت في العهد السلجوقي كذلك .

(١) المصدر نفسه، ص ٥٤.

(٢) نقل ذلك عنه الاستاذ مصطفى جواد، " عمارات القرن السادس الفخمة "، سومر، مجلد ٢، عدد ١ ص ٧٠.

(٣) جهول، كتاب صورة الارض لابن حوقل، ص ١١٥.

(٤) نقل ذلك عن مخطوطة منهل الاولياء الاستاذ سعيد الديوهجي " صناعة الموصل وتجاريتها "،

سومر، ٧، عدد ١، ص ٩٤.

(٥) ابن الاثير، الباهر، ص ٤.

(٦) المصدر نفسه، ص ١١٠.

(٧) المقدسي، ص ١٤٥.

وكانت المنسوجات تصنع في مدن بلاد الشام حيث كانت تربي دودة القز، خاصة حول بيروت وطرابلس (١) وكان الكتان ينزع في سهول فلسطين ومنطقة نابلس (٢) كما كانت الانسجة القطنية والحربية تصنع في دمشق وحلب (٣) وكان البزيصنع في طبرية (٤) وكانت تصنع في القدس انواع من القماش تسمى المنيرة والبلعيسية منذ اواخر القرن الرابع الهجري (٥) وقد اشتهرت صور بنوع من النسيج عرف في اوربا باسم Zendado او Cendal (٦)

وبجانب صناعة النسيج ، الصناعة الرئيسية ، كانت هناك صناعة الاسلحة والاعتدة الحربية ، وصناعة السفن والمراكب المقاتلة في بغداد (٧) وفضلا عن ذلك فقد كانت السفن تصنع في حيفا ايضا (٨) وثمة صناعة خاصة بالبناء هي صناعة الاجر ، وهو قوالب الطين المشوية ، وصناعة الجص . وقد كان لهاتين الصناعتين كثير من الاتيين في بغداد (٩) والراجع ان هذه الصناعة كانت شائعة في المناطق التي تفتقر الى الحجارة ، وما يؤيد ذلك ما ذكره ابن الجوزي من انه نزل في البصرة سنة ٤٨٥ هـ برد كبير رمى " الابراج البنية بالجص والآجر (١٠) . وقد شاهد ابن جبير مع الحجاج العراقيين في الديار المقدسة شمع اضاءة كبير " تنو" الشمعة منه بالعصبة ،

(١) Runciman, III, pp. 353 - 354.

(٢) Ibid.

(٣) المقدسي، ص ١٨٠ - ١٨١.

(٤) المقدسي، ص ١٨٠.

(٥) المصدر والصفحة ذاتهما.

(٦)

Runciman, III, p. 453.

(٧) الكاتب الاصفهاني، تواريخ آل سلجوق، ص ٢٤٧.

(٨) ناصر خسرو، ص ١٨.

(٩) الكاتب الاصفهاني، تواريخ آل سلجوق، ص ٢٢٢.

(١٠) ابن الجوزي، المنتظم، مجلد ١، ص ٦٣.

كأنه السرو . . . (١) وقد شاهد مثله حول مشهد النبي جرجيس ، قرب الموصل ، (٢) مما يوحي بأن هذا الشمع الضخم كان يصنع في العراق ومنطقة الموصل .

وكان السكر يصدر من موانيء شرق البحر الأبيض المتوسط إلى أوربا . (٣) وقد ذكر المقدسي أن السكر كان يصنع في صور على الساحل اللبناني ، (٤) كما كان يصنع في بلدة تدعى كابل ، (٥) على الساحل الفلسطيني . (٦) وكانت هذه الصناعة موجودة في منطقة البصرة أيضا . (٧) والذي أرجحه أن المراكز التي كانت تصنع السكر في القرن الرابع ظلت تنتجها أثناء العصر السلجوقي .

ومن الصناعات الهامة صناعة الصابون ، الذي كان يستهلك على نطاق واسع في المشرق العربي الذي اشتهر بكثرة حماماته . (٨) وقد أورد المقدسي أن الصابون كان يصنع في منطقة الجزيرة ، خاصة في الرقة (٩) وبالمصر (١٠) وكان يصنع في فلسطين . (١١) ونفهم من إشارة أورد ها ابن شداد أن الصابون

(١) ابن جبير ، ص ١٣٩ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٩٠ .

(٣) Runciman, III, p. 353 .

(٤) المقدسي ، ص ١٨٠ .

(٥) لم أعثر على اسم هذه البلدة في كتاب معجم البلدان . وقد أخذت برواية المقدسي لأنه فلسطيني وجغرافي دقيق نفترض فيه أنه كان يعرف بلاده أكثر مما عرفها غيره .

(٦) المقدسي ، ص ١٦٢ .

(٧) نقل ذلك عن كتاب المحاسن والمساوي للبيهقي ، آدم متر ، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده (القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٦٠ هـ / ١٩٤١ م) ، مجلد ٢ ، ص ٢٦١ . وقد حاولت التحقق من وجود هذا السند في كتاب البيهقي ولكن النسخة التي عثرت عليها كانت من طبعة غير تلك التي استعملها متر ، فكان علي حتى أعثر على هذه الإشارة أن أقرأ الكتاب بكل أجزائه .

(٨) الخطيب البغدادي ، مجلد ١ ، ص ١١٨ — ١١٩ ، ابن عساكر ، مجلد ٢ / قسم ١ ، ص ٢٥٦ — ٢٥٨ ، ابن شداد ، مجلد ٢ ، قسم ١ ، ص ١٢٨ — ١٣٨ .

(٩) المقدسي ، ص ١٤١ .

(١٠) ابن حوقل ، ص ١٦٥ .

(١١) المقدسي ، ص ١٨٠ .

كان يصنع في حلب ايضا (١) واميل الى الاعتقاد بان مثل هذه المادة الحيوية كلنت تصنع في جميع البلاد التي توفر فيها زيت الزيتون بمقادير كبيرة .

وكانت هناك صناعة للحصر في عبادان ، جنوبي العراق (٢) وفي طبرية ، بفلسطين (٣) وكان ورق الكتاب ، او الكاغد ، يصنع في كل من دمشق (٤) وطرابلس الشام (٥) وطبرية (٦) وقد اتنى ناصر خسرو على الورق الطرابلسي وقال انه يضاهي السمرقندي ، بل هو احسن منه (٧) وكان الزجاج يصنع في بعض المدن الشامية (٨) خاصة في انطاكية ، وكذلك في صور على الساحل اللبناني (٩) حيث كان يتم انتاج نوع من الزجاج المخروط (١٠) وكانت ثمة مناجم للحديد قرب بيروت ولكن الانتاج لم يكن على الاربع يكفي للتصدير (١١) وكان في دمشق مسبك للحديد واخر للزجاج (١٢) وقد اشتهرت دمشق بمصنوعاتها المعدنية التي كانت تصدر الى اوروبا (١٣) وقد وردت اشارة الى مسابك في حلب (١٤) الا اننا لا نعرف ان كانت تنتج الحديد او الزجاج . وكانت الموصل تصنع بعض الادوات الحديدية كالاسطال والسكاكين والنشاب والسلاسل . وكانت الموازين تصنع في حران ونصيبين (١٥) ايضا .

وثمة صناعات صغيرة متعددة الاصناف كدبس الخروب الذي كان يصنع في حران (١٦)

(١) ابن شداد ، مجلد ١ ، قسم ١ ، ص ١٥٢ .

(٢) المقدسي ، ص ١١٨ .

(٣) ناصر خسرو ، ص ١٧ .

(٤) المقدسي ، ص ١٨١ .

(٥) ناصر خسرو ، ص ١٢ .

(٦) المقدسي ، ص ١٨٠ .

(٧) ناصر خسرو ، ص ١٢ .

(٨) Runciman, III, pp. 353-354 .

(٩) المقدسي ، ص ١٨٠ .

(١٠) المصدر نفسه ، الصفحة ذاتها .

(١١) Runciman, III, p. 354 . المقدسي ، ص ١٨٤ .

(١٢) ابن عساكر ، المجلد ٢ ، قسم ١ ، ص ٥٨ و ٦٢ .

(١٣) Runciman, III, p. 355 .

(١٤) ابن شداد ، مجلد ١ ، قسم ١ ، ص ٦٣ .

(١٥) المقدسي ، ص ١٤٥ .

(١٦) المصدر والصفحة ذاتها .

وانحاء فلسطين (١) والدوايات من صناعة نصيين (٢) وكانت هناك صناعة للجبن والفواكه
المجففة في اقليم الجزيرة (٣) ومنطقة دمشق (٤) ونواحي فلسطين (٥) وكانت المرايا والقدرور
والقناديل والابر والحبال مما تنتجه القدس (٦) وكانت صور تصنع اصنافا من الخرز (٧) وكان دهن
البنفسج يصنع في دمشق (٨) وعرف انتاج معدن الكبريت وغيره في منطقة الاغوار (٩) وفضلا عن ذلك
فقد عرفت صناعة طحن الحبوب على الارحاء المائية (١٠) وانتجت غزاة انواعا من السروج الجميلة
المزكشة (١١) .

وهناك بعض صناعات اخرى بيدوانها ، بطبيعتها لم تكن شائعة ، اعني صناعة الآلات
الفلكية وصناعة الساعات . فقد ذكر ابن خلكان ان هبة الله بن الحسين الملقب بالبديع الاسطرابي
(ت ببغداد ٥٣٤ هـ) كان يصنع الآلات الفلكية وكان " متقنا لهذه الصناعة وحصل لله من جهة
عملها مال جزيل في خلافة الامام المسترشد " (١٢) وقد وصف لنا ابن جبير ساعة رآها مقامة
بدمشق ، وكان لها " طاق كبير مستدير فيه طبقان صفر قد فتحت ابوابا صفارا على عدد ساعات
النهار ، ودبرت تدبيرا هندسيا . فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من صفر

-
- (١) المقدسي، ص ١٨٣ .
 - (٢) المصدر نفسه، ص ١٤٥ .
 - (٣) المصدر نفسه، والصفحة ذاتها .
 - (٤) المصدر نفسه، ص ١٨١ .
 - (٥) المصدر نفسه، والصفحة ذاتها .
 - (٦) المصدر نفسه، ص ١٨٠ .
 - (٧) المصدر نفسه، والصفحة ذاتها .
 - (٨) المصدر نفسه، ص ١٨١ .
 - (٩) المصدر نفسه، ص ١٨٤ .
 - (١٠) السمعاني، مجلد ١، ص ١٨٠ ؛ وانظر المقدسي، ص ١٢٥ ايضا .
 - (١١) اسامة، ص ٢٨ .
 - (١٢) ابن خلكان، مجلد ٥، ص ١٠١ .

من نبي بازيين مصورين من صفر، قائمين على طاستين من صفر، تحت كل واحد منهما احدهما تحت اول باب من تلك الابواب والثاني تحت اخرها . والطاستان مثقوبتان فعند وقوع البندقتين فيهما تعودان داخل الجدار الى الغرفة وتبصر البازيين يدان اعناقهما بالبندقتين الى الطاستين ويقذفانهما بسرعة بتدبير عجيب . . . وعند وقوع البندقتين في الطاستين يسمع لهما دوى ، وينفلق الباب الذى هو لتلك الساعة للحين بلوح من الصفر . لا يزال كذلك عند انقضاء كل ساعة من النهار حتى تنفلق الابواب كلها وتتقضي الساعات ثم تعود الى حالها الاول . (١) اما في الليل فلها طريقة اخرى ، اذ تظهر الطاقات الصغيرة التي انقضت ساعاتها مضاءة بنور احمر (٢)

(١) ابن جبير، ص ٢١٨ - ٢١٩.

(٢) المصدر نفسه، والصفحتان ذاتهما.

الفصل السادس

الحياة الفنية

الحياة الفنية

قبل الشروع في معالجة هذا الموضوع أود ان اشير الى ان دراسة الحياة الفنية تختلف عن دراسة المواضيع السابقة من هذا البحث . فحتى تكون هذه الدراسة ذات قيمة لا بد ان يتوفر للباحث قدر من الخبرة والتخصص ، فضلا عن ملكة التدقيق الفطري للنواحي الجمالية . ثم ان مثل هذه الدراسة تعتمد بالضرورة — وبالدرجة الاولى — على المصادر غير المكتوبة ، اعني المخلقات ال اثرية الفنية التي تعود الى العصر موضوع الدراسة . اما المصادر التاريخية الادبية فيندر ان يجد الباحث فيها طلبته او أن يروى منها غلته .

وكاتب هذه السطور يفتقر الى الخبرة الفنية ، لذلك لا بد من الاعتماد على الآراء والاحكام التي اصدرها المتخصصون ، او — على الاقل — الاستشارة بها ، وهذا ما عولت على فعله . والمخلقات ال اثرية ليست تحت ايدينا ، وهذا يحوجنا الى الاعتماد على المصورات التي تضم صور هذه الآثار ، وتعصفها كتابة ، بجانب الصور .

ومع كل هذا فمن الحق ان اقول انه لولا ضرورة استكمال هذا الجانب من هذه الدراسة الحضارية ، ودم ترك هذه الثغرة ، لتركت دراسة هذا الجانب الفني للمتخصصين ، واحجبت عن تناوله .

١ — فن العمارة

نشأ تحت رعاية الحكام السلاجقة طراز من العمارة قائم بذاته ، يمتاز بضخامة الابنية واتساعها وظهورها بمظهر القوة . فضلا عن ذلك تظهر فيه رسوم لكائنات حية ، محورة عن صورتها الطبيعية ، انسجما مع القواعد التي اتسمت بها الفنون الاسلامية عامة . (١)

(١) زكي حسن ، فنون الاسلام (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٨) ، ص ٨٦ .

ومن اهم العماثر السلجوقية العماثر الدينية ، كالمساجد والاضرحة وكانت الاضرحة تبني على شكل ابراج اسطوانية ، وفي بعض الاحيان كان يعمل لها اضلاع وعدة أوجه أو انها كانت تعمل على شكل ابنية ذات قباب . وقد بدأ انتشار هذا النمط من الاضرحة في خراسان ، ثم عم سائر انحاء المشرق الاسلامي . وقد استخدم صناع العصر السلجوقي الاجر في بناء الاضرحة . (١)

وقد عرفت العراق والجزيرة هذا النوع من الابنية الابراج ، التي كان يجعل امام مدخلها - في العادة - رواق صغير ، وما يزال احدها قائما في الموصل ، وهو ضريح الامام يحيى الذي يرجع تاريخه الى سنة ٦٣٧ هـ / ١٢٤٠ م . (٢)

وقد ظل البناؤون في العراق والجزيرة ، اثناء العصر السلجوقي ، مفرمين باسلوب العماثر المتميزة بالايوانات والاعمدة والاكتاف ، وكان تأثرهم بالاساليب السلجوقية التي اتبعت في بلاد الشام واسيا الصغرى وايران قليلا . (٣)

ومن اشهر العماثر التي خلفها العصر السلجوقي الجامع النوري في الموصل ، وهو الجامع الذي بناه نور الدين محمود ، وقيل انه انفق على بنائه مبلغ ستين الف دينار . (٤) ومثذنة هذا الجامع ما زالت قائمة الى الآن ، يناهز علوها خمسين مترا . وهذه المنارة مبنية بالاجر ، وتعتمد على قاعدة مربعة ، وشكلها اسطواني مضيق شبيها فشيتا ، ولها قمة تشبه الخوذة ، وبنائها غني بزخارفه المعتمدة على تغيير وضع قوالب الاجر . (٥)

(١) المصدر نفسه ، ص ٨٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٨٨ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٩٢ .

(٤) ابن الاثير ، الباهر ، ص

(٥) حسن ، فنون ، ص ٩٣ - ٩٤ .

وقد نقل محراب هذا الجامع الى متحف القصر العباسي في بغداد ، وهو ، اى المحراب ، تحفة رائعة الزخرفة والجمال . وقد ابدع النحات في تزيينه ايما ابداع ، وجمع بين الزخارف الشجرية والهندسية والازهار المتشابهة ، وأخرج من ذلك اية فنية خلاصة تدهش الابصار (١)

ويظهر انه بدأ في القرن الخامس الهجري استعمال المقرنصات ، او الدلايات (Stalactites) وهي فتحات معمارية متشابهة تشبه خلايا النحل ، تستخدم لتزيين العماير وزخرفتها ، او لتحقيق الانتقال التدريجي من سطح الى آخر ، سيما الانتقال من سطح مربع الى سطح دائري تعلوه القباب . ثم اقبل البنائون على استخدام هذا الطراز وشغف الناس به ، ففدا من ابرز ما يميز العمارات الاسلامية ، خاصة واجهات المساجد ، وفي الآذن ، وتحت القباب ، وفي تيجان الاعمدة ، والسقوف الخشبية . . . (٢)

وقد وصف لنا ابن جبير جامع حلب ، بأنه كان يطوف بصحنه الواسع ابواب يزيد عددها على خمسين بابا ، يستوقف الابصار حسن منظرها . وقد زين منبره بالمقرنصات التي بلغت غاية الجمال ، حتى قال الرحالة الاندلسي انه لم ير " في بلاد الاسلام منبرا على شكله وغرابة صنعته . واتصلت الصنعة الخشبية منه الى المحراب ، فتجللت صفحات كلها حسنا على تلك الصفة الغربية ، وارتفع كالتاج العظيم فوق المحراب . . . (٣) حتى وصل الى السقف . وقد جعل اعلاه على شكل قوس ، وزين بشرفات خشبية قرنصية ، وورصع كله بالعاج والابنوس ، من المنبر حتى المحراب ، مع ما يصاحبهما من الجدار

(١) بشير فرنسيس وناصر النقشبندی ، "المحاريب القديمة في متحف القصر العباسي ببغداد" ، سومر ، مجلد ٧ (١٩٥١ م) ، عدد ٢ ، ص ٢١٥ .

(٢) حسن ، فنون ، ص ١٥٢ .

(٣) ابن جبير ، ص ٢٠٤

القبلي ، من غير ان يظهر بينهما انفصال . " وحسن هذا الجامع اكثر من ان يوصف . " (١)

واشتهر العصر السلجوقي ببناء المدارس واشهرها المدرسة النظامية ببغداد ، التي استغرق بناؤها حوالي ثلاث سنوات واكتملت في ذي القعدة سنة ٤٥٩ هـ . (٢) وقد وصف ابن جبير بعض مدارس العصر السلجوقي وصفا عاما لا يعطي تفاصيل توضح طراز البناء وشكله ، لكنه وصف يدل على غاية الاعجاب والدهشة . (٣) وينبغي ان نشير الى الايوانات التي كانت أحد عناصر بيوت السكن ، ثم أدخلت في بناء المدارس خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ، وبعد ذلك ادخل الايوان الى بناء المساجد والخانات . وقد انتقلت فكرة البناء ذي الايوانات المربعة من ايران الى انحاء العالم الاسلامي الاخرى ، وكونت فصلا رائعا من تاريخ فن العمارة في العراق والشام . (٤)

٢ — النحت على الحجر والجص :

على اثر فتح السلاجقة للعراق والشام تطورت الزخرفة النحتية في هذين الاقليمين تطورا كبيرا . ولم يزد هذا الفن في العصر العباسي السابق عن ضرب من الزخارف المجردة ، بيد ان العصر السلجوقي شهد انتشار نحت الاشكال الادمية واشكال الحيوانات : (٥)

(١) المصدر والصفحة ذاتهما .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٤٩ و ٥٥ .

(٣) ابن جبير ، ص ١٨٣ و ٢٠٤ و ٢٣١ .

(٤) Richard Ettinghausen, " Interaction and Integration In Islamic Art, " Unity and Variety in Muslim Civilization, Ed. E. Von Grunehaum (Chicago; Univ. of Chicago Press, 1955), pp. 116-117.

(٥) م . س . ديمانز ، الفنون الاسلامية ، ترجمة محمد احمد عيسى (القاهرة : دار

المعارف ، د . د . ت) ، ص ٩٩ .

ويؤيد ذلك ما روى عن أحد الجصاصين الاتقياء ، وهو الشيخ أحمد العلشي (ت ٥٠٣ هـ) ، الذي دخل مرة مع الصانع الى بعض دور السلاطين وهو مكره ، وكانت فيها صور مجسمة ، فلما اختلى بها كسرهما . (١) وقد كانت اشكال الحيوانات المجسمة من الكثرة لدرجة انها كانت تباع في الاسواق ايام الاعياد ليلعب بها الاطفال ، وقد استنكر الغزالي ذلك ودعا الى كسرها (٢)

ويوجد على واجهة جامع آمد نقش بديع يرجع تاريخه الى سنة ٤٨٤ هـ ، عهد السلطان ملكشاه بن البارسلان ، يتمثل في اشربة منقوشة بالخط الكوفي ، ذي الاحرف الرشيقة المحلاة بالاوراق ، والتي يتشابه بعضها مع بعض فوق ارضية موزقة دقيقة متناسقة . وكثيرا ما اقترنت النقوش المكتشفة في أحد باشكال الحيوانات والطيور . (٣)

وتوجد في متحف القصر العباسي ببغداد بعض قطع مأخوذة من الجامع النوري في الموصل ، منها افريز رخامي ، منزل بالرخام الاسود ، كتب عليه : " ... قدير . ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وانه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون . ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره . " (٤) كما توجد جبهة من الجبس مكونة من ثلاث وحدات مزينة بكتابات بالخط الكوفي ، تتعانق مع زخارف أخرى من روائع الفن والجمال الأخاذ ، كتب في الوحدة الوسطى منها : محمد ابو بكر عمر عثمان علي الحسن الحسين رضوان الله عليهم اجمعين . " (٥)

(١) ابن ابي يعلى ، ج ٢ ، ص ٢٥٥ ، ابن رجب ، مجلد ١ ، ص ١٣٠ .

(٢) الغزالي ، الاحياء ، ج ٢ ، ص ٢٦٦ .

(٣) ديمان ، ص ١٠٠ .

(٤) فرنسيس والنقشبندی " المعاريب القديمة " ، ص ٢١٥ .

(٥) المصدر والغنجة ذاتهما .

ومن آثار الزخارف الجصية الهامة في الموصل تلك التي وجدت في داخل قصر بدر الدين لوؤو* ، وضريح الامام يحيى وضريح الامام عون الدين . وتبين من الزخارف الجصية التي بداخل القصور وجود عناصر طريقة* من بينها صور اشخاص وطيور مما شاع كثيرا في فن الموصل . . (١) وتشابه اشكال الطيور مع الزخرف النباتي تشابها كبيرا حتى تصبح جزءا مكمل له وتظهر ارضية شريط من الاشرطة الكتابية مكسوة بتفريعات نباتية تنتهي برووس حيوانات مفترسة ، وشاهد فن التوريق السلجوقي في عمار اسلامية اخرى في الموصل وسنجار ، وفي بعض الكنائس المسيحية ووجود اشكال رووس الحيوانات المفترسة يشير ، على الأرجح ، الى ان اصلها من اواسط اسيا ، كما يمكن ان يستنتج من تشابه الزخارف في المباني الاسلامية والمسيحية ان النحاتين المستخدمين في عملها كانوا مسيحيين . وقد انتقل اسلوب النحت السلجوقي هذا الى معظم انحاء العراق وسوريا . (٢)

وتتميز زخارف الجص في قصور السلاجقة بشده بروزها ، وبكثرة ما فيها من الرسوم التي تمثل مناظر الصيد ، والاستقبال والطرب . وشمة زخارف سلجوقية رائعة نجدها في لوحات جصية ثلاث ، بها رسوم آدمية في اوضاع مختلفة . واكبر هذه اللوحات موجودة ضمن مجموعة Stora ، اما الثانية فيضمها متحف الفنون في بنسلفانيا ، بينما توجد الثالثة في متحف الفنون الجميلة بمدينة بوسطن . ورغم ان هذه الرسوم الآدمية لا تتسم بالدقة والابداع فان لها طابعا زخرفيا جميلا . (٣)

ونجد في بقايا باب الطلسم ببغداد نقشا زخرفيا ، يحمل اسم الخليفة العباسي الناصر لدين الله . ويظهر على عقد ذلك الباب نقش زخرفي بارز يعمد من احسن النماذج المعروفة لفن النحت السلجوقي . ويمثل هذا النقش الخليفة وهو

(١) ديماند ، ص ١٠١ .

(٢) المصدر والصفحة ذاتهما

(٣) حسن ، فنون ، ص ٦٣٤ .

جالس ، وبازائه ، عن يمين وشمال ، تنهتان انعقد جسم كل منهما . وتبدو الارضية
مكسوة بزخارف التوريق الدقيقة التي تشبه الدنتيلا . (١)

وبعد ثنا ناصر خسرو عن كثرة ماشاهده من الرخام فى الرملة ، حيث رأى الوانها
وانواعا من الرخام الطمع ، منه الابيض والاسود والاحمر والاخضر ، ومن جميع الالوان .
وقد لاحظ ان كثيرا من العماير والبيوت كانت مزينة بالرخام المحلى بالنقوش والزخارف
الكثيرة . وكان الصناع يقطعون الرخام بمشار خاص ، يحركونه فى اتجاه مواز لطول
العمود الرخامي لالعرضه وبذلك يحصلون منه على الواح كالواح الخشب . (٢)

ولدينا وصف مفصل لاثر من اثار فن النقش الرخامي وزخرفته ، فى سنة ٥٢٦ هـ
وجه الخليفة الناصر لدين الله عنايته لتحسين مبنى البيت الحرام فى مكة . وبعد ذلك
بخمسة سنوات شاهد الرحالة ابن جبير ما انجزه الصناع الذين بعث بهم الخليفة الناصر
فوجد ان " دور الجدار رخام كله مجزع بديع الالتصاق . . وفى ارتفاع هذا الحجر الرخامي
خمسة اشبار ونصف ، وسعته اربعة اشبار ونصف . وداخل الحجر بلاط واسع ينعطف عليه
الحجر كانه ثلثا دائرة . وهو مفروش بالرخام المجزع المقطع ، فى دور الكف الى دور الدينار
الى ما فوق ذلك ، ثم الصق بانتظام بديع . . رائع الترصيع والتجزيع . . . يبصر الناظر
فيه من التعاريج والتقاطيع والخواتم والاشكال الشطرنجية وسواها ، على اختلاف انواعها
. . . ما يقيد بصره حسنا ، فكانه يجليه فى ازهار مفروشة مختلفات الالوان الى محاريب قد
انعطف عليها الرخام انعطاف القسي ، وداخلها هذه الاشكال الموصوفة . . .
وبازائها رخامتان متصلتان بجدار الحجر المقابل للميزاب ، احدث الصانع فيها من التوريق
الدقيق والتشجير والتقضييب ما لا يحدسه الصنع باليدين فى الكافد قطعا بالجلمين (٣)

(١) ديماند ، ص ١٠١ - ١٠٢ .

(٢) ناصر خسرو ، ص ١٩ .

(٣) ابن جبير ، ص ٥٧ - ٥٨ ، والجلمين : المقص ، مثقن جلم ، اى الشفرة الواحدة .

وفي قبالة الميزاب ، في منتصف الجدار الرخامي رخامة محلاة بنقوش
بديعة ، تحف بها طرة مزينة بنقش مكمل ، كتب به : " مما امر بعمله عبد الله وخليفته
ابو العباس احمد الناصر لدين الله . . . وذلك في سنة ست وسبعين وخمسمائة . . . " (٢)

الحفر على الخشب وزخرفته :

لا تظم المتاحف والمجموعات الفنية الكثير من التحف الخشبية التي ترجع إلى
العصر السلجوقي ، فهي مازالت فقيرة في هذا النوع من الآثار الفنية . (٢)
فإن لدينا بعضاً من هذه الآثار يمكن أن تعطينا فكرة عن مدى ما وصل إليه هذا الفن
وتضم دار الآثار العربية ببغداد بعضاً من هذه التحف الخشبية ، أحدها باب نقل من
جامع الإمام إبراهيم في الموصل ، ويعود تاريخ صنعه سنة ٤٩٨ هـ ، إن الباب نفسه يحمل
هذا التاريخ . وقد صنع هذا الباب من خشب التوت ، من مصراعين ، طول كل منهما ١٩٣ سم
وعرضه ٤٤ سم . أما زخرفته فمن خمس وحدات مفروكة مربعة الشكل يفصل الوسطى منها عن الأخرى
كفسيجيان عليهما كتابة ، " فتتألف من ذلك ثلاث حشوات كفسيجها كلها مكتوبة بالكتابة
النسخية البارزة ، وكذلك زوايا الباب الأربع ومنتصف العضاضتين الخارجيتين وأسفل —
العضاضتين الداخلتين . وثبت في حافة المصراع عارضة الباب ، وتزينها أربع عقد
زخرفية ، على أبعاد متساوية . (٣)

كما يوجد في دار الآثار العربية باب آخر جـ " به من الجامع الكبير في العمادية
بلواء الموصل يحمل تاريخ ٥٤٨ هـ . وينتهي أعلى هذا الباب " بتفقيصة ذات خمسة (نركات)
مقصوفة من أعلاها نجمة ذات ستة رؤوس ، ومن أسفلها تنفيخ ينتهي بزوايا مدببة ، ومجموع

(١) المصدر نفسه ، ص ٥٨ .

(٢) حسن ، فنون ، ص ٤٧٨ .

(٣) بشير فرنسيس وناصر النقشبندی ، " الآثار الخشبية في دار الآثار العربية ، "

سومر ، مجلده (١٩٤٩ م) : عدد ١ ص ٦١ .

سطحها مزخرف كله بالزخرفة العميقة . والكفسيح الأعلى والأسفل للتفصيصة مزخرفة بوحداث متكررة قدامها زهرة الزنبق وخطوطها الخارجية بهيئة حدوة الفرس . ويزين الكفسيح الأوسط فرع نباتي متموج يملأ جميع الفراغات . (١) وهناك باب جامع النبي جرجيس ، الذي يعود الى أواخر القرن السادس الهجري ، وتزين سطوح أجزائه زخارف نباتية نافرة متداخلة ، متشابهة التشكيل ، دقيقة الصنعة رائعة الجمال ، مما يجعل ذلك الباب تحفة فنية بديعة . (٢)

ولعل في هذه الأمثلة ما يغنيننا عن إيراد وصف قطع أخرى ، وما يمكن القارىء من تصور مدى ما بلغه هذا الفن من رقي

زخرفة الخزف والفخار :

كان استيلاء السلاجقة على إيران من أهم الأحداث التي أثرت في تطور الفن الإسلامي ذلك أن سلاطين السلاجقة كانوا من أكبر رعاة الفنون . وقد اهتم الخزافون الذين استظلوا برعاية السلاجقة بأروع أنواع المصنوعات الخزفية . (٣) وقد كان طبيعياً أن تترك هذه النهضة في فن صناعة الخزف أثرها على هذه الصناعة في مناطق الأخرى من السلطنة السلجوقية .

وكانت مدينة الرقة ، على ما يبدو ، أهم مركز لصناعة الخزف في المنطقة العربية السلجوقية . ويمكن أرجاع بعض الآثار الخزفية المنسوبة الى هذه المدينة الى القرن الحادى عشر ، إلا أن أكثرها يرجع الى القرن الثاني عشر ، وربما الى الثالث عشر ، بدليل احتوائه

(١) . المصدر نفسه ، ص ٤٨ .

(٢) . المصدر نفسه ، ص ٦١ .

(٣) . ديمان ، ص ١٨١ .

على نماذج زخرفية من النمط الاتاكي السلجوقي في سوريا والعراق . (١) لذلك يمكن القول انه ازدهر تحت رعاية الاتاكة السلاجقة والامراء الايبيين في بلاد الجزيرة ، (٢)

وما يمتاز به خزف الرقة طلاؤه بلون قصديري شفاف ادى انطماره في باطن الارض قرونا طويلة الى اكتسابه لون قوس قزح نتيجة للتفاعلات الكيماوية (٣) . وتشتمل آثار الرقة الخزفية على نوع من الخزف ذي البريق المعدني ، من ضمنها اصناف متعددة من الابريق والمزهريات والسلطانيات والطاسات المختلفة الاحجام . واللون السائد الاستعمال هو البني الداكن ، وهولون ندر استعماله في المراكز الاخرى لصناعة الخزف وقد زينت اواني الرقة بالزخارف النباتية والكتابات النسخية او الكوفية ، كما تصادف فيها — احيانا رسوم طيور حورت تحويرا كبيرا ، وقد رسمت بالبريق المعدني فوق طلاء شفاف يميل الى الخضرة ، يزد من بهائه ما يضاف اليه من التلوين باللون الازرق الزهري في بعض الحالات (٤) ومن القطع النادرة من هذا النوع من الخزف بلاطات من القاشاني ، ذات شكل مربع ، تظهر في وسطها صور حيوانات محورة عن الطبيعة . (٥)

وكان هناك مركزتان لهذه الصناعة في مدينة الرصافة ، الواقعة على مقربة من الرقة ، شمال شرق سوريا . ويشبه خزف الرصافة خزف الرقة في زخارفه بشكل واضح .

(١) المصدر نفسه ، ص ١٩٥ .

(٢) حسن ، فنون ، ص ٣٠٨ .

(٣) المصدر والصفحة ذاتهما .

(٤) ديماندي ، ص ١٩٦ .

(٥) حسن ، فنون ، ص ٣٠٩ .

ويوجد من خزف الرصافة نوعان : اولهما مزخرف بالبريق المعدني وثانيهما مزخرف بالرسوم ويختلف اللون المستعمل في النوع الاول عن مثيله من خزف الرقة بأن لونه البني الداكن مائل الى الاحمرار ، او ارجواني . (١)

ويضم متحف هوللين بعض قطع البلاط القاشاني المصنوع في بلاد الجزيرة فـى القرنين العاشر والحادي عشر الميلادى ، يظهر في احداها رسم جواد يعدو على ارض تزينها فروع نباتية واوراق وازاهير ، من النمط المألوف في الخزف السلجوقي ذى البريق المعدني وتظهر في قطعتين اخريين رسوم مختلفة ، ان نرى رسماً لاسد وهو يثب ، على ارضية من الزخارف النباتية ، وفي القطعة الاخرى صورة طاووس ، اولعها صورة نعامة ، على ارضية مزخرفة بالفروع النباتية كذلك ، (٢) وفي متحف المتروبوليتان بنيويورك قدر من الخزف ذى البريق المعدني من منطقة الجزيرة ، يعود الى القرن الثاني عشر او الثالث عشر . وتبدو في هذا القدر مميزات الزخرفة ذات البريق المعدني من صناعة الرقة ، كاستعمال اللون البني . والزخرفة على هذا القدر عبارة عن رسوم كتابية بخط النسخ وفروع نباتية مع حلزونات رسمها الفنان بالبريق المعدني على طلاء شفاف مائل الى الخضرة (٣) . وهناك صحون وقدر وقطع خزفية اخرى لا يتسع المجال لذكرها ووصفها (٤) والامثلة التي ذكرناها كافية ضمن حدود بحثنا .

وتحتفظ متاحف بغداد ، وبعض المتاحف العالمية بقطع من الفخار غير المدهون الذى ازدهرت صناعته في العراق وبلاد الجزيرة في فترة ما بين القرنين الحادي عشر والثالث

(١) - ديماند ، ص ١٩٢ .

(٢) - زكي محمد حسن ، اطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الاسلامية (القاهرة : مطبوعات كلية

الاداب والعلوم ببغداد ١٩٥٦ م) ، ص ٢٤ و ٤١٣ .

(٣) - المصدر نفسه ، ص ٢٥ ، ٤١٣ .

(٤) - المصدر نفسه ، ص ٢٤ - ٢٧ .

عشر الميلادى . ويجمع هذا الفخار بين الزخارف المحفورة حفرا وتلك التي تصنع بواسطة قوالب خاصة ، أو التي تضاف الى سطح العجينة اللينة بصبها من قمع ، أو بتثبيتها باليد . (١)

ومن القطع العديدة المحفوظة في المتاحف يوجد اناء على شكل زير ، في متحف برلين . وقوام زخرفة هذا الاناء صور لحيوانات تخير من رقابها عصابة ، ورسوم جذوع يخرج منها قبل نهايتها العليا التواء ، ان الى اليمين وإلى اليسار ، ورسوم خطوط محببة وأخرى فيها تسهيم أو خطوط متقاربة ، ورسوم شرفات في أعلى بدنه . وواضح ان في زخرفة هذا الاناء كثير من العناصر المستمدة من الفن الساساني . (٢)

وتوجد في دار الآثار العربية ببغداد ، من ضمن قطع أخرى ، جرة من الفخار غير المدهون ، ذات زخارف بارزة تمثل فيها رسوم نباتية محورة عن الشكل الطبيعي . وترى فيها رسوم بارزة لوجوه بشرية ورؤوس حيوانات ، وقد ملئت الفجوات بين الاذان ، ووزعت عند الوسط بعض رؤوس الحيوانات . (٣)

وقد تطورت هذه الصناعة في القرنين الحادى عشر والثاني عشر للميلاد ، وأصبحت أكثر جودة وأكثر اتقاناً مما كانت عليه في القرن التاسع الميلادى . (٤)

التحف المعدنية:

في بداية العصر الاسلامي اعتمدت زخرفة التحف المعدنية على الاقتباس من الاساليب الساسانية . (٥) ومع ظهور الدولة السلجوقية ، بدأ عصر

(١) حسن ، أطلس ، ص ٤١١ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٤١٢ و ٢٠ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٤١٤ و ٢٣ — ٤١٣ .

(٤) ديمانند ، ص ١٨١ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ١٣٩ .

من العصور الزاهية في فن انتاج التحف المعدنية . وقد شهد هذا العصر ، على ايدي الفنانين مهتكرات في تزيين الاواني الذهبية والفضية والبرونزية باشكال وزخارف جديدة وقد خلفت ايدي (/ فناني العصر السلجوقي تحفا معدنية محلاة بالمينا ، اكثرها فخامة ورونقا صينية من البرونز ، محفوظة بمتحف انزبروك ، وهي محلاة بزخرفة من المينا ذات الالوان المتعددة . وتظهر فيها صور بشرية ، وصور ظيور وحيوانات محصورة ضمن جامات ، يفصل ما بينها صور راقصات واشجار نخيل . وتتضمن النقوش الكتابية التي تحملها هذه الصينية اسم ركن الدولة ، داود الارمني ، حاكم حصن كيفا ، (٥٠١ هـ / ١١٠٨ م - ٥٤٠ هـ / ١١٤٥ م) (١)

وكانت الاسرة الاتاركية الزنكية بالموصل من اعظم رعاة الفنون والصناعات في عصرها . وقد وفرت مناجم النحاس الغنية في خابور وارفانة المادة الاولى لصناعة التحف البرونزية والنحاسية في منطقة الجزيرة وسوريا (٢) . وقد فاقت الاساليب الفنية في الموصل الاساليب الايرانية رغم انها تأثرت بها (٣) .

ويحتفظ متحف انزبروك بطبق من النحاس المصقول ، صنع للامير داود بن سقمان بين سنتي ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م - ٥٣٨ هـ / ١١٤٤ م . وتظهر على هذا الطبق صورة فتاة راقصة تماثل حركتها وموقفها وخطوتها ما هو معروف في النماذج التي عملها فنانو الموصل ، والذي يهدف فيه اثر فن الرسم البيزنطي المعاصر لتلك الفترة (٤)

(١) - المصدر نفسه ، ص ١٤٣ .

(٢) - المصدر نفسه ، ص ١٥١ .

(٣) - حسن ، فنون ، ص ٥٤٠ .

(٤) - L. A. Mayer, " A Glass Bottle of the Atabak Zanki, " Iraq, VI (1939), pp. 101 - 103.

وما يحتفظ به متحف الفنون الجميلة بمدينة بوستن صينية من الفضة ذات زخارف محفورة صنعت للسلطان البارسلان ، ثاني سلاطين السلاجقة ، وذلك سنة ٤٥٩ هـ / ١٠٦٦ م . وزخرفة هذه الصينية عبارة عن شريطين كتابيين بخط كوفي موزق جميل فوق أرضية من الزخارف النباتية الدقيقة ونص الكتابة المدونة في السطر الأول ، في وسط الصينية : " السلطان عند الدين " أما الشريط الثاني فموضعه على حافتها ، وقد تضمن هذه العبارة : " تقديمًا للحضرة الاجل السلطان المعظم البارسلان ادام الله ملكه ، وموت به ملكة الزمان ، قبله اهل العصمة . صنعة حسن القاشانسي في تسع وخمسين واربعمائة . " اما بقية الزخرفة التي تزين هذه التحفة فان من بينها طائرين متقابلين فوق مهاد من الزخرف النباتي الدقيق ، كما يظهر عليها حيوانان مجنحان ، على مهاد مماثل للذي عليه الطائران (١) .

ومن التحف الفنية الفريدة التي انتجتها مدرسة الموصل ابريق نحاسي اصفر يحتفظ به المتحف البريطاني ، وهو يمثل غاية ما وصلت اليه مدرسة الموصل من تقدم في صناعة التكتيت ، ذلك ان كل بوصة من سطحه كفتت بالفضة ، كما كست يد الفنان ارضيته بزخارف ذات اشكال متعرجة ، كانت من الموضوعات التي اغرم بها صانعوا التحف المعدنية الموصلية . وقد عمل هذا الابريق فنان يدعى شجاع بن منعة الموصلية ، سنة ٦٢٩ هـ / ١٢٣٢ م (٢) .

هذا ويوجد في كثير من المتاحف عدد كبير من التحف المعدنية التي ابدعتها ايدي فناني العصر السلجوقي ، تنطق كلها بذوق رفيع وفن بديع . وهي تختلف بين اباريق ذات اشكال متنوعة ، وبماخر واوان وصوان وشمعدانات وعلب واقراط ذهبية . (٣)

زخرفة المنسوجات :

اهلت مع بداية العصر السلجوقي نهضة شاملة في صناعة النسيج ، وذلك بتأثير الاساليب الفنية التي جاءت مع السلاجقة من آسيا الوسطى واطراف الفين ، والتي تتميز

(١) حسن ، اطللس ، ص ١٥٠ و ٤٥٦ .

(٢) ديمانده ، ص ١٥٢ .

(٣) حسن ، اطللس ، ص ١٥٠ - ١٥٩ و ٤٥٦ - ٤٥٨ .

بدقة رسومها النباتية والحيوانية • وشدة عامل آخر ساهم في قيام هذه النهضة ، وهو الاساليب الفنية التي ازدهرت في بلاد الجزيرة ، حيث استخدمت الفروع النباتية والاشربة بدلا من موضوعات الزخرفة الساسانية • (١)

وقد احتفظت صناعة النسيج في بلاد الجزيرة ، ابان العصر السلجوقي ، بالنهضة التي كانت عرفتھا اثناء القرن الرابع ومداية القرن الخامس الهجرى • وكانت منسوجات الجزيرة لا تختلف اختلافا ذا بال عما عرفتھا ايران في ذلك العصر ، اذ تحررت زخارفها من الجفاف والعنف اللذين عرفت بهما الاساليب الفنية الساسانية • وقد تميزت بالجمال الزخرفي الذي يتجلى في تناسق الرسوم واستخدام الزخارف الكتابية • (٢) وامتزجت فيها التعبيرات النباتية ذات الاصل الاسلامي بتفريعات السيقان والمراوح النخيلية وتضاءلت آثار الاسلوب الساساني تدريجيا • (٣) وفي الامكان تقسيم النسيج السلجوقي الى عدة مجموعات ، وهو تقسيم مرتبط بتطورها مع مضى الزمن • فانماج القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) وثيق الصلة بالاسلوب الايراني الذي ساد بين القرنين الثامن والعاشر للميلاد (الثاني والرابع للهجرة) • بيد ان رسوم وزخارف المنسوجات السلجوقية تطورت حتى غدت ذات اسلوب سلجوقي خالص ، يمتاز بروعة الاشكال ورشاقتها وسلاسة خطوطها • (٤)

وتتضح هذه المميزات في القطع الحريرية التي يحتفظ بها متحف المتروبوليتان ، وهي مزينة برسوم حيوانات وزخارف نباتية استعمل فيها اللونان البني والبرتقالي ، كما تتجلى هذه المميزات في كثير من القطع التي تتوزعها المجموعات الاميركية والاوربية والتي يعود اكثرها الى القرن السادس الهجرى (الثاني عشر الميلادى) بينما يعود بعضها الى القرن الذي يليه • (٥)

وتحتفظ كاتدرائية ليون باسبانيا بقطعة من النسيج الحريري صنعت في بغداد في القرن العاشر او الحادى عشر (الرابع او الخامس للهجرة) • وزخارف تلك القطعة عبارة عن دوائر كبيرة بداخلها رسوم لفيلة متقابلة ، تعلوها اسود متدائرة ، وفوق الاسود عدد من الطيور • وتظهر فيما

(١) حسن ، فنون ، ص ٣٧٤ •

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٧٤ - ٣٧٦ •

(٣) ديمان ، ص ٢٦٢ •

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٦٢ •

(٥) المصدر نفسه ، ص ٢٦٢ - ٢٦٣ •

بين الدوائر رسوم الطيور واوراق نباتية وانصاف مراوح نخيلية • وتتكون الدوائر من شريط عليه كتابة بخط كوفي ، نقرا فيها : " مما عمل ببغداد " و " ابو نصر " و " البركة من الله " (١) ويظهر في زخرفة هذه القطعة اثر الاسلوب الايراني ، وقد رجح الاستاذ ديماند انها من انتاج القرن الخامس الهجري (الحادى عشر الميلادى) • (٢)

ويحتفظ متحف المتروبوليتان بقطعة من نسيج حريرى يرجح انها صنعت فى سوريا اوائل القرن الثالث عشر الميلادى (السابع الهجرى) ، وقد استعمل فى رسم زخارفها لون برتقالي على مهد اخضر • وتمثل الزخارف ازواجا من الطيور والعقبان داخل تجاويف اشربة منعرجة • وتفصل بين العقبان والطيور اشجار نخيل من النوع المألوف فى منسوجات ايران فى العصر السلجوقي (٣) •

وقد وصف لنا ابن جبير جمال زخرفة المنسوجات التى صنعت منها سرادقات امير الحج العراقي ومضاربه ذات القباب والممرات والد هاليز • وقد ذكر ان تلك الانسجة كانت من الكتان ، مزخرفة باللونين الابيض والاسود ، " ملونة كانها ازاهير الرياض " ، وقد جللت صفحات ذلك السرداق من جوانبه الاربعة كلها اشكال درقية من ذلك السواد المنزل فى البياض ، يستشعر الناظر اليها مهابة ... (٤)

اما كسوة الكعبة التى جاءت من بغداد فكانت من سندس اخضر ، مزينة فى الجزء العلوى منها برسم احمر ، ومحلة بكتابات تتضمن البسملة وآية قرانية ، واسم الخليفة متبوعا ببعض الادعية له ، وتحف بذلك " طرتان حمراوان ، بدوائر صفار ببيض ، فيها رسم بخط رقيق ، يتضمن آيات من القرآن وذكر الخليفة • • • كانها عروس جللت فى السندس الاخضر ... " (٥)

(١) حسن ، اطلس ، ص ١٩٠ و ٤٧٠ •

(٢) ديماند ، ص ٢٦٣ •

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٥٩ •

(٤) ابن جبير ، ص ١٣٧ •

(٥) المصدر نفسه ، ص ١٤١ •

الخط العربي وزخرفته :

اتاحت حروف الابدادية العربية للفنانين نوافذ رحيمة لاجراء نتائج مواهبهم الفنية عن طريق الاستفادة من انحناءات الحروف وامتداداتها الراسية والافقية وزواياها . (١) وقد تركز هذا الفن في بداية الامر على الخط الكوفي الذي تطور دقة ورشاقة وجمالا وزخرفة الى ان بلغ ذروة تالفة في القرن الخامس الهجري (الحادى عشر الميلادى) . ومنذ القرن السادس الهجرى بدأ الخطاطون فى الانصراف عن كتابة المصاحف بالخط الكوفي ، الذى يتسم بالصرامة والاشكال الهندسية وكتبوها بخطوط اكثر ليانا وسلاسة ، كالنسخي والثلث وغيرها من ضروب الخط المعروفة . وقد اعتنى الخطاطون بتجويد كتابة دواوين الشعر ، بجانب عنايتهم بالقرآن ، بطبيعة الحال . (٢)

وتقدم المخلفات الاتية للباحثين نماذج رائعة من كتابة الخط العربي الذى ابتدع منه الفنانون آيات جمالية اخاذة ، ونحتوها فى الرخام والجبس ، وحفروها فى الخشب والمعادن ، واحاطوها بالتهريقات والزخارف النباتية والهندسية ، وانهموا رؤوس الاحرف — كما فى بعض الحالات باوراق او صور حيوانات او اشكال اخرى توحى كلها بذوق فني رفيع (٣)

وقد حفظت لنا كتب التراجم اسما عدد كبير من الرجال ، وعدد اقل من النساء الذين تخصصوا فى كتابة الخط بأسلوب فني جميل ، او كان الخط واحدا من تخصصاتهم المتعددة وقد ظهر عدد من الخطاطين الذين طبقت شهرتهم الافاق ، واصبحت اساليبهم تحتذى ويميز الحظ بها ، اى انهم كونوا مدارس فى هذا الفن . واشهر هؤلاء ابن مقله (ت ٣٢٨ هـ) وابن البواب (ت ٤١٣ هـ) وابن العميد (ت ٦٦٠ هـ) (٤) وليس ادل على مدى تقدير العرب لفن الخط من قول خطاط شاعر :

” ما اخترت الا اشرف الرتب خطا لخلد منه فى الكتب
والخط كالمرآة ننظرها فنرى محاسن صورة الادب

(١) غاستون فييت ، ” اصول الجمال فى الفن الاسلامي ” ، المشرق ٣٤ (١٩٢٦) ، ص ٤٩٢-٤٩٣

(٢) حسن ، فنون ، ١٥٦

(٣) فرنسيس والنقشبندى ، ” الاثار الخشب ” ص ٥٨-٦٠ ، و ” المحاريب القديمة ”

ص ٢١٥-٢١٩ ، وحسن ، اطلس ، ص ١٥٠ و ٤٥٦ .

(٤) انظر ابن خلكان ، مجلد ٣ ، ص ٢٨-٣٠ ومجلد ٤ ، ص ١٩٨-٢٠٢ .

ياقوت ، معجم الادباء ، مجلد ١٦ ، ص ١٦-١٧ .

مازلت انفق فيه من ذهب حتى جرى فكتبت بالذهب . " (١)

وعندما توفي الخطاط عمر بن الحسن ، سنة ٥٥٢ هـ كان من ضمن ما بيع في تركته آلة الكتابة . وقد زاد ثمن بيع آلة الكتابة على تسعمائة دينار امامية ، فقد بيعت الدواة وحدها بتسعمائة دينار ، بينما كان الباقي ثمن سكاكين واقلام ومراكر وغيرها . (٢)
وقد مر معنا ان فاطمة بنت الاقرع ، الخطاطة ، كتبت ورقة لعبيد الملك ابي نصر الكندري وزير طغرليك ، فاعطاها الف دينار . (٣)

(١) ياقوت ، معجم الادبا ، مجلد ١٦ ، ص ١٦-١٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٦٠ .

(٣) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٤٠ ، ياقوت ، معجم الادبا ، مجلد ١٦

ص ١٧٢ ، وانظر ما سبق ، ص ١٩٢ .



قدر من الخزف ذي البريق المعدني من انتاج مدينة الرقة في العهد السلجوقي
محفوظ بمتحف المتروبوليتان. (١)

(١) حسن ، أطلس ، ص ٢٥ و ٤١٣ .



سلطانيتان من الخزف ذي البريق المعدني من انتاج مدينة الرقة
في القرن الثاني عشر او الثالث عشر للميلاد (السادس او السابع للهجرة) — (١)

(١) ديماندر ص ١٩٦ — ١٩٧.



جزء من اناء فخارى غير مدهون لآلى زخارف بارزة ، من انتاج العراق في العصر
السلجوقي ، محفوظ في متحف القصر العباسي ببغداد .^(١)

(١) حسن ، السير ، ص ٢٠ و ٤١٢ .



اناء فخارى غير مدهون ذو زخارف بارزة ، من انتاج العراق في العهد السلجوقي ،
محفوظ في متحف برلين . (١)

(١) حسن ، أطلس ، ص ٢٠ و ٤١١ .

الفصل السابع

محاولة

لتقويم الحضارة العربية

في العهد السلجوقي

تقويم الحضارة العربية في العهد السلجوقي

آن لنا بعد وصفاهم جوانب الحضارة ان نحاول ابداء رأى تقويمى ، واصدار الحكم فيما اذا كنا نعتبرها متقدمة ام متقهقرة .

واعتقد انه لا بد من وضوح معيار للتقويم حتى يصبح فى الامكان اصدار احكام عامة على حضارة هذه الفترة من تاريخ امتنا على اساسه . ولكي نصل الى هذا المعيار يلزم ان يكون مدلولي هذه الكلمة الاصطلاحية " الحضارة " واضحا فى اذهاننا . ولسنا نريد ان نتكلف استعراض آراء العلماء والباحثين فى تحديد مفهوماتهم المتعددة لمدلول هذه الكلمة ^(١) ، بل سنكتفى بعرض المفهوم الذى نتبناه ونعتقد به .

ان اولى خطوات الانسان فى طريق التحضر تتمثل فى تدرجه . نحو الانتقال من حالة الخضوع لمؤثرات البيئة الطبيعية الى حالة السيطرة على هذه البيئة وتسخيرها لمصلحته .

ويصاحب هذه الخطوة او يتلوها تدرج الانسان نحو الانتقال من حالة الخضوع للدوافع الحيوانية السليقية والتحرك تحت وطأتها ، الى حالة تنظيم هذه الدوافع وتوجيهها والسيطرة عليها ، بشكل يساعد على قيام نوع من التنظيم الاجتماعي والتنسيق بين نشاطات الافراد لاعطائها صفة التعاون والتكامل .

ومع تقدم الجماعة البشرية فى هذين المجالين وحصولها على رصيد من الخبرات والتجارب فى ميدان الحياة الاجتماعية ، وتوفر المطالب الحياتية الاساسية للفرد ، بجانب قدر من

(١) لقد قام الاستاذ قسطنطين زريق بدراسة من هذا القبيل ، ربما كانت اول دراسة من نوعها فى اللغة العربية ، فى حدود ما اعلم . انظر : قسطنطين زريق ، فى معركة الحضارة ، دراسة فى ماهية الحضارة واحوالها فى الواقع الحضارى (بيروت : دار العلم للملايين ١٩٦٤ م) ،

الاستقرار في ظل التنظيم الاجتماعي متاح للإنسان فرص للتأمل والتفكير ، في الكون والطبيعة وعلاقة الإنسان بهما ، وفي أسس العلاقات الإنسانية . ومن هنا تنشأ الفلسفات والقيم الأخلاقية والاجتماعية

ومقدار تقدم الإنسان في هذا المجال تتطور أساليب تعبيره عن احساسه بالالم واحساسه بالسعادة واحساسه بالجمال ، ومن هنا تنشأ الفنون بمختلف فروعها ، وتنشأ ضروب من القيم الجمالية وعندما تقوم الحضارة على النحو الذي ذكرنا ، فقد تستمر في النمو والتقدم وقد تقف وتتجمد عند حد تضعف عن تجاوزه ، وربما اقتحمت أرضها حضارة أخرى فتغلغلت . (١) في كيانها واذابتها وامتهنتها .

واهم العوامل المساعدة على استمرار نمو الحضارة وتقدمها ، في رأى الباحث الحالي ، هو الجهود الطوعية المشتركة المتعاونة في سبيل تحقيق التقدم والنمو ، هو قدرة الإنسان على السيطرة على نفسه ، وكبح جماح النوازع الحيوانية اللاعقلانية في داخله ، وقدرته على تنظيمها بشكل يتيح الفرصة لانطلاق طاقات أفراد الجماعة على نحو متناسق متكامل . والشروط الأساسية للوصول الى هذه الغاية هو توفير الحرية التي لا تستمر المشاركة الواعية والطوعية الا في ظلها .

وكما ان انتقال الإنسان من البدائية الى التحضر يكون — في احدى صوره — باتساع نطاق شعوره عن دائرته الذاتية الفردية ليشمل الجماعة التي يعيش بين ظهرانيها ويشاركها الحياة فان من عناصر التقدم والنمو الحضارى ومظاهره ان تستمر دائرة الشعور هذه في التوسع ، فلا تنحصر في دائرة الاسرة والاقارب والاصدقاء والحي والمدينة والشعب والامة ، بل تشمل البشر جميعا . (٢)

ومن خلال هذه العجالة نستطيع ان نوجز المعايير التي تقاس بها درجة نمو الحضارة وتقدمها بمايلي :

(١) ليس المقصود هنا هو الاقتحام او التغلغل العسكرى .

(٢) لقد استفدت في تكوين مفهومي للحضارة من كتاب الاستاذ زريق ، في معركة الحضارة ، بالدرجة الاولى ، كما استفدت من بعض الكتب الاخرى بدرجة اقل ، وسادج تلك الكتب في قائمة المصادر والمراجع . على ان هذه الاستفادة لم تكن مجرد نقل ، بل هي تقبيل طائفة من الآراء واستيعابها وتمثيلها . ولذلك لا ازمع ان هذه الصيغة تمثل رأى احد من الباحثين ، وان تضمنت عناصر منه ، قلت او كثرت .

- ١- مقدار الترابط والتعاون الحربيين افراد المجتمع في مساعيهم لتحقيق الاهداف والمصالح المشتركة ، وهذا يشمل النظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي .
- ٢- مدى نجاح الانسان في السيطرة على البيئة الطبيعية وتسخيرها لمصلحته ، وهذا يشمل المنجزات المادية من صناعية وانشائية وزراعية .
- ٣- المنجزات العقلية والفنية وما تنطوى عليه من قيم ومثل .
- ٤- موقف الحضارة من غيرها من الحضارات ، ومن هم خارج دائرتها من الجماعات البشرية وما اذا كان وديا او عدوانيا .
- ٥- مركز الحضارة ومستواها بالنسبة للحضارات السابقة واللاحقة والمعاصرة ، ومقدار تأثيرها بتلك الحضارات او ببعضها ، ومقدار ما قطعت في سبل التقدم التي عددناها ، بالنسبة لما قطعه غيرها .

نستطيع ان نوكد - في ضوء المعايير التي حددناها لتونا - ان الحضارة العربية في ظل الحكم السلجوقي كانت في حالة ضعف وتقهقر .

ذلك ان الترابط بين الافراد والجماعات والشعور بوجود الكيان الواحد ، والجهود المشتركة لتحقيق الاهداف العامة ، كانت كلها شبه معدومة في تلك الفترة . فمن ناحية المنتمين الى الطبقة الحاكمة نجد ان العلاقات بينهم علاقات صراع عنيف في سبيل تحقيق المطامع الفردية التي لم تعد المناصب والاموال . ولقد كان الصراع على اشد ، بين افراد الاسرة الواحدة ، بل وبين الاخوة ويتضح هذا الوضع بشكل جلي في تاريخ سلاطين السلاجقة وصراعاتهم ^(١) اما بالنسبة للخلافة فقد كان الصراع قليلا ، اذ لانسمع الا عن تمرد اخي الخليفة المسترشد وخروجه عليه ، الى ان تمكن الخليفة من اعتقاله . ^(٢) والارجح ان قلة الصراع هنا تعود الى ضعف الخلافة نفسها وعريتها - في معظم الفترة - من اية سلطات حقيقية ، وهيمنة السلاطين على شؤون الحكم والادارة - والاقتصاد جميعا .

(١) انظر الفصل المتعلق بالسلطنة ، ص ٣٩-٤٥ فيما سبق

(٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ١ ، ص ١٩٨ و ٤٠٤ - ٢٠٦ .

فاذا تفحصنا علاقات المحكومين بالحكام ، وفتشنا عن الروابط التي تشد بعضهم الى بعض وجدناها روابط قسرية قهرية ، فالخلافة لم تكن المؤسسة التي اقامها المجتمع ، بل كانت كيانا مفروضا من الخارج ، اعني من خارج الجماعة ، كيانا قام بالوراثة ، على اساس الحق الذي منحه الله لافراد الاسرة العباسية ، (١) دون ان يقوم اكثر الخلفاء بعمل ذي بال من واجبات الحكام .

اما السلطنة ، فهي الاخرى قوة قهرية مستبدة . جاءت من خارج المنطقة العربية وصحيح ان السلاجقة كانوا مسلمين ، وكان يمكن — على ضوء النظرة الاساسية للمعاصرين — ان لا يعتبروا غرباء ، وقد كان هذا هو الواقع في بعض الاوقات من العهد السلجوقي ، بيد انهم اعتبروا غرباء ، احيانا بسبب خشونتهم ، وما سببوه من تخريب واذى للناس ، (٢) لا يتفق مع المبادئ الدينية التي تعلن الاخوة بين المسلمين وتفرض — في الوقت نفسه — على الحكام ان يسهروا على راحة الرعية .

فاذا نزلنا الى عامة الناس نبحث عن شعورهم بالكيان الواحد فاننا لانعثر على مشعل هذا الشعور ، بل نجد — بدلا من ذلك — انقسام الناس الى فرق دينية ، وانقسام اهل الفرق الى مذاهب متعددة ، حيث يجعل اهل كل فرقة واهل كل مذهب انهم وحدهم اهل الحق الذين يرضى عنهم الله (٣)

ومن هنا كانت الفتن بين الاحناف من جهة والشافعية من جهة اخرى (٤) ، وبين الحنابلة من جهة والاشعرية والشافعية من جهة اخرى . (٥) ومن جراء هذه الاحقاد

(١) كان الخلفاء يعتبرون منصبهم ولاية من الله (انظر ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ص ١٨٢) وكان المعاصرون ينظرون الى الخلافة نظرة قداسة ، وقد استعمل الوزير ابن جهيز تعبير (مقدسة) ، انظر ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ص ٢٤٩ .

(٢) اشرفنا مرات كثيرة الى الاذى الذي كان يلحقه السلاجقة بالناس ، انظر ص ٦٤ و ٤٧٤ .

(٣) الفزالي ، فيصل التفرقة ، ص ١٢٥ ، ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ١ ، ص ١٠ .

(٤) ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ٢٢٢-٢٢٣ ، السبكي ، مجلد ٤ ، ص ٣٠٠ .

(٥) ابي ابي يعلى ، ج ٢ ، ص ٢٣٩ ، ابن الجوزي ، المنتظم ، ص ٣١١ ، مجلد ١ ، ص ٣-٤ .

ياقوت ، معجم الادباء ، مجلد ١٤ ، ص ١٧ ، مجلد ١٦ ، ص ٤٨ ، ابن خلكان ، مجلد ٢ ، ص ٣٧٧ .

السبكي ، مجلد ٤ ، ص ٣٤ و ٢٣٤-٢٣٦ ، ابن رجب ، مجلدا ، ص ٢٦-٢٨ و ٨٨ و ٨٨ .

— ٨٩ و ٢١١ .

الناجمة عن التعصب كانت المعارك تندلع بين السنة والشيعة ، وهي معارك دموية مدمرة لم تكن تخلو من حدوثها سنة من السنوات .^(١) وقد تعرض بقايا المعتزلة للاضطهاد المستمر على أيدي الحنابلة ، يظاهرونهم في ذلك أصحاب السلطة .^(٢) أما الباطنية ، أو الاسماعيلية ، قد برعوا في عمليات الاغتيال التي لا تنقطع أخبارها في الحوليات التاريخية .^(٣) وقد اتخذ الباطنية كل أرجاء السلطنة السلجوقية ميدانا لنشاطهم ، فأقاموا لهم قلاعاً في بلاد الشام^(٤) وخراسان .^(٥) وكانوا على درجة كبيرة من القوة . وقد روى أن رئيس دعائهم كان يجوب البلاد الشامية دون خوف .^(٦) وكان بعض المتنفذين من الوزراء يظاهرونهم .^(٧) وقد أنزل السنيون ، حكماً وعامة ، ضرباً من التشكيل بالباطنية ، بلغت درجة الاবাদ والاستئصال في بعض الأحيان .^(٨)

أما أهل الذمة فلا نكاح نجد في المصادر ما يشير إلى أنهم تعرضوا للتقتيل ، كما أنهم لم يتعرضوا لمثل الاضطهاد والعنف الذي تعرض له الشيعة ، بل أنهم لم يتعرضوا لما تعرض له الشافعية والاشاعرة على أيدي خصومهم الحنابلة . وقد توفر لهم مقدار من التسامح

(١) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ص ١٧٢ و ٢٣٩ — ٢٤٠ ، مجلد ٩ ، ص ٢٦ و ٢٣٨ و ٤٨ و ٧٧ ،

ومجلد ١٠ ، ص ٢٤٩ ، ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٤٥ و ١٥٧ و ٢٢٦ و ٢٦٩ — ٤٧٠ .

(٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٨ ، ص ٢٣٥ — ٢٣٧ و ٢٤٨ — ٢٤٩ ، مجلد ٩ ، ص ٢٠ .

ابن رجب ، مجلد ١ ، ص ٢٤ — ٢٥ و ١٣٢ و ١٧٤ — ١٧٥ .

(٣) ابن القلانسي ، ص ١٤٢ و ١٤٩ و ٢٣٠ ، ابن عساكر ، ج ٣ ، ص ٢٩٦ ، الذهبي ، مجلد ١ ،

ص ٥٧ .

(٤) اسامة ، ص ٧٨ — ٧٩ ، ابن جبير ، ص ٢٠٢ و ٢٠٦ و ٢٢٧ ، ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ٢٧٢ .

(٥) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ١٢٠ — ١٢٢ .

(٦) ابن القلانسي ، ص ٢١٥ ، ٢٢١ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ٢٢١ .

(٨) المصدر نفسه ، ص ١٩١ ، الكاتب الاصفهاني ، خريدة القصر ، مجلد ٢ ، ص ١٦٨ ،

ابن جبير ، ص ٢٠٢ و ٢٢٧ .

والحرية الدينية النسبية . (١) بيد انهم كانوا يتعرضون — من آونة لآخرى — لنوع من الاضطهاد وذلك حين كان يفرض عليهم اللباس الخاص ، او الغيار ، كما كان يعرف في ذلك العصر (٢) والظاهر انهم كانوا لا يعدمون الوسائل لدفع هذا الاذى ، او التخلص منه ان جل بهم ، وذلك عن طريق رشوة الحكام والمتنفذين . (٣)

وفي عن القول ان هذه الاضطهادات التي صيغت حياة الناس بطابعها ادت الى انقسام الامة الى جماعات تشعر كل منها بانها غريبة عن غيرها .

ولسنا نزعم ان شعور الفرد بوجود امة اسلامية — حسب مفهوم العصر — كان معدوماً لقد كان موجوداً ، الا انه كان ضعيفاً واهياً ، فلم يترك اثرًا يذكر ، في سلوك الناس ومواقفهم .

فاذا اردنا ان نبحث عن الانتاج العقلي لذلك العهد فاننا نجد عدداً ضئيلاً من المصنفات ، بيد ان النوع والمستوى هو المقياس وليست الكمية . ونظرة الى مقامات الحريرى ، التي احتفل بها المعاصرون احتفالاً كبيراً تظهر لنا اسرافاً في التزييق والتنسيق ، وخواءً في المحتوى ولعل بضعة اسطر من احدى رسائله تعطى القارى فكرة عن نوع الانتاج الذي كان يحظى بتقدير اهل الادب في ذلك العصر . " بارشاد المنشى ، انشى " شغفى بالشيخ شمس الشعراء ريش (٤) معاشه وفشارياته (٥) ، واشرق شهابه ، واعشو شبت شعابه ، يشاكل شغف المنتشى بالشوى (٦) ، والمرتشى بالرشوى ، والشادن (٧) بشرخ الشباب ، والعطشان الى شيم (٨) الشراب ، وشكرى لتجشسه ومشقته ، وشواهد شفقته يشاكل شكر الناشد (٩)

(١) انظر ما سبق ، ص ١٩٤ — ٢٠٠ .

(٢) انظر ما سبق ، ص ١٩٩ .

(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، مجلد ٩ ، ص ٢٢٨ .

(٤) ريش : قوى وزاد .

(٥) الرياش : اللباس الفاخر ، والمقصود طلب الزيادة في النعيم للمدعوله .

(٦) المنتشى : السكران ، والنشوى : السكر .

(٧) الذى بلغ سن النضج .

(٨) الشيم : البرد .

(٩) الناشد : الطالب .

للمنشد (١) ، والمسترشد للمرشد ، والمتشعر للمبشر ، والمستجيش للجيش المشمر ، (٢) فالذى اجهد الحريرى نفسه في اظهاره ، في هذه الرسالة التى عرضنا سطورا منها هو قدرته على ان يكتب قطعه نثرية تتضمن كل كلمة من كلماتها حرف الشين .

ومما يدل على كلف الناس بهذا اللون من النثر وشيوعه ما ذكره ابن جبير عن موعظة لابن الجوزى ، قدم لها مقروء ، بآيات من القرآن كان آخر كلماتها كلمة " الناس " فكانت عظة ابن الجوزى تنتهي كل فقرة من فقراتها بحرف السين . (٣) وقد استعمل الكاتب الاصفهاني النثر المسجوع في كتابه التاريخ (٤) . بيد ان اكثر مؤرخي العصر ، كابن القلائس وابن عساكر وابي شجاع وابن الجوزى استعملوا في كتاباتهم النثر المرسل .

والفكر الذى خرج على معاصريه بجديد هو الامام الغزالي الذى كتب ما زجا قوة الفكر وسلاسته وروحانية التصوف وعاطفته . وقد بين عدم قبوله بالايمان الهوائى ، (٥) واستنكر غلو معاصريه الذين كفرو بعضهم بعضا . (٦)

ولكننا نأخذ على الامام الغزالي موقفه من العقل وكتاباته عن علوم الباطن وعلوم الظاهر ، ودعوته الناس الى طريق التصوف .

لم يبدع هذا العصر — اذن — قيما جديدة ، كما انه لم يستطع ، او لم يحاول ، بعث القيم المجردة ، والمطوية في زوايا النسيان ، فظلت حالة الخمول والركود والغفلة كما كانت فسى السابق ، وفشلت كل الهزات في ايقاظ النيام من سباتهم الذى طال ليلة . ودلا من التحرك والتفكير شدد اهل العلم على ضرورة التمسك بالنصوص التى ورثوها عن اسلافهم ، واستنكروا اية

(١) المنشد : المعطي .

(٢) القاسم بن علي الحريرى البصرى ، شرح مقامات الحريرى (بيروت . دار التراث ، ١٩٦٨م) ، ص ٦٠٧ — ٦٠٨ . لم يذكر اسم الشارع ، والشرح كلها فى الحواشي . وقد نقلنا تفسير الكلمات الغريبة من الصفحتين ذاتهما .

(٣) ابن جبير ، ص ١٧٢ — ١٧٨ .

(٤) وذلك فى كتاب : تواريخ ال سلجوق ، الذى اختصره البندارى .

(٥) الغزالي ، المنقذ ، ص ٧٥ — ٧٦ .

(٦) الغزالي ، فيصل التفرقة ، ص ١٣١ — ١٣٣ ، ١٧٥ .

الغزالي ، الاحياء ، ج ١ ، ص ١٨ — ١٩ .

محاولة للخروج على هذا النهج . اما الشرور والمصائب التي اعتورت الناس والبلاد ، فكان من السهل تفسيرها بانها غضب من الله ، نظرا لانحراف الكثيرين عن التقيد بالاخلاق الدينية .

اما في ميدان الانتاج الفني فيقال ان قيام الدولة السلجوقية اثر في الفنون واعطاها طابعا جديدا مميذا ، (١)

وقد ظهرت مدرسة التصوير العراقية في القرن الثالث عشر الميلادي (٢) (السابع الهجري) ، اي بعد انقضاء العهد السلجوقي ، غير ان من المرجح ان بذورها قد نمت في العصر السلجوقي ، اذ من غير المعقول ان تظهر هذه النهضة مستوية على سوقها فجأة ، ودون مقدمات غير اننا لانستطيع الحديث عن مدى ما احرزه فنانون العهد السلجوقي في خلق الرسم والتصوير بالرغم من ان لدينا دليل على وجود رسم وتصوير وصناعة تماثيل في ذلك العصر . (٣)

اما في حقل المنجزات المادية والصناعية فقد شهد هذا العصر جهودا لاصلاح الاحوال الزراعية عن طريق العناية بالانهار وتشجيع الفلاحين على استصلاح الارض الموات ، (٤) واكراههم احيانا على البقاء في الارض ، تحت وطأة ضرائب قاسية ، على ما يبدو . (٥)

كذلك نقرأ عن بناء عدد من المستشفيات ، وخزانات المياه على الطرق الرئيسية ولعل اهم انجاز في هذا الميدان هو الاكثار من بناء المدارس العالية ، التي تميز بها هذا العصر عما سبقه . (٦) وهناك مثل يتيم ، منقطع ، لكنه يستحق التنويه ، وهو ان الخليفة علم بوجرود جماعة من الفقراء يسكنون كوخات حقيرة في احدى نواحي بغداد ، فأمر بأن تبني لهم دور يسكنونها ونقلهم اليها . (٧)

(١) ديمانند ، ص ٩٩ — ١٠٠ و ١٢٥ و ١٨١ و ١٩٥ و ١٩٨ ، حسن ، فنون ، ص ٨٦ .

(٢) ديمانند ، ص ٤١ — ٤٤ ، حسن ، فنون ، ص ١٧١ — ١٧٣ .

(٣) الغزالي ، الاحياء ، ج ٢ ، ص ٢٩٦ — ٢٩٧ .

(٤) انظر ما سبق ، ص ٢٣٠ .

(٥) انظر ما سبق ، ص ٢٣٠ .

(٦) انظر ما سبق ، ص ١٥٩ — ١٦١ .

(٧) ابن الجوزي ، المنتظم ، مجلد ١ ، ص ٣٠ .

يضاف الى هذا ان ولاية الموصل ، خاصة ، حققت ازدهارا اقتصاديا وصناعيا وعمرانيا وفنيا لم تكن قد شهدت من قبل . وقد تحدثنا عن ذلك في مواضعه . (١) وكذلك يمكن ان يقال ان حلب ودمشق تمتعتا بحكومة حازمة ساهرة على مصلحة البلاد والرعية في عهد نور الدين محمود .

وقد وقف زنكي ، ومن بعده ابنه نور الدين ، جل جهودهما على تحطيم الغزاة الذين اجتاحتوا المنطقة العربية ، ومذلوا جهودا طيبة في سبيل توحيد الشام وبلاد الجزيرة كل ذلك جدير بالتنويه .

ولقد مر معنا كثرة الخانات المقامة في الطرقات لنزول المسافرين ، كما اشرنا الى كثرة الرباطات للمتصوفة من الرجال والنساء . لقد كانت هذه الرباطات في نظر المعاصرين انجازا ايجابيا بناء ، اما في تقدير الباحث الحالي فانها تمثل عملا سلبيا ساعد على حياة الكسل والتعطل ، وحبس كثيرا من الاموال الموقوفة على المتعطلين ، وحرم الحياة العامة منها .

واعتقد ان قيمة هذه الانجازات المادية والصناعية والسياسية بالنسبة لتقويمنا للحضارة ، ليست بالكبيرة ، لانها منجزات اعتمدت على فرد ، يضبط الامور بالارهاب والشدة او بالاغراء ، او بهما معا ، فاذا زال ذلك الفرد تحطمت منجزاته وزالت ، الا اذا وات الصدفة وخلفه فرد آخر في مثل شخصيته وحزمه ومقدرته . اى ان هذه الانجازات لم تنشأ عن حركة عامة ونمو شامل في بنية الجماعة وتطور في عقليتها ونفسياتها .

فاذا ما حاولنا ان نوازن بين هذه الحضارة وما سبقها وما تلاها في حياة المنطقة التي ندرسها ، فان حكمنا ، لكي يكون علميا ودقيقا ، يجب ان يبنى على دراسة شاملة لكل من المهددين السابق واللاحق . وهذا امر متعذر في نطاق هذا البحث .

ولما كانت عملية التقويم تستلزم ابداء الراى في هذه النقطة المتعلقة بمكان الحضارة العربية في العهد السلجوقي من خط سير الحضارة العربية العام ، منذ قيامها حتى مطلع العصر الحديث ، فاننا سنحاول ابداء رايانا . وهو راي وان لم يكن ناتجا عن دراسة مفصلة

(١) انظر ما سبق ، ص ٢٣٣ و ٢٣٦ .

الا انه لم ينشأ من نضاء ، بل نشأ نتيجة لدراسة ومعلومات عامة . ولذلك فهو حكم تقريبي لا نجم بصحته ولا تنفي عنه احتفال الخطأ .

لقد شهد القرنان الثالث والرابع للهجرة استفحال التفكك السياسي والتمزق الاجتماعي والفكرى . وظل هذا الانهيار متواصلا ، وبقي الانحدار مستمرا حتى العهد العثماني ، بغض النظر عن بعض فترات الانتعاش القصيرة التي كانت تعتمد على جهود بعض الحكام الافراد الاقوياء وشخصياتهم ثم لا تلبث ان تنهار بزوالهم عن مسرح الاحداث . ومعنى ذلك ان العهد البويهي لا يختلف عن العهد السلجوقي في هذا الجانب من جوانب الحياة المتحضرة .

غير ان القرنين الثالث والرابع شهدا أروع الانجازات العقلية والادبية والفنية التي أنتجتها الحضارة العربية الاسلامية . وعلى هذا فان العصر البويهي يتفوق على العصر السلجوقي في هذه الناحية . بيد ان هذا التفوق لا يعود الى ان السلطة كانت بيد البويهيين لا بيد السلاجقة ، كما انه لم ينتج عن امكانات هذين القرنين السابقين بصفة أساسية . وعندى انه لو كان السلاجقة قد جاءوا الى بغداد سنة ٣٣٤ هـ بدلا من البويهيين لما تغيرت النتائج بالنسبة لهذه المنجزات الحضارية الرائعة .

ويبدو لي ان الانتاج المعجب الذي شهدته العهد البويهي ، وعهد سيطرة قادة الجيش العباسي كان ثمرة لفترة الاستقرار والازدهار السياسي والاقتصادي النسبي في القرنين الاول والثاني ، تلك الفترة التي تهيأت فيها الفرص لاحتكاك الشعوب بعضها ببعض في ظل السلام والهدوء ، فجرت عمليات الترجمة والنقل والاقتباس والتأثر التلقائي المتبادل ، ووجد الانسان فرصة للتأمل ، وفسحة يحاول فيها تحسين ما لديه ، ويوسع آفاقه . وقد ظلت هذه العوامل تتفاعل وتنمو بعد أن أحاطت بها الفوضى السياسية والاجتماعية حتى نضجت ثمارها وظهرت يانعة في القرنين الثالث والرابع .

وحيث ان ظروف القرنين الاول والثاني لم تتكرر ، ولم تحظ البلاد العربية بما يقارب ما نعمت به فيهما فان ثمارها التي ظهرت في القرنين الثالث والرابع لم تتكرر كذلك . وكانت كل الانتعاشات والمنجزات التالية ، تقريبا ، أضيق نطاقا وأقصر مدى وأقل عمقا .

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

أولاً: الاصول :

- ١- البعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب . تاريخ البعقوبي . مجلدان . بيروت : دار بيروت ودار صادر ، ١٩٦٠م .
- ٢- المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين . التنبيه والاشراف . بيروت : دار التراث ، ١٩٦٨م .
- ٣- ابن حوقل ، أبو القاسم محمد بن علي . كتاب صورة الارض . بيروت : دار مكتبة الحياة ، د . ت .
- ٤- المقدسي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد . أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم . بيروت : مكتبة خياط ، د . ت .
- ٥- مسكويه ، أحمد بن محمد . كتاب تجارب الامم . بعناية هـ . ف . آمدروز . الجزآن ٦٥ في مجلد واحد . القاهرة : ١٩١٤م .
- ٦- علوي ، ناصر خسرو . سفرنامه . تر . يحيى الخشاب . القاهرة : مطبوعات معهد اللغات الشرقية ، كلية الاداب ، جامعة فؤاد الاول ، ١٩٤٥م .
- ٧- الماوردي ، أبو الحسن علي بن محمد . الاحكام السلطانية والولايات الدينية . القاهرة : مكتبة الحلبي ، ١٩٦٦م .
- ٨- الفراء ، أبو يعلى محمد بن الحسين . الاحكام السلطانية . بعناية محمد حامد الفقي . القاهرة : مكتبة الحلبي ، ١٩٦٦م .
- ٩- القشيري ، أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن . الرسالة القشيرية . تحقيق عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف . القاهرة : دار الكتب الحديثة ، ١٩٦٦م .
- ١٠- الباخريزي ، أبو الحسن علي بن الحسن . دمية القصر وعصرة أهل العصر . بعناية محمد راغب الطباخ . حلب : ١٩٣٠م .

- ١١- الغزالي ، أبو حامد محمد بن محمد • فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة • تحقيق سليمان دنيا • القاهرة : دار احيا الكتب العربية ، ١٣٨١هـ / ١٩٦١م .
- ١٢- المنقذ من الضلال • بعناية عبد الحليم محمود • القاهرة : دار الكتب الحديثة ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م .
- ١٣- فضائح الباطنية • تحقيق عبد الرحمن بدوي • القاهرة : الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٣٨٣هـ / ١٩٦٤م .
- ١٤- احياء علوم الدين • ٤ أجزاء في مجلدين • القاهرة : مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح ، د . ت .
- ١٥- الهمداني ، محمد بن عبد الملك • تكملة تاريخ الطبري • نشر المجلد الاول فقط • تحقيق البرت يوسف كنعان • بيروت : ١٩٥٩م .
- ١٦- ابن أبي يعلى ، أبو الحسين محمد • طبقات الحنابلة • جزآن في مجلد واحد • بعناية حامد الفقي • القاهرة : ١٣٧١هـ / ١٩٥٢م .
- ١٧- الشهرستاني ، أبو الفتح محمد عبد الكريم بن أبي بكر أحمد • الملل والنحل • ٢ أجزاء في مجلد واحد • القاهرة : مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م .
- ١٨- ابن الفلانسى ، أبو يعلى حمزة • ذيل تاريخ دمشق • بيروت : مطبعة الاباء اليسوعيين ، ١٩٠٨م .
- ١٩- السمعاني ، عبد الكريم بن محمد بن منصور • الانساب • ٦ مجلدات • حيدرآباد ، الدكن : مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م .
- ٢٠- البيهقي ، ظهير الدين • تاريخ الحكماء • دمشق : ١٩٤٦م .

- ٢١- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن . التاريخ الكبير . اعتنى به وحذف أسانيد عبد القادر بدران . ٧ أجزاء في ٥ مجلدات . دمشق : مطبعة روضة الشام ، ١٣٢٩ هـ / ١٩١١ م — ١٣٣٢ هـ / ١٩١٣ م .
- ٢٢- ابن منقذ ، أسامة بن مرشد . كتاب الاعتبار . بعناية فيليب حتي . برنستون : مطبعة جامعة برنستون ، ١٩٣٠ م .
- ٢٣- ابن عبد الله ، الشيخ عبد الرحمن [الشيخزي ، عبد الرحمن بن نصر] . المنهج السلوك في سياسة الملوك . القاهرة : المطبعة الظاهرية ، ١٣٢٦ هـ / ١٩٠٨ م .
- ٢٤- كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة . تحقيق السيد الباز العريني . القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٦٥ هـ / ١٩٤٦ م .
- ٢٥- ابن الجوزي ، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي . المنتظم في تاريخ الملوك والأمم . نشرت منه ٦ مجلدات (٥ - ١٠) . حيدرآباد ، الدكن : مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ١٣٥٨ هـ / ١٩٣٩ م — ١٣٥٩ هـ / ١٩٤٠ م .
- ٢٦- الكاتب الاصفهاني ، عماد الدين محمد بن محمد . خريدة القصر وجريدة العصر . بعناية شكرى فيصل . ٣ أجزاء . دمشق : ١٩٥٥ - ١٩٥٩ م .
- ٢٧- تواريخ آل سلجوق ، وهو مشتمل على كتاب زبدة النصر ونخبة العصر . اختصره الشيخ علي بن محمد البنداري الاصفهاني ، وقام على نشره م . ث . هوتسما . ليدن : بريل ، ١٨٨٩ م .
- ٢٨- ابن جبير ، محمد بن أحمد . رحلة ابن جبير ، تذكرة بالآخبار عن اتفاقات الاسفار . بيروت : دار التراث ، ١٩٦٨ م .
- ٢٩- ياقوت الحموي الرومي . معجم الادباء . راجعته وزارة المعارف العمومية . ٢٠ مجلدا . القاهرة : دار المأمون ، د . ت .
- ٣٠- معجم البلدان . ٥ مجلدات . بيروت : دار بيروت ودار صادر ، ١٩٥٧ م .

- ٣١— ابن الاثير، عز الدين ابو الحسن علي . التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية .
تحقيق عبدالقادر أحمد طليمات . القاهرة : دار الكتب الحديثة ،
١٣٨٢هـ / ١٩٦٣م .
- ٣٢— الكامل في التاريخ . ١٣ مجلدا . بيروت : دار بيروت ودار
صادر ، ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م — ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م .
- ٣٣— ابن الطقطقي ، محمد بن علي بن طباطبا . كتاب الفخرى في الاداب السلطانية
والدول الاسلامية . القاهرة : شركة طبع الكتب العربية ، ١٨٩٩م .
- ٣٤— القفطي ، جمال الدين ابو الحسن علي . انباء الرواة على انباء النحاة .
٣ مجلدات . القاهرة : ١٩٥٠ — ١٩٥٢م .
- ٣٥— كتاب اخبار العلماء بأخبار الحكماء . بعناية محمد أمين الخانجي .
القاهرة : ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م .
- ٣٦— سبط بن الجوزي ، ابو محمد يوسف . مرآة الزمان في تاريخ الاعيان . نشر منه المجلد
الثامن فقط . حيدرآباد ، الدكن : مجلس دائرة المعارف العثمانية ،
وقد سقط تاريخ الطبع من النسخة التي استعملتها .
- ٣٧— ابن العديم ، كمال الدين عمر . بغية الطلب في تاريخ حلب . ٩ مجلدات .
مصورة عن نسخة بخط المؤلف محفوظة بمكتبة أحمد الثالث باستنبول ، تحت
رقم ٢٩٢٥ .
- ٣٨— زبدة الحلب من تاريخ حلب . تحقيق سامي الدهان . مجلدان .
دمشق : المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، ١٩٥١ — ١٩٥٤م .
- ٣٩— ابن أبي أصيبعة ، موفق الدين ابو العباس أحمد . عيون الانباء في طبقات الاطباء .
بيروت : دار مكتبة الحياة ، ١٩٦٥م .
- ٤٠— ابن السعدي ، تاج الدين ابو طالب علي بن أنجب . نساء الخلفاء المسمى جهات
الخلفاء من الحرائر والاماء . القاهرة : دار المعارف ، د . ت .

- ٤١— ابن خلكان ، أبو العباس أحمد بن محمد • وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان • تحقيق محيي الدين عبد الحميد • ٦ مجلدات • القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٩م •
- ٤٢— ابن شداد ، عز الدين محمد بن علي • الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة • تحقيق سامي الدهان • ٤ مجلدات (جزآن في ٤ أقسام) دمشق : ١٩٥٣ — ١٩٦٢م •
- ٤٣— ابن الفوطي ، كمال الدين عبد الرزاق • تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب • تحقيق مصطفى جواد • نشر منه المجلد ٤ في ٣ أقسام كل قسم في جلد واحد • دمشق : د. د. ت. •
- ٤٤— الأربلي ، عبد الرحمن سنيط قنيتو • خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك • بغداد : مكتبة المثنى ، د. د. ت. •
- ٤٥— الذهبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد • المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ أبي عبد الله ... ابن الدبيثي • تحقيق مصطفى جواد • نشر منه مجلد ١ فقط • بغداد : المجمع العلمي العراقي ١٩٥١م •
- ٤٦— السبكي ، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي • طبقات الشافعية الكبرى • تحقيق عبد الفتاح محمد الحلوم محمود الطناحي • نشر منه ٤ مجلدات • القاهرة : ١٣٨٣هـ / ١٩٦٤م — ١٣٨٥هـ / ١٩٦٦م •
- ٤٧— ابن أبي الوفاء ، أبو محمد عبد القادر • الجواهر المضية في طبقات الحنفية • جزآن في مجلد واحد • حيدرآباد ، الدكن : دائرة المعارف النظامية ، ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م •
- ٤٨— ابن رجب ، أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد • الذيل على طبقات الحنابلة • بعناية هنري لاووست وسامي الدهان • نشر منه المجلد الأول • دمشق : المعهد الفرنسي للدراسات العربية ١٩٥١م •
- ٤٩— ابن شاعر الكتبي ، أبو عبد الله محمد • فوات الوفيات • تحقيق محيي الدين عبد الحميد • مجلدان • القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ١٩٥١م •
- ٥٠— ابن قاضي شهبة ، بدر الدين أبو الفضل محمود • الكواكب الدرية في السيرة النورية ، وتسمى الدر الثمين في سيرة نور الدين • مصور بالميكرو فيلم عن نسخة خطية محفوظة بمكتبة سوهاج بمصر ، رقم ٢٦٢ تاريخ •

- ٥١- الشعراني ، ابو المواهب عبد الوهاب بن احمد . الطبقات الكبرى ، المسماة بـ
لوائح الانوار في طبقات الاخيار . جزآن في مجلد واحد . القاهرة : المطبعة
الشرفية ١٢٩٩ هـ / ١٨٨٢ م .
- ٥٢- ابن طولون ، محمد بن علي . قضاء دمشق ، الشجر البسام في ذكر من ولي الشام .
تحقيق صلاح الدين المنجد . دمشق : المجمع العلمي العربي ، ١٩٥٦ م .

- - -

ثانيا : المراجع الحديثة : ١ - الكتب

- ١- أمين ، حسين . تاريخ العراق في العصر السلجوقي . بغداد : المكتبة الاهلية ،
١٩٦٥ م .
- ٢- حسن ، زكي . فنون الاسلام . القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٨ م .
- ٣- أطلال الفنون الزخرفية والتصاوير الاسلامية . القاهرة : مطبوعات كلية الاداب
والعلوم ببغداد ، ١٩٥٦ م .
- ٤- حسنين ، عبد النعيم محمد . سلاجقة ايران والعراق . القاهرة : مكتبة
النهضة المصرية ، ١٩٥٩ م .
- ٥- الدورى ، عبد العزيز . دراسات في العصور العباسية المتأخرة . بغداد : شركة
الرابعة للطبع والنشر المحدودة ، ١٩٤٥ م .
- ٦- مقدمة في التاريخ الاقتصادى العربى . بيروت : دار الطليعة ، ١٩٦٩ م .
- ٧- ديمانند ، م . م . الفنون الاسلامية . تر : محمد عيسى . القاهرة :
دار المعارف ، د . ت .
- ٨- الديوه جى ، سعيد . الموصل في العهد الاتاكي . بغداد : ١٩٥٨ م .
- ٩- زريق ، قسطنطين . في معركة الحضارة ، دراسة في ماهية الحضارة وأحوالها وفسى
الواقع الحضارى . بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٦٤ م .
- ١٠- زيادة ، نقولا عبدو . الحسبة والمحتسب فى الاسلام . بيروت :
المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٦٣ م .

- ١١- زيدان، جرجي . تاريخ آداب اللغة العربية . ٤ مجلدات .
القاهرة : مطبعة الهلال، والمجلدات التي اعتمدنا عليها من طبعات مختلفة ،
مجلد ١ سقط تاريخ طبعه ، مجلد ٢ : ١٩٣٠ ، مجلد ٣ : ١٩١٣ ، ومجلد ٤ :
١٩١٤ .
- ١٢- غيب، هاملتون . دراسات في حضارة الاسلام . تر . احسان عباس وزملائه .
بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٦٤ م .
- ١٣- فهد ، بدرى محمد . العامة في بغداد في القرن الخامس الهجرى .
بغداد : ١٩٦٧ م .
- ١٤- متر ، آدم . الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى . تر . محمد
عبد الهادى ابوريدة . القاهرة : ١٩٤٠ م .

ب- المقالات

- ١- زريق ، قسطنطين . " التجارة الاسلامية وأثرها في الحضارة " ، المقتطف ،
مجلد ٨٧ (١٩٣٥م) ، ص ٥٤١ - ٥٤٨ .
- ٢- فارس ، نبيه أمين (المرحوم) . " حضارة العرب في القرن الثاني عشر " ،
البحاث ، مجلد ١٧ (١٩٦٤م) ، ص ٤٠٣ - ٤٤٧ .
- ٣- فرنسيس ، بشير ، والنقشبندى ، ناصر . " المحاريب القديمة في متحف
القصر العباسي " ، سومر ، مجلد ٧ (١٩٥١م) ، ص ٢١١ - ٢٢١ .
- ٤- _____ " الآثار الخشبية في دار الاثاق العربية " ، سومر ،
مجلد ٥ (١٩٤٩م) ، ص ٥٥ - ٦٤ .
- ٥- فيبيت ، غاستون . " أصول الجمال في الفن الاسلامي " ، المشرق ،
مجلد ٣٤ (١٩٣٦م) ، ص ٤٨١ - ٤٨٧ .

المراجع باللغة الانكليزية

١ - الكتب :

1. Atiya, Aziz S.
Crusade, Commerce and Culture.
Bloomington; Indiana University Press, 1962.
2. Freeman - Grenville, G.S.P.
The Muslim and Christian Calendars.
London: Oxford University Press, 1963.
3. Gibb, H.A.R.
Arabic Literature; and Introduction.
London: Oxford University Press, 1926.
4. Grunbaum, Gustave E. Von (ed.).
Unity and Variety in Muslim Civilization.
Chicago; the University of Chicago Press, 1955.
5. Hourani, George Fadlo.
Arab Seafaring in the Indian Ocean in
Ancient and Early Medieval Times.
Princeton: Princeton University Press, 1951.
6. Lane-People, Stanley.
The Mohammadan Dynasties.
Beirut: Khayats, 1966.
7. Lewis, Bernard.
The Arabs in History.
New York: 1960.
8. Runciman, Steven.
A History of the Crusades. 3 vols.
Cambridge: 1955.

9. Ziadeh, Nicola Abdo.

Urban Life in Syria Under the Early Mamluks.
Beirut: American Press 1953.

ب ـ المقالات :

1. Abdul Latif, Sayyed. "Islam and Social Change."
International Sociological Science Bulletin,
V (1953), pp. 691-697
2. Burckhardt, T. "The Spirit of Islamic Art".
Islamic Quarterly.
I. (1954), pp. 212-218.
3. Cahen, C.L. "Ahdath."
Encyclopedia of Islam, 1960.
4. Haskins, C.H. "Arabic Science in Western Europe."
Isis, VII (1925), pp. 478-485
5. Issawi, C. "The Arabs and Islamic Civilization."
Muslim World, XXXVIII (1948), pp. 172-184.
6. Lewis, Bernard, "The Islamic Guilds."
The Economic History Review, VIII
(1937), pp. 20-37.
7. Mayer, L.A. "A Glass Bottle of the Atabak Zanki,"
Iraq VI (1939), pp. 101-103.
8. Smith, H.B. "The Muslim Doctrine of Man,
Its Bearing on Social Policy and Political Theory."
Muslim World. XLIV (1954), pp. 202-214

9. Taeschner, F. "Ayyar," Encyclopedia of Islam, 1960.
"Futuwwa," E.I. 1965.
10. Thomson, W. "The conception of Human Destiny
in Islam," Muslim World, XXXV (1945), pp. 281-299.
11. Validuddin, Mir. "Islamic Culture."
Islamic Culture, XXXIII (1959), pp. 34-38.
12. Zurayk C.K. "The Essence of Arab Civilization,"
Middle East Journal. III (1949), pp. 125-139.